

وينيفرد بلاكمان

الناس فى صعيد مصر

ترجمة : أحمد محمود



وينيفريد بلاكمان

الناس فى صعيد مصر

العادات والتقاليد

ترجمة

أحمد محمود

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة ومصورة

٢٠٠٠



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : وائل أحمد محمود

الإخراج الداخلى : منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

– ٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم – رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P . C 12567

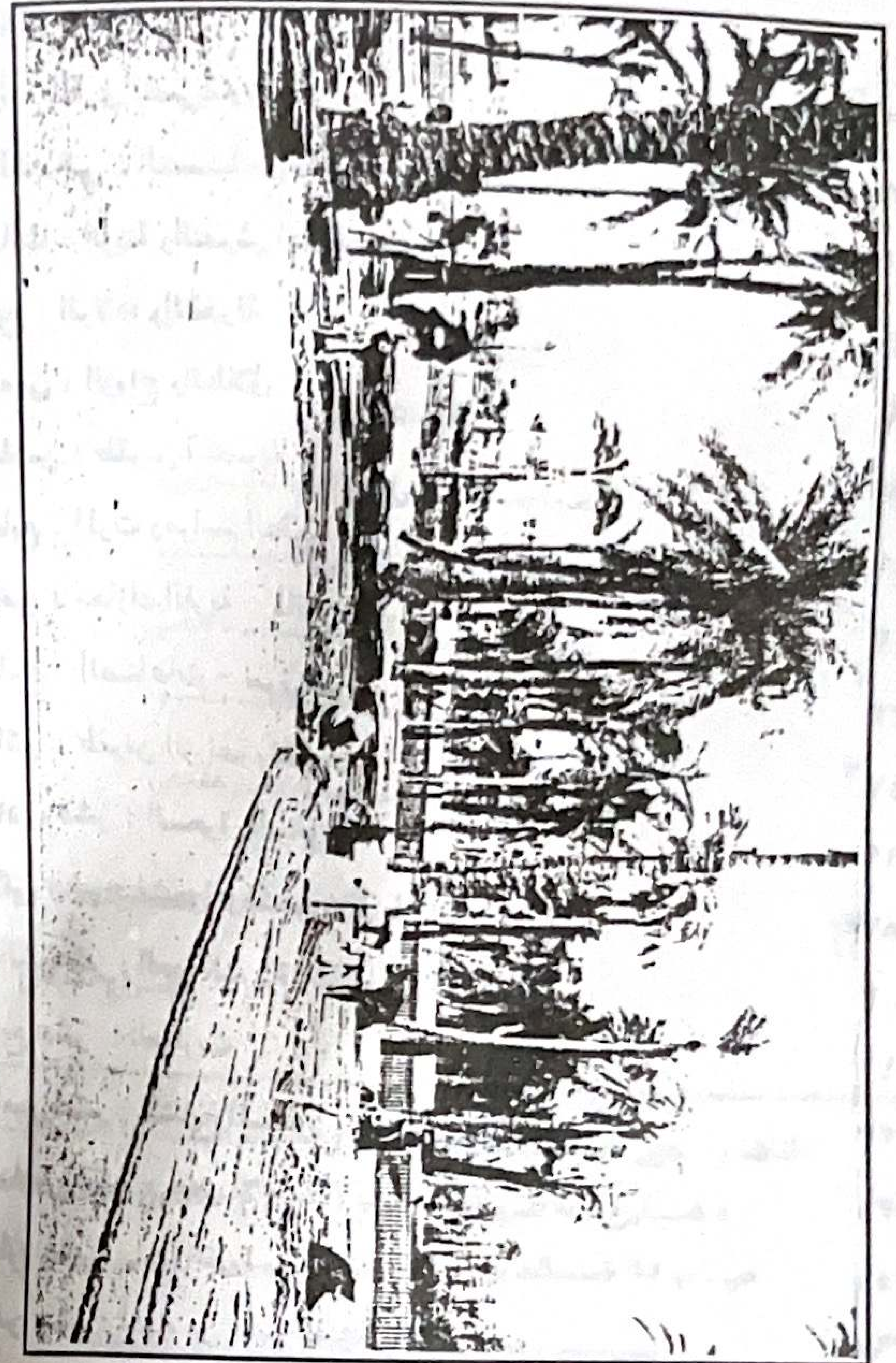
محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

منذ نفاذ الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، الصادرة فى سنة ١٩٩٥م ، ونحن نفكر فى إصدار الطبعة الثانية . ولظروف أو لأخرى ، تأجل هذا الأمر أكثر من مرة ، إلى أن ظهر خبر فى صفحة " ثقافة " التى يشرف عليها الأستاذ سامى خشبة بجريدة الأهرام ، وكان بعنوان "مطلوب ترجمة لهذا الكتاب : « الشيخة شفا ، ... تتحدث عن تقاليد الصعيد » . وكان الخبر يتحدث عن إصدار طبعة جديدة من كتاب The Fellahin of Upper Egypt . لأول وهلة تصورت أنه كتاب لا أعرفه . ولكن ما إن قرأت الخبر كله ، حتى أدركت أن هذا هو الكتاب الذى ترجمته منذ خمس سنوات ، ووصلت الترجمة إلى أيدى كل المهتمين بالأنثروبولوچيا والفلكلور واحتفوا بها ، لأنها أول ترجمة لها إلى العربية جاءت بعد صدور الكتاب بحوالى خمسين سنة . وكان تساؤل الأستاذ محرر الصفحة عما " إذا كان هذا الكتالب بالغ الأهمية « معروفًا » من قبل علمائنا والأكاديميين والمصريين فى مجالات علم الاجتماع والتاريخ الثقافى والأنثروبولوچيا .. " دافعًا قويًا لنا ، كى نبدأ على الفور فى الإعداد لصدور الطبعة الثانية . فربما كان لهذا الفارق الزمنى بين الطبعتين أثره فى أن كثيرين لم يعلموا بأمر الطبعة العربية من الكتاب . ولا يفوتنى هنا أن أشكر الكاتبة الصحفية الأستاذة ماجدة الجندى ، التى بادرت بتخصيص عمودها « إطلالة » فى صفحتها المتميزة بجريدة الأهرام للتنويه بصدور الترجمة . كما أشكرها لإعرابها عن تقديرها لهذا العمل ، الذى كانت تعلم بصدوره وقرأته منذ فترة طويلة .

وإذا كنا قد اقتصرنا فى الطبعة الأولى على عدد محدود من الصور التى تضمنها الكتاب، فإننا آثرنا أن تتضمن هذه الطبعة الصور والأشكال كافة التى وردت فى الأصل ، لكى تعم فائدة الكتاب . إذ إننا تصورنا فى البداية أن تلك الصور مألوفة لنا كمصريين ، وليس هناك ما يدعو إلى وضعها فى الترجمة العربية ، حيث إنها وضعت للقارىء الإنجليزى الذى لم ير مصر ولاصعيدها . إلا أننا أيقنا أنه إذا كنا نحن قد رأينا تلك الأشياء، ومنا من



صناعة الحبال

الرجل الجالس فى وسط الصورة يفتل طاقات الحبل المنفصلة لتصبح حبلا رفيعا

عاش معها وكانت جزءاً من حياته اليومية ، فإن أجيالاً جديدة من المصريين لم تر هذه الأشياء أو معظمها ، ولم تعش يومًا واحداً فى الريف .

كلنا أمل أن تحظى هذه الطبعة برضا القراء والمهتمين بالمادة التى تحتويها وأن تكون فيها فائدة للدارسين والراغبين فى معرفة عادات شعبنا وتقاليده ؛ وهى التقاليد التى تؤثر بصورة أو بأخرى فى أساليب حياتنا ، وحتى ونحن نعيش فى عالم تسيطر عليه التكنولوچيا المتقدمة، وتربطه شبكة الإنترنت ، وتحكم العولمة كل تصرفاته .

المترجم

الهرم – يونيو ٢٠٠٠

تقديم

أنا مدين لهذا الكتاب بكثير مما عرفته عن عادات وتقاليد الصعيد ، رغم كونى من أهل الصعيد !

كنت أقلب صفحات الكتاب فتزداد دهشتى لاستمرار كل هذه العادات والتقاليد المصرية القديمة حتى الآن فى الصعيد . لذلك قررت ترجمة هذا العمل الذى كتبته الباحثة الإنجليزية وينيفريد بلاكمان أثناء إقامتها بالصعيد فى العشرينيات من هذا القرن ، حتى يكون تحت يد القارىء العربى الذى يهمه معرفة عادات وتقاليد أهل الصعيد كما رأتها عيون الغرباء .

اندهشت لأن الزمن الذى دار دورته على امتداد آلاف السنين لم يترك بصمة تذكر على بعض عادات ناس الصعيد وتقاليدهم .

وزادت دهشتى حين بدأت البحث فوجدت أيضًا أن هذه العادات لم تتغير كثيراً منذ العشرينيات ، حين ظهر هذا الكتاب ، حتى الآن رغم الإيقاع المذهل فى سرعته للتطور الاجتماعى والإنسانى فى العقود الأخيرة .

وهكذا لم تتحول بعد العادات والتقاليد التى تتحدث عنها المؤلفة إلى مواد متحفية . فهى تمارس حتى يومنا هذا وتسيطر على تفكير ابن الصعيد وتوجه كثيراً من سلوكه .

ولأن الكتاب من تأليف أجنبية ، فهو يلتقط ظواهر قد نغفل عنها ولا نهتم بها ، لكثرة تعودنا عليها . إلا أن هذه العين الأجنبية قد تخطىء أيضًا فى تفسير ظاهرة ما . وهذا ما وقعت فيه المؤلفة فى مرات قليلة جداً ، كنت خلالها حريصًا على الإشارة فى الهوامش إلى الخلفيات التى غابت عنها .

رغم هذا ، كان جهد الكاتبة شديد الوضوح فى رصدها للظواهر التى عايشتها فى الصعيد، مع محاولتها ردها إلى أصولها المصرية القديمة من خلال ما توفر لها من مادة أثرية وتاريخية. وهى تتناول المراسم والمعتقدات المرتبطة بأهم ثلاثة أحداث فى حياة الإنسان ؛ وهى الميلاد والزواج والوفاة .

ولم يفت المؤلفة ظاهرة مهمة تحتل مكاناً بارزاً فى ثقافة الصعيد ، وهى السحر والشعوذة، حتى أن الساحر أو المشعوذ كان له دور كبير فى كل أنشطة المجتمع .

ولفت انتباهى وصف المؤلفة للثأر بأنه ظاهرة وافدة إلى المجتمع الصعيدى ، وترجع بداية ظهوره إلى تاريخ وصول القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية إلى جنوب مصر .

وتمضى المؤلفة فتتحدث عن الاعتقاد فى الحسد والعين الشريرة وأثر ذلك على تعاملات الناس وعلى صحة الأطفال ، الذين تهمل أمهاتهم نظافتهم منعاً للحسد !

وهناك الكثير من الخرافات المنتشرة فى الصعيد ، كالعفاريت والأسياد وطرق إرضائهم . إلى جانب الكرامات التى تروى عن المشايخ المسلمين والقديسين الأقباط ، فى حياتهم وبعد مماتهم ، والموالد التى تقام سنوياً للاحتفال بهم .

وتورد المؤلفة بعض الحكايات الشعبية التى دونتها خلال لقائها باثنين من الرواة . وقد رأيت عدم ترجمة هذه الحكايات بالفصحى وآثرت بدلاً من ذلك ترجمتها بالعامية ، حتى تكون أقرب إلى الجو الذى رويت فيه .

وأنا حين أقدم هذه الترجمة للمكتبة العربية ، أرجو أن تكون مساهمة منى فى التعرف على جذور عاداتنا وتقاليدنا ، التى يجب أن ننظر إليها دائماً بعين ناقدة فاحصة ، فنبقى على ماهو نافع ونتخلص من كل ما يعوق تقدمنا ويحول دون لحاقنا بركب التقدم والتطور ودخولنا القرن الحادى والعشرين بكل ما يعنيه ذلك .

عرفان وتقدير :

أتوجه بخالص العرفان والتقدير لكل من قدم لى العون فى إخراج ترجمة هذا الكتاب وأخص منهم الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم – رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الزقازيق ، والأستاذ الدكتور جاب الله على جاب الله – رئيس قسم الآثار المصرية القديمة بكلية الآثار جامعة القاهرة ، والأستاذ عبد الحميد حواس – مدير مركز الفنون الشعبية بالقاهرة والدكتور شوقى عبد القوى حبيب – الباحث بمركز الفنون الشعبية بالقاهرة .

المترجم

مقدمة المؤلفة

هذا الكتاب لايمثل سوى جزء من العمل الذى قمت به أثناء إقامتى بمصر التى دامت ست سنوات . كنت أقضى سنوياً ستة أشهر فى المتوسط وأنا أعيش معيشة كاملة بين الفلاحين . وأحب أن أوضح لقرائى أن العادات والمعتقدات ، والأسلوب العام للحياة ، كما جاءت فى هذا الكتاب ، لاتمثل إلا الفلاحين وحدهم . فقد تخلصت الطبقات العليا من كل ذلك منذ زمن طويل. وهذه العادات والمعتقدات لها قيمتها الكبيرة فى حد ذاتها . ولكن كون معظمها شديد القدم يجعل دراستها وتسجيلها بصورة صحيحة أمر لابد منه . لقد ألقت أبحاثى الضوء على نقاط ظلت قبل ذلك غامضة بالنسبة لدارسى مصر القديمة . لذا فأنا كلى أمل فى ألا يكون هذا الكتاب إسهاماً فى علم الأنثروبولوجيا فحسب، بل كذلك مساهمة منى فى علم المصريات.

إن هدفى هو وصف حياة سكان وادى النيل المحدثين بأبسط ما يمكن ، مع أخذى فى الاعتبار الابتعاد عن اللغة الاصطلاحية . فغرضى من كتابة هذا الكتاب هو مخاطبة الجمهور العام الذى أقدم له وصفاً مقروءاً ، وصحيحاً فى الوقت ذاته ، عن فلاحى مصر .

وأود أن أؤكد أنه رغم كون محتويات هذا الكتاب مجرد بعض من المعلومات التى جمعتها ، فأنا مازلت فى بداية عملى ومازالت أمامى سنوات كثيرة من البحث ، لأن مصادر المعلومات لاتنضب أبداً . وعندما يوشك عملى على الاكتمال ، فإنى اعتزم وضع كتاب كبير يخضع لكل القواعد العلمية عن المعتقدات والممارسات والحياة الاجتماعية والصناعية للمصريين المحدثين .

لقد حرصت أشد الحرص على أن أكون على أكبر قدر من الدقة فى كل عبارة كتبتها . فكل عادة أو معتقد فى هذا الكتاب كنت أدققها قبل أن أضعها على الورق . ومع ذلك فإن هؤلاء المتمرسين فى العمل الميدانى فى مجال الأنثروبولوجيا يعرفون كم هو سهل أن يقع المرء فى الخطأ وأن يسيىء فهم الأشياء ، حتى بعد التمحيص الدقيق . لذلك فأنا مستعدة للنقد . وآمل من أصدقائى المصريين ألا يترددوا فى إبلاغى ، إذا كنت قد أسأت فهم نقطة ما . كما أن لدى رغبة شديدة فى أن يتعرف المثقفون المصريون على أهمية أنثروبولوجيا بلدهم وفلكلورها. وكلى أمل فى أن بعضهم سوف يتشجع ويتحمس لبدء هذه الدراسة . إنهم ، إن

أحسن تدريبهم ، سيكونون أقدر على القيام بالأبحاث الأنثروبولوجية بين قومهم . ومنذ مدة طويلة وأنا أتمنى رؤية معهد ناجح للأنثروبولوجيا فى القاهرة يكون مركزاً لكل تلك الأبحاث ، لا فى مصر وحدها بل فى الدول المجاورة كذلك . فمن يدرى الحد الذى وصل إليه نفوذ مصر القديمة ؟ بل إن بعض الكتّاب فى بريطانيا يصلون إلى حد التسليم بانتشار الثقافة المصرية فى كل أنحاء العالم !

قلت إننى مازلت فى بداية عملى . فأنا لم اقترب بعد من الوجه البحرى . وخطتى هى أن تشمل أبحاثى ليس كل مصر وحسب ، بل كذلك الواحات المصرية والنوبة السفلى . ولابد أيضًا أن أقوم بدراسة أوسع للمناطق التى زرتها بالفعل ، وأسجل كل الفروق المحلية بدقة . وهذا بالطبع يتطلب الكثير من سنوات العمل الشاق .

وتعد الطقوس الخاصة بالمشايخ (الأولياء) المسلمين والقديسيين الأقباط موضوعًا يجد لدى إهتمامًا خاصًا . وأنا إن لم أعالج هذه المسألة هنا باستفاضة ، فكلى أمل أن أنشر قريبًا كتابًا يتناول فقط المعتقدات والمراسم والأساطير المرتبطة بهؤلاء الأشخاص المكرمين .

ويسعدنى أن انتهز هذه الفرصة للتعبير عن عميق شكرى للأوصياء على « صندوق بيرس سالدن التذكارى » على المنح التى قدموها لى خلال السنوات الأربع الماضية ، ولـ « الجمعية الملكية » و « لجنة الأنثروبولوجيا » بأكسفورد على المنح التكميلية . كما أنى أدين بالكثير للتشجيع والتقدير الكريم لعملى من جانب كثيرين بالجامعة وغيرها ، وللدعم الذى قدمته لى اللجنة الخاصة التى عينتها « الاتحاد البريطانى » لتشجيع الاستمرار فى أبحاثى . وبالنسبة للمسئولين فى مصر والمصريين بوجه عام ، فأنا أدين لهم بأكثر مما يمكننى التعبير عنه . فبدون المساعدات والتسهيلات التى قدمها لى المسئولون ، والود الذى قوبلت به من سائر الطبقات ، لما كان بإمكانى القيام بما قمت به . بل إن من المسئولين من ساعدنى بنفسه فى أبحاثى . والطريقة التى رحب بها الفلاحون بى فى حياتهم جعلتنى قادرة على الاقتراب منهم أكثر مما هو متاح لأى أجنبى عادى . وأقول بصدق إن الطيبة التى رأيتها منهم جعلت السنوات التى قضيتها فى مصر أسعد سنوات حياتى . وما أرغب فيه هو أن يكون بمقدورى الاستمرار فى عملى وأن أخلف ورائى سجلاً حقيقيًا لكثير من العادات القديمة فى هذا البلد شديد الجاذبية.

أنا أيضًا مدينة لأخى الدكتور أ.م. بلاكمان فيما يتعلق بكل الأشياء القديمة . ليس ذلك فحسب ، فقد أمضى ساعات طويلة من وقته فى مراجعة مخطوطة الكتاب ومتابعته فى

المطبعة ، وهو ما جعلنى استمر فى أبحاثى بمصر دون انقطاع . وإذا صادف الكتاب أى نجاح، فإن كثيراً من ذلك النجاح يرجع الفضل فيه إليه .

كما أننى مدينة كذلك لمجالس « معهد الأنثروبولوجيا الملكى » و « جمعية الفلكلور » و«جمعية الاستكشاف المصرية » ولناشرى « ديسكفرى » ولرئيس تحرير « ذا مانشستر جارديان » و « ذى إيفننج نيوز » اللذين سمحا لى بتضمين هذا الكتاب مقالات لى كنت قد نشرتها فى مجلاتهما وصحفهما العديدة .

وأعبر عن عميق شكرى للبروفيسور ج . ل . مايرز لمراجعته البروفات مع أخى ، وللمستر إى. إس .توماس ، الذى كان يعمل بوزارة المالية المصرية ويعمل حاليًا مساعداً بمتحف بيت ريفرز بأكسفور . شكراً جزيلاً له على تزويدى بترجمة للتعاويذ العربية وغيرها هى أفضل مما كان لدى بالفعل .

ولابد أن أذكر أن كل الصور الفوتوغرافية التقطتها بنفسى ، ماعدا بعضها الذى التقطه فى عام ١٩٢٠ صديقى مستر د. ج . ف . فورستر من كلية « بيمبرول » بأكسفورد ، بناء على طلبى فى المرات التى كان موجوداً فيها معى فى المراسم التى توضحها .

لقد أغفلت عن عمد أسماء الناس والقرى فى كل مثال جئت به تقريبًا ، حيث أعتقد أنه لاداع لنشرها فى كتاب شبه شعبى كهذا .

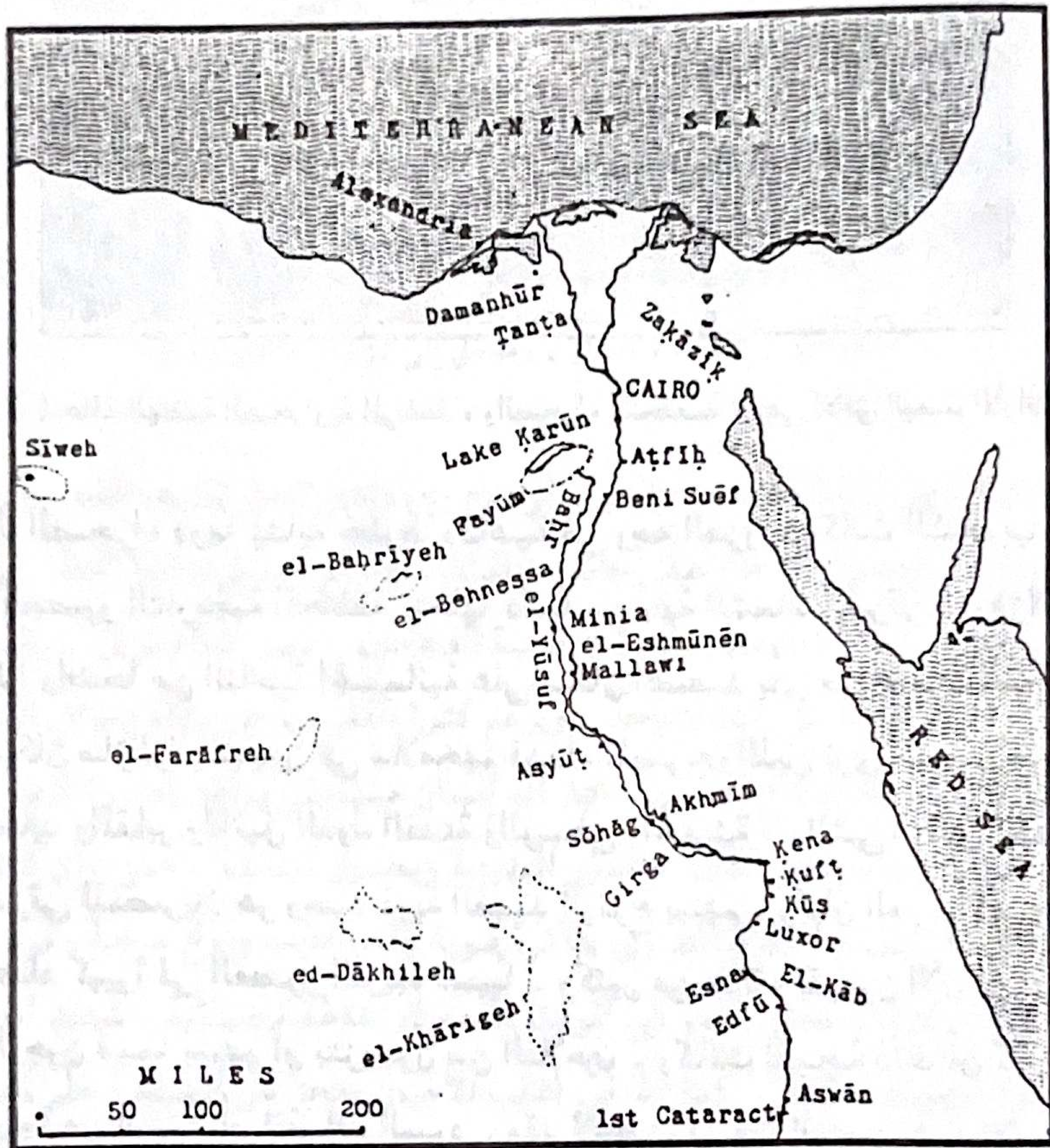
وأخيراً أحب أن أوضح أنه مع انتشار التعليم بدأت العادات والمعتقدات القديمة فى الاندثار . لذلك فمن الضرورى تسجيلها على الفور ، قبل أن تندثر تمامًا . وبناءً على ذلك أتمنى ألا يظل عملى غير مكتمل بسبب عدم توافر الدعم المالى ، وأن يثير هذا الكتاب الاهتمام اللازم فى كل من مصر وانجلترا لحث هؤلاء الذين يملكون من الوسائل والنفوذ لدعم أبحاثى لعدة سنوات قادمة ،و كى أصل بها إلى النجاح المنشود .

وينيفريد س . بلاكمان

الفصل الأول

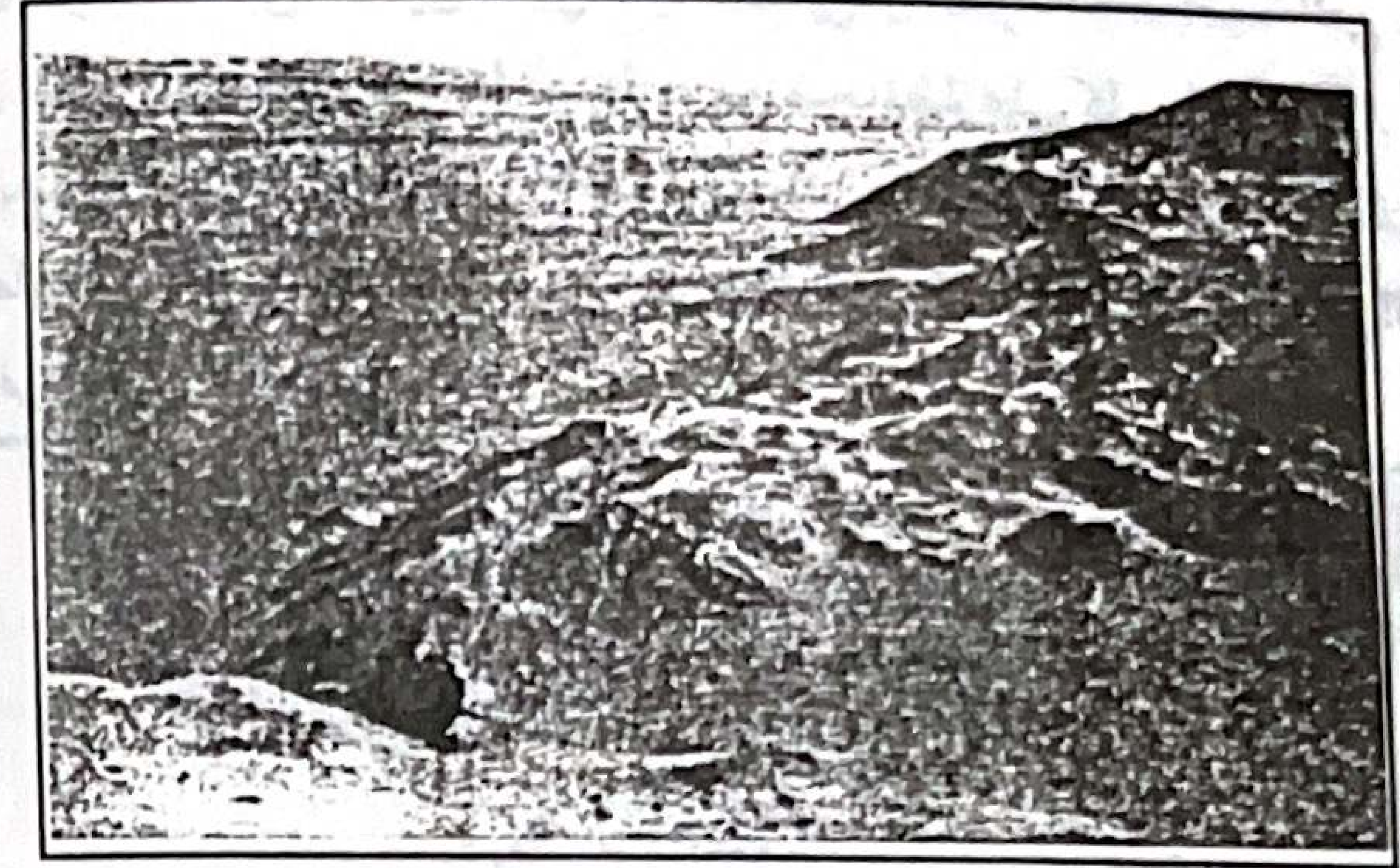
القرى المصرية وسكانها

أتاحت حواجز مصر الطبيعية (الشكل ١) للسكان ، وخاصة أهل الجنوب ، أن يعيشوا فى عزلة نسبية على مر تاريخهم كله . فالبحر فى الشمال وفى الشرق . وفى الغرب تمتد صحراء شاسعة جدباء فى غالبها . بينما تعوق دخولها من ناحية الجنوب مجموعة من الشلالات الواقعة على مجرى النيل . ولاشك فى أن العزلة الجغرافية التى عاش فيها الفلاحون المصريون مسئولة عما تميزوا به من محافظة على كل ماهو قديم . وتتضح هذه المحافظة بصورة خاصة فى عاداتهم الاجتماعية والدينية وصناعاتهم التقليدية التى بقيت على ماكانت عليه فى عصور الفراعنة تقريبًا . أو لنقل إنها ظلت بلا أى تغيير على الإطلاق ، كما سنشاهد فى الفصل الأخير .



(الشكل ١) خريطة مصر

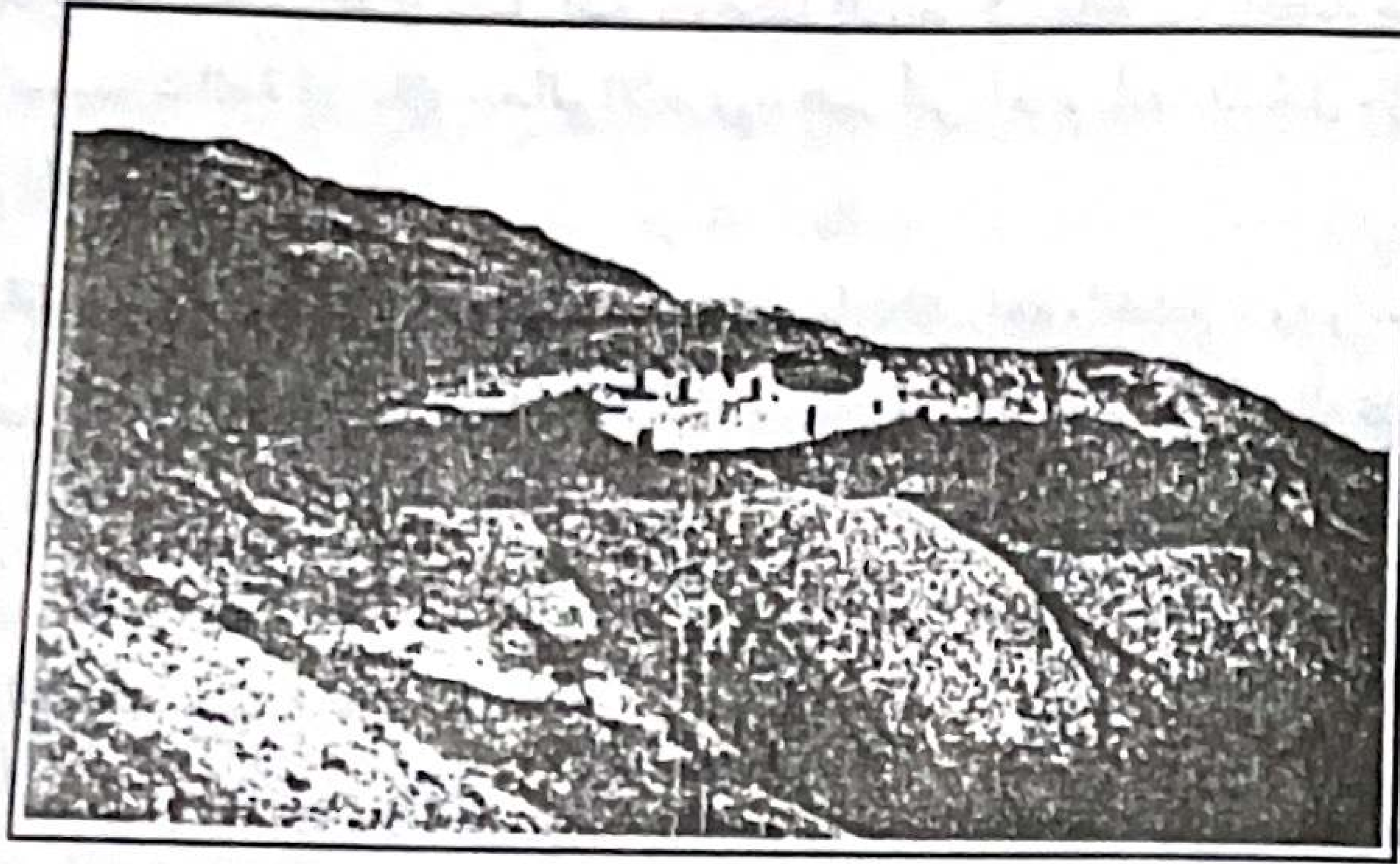
وتمثل الصحراء الشاسعة شيئًا مخيفًا لسكان الريف ؛ إذ لا يمكن أن تقنع أحدهم حتى فى زماننا هذا ، أن يخرج إلى الأجزاء المتاخمة للقرى بعد الغروب (الشكل ٢) . فالخوف من الضياع وكذلك الخوف من العفاريت[1] يمنع أى إنسان من أن يغامر بالسير فيما وراء الأراضى الزراعية فى الليل . وعامة الفلاحين يعودون إلى قراهم قبل الغروب ويبقون بها حتى قبيل شروق شمس اليوم التالى ، اللهم إلا إذا كان أحدهم مضطراً للمبيت فى الحقل لحماية محصوله أو أغنامه وماعزه .



(الشكل ٢) حافة الهضبة الصحراوية المرتفعة ، والصحراء المنخفضة ، وفى الأفق البعيد الأراضى الزراعية

وكانت الصحراء دومًا بمثابة خطوط دفاعية فى وجه الغزو . وكانت الشعوب التى غزت مصر فى العصور التاريخية المختلفة تدخلها دائمًا من جهة الشمال الشرقى . وهؤلاء الغزاة لم يتركوا أثرًا واضحًا من الناحية الجسمانية على سكان الصعيد بأى صورة من الصور . فمعظم هؤلاء السكان مازالوا يشبهون فى ملامحهم قدماء المصريين الذين نرى صورهم مرسومة على جدران المعابد والمقابر وتماثيل الدول القديمة والوسطى والحديثة . والشىء الذى أخذ يؤثر على النقاء العرقى للمصريين هو وجود ذرية العبيد الزنوج بينهم . وكان العرب قد جلبوا هؤلاء العبيد بأعداد كبيرة فى العصور القريبة نسبيًا . وكثير من هؤلاء يقيمون الآن فى قرى معينة، حيث يتزاوجون فيما بينهم أو يتزوجون من الفلاحين . وكانت نتيجة ذلك أن كل سكان تلك القرى تقريبًا من السود أو أنصاف السود . وقد لاحظت أن هذا العنصر شبه الأسود يتواجد بصورة خاصة فى الفيوم وبنى سويف وعلى حافة المناطق الزراعية فى مديريتى المنيا وأسيوط، حيث استقرت أعداد كبيرة من العرب على مدى عدة أجيال .

وربما يظهر تأثير الصحراء فى الحكايات الشعبية المصرية ، التى يتحدث الكثير منها عن أشخاص يلتقون فيها بالعفاريت وغيرها من الكائنات غير البشرية . وتدخل المغارات السرية الموجودة فى « الجبل » ، وهو فى الغالب الجزء المنحدر من الهضبة الصحراوية ، فى المغامرات التى يحكيها الرواة فى القرى . وهذه « المغارات » ليست سوى مقابر قديمة منحوتة فى الصخر تجعل وجه « الجبل » فى بعض الأماكن يبدو كقرص العسل (انظر الشكل ٣) .



(الشكل ٣) وجه « الجبل » ومدخل إلى مزارات المقابر القديمة

ومصر هى أرض المتناقضات . والفرق الواضح بين وادى النيل شديد الخصوبة والصحراء الجرداء التى لازرع فيها ولا ماء على جانبيه يلفت انتباه كل من يزور هذا البلد . وأعتقد أن هذه الملامح الطبيعية انعكست على شخصية الفلاحين . فمن الملاحظ أن معظم الصفات المتناقضة يمكن أن تجدها فى إنسان واحد . وبرغم كثرة الفقر والمرض وقلة وسائل التسلية التى تقضى على رتابة حياة الفلاح المصرى ، نجد أنه إنسان مستبشر وراض بصورة تدعو للدهشة . والفلاحون المصريون سريعو الفهم حاضرو البديهة ويحبون النكتة ، حتى وإن كانت تسخر منهم. وعادة ما يتمتع الفلاح المصرى بذاكرة قوية وقلب طيب وروح مرحة وكرم ضيافة . يضاف إلى ذلك حبه للعمل . وهو فى الوقت نفسه ذو عاطفة جياشة ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ويتسم بالجهل . كما أنه فى أغلب الأحيان يعجز عن السيطرة على نفسه .

وهكذا فإن الإنسان الذى يتسم بالهدوء والرقة والوداعة قد يرتكب جريمة وحشية فى لحظة. وفى أحد الأعوام ، عندما كنت أقيم فى قرية صغيرة فى صعيد مصر ، قتل رجل جاره بطريقة

فظيعة ، لأنه سرق بضع بصلات من حقله . وبعد لحظة من ارتكابه لجريمته كان يبكى فوق جثة ضحيته !

والغيرة إحدى خطايا الفلاحين المصريين التى تميزهم . وغالبًا ما تتحول إلى عاطفة جياشة تجعل الرجل الغيور – أو المرأة الغيورة – قادراً على ارتكاب أية جريمة تتسم بالعنف . وتغار المرأة من أطفال غيرها من النساء . والزوجات يغرن على أزواجهن . ويغير الرجل من النعمة التى لدى غيره أو المنصب الذى يصل إليه . وهكذا إلى ما لا نهاية . لا أقصد من ذلك القول بأن الغيرة ليست شائعة فى بلاد العالم الأخرى ، غير أنى أجزم بأنها تشكل جزءاً كبيراً من البناء العام للشخصية المصرية .

وفى الوقت نفسه يدفعهم حب المال لأن يتسموا بالشراهة والجشع . وهو سبب المشاكل الخطيرة التى تنشأ فيما بينهم . ومقابل ذلك فهم قادرون على القيام بأفعال تتسم بالكرم ، سواء أكان ذلك فى صورة تقديم المال أم العفو مما يلحق بهم من أضرار . والمشاجرات بين الأفراد ، التى تتسم أحيانًا بشدة عنفها ، مسألة شائعة فى القرى . إلا أنه إذا وصل من يصلح بينهم فى الوقت المناسب، فإنه عادة ما يتم تحاشى وقوع اضطرابات خطيرة .

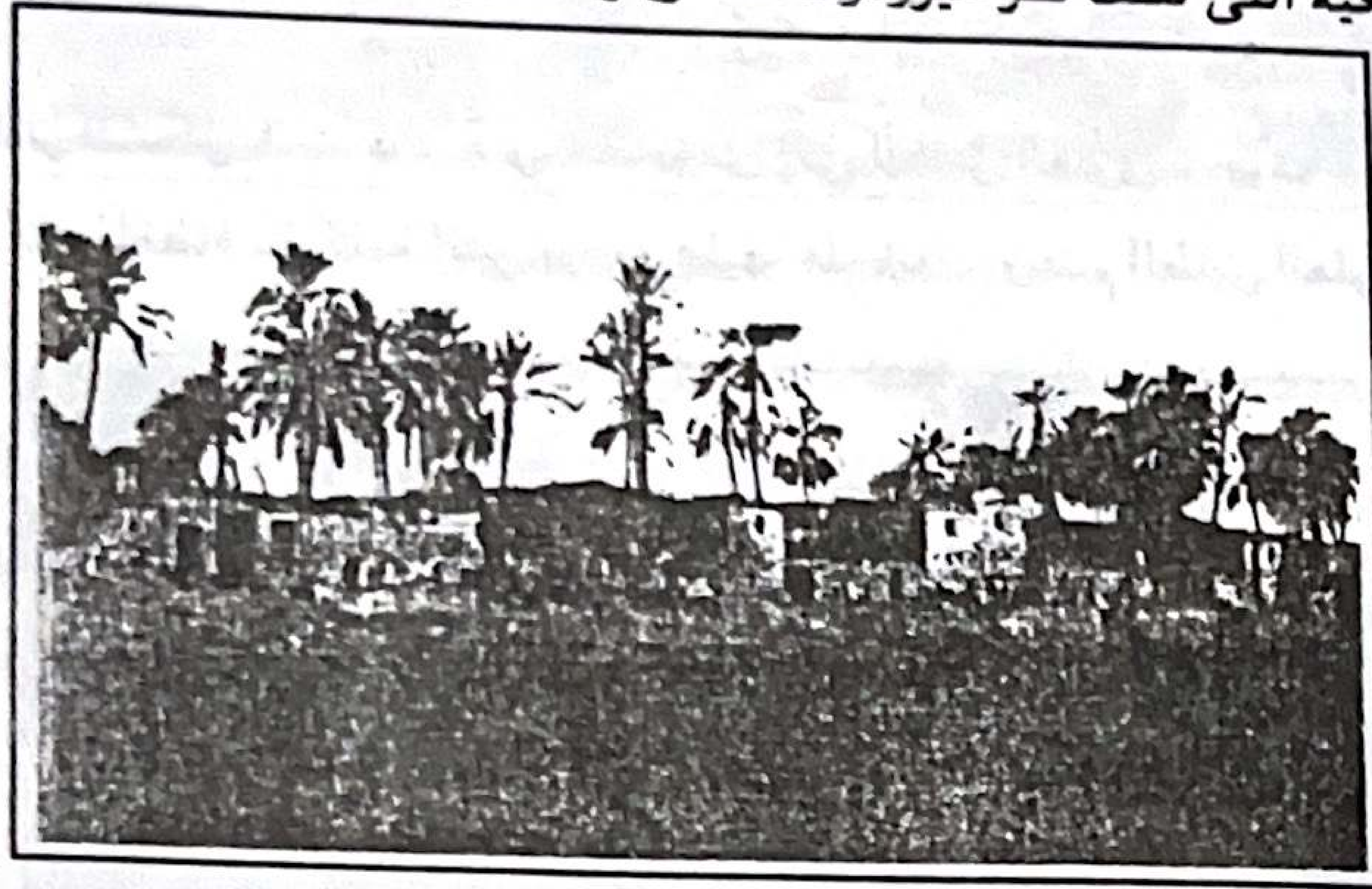
ولاينبغى أن تجعل الحكايات التى ترد فى الفصول التالية عن الثأر والمعارك التى تحدث بين القرى ، وغيرها من جرائم العنف ، القارىء يصدر حكمًا قاسيًا على الفلاحين المصريين ، دون أن يدرك أن التناقضات العنيفة فى ملامح البلاد المادية قد انعكست على نفسية سكانها، سواء أكان ذلك على المستوى الجمعى أم على مستوى الأفراد .

ويشكل الفلاحون الجزء الأكبر من سكان مصر وغالبيتهم من المسلمين . أما الأقباط ، الذين كان عددهم فى وقت من الأوقات أكبر كثيراً مما هو عليه الآن ، فموزعون على أنحاء البلاد المختلفة ، وإن كانوا يشكلون العدد الأكبر من سكان عدد قليل من القرى والمدن الصغيرة . ولابد أن ندرك أن كلمة « قبطى » لا تشير إلى التمييز على أساس عرقى وإنما على أساس دينى .

ولا يشكل البدو ، ومازال الكثير منهم يعيش حياة البداوة فى الصحراء ، والعرب ، الذين استقروا وعملوا فى فلاحة الأرض ، جزءاً كبيراً من التركيبة السكانية . وهم يتميزون عن السكان الأصليين بملامحهم وملابسهم . وهناك أيضًا أعداد كبيرة من النوبيين وزنوج السودان والأتراك واليونانيين والسوريين واليهود . وتتركز الجاليات الأربع الأخيرة بصورة رئيسية فى

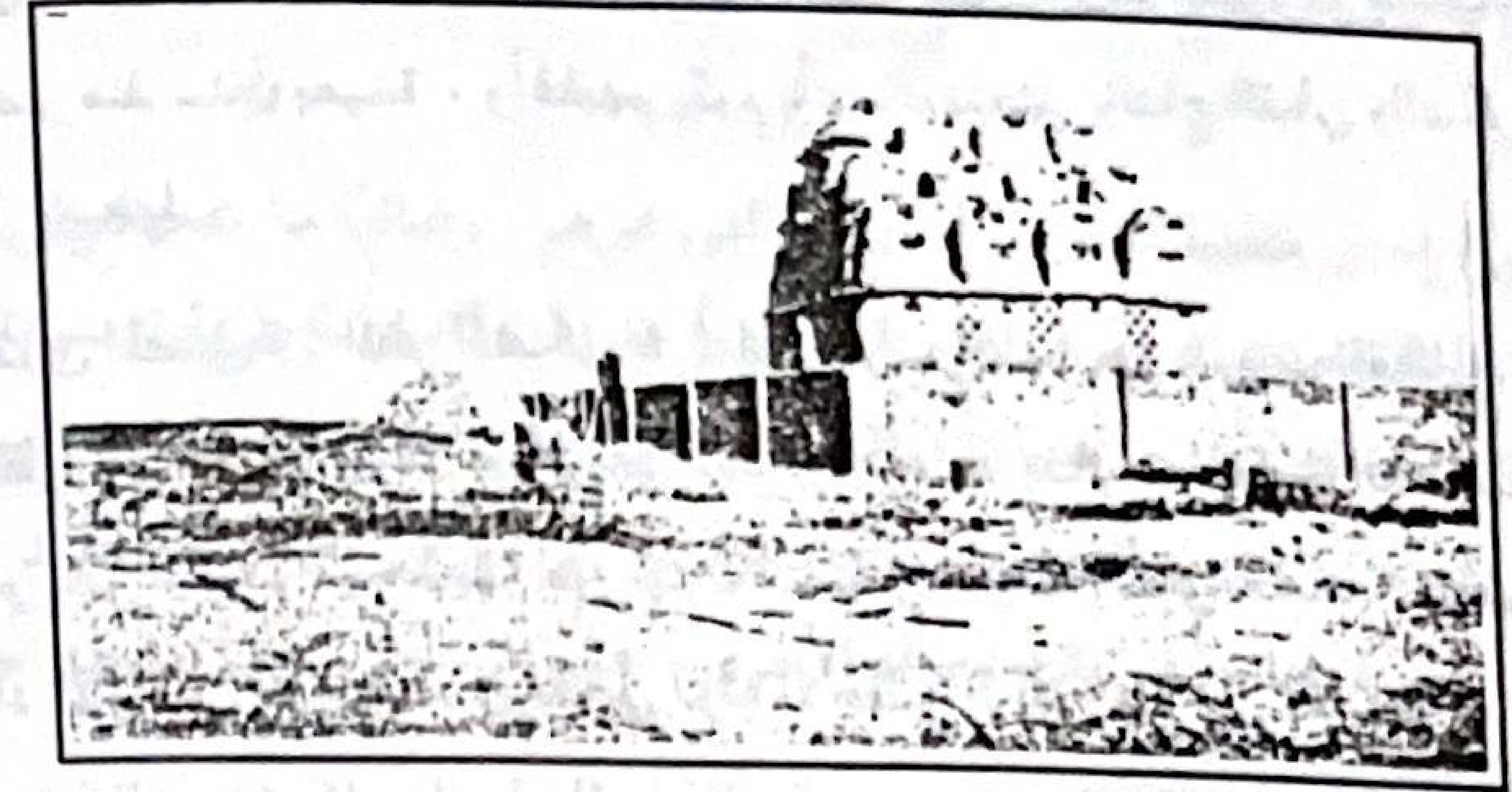
الوجه البحرى ، وإن كان وجودهم لايقتصر على شمال مصر . وقد استقرت جنسيات أوروبية كثيرة فى مصر منذ سنين بعيدة ، وأغلبهم يقوم بأعمال تتعلق بإنتاج القطن والسكر وغيرهما من محاصيل وبيعها .

وتمثل القرى المصرية (انظر الشكل ٤) إذا نظرت إليها من عربات القطار ، أو من بين الحقول ، منظراً فى غاية الروعة . وهى فى الغالب محاطة بغابات النخيل الشاسعة . كما أن النخيل ينمو بين البيوت فيحميها من لهيب الشمس . وهذه القرى المحاطة بالنخيل موجودة على امتداد الأراضى الزراعية ويتقابل لونه الأخضر الزاهى مع لون الصحراء ، حيث تطل عليه سفوحها التى تشكل خلفية رائعة للقرية . وفى زمن الفيضان تبدو القرى التى تحتل مكانًا أعلى من الأراضى الزراعية المحيطة بها وكأنها جزر فى بحر داخلى واسع . وهذا أحد الملامح الجغرافية التى لفتت نظر هيرودوت عند زيارته لمصر .



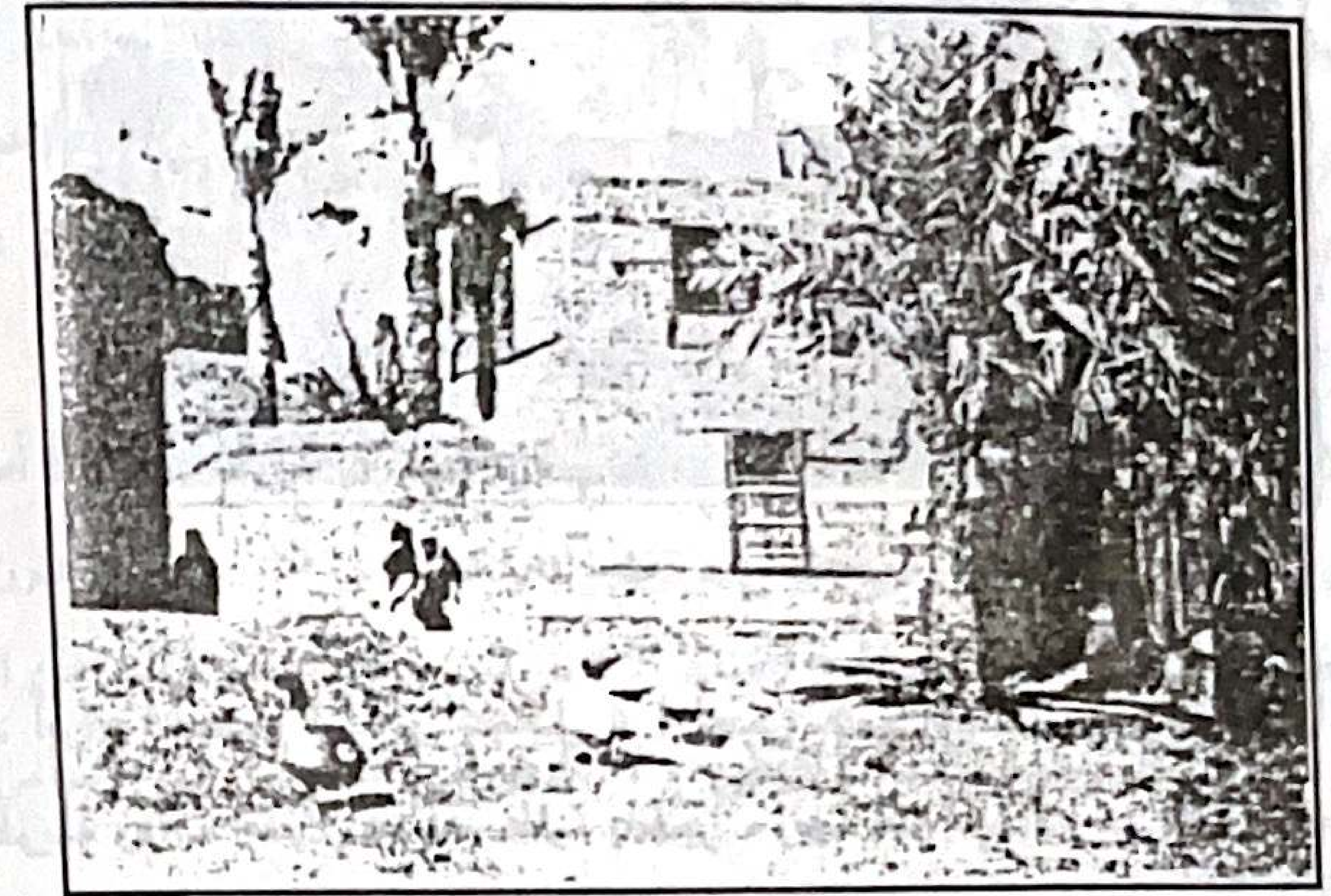
(الشكل ٤) قرية على ضفاف بحر يوسف

وتعد أبراج الحمام (انظر الشكل ٥) أحد الملامح المعمارية البارزة فى القرية . وهى أحيانًا طويلة وذات جدران مائلة مطلية بالجير ، وبها عدة طبقات من الجرار الفخارية الكبيرة الموضوعة فى صفوف متراصة . وكل جرة بها فتحة عند قاعدتها لدخول الحمام وخروجه . وأحيانًا تكون أبراج الحمام مزينة بنقوش بيضاء بسيطة . وقد قيل لى فى إحدى القرى إن الحمام نفسه يحب هذه النقوش التى تجعله يعود إلى بيته ! والسبب الرئيسى لاقتناء الحمام هو الحصول على «الزبل» ، وهو فضلات الحمام التى تعد سماداً جيداً للحقول . فأسراب الحمام تهاجم حقول القمح حيث يفرقها الأولاد والرجال المزودين بالمقاليع والحجارة بصعوبة [2] .



(الشكل ٥) برج حمام

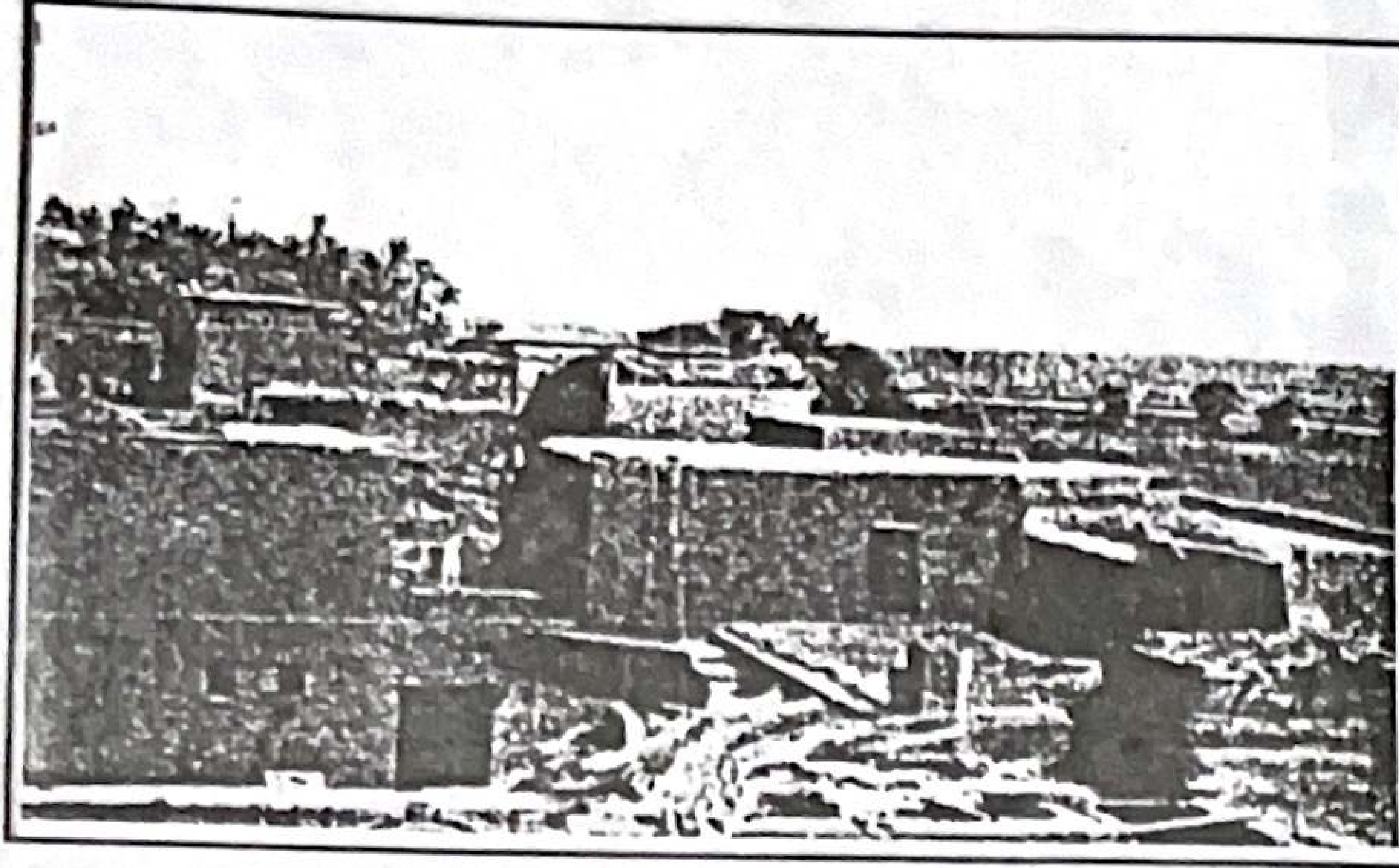
وبيوت الفلاحين ، وهى فى كثير من الحالات مجرد أكواخ قذرة يصعب العيش فيها ، من الطوب اللبن ، وأحيانًا تُلَيَّس جدرانها بطبقة رقيقة من الطين المخلوط بالتبن . وتحتوى البيوت الأفضل (انظر الشكل ٦) حالاً على سلم يؤدى إلى الطابق العلوى ، حيث قد توجد المندرة المفروشة بالدكك المغطاة بالأكلمة التى توضع عليها المساند . ويضم الطابق العلوى أيضًا غرفة



(الشكل ٦) منزل قروى من النوع الجيد

الخزين التى يحتفظ فيها بالطعام . والسطح (الشكل ٧) مكان لطيف يمكن الجلوس فيه ومشاهدة الحياة التى تسير فى الشوارع الواقعة أسفله . وهو يستخدم أيضًا لمبيت الدجاج والقطط والكلاب ، لتجفيف الحبوب وبعض الأغراض الأخرى . كما يتم تخزين حزم ضخمة من

سيقان الذرة (البوص) مع كميات من «الجلة » المصنوعة من روث الجاموس والبقر والمرصوصة فى صفوف منتظمة . وتستخدم « الجلة » مع البوص كوقود . وهنا أيضًا توجد صوامع الغلال الخاصة بالمنزل .

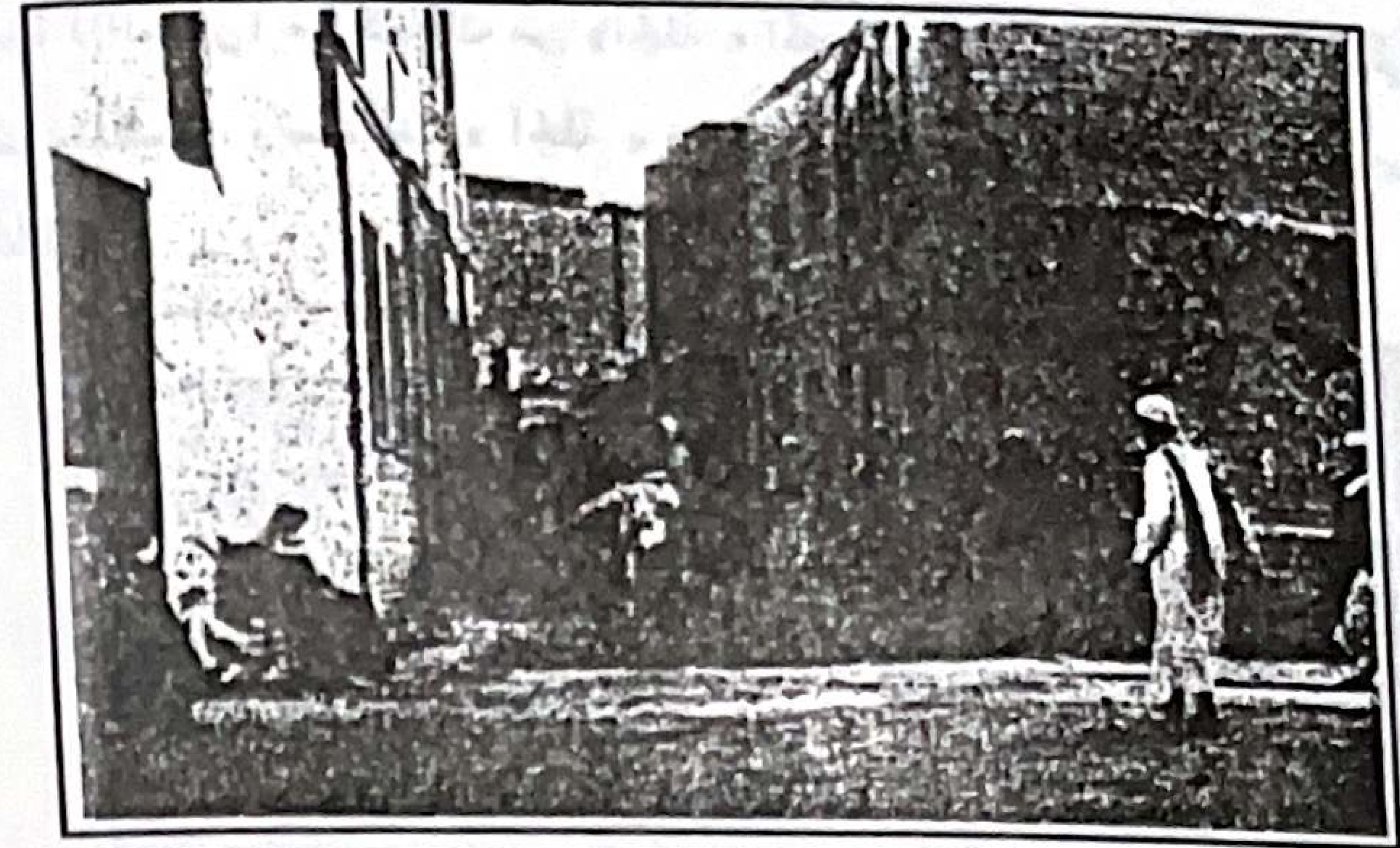


(الشكل ٧) منظر لأسطح المنازل

وتتلاءم البيوت ، خاصة ذات البناء الأفضل ، مع المناخ المصرى ، إلا أنه ينقصها شىء واحد كى تكون أماكن لطيفة بحق للعيش فيها ، ألا وهو قدر أكبر من النظافة داخل البيوت نفسها وفى الشوارع المحيطة بها . ويكمن تغلب الناس على هذه الظروف فى أنهم يعيشون فى الأساس خارج بيوتهم ، التى يعتبرونها فى الغالب مكانًا ينامون ويعدون طعامهم فيه . ولو لم يكن الوضع كذلك لكان معدل الوفيات أعلى بكثير مما هو عليه .

وأنا شخصيًا أعرف مقدار الراحة التى تتميز بها البيوت من النوع الجيد ، حيث عشت فى أحدها لمدة خمسة أشهر . وهذا المنزل مقام على تل من مخلفات المبانى القديمة . ففى مصر ، عندما ينهار بيت أو يهدم ، لايزال الركام فى كل الأحوال ، ولكنه يسوى جيداً ويُقام عليه بيت آخر . وكان الطابق العلوى من هذا البيت بكاملة تحت أمرى ، حيث كان مسكنى يتكون من غرفة نوم صغيرة وغرفة معيشة بها نافذتان بلا زجاج وإن كان عليهما « شيش » . ومن هاتين النافذتين يمكن رؤية أسطح البيوت المجاورة ومتابعة أشكال الحياة المختلفة عليها . وخارج الغرفتين ، كان هناك ممر به جزء مغطى يمكن منه رؤية منظر الغروب الرائع .

وتقطع القرى طرقات ضيقة ، يصعب فى كثير من الحالات وصفها بأنها شوارع . وغالبًا ما تعوق السير فيها أكوام القمامة والطين التى تسدها تمامًا فى بعض الأحيان . وفى بعض

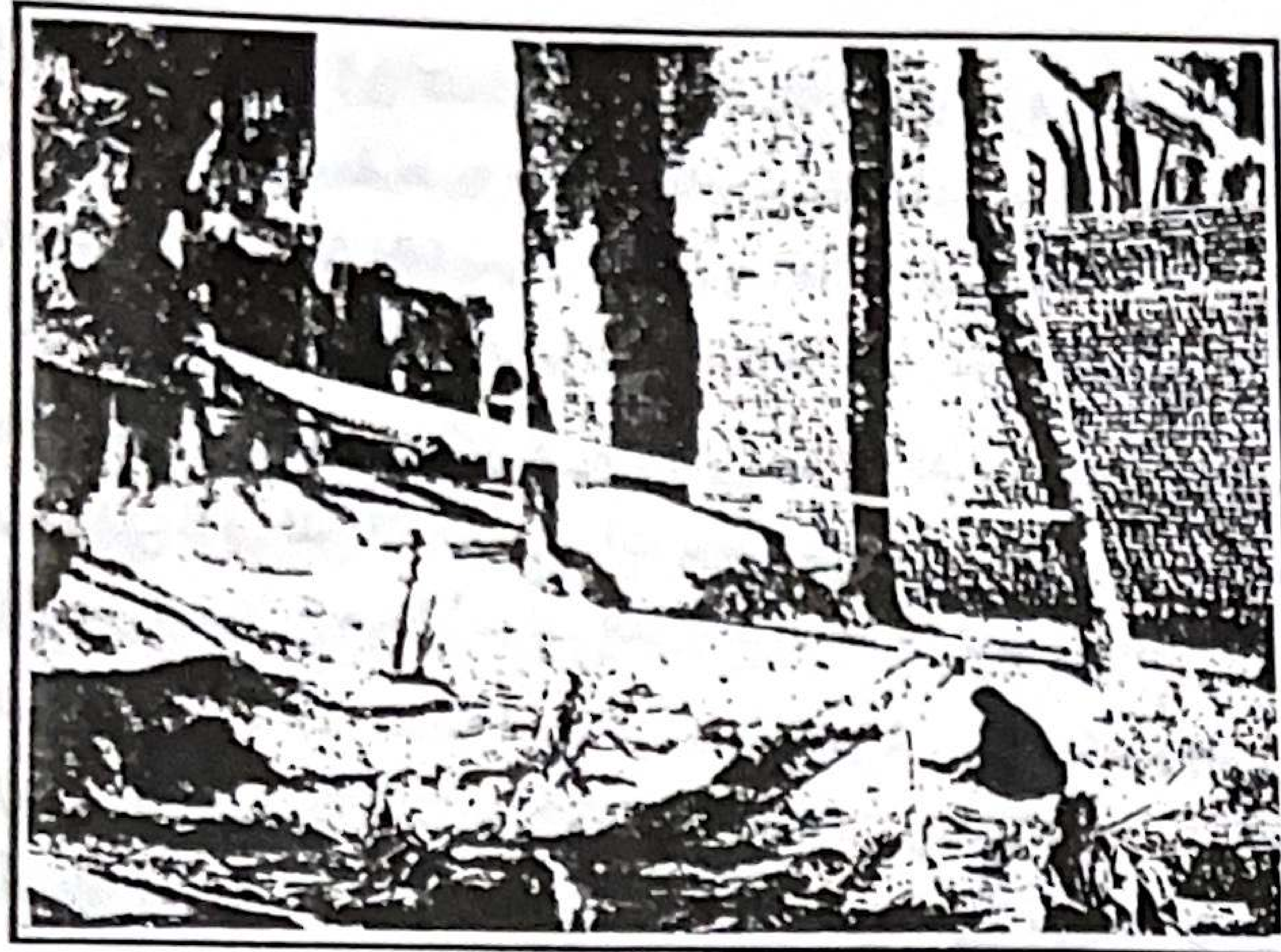


(الشكل ٨) شارع إحدى القرى

القرى الكبرى قد يكون هناك شارع عريض أو اثنان يمثلان محورى القرية الرئيسيين (الشكل٨) . وعلى جوانب الحوارى الضيقة قد تكون هناك مساحة خالية ينمو فيها النخيل (الشكل ٩) . وفى هذا المكان غالبًا ما يقوم نساج القرية بتجهيز السداة لنسج القماش ، حيث تُشد الخيوط بين جزعى نخلتين (الشكل ١٠) . وعندما تتم هذه العملية ، تؤخذ السداة إلى الداخل وتوضع على النول ، الذى يوجد عادة فى غرفة شبه مظلمة جدرانها مليسة بالطين . وهى من الصغر بحيث يستحيل التقاط صورة فوتوغرافية جيدة .



(الشكل ٩) شارع فى إحدى القرى



(الشكل ١٠) الحبال مشدودة بين نخلتين

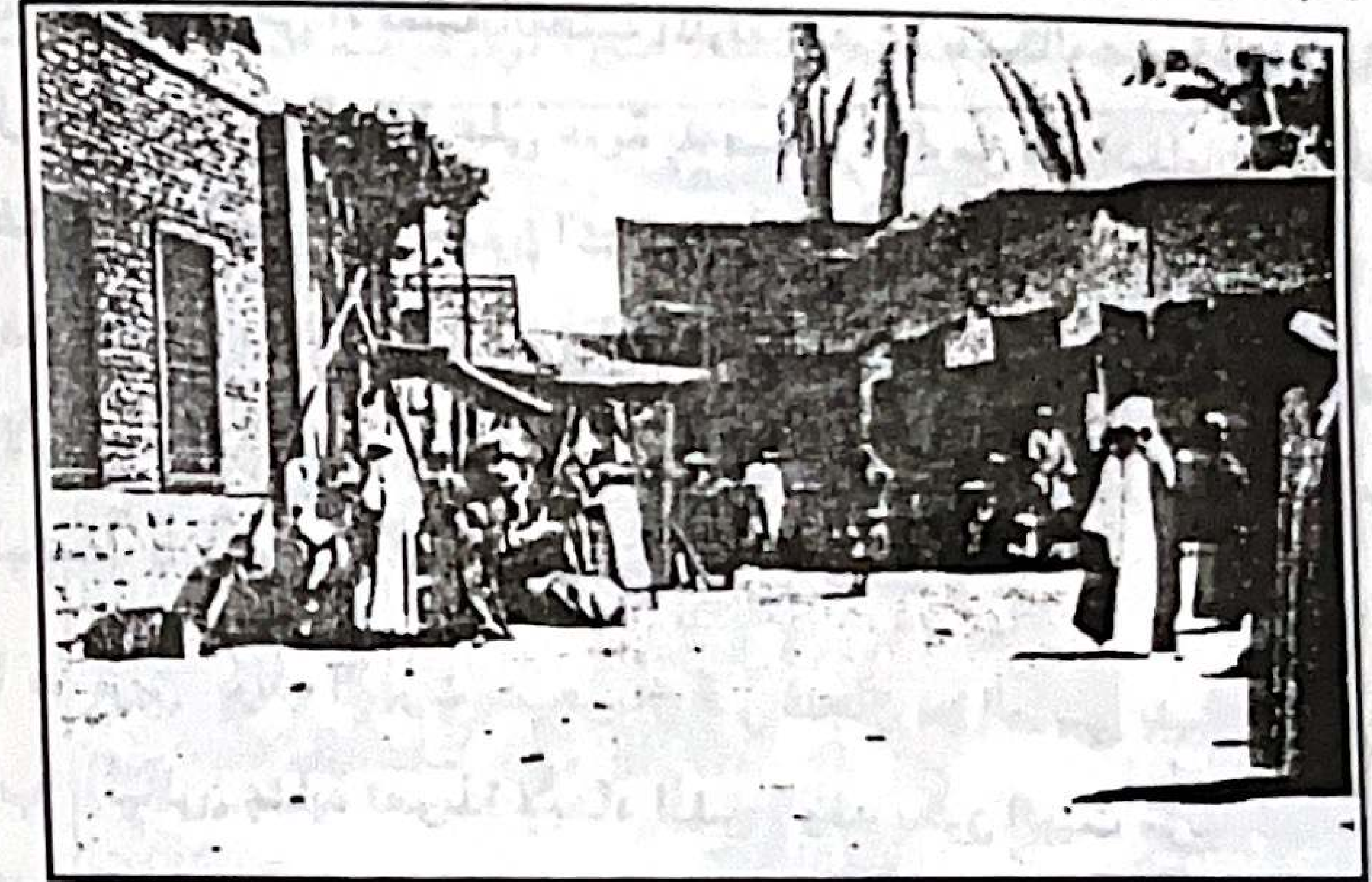
ويقطع الباعة الجائلون شوارع القرية الملتوية جيئة وذهابًا وهم ينادون نداءات مميزة . فمثلاً يعلن بائع البصل عن بضاعته بالنداء : " يا بصل يا حلو زى العسل ! " وعادة ما تكون هذه النداءات منغمة ، حتى أن من لايعرفها يظن أنها غناء شجي وليس إعلان بائع عن بضاعته . وهناك بائع آخر يتاجر فى الأقمشة القطنية الملونة المنقوشة بأشكال عديدة لتناسب كل الأذواق. وهو يحمل بضاعته فى العادة على عربة يد صغيرة . ومن هذه البدايات المتواضعة أصبح الكثير أغنياء . فالفلاحون يحبون اكتناز المال ، ولا تكلفهم حياتهم اليومية إلا القليل . وبمرور الوقت تتجمع المبالغ الصغيرة فوق بعضها بحرص لتصبح مبلغًا كبيراً يتم استثماره لتحقيق الأرباح . فعن طريق صفقة قطن يحالفها الحظ ، أو أى مشروع آخر ، يجد هذا البائع المتجول البسيط نفسه وقد أوشك أن يصبح رجلاً ذا حيثية .

وغالبًا ما تزين أبواب البيوت بصحن أو طبق فنجان من الصينى يثبت فى الجزء الذى يعلو عقد الباب ، ليكون بمثابة تعويذة لإبعاد الشر . وقد يكون البيت مزينًا كذلك برسوم ملونة للجمال والبواخر والقطارات والأشجار وغيرها من أشياء بعضها لايمكن تمييزه . وهذه الأعمال الفنية تشير إلى أن واحداً أو أكثر من أفراد الأسرة التى تقيم فى البيت قد حج إلى مكة . والرسومات تمثل الأشياء التى رآها الحاج وهو فى طريقه إلى المدينة المقدسة .

والجزء الداخلى من القرى كثيراً ما يكون منظره رائعًا ، رغم الأوساخ والقاذورات التى توجد فيه . إلا أن العرب بعيدون عن هذه الصفة ؛ فقراهم وأماكن إقامتهم أكثر نظافة من قرى الفلاحين المصريين بكل المقاييس ؛ والفرق بين هاتين الجماعتين من الوضوح بحيث يمكننى أن أعرف إن كانت القرية يسكنها عرب أم فلاحون مصريون بمجرد دخولها .

ولابد من وجود مسجد فى كل قرية . وفى أماكن كثيرة نجد أن هناك ثلاثة أو أربعة مساجد . ويؤذن المؤذن للصلاة خمس مرات يوميًا من كل مسجد . وإذا كان بالمسجد مئذنة ينطلق الآذان من فوقها . وهذه الأصوات القوية الواضحة قد تتعدى حدود القرية .

وفى أحيان كثيرة نجد جبانة قديمة في وسط القرية . وربما يشير هذا إلى حدود القرية القديمة. فالبيوت الموجودة بعد الجبانة قد شيدت فى وقت لاحق بسبب ازدياد عدد سكان القرية. وأحيانًا يكون هناك مبنى مطلى بالجير تعلوه قبة فى أعلى مكان من الجبانة . ويرقد فى هذا المكان أحد الأولياء المبروكين الذى أقيم تكريمًا له . وتوقد الشموع فى هذا البناء ليلة الجمعة إحياء لذكرى الشيخ . وفى أغلب الأحيان تكون مثل هذا الأنوار الضوء الوحيد الموجود خارج بيوت القرية لإرشاد الذين يسيرون ليلاً . وهذه المبانى ، التى كثيراً ما يوجد العديد منها داخل القرية وحولها ، من الملامح المعمارية البارزة ؛ حيث تقف بجدرانها البيضاء التى تعلوها القباب لتشكل نقيضًا شديد الوضوح للبيوت الطينية التى يسكنها الفلاحون .



(الشكل ١١) شارع إحدى القرى به دكاكين وأكشاك الجزارين

وتقع الدكاكين بأنواعها المختلفة فى الشوارع أو الحارات الواسعة . وهى ذات واجهات مفتوحة تغلق بأبواب خشبية عندما لايكون أصحابها داخلها (الشكل ١١) . ومن خلال

واجهات الدكاكين المفتوحة يمكن رؤية الخياطين وهم يصنعون الجلاليب لزبائنهم . وفى بعض القرى قد نجد النحاسين حيث يصنعون القدور والأباريق . وهم يطرقون هذه الأوانى على قضبان حديدية مثبتة فى الأرض . وكل قضيب ملتو عند طرفه ومفلطح ليصبح كالسندان ليتم طرق القدور أو أية آنية عليه .

ونجد أمام بعض البيوت مقاعد من الطوب والطين تسمى مصاطب . وعادة ما نجد عليها مجموعة من الأطفال والدواجن والماعز والأغنام وهى تلهو بسعادة . وربما لايجلس على المصطبة إلا رجل مسن يغزل الصوف أو يمسك بمسبحة فى يده وتمر حباتها بين سبابته وإبهامه فى بطء (الشكل ١٢).



(الشكل ١٢) رجل يجلس على مصطبة وفى يده مسبحة

وفى موسم الحصاد يسمع حفيف أعواد القمح الجافة فى أرجاء شوارع القرية ، حيث يقوم الرجال والنساء بفصل الحبوب عن حزم القمح التى أخذوها كأجور عن عملهم فى الحقول[٣] .

ويمر بحر يوسف (الشكلان ٤ و ١٣) أمام قرية أقمت فيها مراراً . وهناك قدر كبير من الفلكلور الذى يرتبط بتلك الترعة . فيعتقد أن لمائها قدرة على علاج إلتهابات العين والحمى وغيرها من الأمراض . وحسبما يقوله الفلاحون ، فإن هذه الترعة شقت بمعجزة من قبل البطريرك يوسف . ويروى الناس أنه بدأ السير يومًا من ديروط ، حيث يتفرع بحر يوسف من ترعة الإبراهيمية . وبينما كان يسير كان يجر وراءه عصاه . وأخذ الماء ينساب على امتداد

هذا الخط حتى وصل إلى بحيرة قارون عند الجانب الشمالى الغربى من مديرية الفيوم . وفى هذه البحيرة يصب البحر والترع الصغيرة العديدة المتصلة به . وبسبب هذا المعتقد الذى يرتبط بأصل الترعة ، يعتقد الناس أن ما بها به بركات كثيرة (مثل القدرة على الشفاء وجلب الحظ) . لذلك فإنه فى يوم شم النسيم ، الذى يصادف يوم الاثنين الذى يلى عيد الفصح[٤] عند الأقباط ، يستحم الرجال فى الترعة . إذ يعتقد أنه فى هذه المناسبة يكون حجم البركة أكبر .



(الشكل ١٣) منظر لبحر يوسف ، حيث يوجد شادوف وساقية على الجانب الأيمن من الصورة

موروث آخر يرتبط ببحر يوسف[٥] وهو ترجمة فى مخطوطة عربية . فقد كان يوسف عليه السلام وزيراً لمصر وينعم برضى ملكه الريّان . وبعد أن بلغ مائة سنة من العمر ، أصبح موضع حسد المقربين من الملك ورجال البلاط الأقوياء فى منف ، بسبب النفوذ الذى صار يتمتع به والحب الذى منحه له مليكه . لذلك قالوا للملك : " أيها الملك العظيم . إن يوسف الآن قد بلغ من العمر عتياً . لقد نضب علمه وذهب جماله ولم يعد يحكم بالسوية وصارت حكمته فى خبر كان " . قال الملك : " اجعلوا له مهمة تصلح أن تكون اختباراً " . وفى ذلك الوقت كان يطلق على الفيوم اسم الهون ، أى المستنقع . حيث كانت بمثابة مصرف لمياه صعيد مصر ، التى كانت تدخلها وتخرج منها دون أى حائل . وبعد أن تشاور رجال البلاط فيما بينهم بشأن ما

يقترحونه على الملك ، جاء ردهم عى فرعون كالتالى : " ليكن الأمر الملكى ليوسف هو إخراج مياه النيل من الهون وتجفيفها ، كى يوجد لك إقليماً جديداً ومصدراً إضافياً للعوائد " .

أذعن الملك لمطالبهم وأرسل فى طلب يوسف وقال له : " إنك تدرى كم أحب ابنتى وتعلم أن الوقت قد حان لأقطع لها جزءاً من أملاك التاج وأعطيها إقطاعية تكون سيدة عليها . إلا إننى لا أملك الآن أرضاً تصلح لهذا الغرض سوى أرض الهون التى تغطيها المياه . إن موقعها مناسب لعدة أسباب : فهى على مسافة قريبة من العاصمة . وهى أيضاً محاطة بالصحراء . لذلك فإن ابنتى ستكون مستقلة ومحمية " .

أجابه يوسف بقوله : " هذا صحيح أيها الملك العظيم . متى تريد أن يتم ذلك ؟ سوف يتم كل شيء بعون الله القوى " .

قال الملك : " كلما أسرعت بذلك كان أفضل " .

وهنا أوحى الله ليوسف بفكرة . لقد ألهمه بأن يحفر ثلاث ترع . واحدة من الصعيد وأخرى فى الشرق وثالثة فى الغرب . جمع يوسف العمال وحفر ترعة المنحى من الأشمونين إلى اللاهون . وبعد ذلك حفر ترعة الفيوم والترعة الشرقية إلى جانب ترعة أخرى بالقرب منها اسمها بنى حامد ناحية الغرب . وبهذه الطريقة تم صرف الماء من الهون . وبعد ذلك دفع بجيش من العمال إلى العمل فقاموا بقطع الشجيرات التى كانت هناك ونقلوها إلى مكان بعيد . وفى بداية موسم زيادة النيل تم تحويل المستنقعات إلى أرض زراعية جيدة . وعندما زاد النيل دخل الماء مصب ترعة المنحى وتدفق من وادى النيل إلى اللاهون ومن هناك استدار إلى الفيوم ودخل تلك الترعة بالقدر الذى جعلها تمتلىء وتحول الأرض إلى إقليم يرويه ماء النيل .

بعد ذلك جاء الملك الريّان ليرى إقليمه الجديد وبصحبته حاشيته التى كانت قد نصحته بأن يكلفه بهذه المهمة . وعندما رأوا النتيجة راعتهم مهارة يوسف وعبقريته الإبداعية وقالوا : "إننا لا ندرى بماذا نبدى إعجابنا ؛ أبنزح الماء من المستنقعات وإزالة النباتات الضارة ، أم بتحويل سطحها إلى حقول خصبة تروى ريًا جيداً " .

عندئذ قال الملك ليوسف : " كم استغرقت من الوقت فى تحويل هذه المنطقة إلى هذه الحالة الممتازة التى أراها عليها ؟ " .

قال يوسف : " سبعين يومًا " .

وهنا استدار فرعون نحو حاشيته وقال : " من الواضح أنه لا يمكن عمل ذلك فى ألف يوم " .

وهكذا تغير الاسم من الهون ، أو " المستنقع " إلى الفيوم " أرض الألف يوم " .

---

(١) انظر الفصل السادس عشر .

(٢) أعتقد أن هذا هو الأسلوب المتبع مع العصافير وليس مع الحمام (المترجم)

(٣) انظر الفصل العاشر .

(٤) عبد القيامة المجيد . (المترجم) .

(٥) نقله Sir R.H.Brown فى The Fayum and Lake Moeris (London, 1892) pp, 22-24,

الفصل الثانى

النساء والأطفال

غالبًا ما نسمع الأجانب وهم يتحدثون عن « المرأة المصرية المسكينة المضطهدة » . إنهم يتحدثون عنها كإنسانة تقوم بأعمال تفوق طاقتها وتساء معاملتها ، ويصورون زوجها على أنه وحش لايفكر فيها ولايحمل لها أية مشاعر . أود أن أذكر قرائى بأننى أتناول فى هذا الكتاب الفلاحين وحدهم . إننى لا أنوى مناقشة أو نقد الدعوة إلى تحرير المرأة التى تجد حاليًا تأييدًا بين السيدات المصريات اللاتى ينتمين إلى الطبقات العليا . إن الذى أقوله هنا يتعلق بالفلاحين الذين أقمت بينهم عدة سنوات ، لا بسواهم . ليس هناك من هو أكثر منى شوقًا لرؤية وضع المرأة المصرية وقد سما . فإلى أن يأتى اليوم الذى يتم فيه إعدادها لكى تحتل منزلة أعلى فى بلادها ، أظن أن فرصة مصر فى احتلال مكانة أكثر سموًا بين دول العالم ستكون ضئيلة .

إن تعليم البنت ولا بد أن يكون عمليًا تمامًا فى البداية ، على أن يكون تعليم الكتب بخطوات بطيئة . لابد أن تتعلم الفتاة أفضل الطرق للقيام بواجباتها المنزلية ، وهى بسيطة ، كطهى الطعام بطريقة نظيفة وإدراك أن اليدين لابد أن تغسلا جيدًا قبل لمس الطعام أو خلط الدقيق وإعداد العجين لعمل الخبز ، وأن الملبس النظيف وليس القذر هو ما يجب أن ترتديه عندما تقوم بأعمال المطبخ .

ولابد أيضًا أن تعرف أنها إذا قضت من نصف ساعة إلى ساعة كل صباح تكنس أرضية بيتها المصنوعة من الطين والأرض المقابلة لبيتها ثم تحرق القمامة ، فإن بيتها يصبح صحيًا وأكثر إشراقًا ، وكذلك قريتها . إنها الآن تفتقر إلى قدر من المعرفة الصحية ولاتتبع أى منهج فى قيامها بمعظم واجباتها المنزلية ، إن لم تكن جميعها . وهذه الأمور التى تحتاج فيها الفتاة القروية إلى التوجيه والإرشاد قبل أى شىء آخر .

إن الوضع الأدنى الذى تحتله المرأة الفلاحة فى مجتمع القرية ، مقارنة بوضع الرجل ، محصلة طبيعية لجهلها الأشد وطأة .

وتتمتع الفتاة الصغيرة بحياة حرة تماماً حتى تصل إلى سن الزواج ، حيث تصبح حريتها محدودة . وبعد الزواج يزداد احتجابها . إلا أن درجات الاحتجاب تتفاوت . فهى أشد بين الفلاحين الموسرين عما هو عليه الحال بين أبناء الطبقات الدنيا . فهناك قدر أكبر من الحرية فيما يتعلق بالتعاملات بين الجنسين فى الطبقات الدنيا . ولابد أن أذكر هنا أن هناك درجات اجتماعية محددة فيما بين الفلاحين . وهى خطوط فاصلة شديدة الوضوح . مثال ذلك أنه فى إحدى الأسر المعروفة لى جيداً لايسمح لأى من الإناث بدخول أى غرفة بها ضيوف ذكور . وحتى الأم لا تدخل إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحة لدخولها . وإحدى نساء هذه الأسرة أرملة في الثلاثين من عمرها ، أو أكثر قليلاً ، ويرفض أخوها حتى رؤيتها تسير فى شوارع القرية ، إلا إذا كانت ذاهبة بصحبة أمها لإحضار الماء أو لقضاء أمر ضرورى آخر . وقال لى إنه إذا سمح لها بأن يراها الناس وهى تسير فى الأماكن العامة فإن أسرته سوف تفقد مكانتها على الفور وسوف يسقطون فى نظر الناس . وطبقًا لأفكارنا الغربية ، فإن هذه القيود تعد شكلاً من أشكال الاستبداد . إلا أن هذا ليس حكمًا عادلاً . فالحجاب أحد أمارات الاحترام بين المصريين ، وهو يوحى بقيمة النساء لدى الرجال . ولسوء الحظ أن معظم النساء يتمتعن بمزاج صعب وخطير يجعلهن غير قادرات على تحقيق أى شىء ، إلا إذا أصبح لهن تأثير متنامى فى مجتمع القرية وتعلمن كيف يسيطرن على أنفسهن .



(الشكل ١٤) أم وأطفالها

ومع أن المرأة تبدو من الناحية النظرية خاضعة تمامًا للرجل ، فإننا نجدها من الناحية العملية تتحكم فى زوجها . وأعرف كثيراً من الرجال الذين يموتون فى جلدهم من زوجاتهم . وأنا فى الحقيقة أميل إلى الاعتقاد بأن الرجل المصرى المضطهد المسكين هو الذى يستحق عطفى . فما حكاية الزوجة المضطهدة إلا خرافة .

وفى أكثر من نصف الحالات يتزوج الرجل فتاة من قريته . ويفضل الزواج من ابنة عمه . وعند حدوث أدنى قدر من المضايقة مثلاً ، تغادر الزوجة بيتها إلى بيت والدها أو بيت أخيها وتبقى هناك حتى يضطر زوجها ، خوفًا من بطش أقارب الزوجة فى القرية ، إلى الموافقة على عمل أى شىء تطلبه منه . وربما تطلب منه الزوجة قرطًا أو حزامًا من الذهب أو خلخالاً أو ملابس فاخرة . ويرغم فقر الزوج ، فإنه يضطر إلى شراء واحد أو أكثر من هذه الأشياء ، خوفًا مما قد تفعله زوجته . وقد غرق كثير من الرجال فى الديون لهذه الأسباب .

أحد معارفى يمتلك مساحة لا بأس بها من الأراضى الزراعية ، وهو يعد واحداً من علية القوم فى القرية ، وقد طلق زوجته منذ عام أو عامين . كانت الزوجة امرأة رقيقة ، ولكن كون أهلها فقراء لم يجعل لديها أراض زراعية خاصة بها . وكان شقيق زوجها قد توفى فورثت أرملته فدانًا من الأراضى الزراعية وقليلاً من المال . كانت عين ذلك الرجل على الأرض التى كانت يومًا من أملاك الأسرة ، حيث كانت فى الأصل ملكًا لأبيه . والطريقة الوحيدة للاحتفاظ بها هى الزواج من أرملة أخيه . فهو لم يكن يريد أن تكون له زوجتان ، لما يحمله ذلك من التكاليف . كما أن الزواج من امرأة واحدة أصبح أكثر شيوعًا فى مصر . وأصبح ينظر إلى تعدد الزوجات على أنه عمل غير حضارى ، حتى بين الفلاحين . لذلك لم يكن أمامه إلا أن يطلق زوجته الأولى . كانت المرأة المسكينة فى حالة من البؤس الشديد وتوسلت إلىّ أن أتوسط لها عنده . وبالفعل تحدثت إلى ذلك الرجل عن هذا الموضوع ولكن يبدو أن إغراء الفدان كان أقوى من أن يقاومه . وبناء على ذلك طلقها [1]. ظل فترة بعد ذلك يخجل من رؤيتى . وكان يتحاشى رؤيتى عندما يعلم أننى ذاهبة إلى القرية . ولكن الحظ جعل مطلقته تتزوج بعد فترة ليست طويلة . بل وكان زوجها رجلاً وضعه أفضل من زوجها الأول الذى جاء الانتقام فى شخص زوجته الجديدة (الشكل ١٥) . فقد كانت هذه المرأة الغيورة بصورة غير عادية كانت إذا تأخر زوجها التعيش بضع دقائق عن الموعد ، الذى تظن أنه لابد أن يعود فيه من عمله ، تأكل الغيرة قلبها وتتخيل أنه ذهب لرؤية مطلقته ، أو « يشق عليها » حسب

تعبيرها . لهذا السبب تركت بيتها أكثر من مرة وذهبت إلى بيت أخيها الذى بقيت فيه لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، قبل أن يتمكن زوجها من إقناعها بالعودة بوسيلة أو بأخرى .



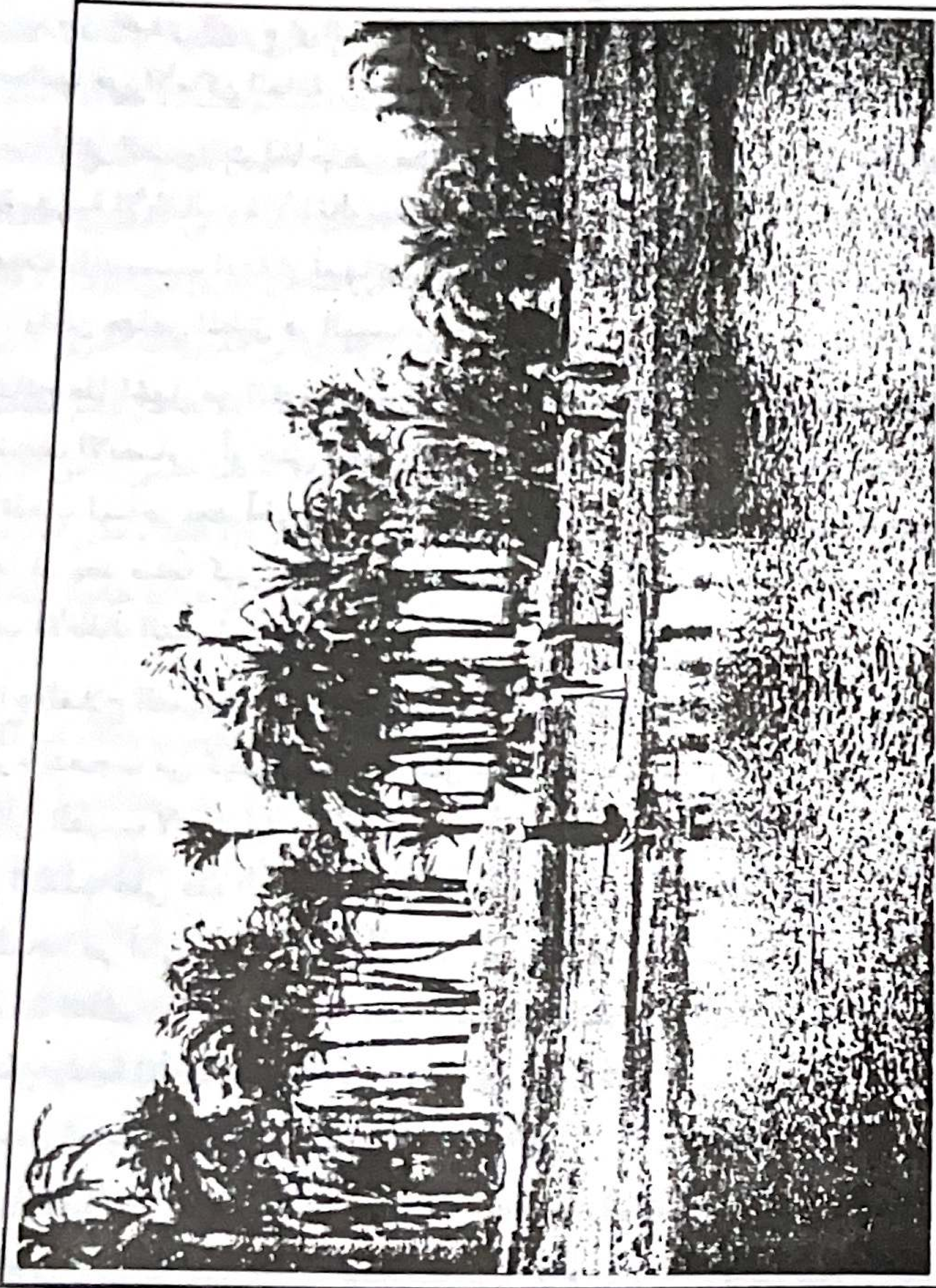
(الشكل ١٥) زوج وزوجته الغيورة

وأثناء زيارتى لقرية هذا الرجل ، قيل لى إن زوجته تركته وبقيت فى بيت أخيها لمدة ستة أيام ، لأن الرجل ذهب لبيع كمية من الذرة لعميل يسكن فى نفس الشارع الذى تسكن فيه طليقته مع زوجها الجديد . ولم تعد الزوجة الغيورة إلى بيت زوجها إلا ليلة زيارتى ! وأيد أخوها موقفها بحماس شديد وطلب من زوج أخته أن يمتنع حتى عن مجرد النظر ناحية طليقته!

إنى أتخيل أنه لم يكن هناك سبب واقعى لشكوك المرأة الغيور . إلا أنها جعلت زوجها فى حالة من الخوف الشديد من أن يثير غضبها ؛ مع أننى سمعت أنه ذات مرة كانت لديه الشجاعة الكافية لأن يمارس « حقوقه » كزوج ، فقام بجلدها عقابًا علي خطأ ارتكبته !

وفيما يتعلق بتقسيم العمل بين الجنسين ، فإن الرجل هو الذى يقوم بالجزء الأكبر والأشق . فأغلب العمل المضنى فى الحقل يقوم به الرجل دائمًا . وتلحق النساء والفتيات برجالهن فى الأراضى الزراعية بعد شروق الشمس ؛ إلا أن عملهن يقتصر على جمع الجذور الجافة ورعاية الماشية وإحضار الماء لأفراد الأسرة وغيرها من الأعمال (الشكل ١٦) . والمعروف أن معيشة الفلاحين بسيطة. لذلك فليس هناك ما يستدعى قيام المرأة بأية أعمال شاقة . ومع ذلك فهى

تهمل كثيراً مما ينبغى أن تقوم به ، لأنها لا تتلقى أى تدريب خاص بواجباتها المنزلية ولا تدرك أهمية العمل الذى فى يديها .



(شكل ١٦) نساء يحملن جرار الماء على رؤوسهن

وبالطبع يكون من الصعب جداً على الفلاحين أن يكونوا بالقدر الذى يجب أن يكونوا عليه من النظافة . فلا بد أن تحضر النساء كل ما يحتاجونه من ماء من أماكن بعيدة إلى حد ما . وليست هناك توصيلات مياه نقية فى القرى ، ولا وجود للحمامات ، والبيوت تفتقر إلى أدنى

احتياجاتها الضرورية [illegible] لذلك فلا بد من التماس العذر للمرأة المصرية التى ليست لديها الميزات التى تتمتع بها [illegible] امرأة فى انجلترا . إلا أن فطرة الفلاحين المصريين هى النظافة، ويأمرهم الدين الإسلامى بالطهارة . وأى رجل يخلع ملابسه ويستحم إذا تصادف وجوده بالقرب من إحدى الترع أو النهر . إلا أن هذه الميزة محرمة على المرأة ، لأن الأدب يمنع استحمامها فى الأماكن العامة .

ومن أكثر الضرورات إلحاحًا فى مصر هى أن النساء والفتيات ينبغى أن يتلقين إرشادات خاصة بتربية الأطفال . فالأطفال يعانون معاناة شديدة بلا داع فى سنوات طفولتهم الأولى . ولايحدث ذلك بسبب افتقار أمهاتهم إلى عاطفة الأمومة ؛ فالمرأة المصرية بصورة عامة أم رؤوم . ولكن جهلهن المطبق هو السبب .

ونتائج هذا الجهل من القوة بحيث لا يمكن ألا تترك بصمات يصعب محوها على الطفل ، مثل ضعف الإبصار ، أو حتى العمى التام . ولكى تقى المرأة طفلها من المرض وتعالجه منه فإنها تذهب لساحر بعد آخر وتشترى منهم تمائم وأحجبة ، دون أن تحزن للحظة واحدة على إنفاق ما قد يعد مبلغًا كبيراً بالنسبة لها . وهناك أعداد كبيرة من هذه الأحجبة والتمائم معلقة فى رقاب الأطفال التعساء .

وأنواع العلاج العديدة ، المعروفة جيداً لكل نساء القرى اللاتى يستخدمنها ، لها طبيعة تجعل المرء يتعجب من كيفية نجاة أى طفل من الموت بعدها . وأغلب النساء يعارضن بشدة الذهاب إلى الطبيب لاستشارته ، إذا افترضنا أن هناك طبيبًا فى المنطقة . وقد وجدت صعوبة كبيرة فى التغلب على هذه الفكرة ، حتى فى حالة من يعرفوننى جيداً ويثقون فىَّ ثقة مطلقة . والأمر المشجع هو أننى سمعت أن الحكومة المصرية خصصت مؤخراً مبلغًا من المال لإنشاء مراكز رعاية الطفولة . وإذا عملت هذه المؤسسات بنظام ، وتمت الاستفادة بها فى تدريب الفتيات على رعاية الأطفال بطريقة صحيحة ، فإنها ستكون خطوة كبيرة فى الاتجاه الصحيح، وسوف تضمن لمجتمع الفلاحين أن يكون أفراده أقوياء ويتمتعون بالصحة . كما أنها سوف تقضى على هذا القدر الذى لامبرر له من المعاناة . وطوال السنوات التى عشتها بين هؤلاء الناس ، أحضروا لى مئات الأطفال المرضى من كل الأعمار . كان قلبى يتمزق وأنا عاجزة عن معالجة تلك الأمراض الرهيبة التى كانوا يعانون منها ؛ حيث لم أتلق التدريب الطبى الذى يساعدنى فى ذلك . وكما سنرى فى الفصول التالية ، يرجع جزء كبير من تلك الأمراض إلى الخرافات مثل منع الاستحمام والتشدد فى ذلك .

وتقوم المستوصفات التى كانت تديرها الإنجليزيات فى الماضى بالكثير من الجهد . ولكن هذه المستوصفات محدودة العدد وتحجم الأمهات فى الغالب عن أخذ أطفالهن للحصول على الاستشارة والدواء إلى أن يفوت الأوان ، أو حتى يشتد المرض على الطفل . وأنا شخصيًا أتيح لى رؤية شىء مما قامت به سيدة إنجليزية فى إحدى تلك المستوصفات خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى التى أقمتها فى مصر . وإنى أشهد على العمل الرائع الذى قامت به وأعلم مقدار الحب والاحترام الذى تكنه لها مئات النساء المسكينات اللاتى أحضرن أطفالهن لها كى تقوم بعلاجهم . ومما سمعته عن مؤسسات مشابهة فى مناطق أخرى من البلاد ، فإننى متأكدة من قيام الكثير من النساء الأخريات بنفس العمل الجليل فى مديريات أخرى . وعدد هذه المستوصفات ليس بالقدر الذى يفى بالاحتياجات الملحة . ولابد من دعم الحكومة للمستوصفات القائمة بالفعل ؛ فهى فى الواقع لا تتلقى أى دعم ، حسب علمى ، من الأفراد. والأمر مختلف فى انجلترا ، حيث يتم دعم مستشفيات الكبار والأطفال على حد سواء بالتبرعات . وحاشا لله أن تكون مصر مفتقرة إلى أعمال البر . غير أن هناك حاجة ملحة إلى الأعمال الخيرية المنظمة ، كما هو الحال فى إنجلترا .

وبدراسة حالة الجهل التى يعيش فيها سكان القرى ، فليس من المستغرب بحال من الأحوال أن نجد أن رؤيتهم الفعلية فى غالبها متدنية . وفيما يتعلق بالمرأة ليس هناك ما يرفعها . وتشكل الأمور الجنسية الموضوع الرئيسى لأحاديث النساء ، وهذا له أثر أخلاقى شديد السوء عليهن وعلى أطفالهن الذين يناقشن فى وجودهم أشد الأمور خصوصية بلا أدنى تحفظ . وهكذا يسمع الأطفال منذ سنوات عمرهم الأولى موضوعات يتم الحديث عنها والتنكيت عليها بطريقة تثير تقزز المتعلمين . أليس من الأفضل أن ينشأ الأطفال فى ظروف تجعلهم رجالاً ونساءً ذوى عقول صافية ؟ لقد قيل لى إن النساء أشد جرأة من الرجال فيما يتعلق بهذا الموضوع ؛ فالرجال لا يناقشون ما يفعلونه مع نسائهم مع الأغراب . ومع ذلك فنادراً ما كانت النساء يناقشن ذلك فى وجودى . وسواء أكان ذلك صحيحًا أم لا ، فأنا لست فى وضع يسمح لى بالحكم . غير أنه يمكننى على أية حال القول بأن الأطفال ، وخاصة البنات اللاتى يتواجدن مع أمهاتهن أكثر من الأولاد ، يستمعون إلى أشد الأمور الجنسية خصوصية وهى تناقش بوضوح وبطريقة تسمم عقولهم فى مستهل حياتهم . والزواج بالطبع هو الهدف الأوحد للفتيات . وتلقى الرغبة فى الحصول على زوج التشجيع بشتى الطرق من جانب الأمهات .

ومن المناظر التى تدعو للشفقة أن ترى فتاة صغيرة مزينة بكل الحلى التى يمكنها جمعها وقد ارتدت جلبابًا بألوان زاهية ومزين بالخرز والترتر (الشكل ١٧) وتضع على وجهها طرحة بطريقة مغرية ، ثم تقف فى أحد شوارع القرية أو أمام بيتها بهدف اجتذاب أحد الرجال . وتلقى الفتيات فى ذلك مساعدة أمهاتهن وعونهن . فهن يعتبرنه فخراً لهن ولبناتهن إذا طلبت الفتيات للزواج فى سن صغيرة . وتسعى الحكومة المصرية إلى منع الزواج المبكر الذى كان معتاداً فى الماضى . وهناك قانون يمنع زواج الفتيات قبل السادسة عشرة والأولاد قبل الثامنة عشرة . إلا أن أحداً لايحترم هذا القانون فى القرى الصغيرة النائية . وأنا متأكدة من ذلك ، لما أعرفه من حالات كثيرة . وأظن أن القاضى الذى يعقد القران يبلغ بعمر العروس غير الحقيقى . وبسبب الأجر الذى يحصل عليه نظير هذا العمل ، فإنه قد لا يراجع البيانات الخاصة بعمر الفتاة التى يقدمها له والدها .



(الشكل ١٧) فتاة صغيرة ألبسوها لتجتذب زوجًا

ويستمر سن الإنجاب فترة طويلة ، حيث إن البنات يبلغن مبكراً . ومن الشائع فى مصر أن تلد امرأة وهى فى الخمسين من عمرها . وقد يكون موت أعداد كبيرة من الأطفال ميزة من الناحية الاقتصادية . فلو لم يحدث ذلك لازداد عدد السكان ازدياداً كبيراً فى هذا البلد . ولكن ما نأمله هو أن تتم تنشئة الأطفال الذين تكتب لهم الحياة فى بيئة أكثر صحية من الناحيتين الأخلاقية والجسمانية ، دون تلك المعاناة التى لامبرر لها يتعرضون لها بسبب جهل الأمهات .

وبرغم الأحاديث غير اللائقة الكثيرة حول المسائل الجنسية ، هناك قانون أخلاقى صارم ، خاصة فيما يتعلق بالفتيات غير المتزوجات . والخروج على هذا القانون غالبًا ما يكون جزاؤه العقاب الشديد . قد يبدو فى هذا بعض الظلم للفتيات ، إذا وضعنا فى الاعتبار المناخ الذى ينشأن فيه . فإذا أساءت فتاة ما الأدب قبل الزواج وظهر عند الزواج أنها ليست عفيفة ، فإن العار الذى يلحق بأسرتها يكون رهيبًا ، لدرجة أن أبويها يقتلانها فى أغلب الأحيان . وفى بعض المرات يمضون بتلك الطفلة التعيسة - إذ إنها بحق لاتكاد تتعدى مرحلة الطفولة - إلى الصحراء حيث يقضون عليها . واعتقد أن ذلك يتم عادة بذبحها . وقد يكون عقاب خيانة الزوجة على هذه الشاكلة ، وإن كان يتم أحيانًا بإغراقها . وإذا أمسكوا بعشيقها ، فقد يتم إلقاؤهما معًا فى النهر أو إحدى الترع .

ويقل المستوى الأخلاقى بصورة كبيرة فى بعض القرى عن غيرها . وقد لاحظت أن القرى التى يعيش فيها المصريون الخالصون ، أو الخالصون نسبيًا ، أكثر تأدبًا من الناحية الجنسية وأكثر أمانة وأقل ميلاً إلى الجريمة والعنف من تلك التى يختلط بسكانها أصحاب الأصول الزنجية أو العربية .

وعلى أية حال ، ليس من العدل الحكم على هؤلاء الفلاحين بقسوة زائدة . فهناك الكثير الذى لاينتظر منهم القيام به فى ظل ظروفهم الحالية التى يسودها الجهل . وأعتقد أنه إلى أن يأتى الوقت الذى يمكن فيه الاعتماد على المرأة كى يكون لها تأثير أوضح وأشد على مجتمعها ، لا ينتظر أن يرتقى الوضع الأخلاقى فى المجتمعات القروية .

وفى السنوات المتقدمة من العمر تتمتع أية امرأة بوضع مشرف فى الأسرة ، خاصة إذا كان لديها أولاد . ويعتبر حب الرجل واحترامه لأمه سمة مميزة بين المصريين . وحتى بعد الزواج، تظل الأم تحتل أعلى مكانة فى حب ابنها واحترامه . وقيل لى منذ عدة سنوات إنه إذا أساء

الرجل معاملة أمه ولم يبد لها أعلى قدر من التوقير والتكريم والاحترام ، فإن القرية بأسرها تحكم عليه بأنه إنسان فاسد . وفى بيت الإبن المتزوج تحتل الأم المكانة العليا . والزوجة التى لا تبدى القدر اللازم من الاحترام نحو حماتها لا تتمتع عادة بحب زوجها . وذات مرة قال لى أحد أصدقائى القدامى ، وهو رجل كان يكن دائمًا أعظم احترام وحب لأمه : " زوجتى طيبة وأنا مسرور منها ولكنها لابد أن تظل هنا (مشيرًا لأسفل) وأمى فوق (مشيرًا لأعلى) . ألم تحملنى هنا (ضاغطًا بيده على بطنه) تسعة أشهر ؟ ألم تتحمل الألم عند ولادتى وترضعنى من ثديها ؟ كيف إذن لا أحبها ؟ إنها دائمًا أولاً وفوق كل شىء بالنسبة لى . زوجتى قد تتغير وقد تفقد حبها لى . أما أمى فهى كما هى . فحبها لى لا يمكن أن يتغير".

أخشى أن أكون قد أعطيت انطباعًا غير مقبول من نواحى كثيرة تتعلق بالفلاحين المصريين. ولكنى ركزت على الجانب الأكثر ظلامًا من الصورة إلى حد ما . ليس لأن الجانب المشرق لا وجود له ولا لأننى أبخس تقدير الميزات الكثيرة التى تمتع بها معظم أصدقائى القرويين ، وإنما يعود ذلك إلى حبى الحقيقى لهم ورغبتى الشديدة لى أن أرى حياتهم وقد تحسنت ، خاصة من الناحية الأخلاقية . وهذا هو الذى جعلنى أتحدث بصراحة عن موضوع اهتم به كثيرًا ، وهو توفير طفولة أفضل ، وتدريب ذهنى أعلى للفتيات لكى يصبحن زوجات وأمهات أفضل وأكثر حكمة .

إن لدىَّ من الأسباب ما يجعلنى أتحدث عن هؤلاء الناس بحب ، حيث كان احترامهم لى بلا حدود . وكثيرًا ما أتعجب من جدهم ومرحهم ، حتى وسط الفقر والحرمان الشديد اللذين يتحملانهما بشجاعة تستوجب الاحترام . والطيبة التى يعامل بها كل منهم الآخر فى وقت الشدة أمر شديد الوضوح . ومهما كان فقرهم ، فإنهم يشركون من كان وضعه أكثر سوءًا من وضعهم فى زادهم على قلته . ويبين هذا الجانب الأكثر نبلاً فى شخصيتهم كيف يمكن أن يصبحوا شعبًا ممتازًا إذا تلقت المرأة ، وهى صاحبة الأثر الأكبر فى أى مجتمع ، تدريبًا أفضل فى طفولتها وتعليمًا يناسبها بدرجة أكبر ووضع أمامها مثل أعلى فى الحياة .

---

(١) يبدو أنه تمكن من طلاقها لأنها عاقر - انظر الفصل السادس .

الفصل الثالث

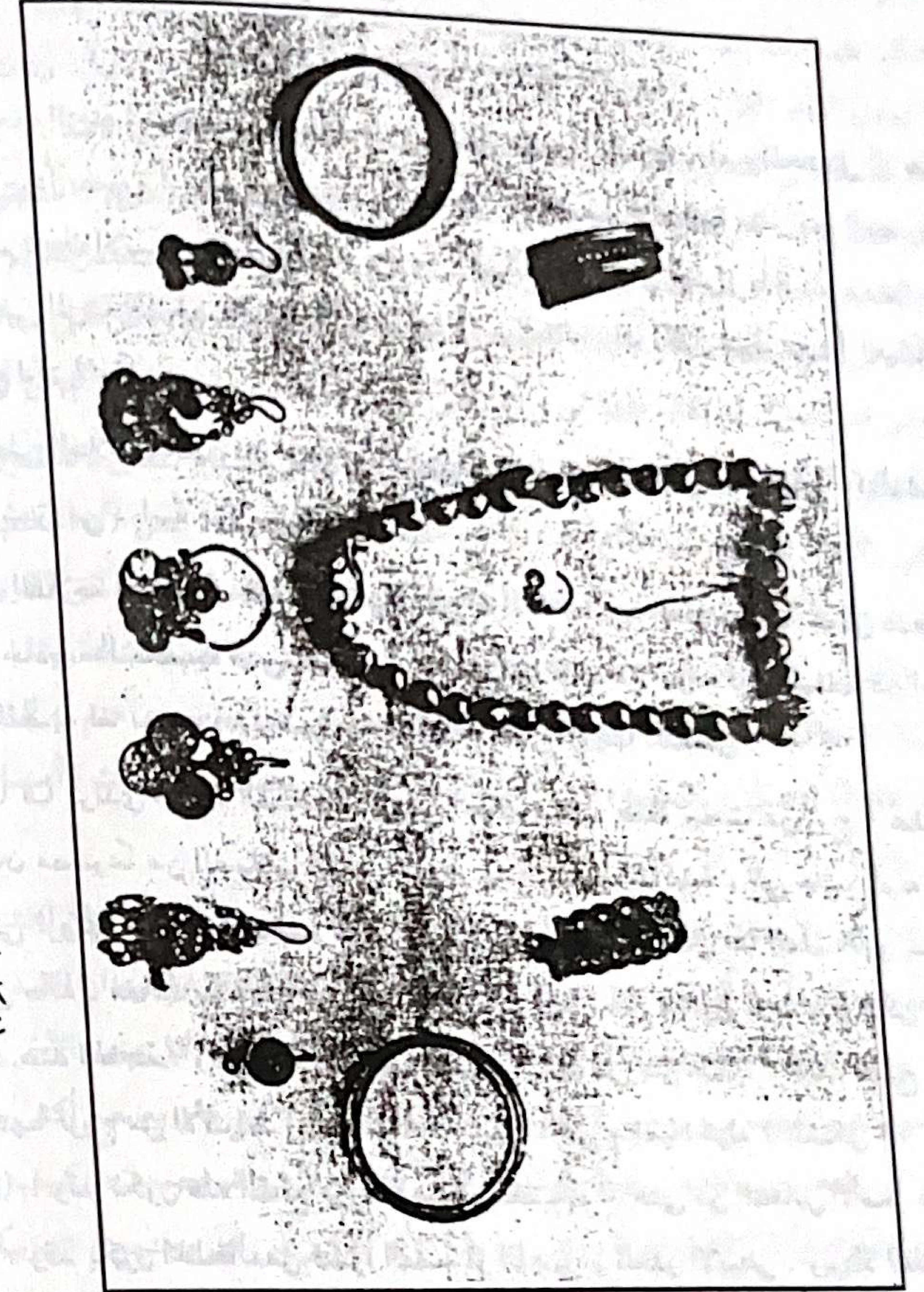
الزينة والنقوش الشخصية

يبدو أن حب الزينة الشخصية مسألة غريزية لدى الجنس البشرى ، ومن المحتمل أن هذا الحب كان موجودًا بصورة أو بأخرى كعنصر من عناصر الشخصية الإنسانية منذ أقدم العصور. ويمكن أن يتم تزيين الإنسان بطرق عديدة ، تؤدى أحيانًا إلى إلحاق أضرار بالجسم . ودراسة المغزى الحقيقى للزينة الشخصية بصورة عامة لها أكبر الفائدة وقد تكون هدفًا مفيدًا أحيانًا ، كما سأوضح لكم لاحقًا .

وتوفر حلى الفلاحين المصريين المحدثين البسيطة والنقوش التى فى أجسامهم ، كالوشم ، مادة فصل شيق فى دراسة هؤلاء الناس .

وليست الفلاحة متخلفة بحال من الأحوال عن المرأة الإنجليزية العادية فيما يتعلق بسعيها إلى إبراز الجاذبية الشخصية التى قد تتمتع بها . وكما قلت من قبل ، فإن طلباتها من الحلى الذهبية والفضية قد تسبب قدرًا كبيرًا من الارتباك المالى لزوجها التعيس .

وغالبًا ما ترتدى الفتاة الصغيرة - وهى العادة مجرد طفلة تبحث عن زوج - عقدًا ذا شكل معين مصنوعًا من العملات الذهبية . وهو زينة تتسم بالجاذبية ، إلى جانب كونه دليلاً ظاهرًا على ثروتها . وعندما يتقدم الرجل للزواج يهدي للعروس مثل هذا العقد الذى يستثمر فيه بعض ماله . فغالبًا ما ينظر إلى حلى المرأة على أنها شكل مأمون للاستثمار يمكن تحويله إلى نقود عند الحاجة . وكل فتاة يتم ثقب أذنيها وأنفها فى سن مبكرة ، حيث تصبح فخورة بامتلاكها لزوج من الأقراط (الشكل ١٨ أسفل) إلى جانب الحزام (الشكل ١٨ ، وسط القلادة) . وقد تكون هذه القطع من الذهب أو الفضة ، أو حتى من النحاس الأصفر فى حالة الفقراء ، وقد يكون الخلخال من قشرة الفضة أو الذهب أو المعدن الأبيض . ويزداد الطلب على الأساور ، وهى مصنوعة من زجاج مختلف الألوان (الشكل ١٨ ، أقصى اليمين وأقصى اليسار) أو حبات الخرز الصغيرة المنسوجة معًا بحيث تشكل شريطًا متماسكًا . كما تُصنع أيضًا من الذهب أو الفضة . وعادة ما تصنع حلى الفلاحين الأقل ثراء من المعادن الرخيصة ، إلا أن إحدى النساء قد يسعدها الحظ ويكون لديها سوار من الذهب أو الفضة .



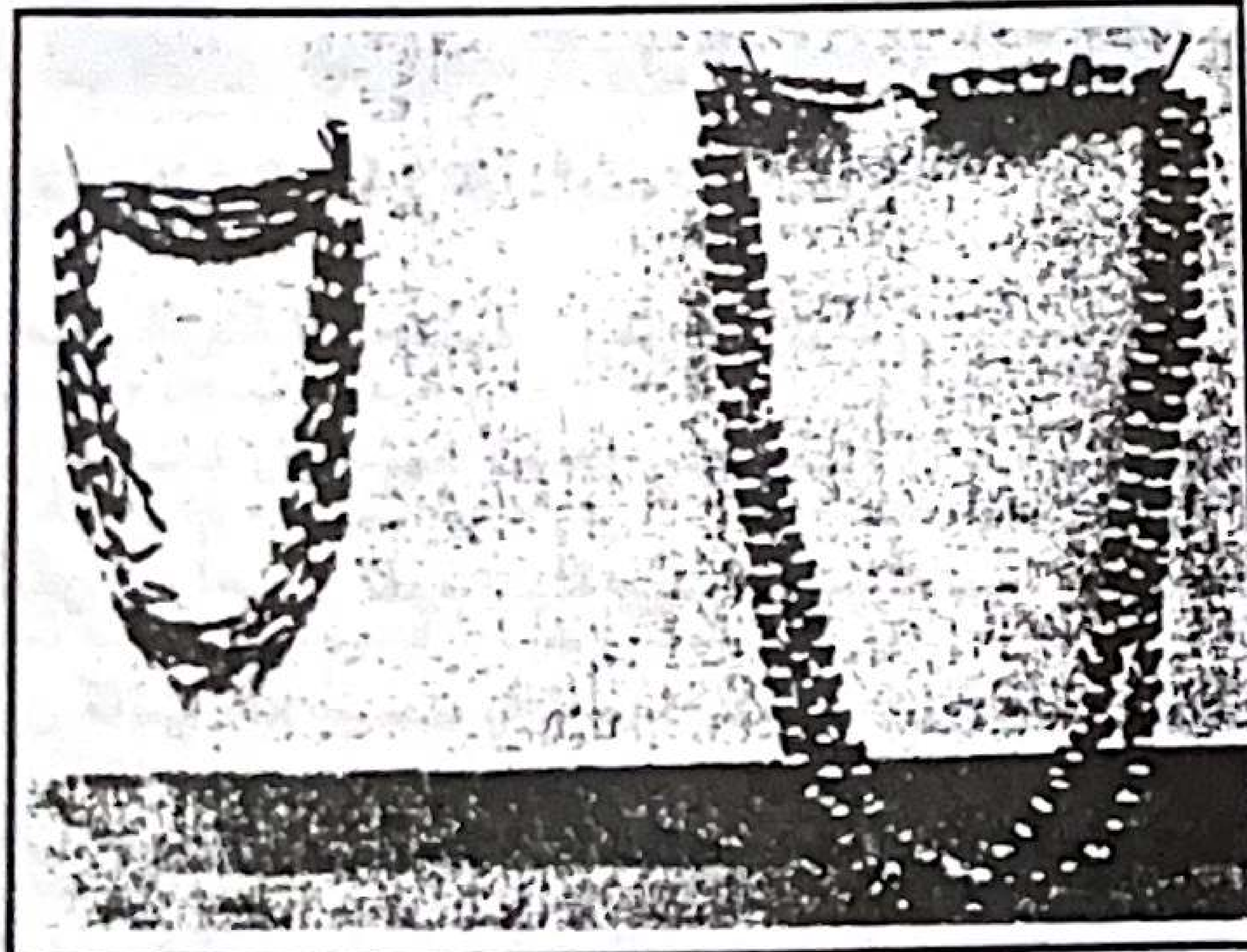
(شكل ١٨) زينة النساء : عقد وحزام وأساور معدنية وأساور زجاجية وأقراط

وفى جميع الأحوال لايمكن للفتاة غير المتزوجة فى كل أنحاء مصر أن تلبس عدة أساور فى وقت واحد . كما أن حليها بصفة عامة ليست بعدد أو كثافة حلى المرأة المتزوجة . إلا أنها عندما ترغب فى الزواج تبالغ فى زينتها من الحلى ، سواء أكانت رخيصة أم غالية . وهى لا تقنع بقرطها أو خزامها وقلادتها ، أو " كردانها " ، إذ تعلق حليًا ذهبية أو نحاسية أو فضية فى غطاء رأسها ، بحيث تتدلى على جبينها .

ونجد فى بعض أنحاء مصر أن الفتاة عندما تصبح عروسًا قد تلبس عدداً كبيراً من الأساور الزجاجية ذات الألوان المختلفة ، التى تغطى ذراعيها من الرسغين حتى الكوعين ! وهى قد تلبس أيضًا أساور من الذهب أو المعدن الأبيض ذات طراز خاص الآن . وقيل لى فى مديرية أسيوط إنه لا يسمح أبداً للفتاة غير المتزوجة بأن تلبس هذا الطراز من الأساور ، التى تعد دليلاً على وضع اجتماعى بعينه .

وتلبس المرأة التى يتلبسها شيخ[١] قطعة حلى على هيئة قلب أحمر ، توضع إما فى سلسلة من الفضة أو عقد من حبات حمراء . وغالبًا ما تلبس المرأة عقداً ذا حبات زرقاء فاتحة ، أو حتى به حبة واحدة من هذا اللون ، كتعويذة تقيها من عين الحاسد . ونرى من هذين المثالين ، وأمثلة كثيرة غيرهما ، أن الحلى لها قيمة نفعية إلى جانب قيمتها كزينة .

وعندما يموت الزوج يكون خلع الحلى واحداً من أول ما تفعله المرأة . فهى تخلع الخزام والأقراط والخواتم والأساور ، سواء أكانت من الذهب أم الفضة أم النحاس ، وتلبس بدلاً من ذلك عقداً حباته زرقاء داكنة أو سوداء (الشكل ١٩) . وهى لاتعود مرة أخرى للبس الخزام إلا إذا تزوجت برجل آخر . وفى بعض الأحيان تلبس أقراطًا وأساور زرقاء أو سوداء .



(الشكل ١٩) عقود الحِداد من الخرز الأزرق الداكن

ومعرفة هذه العادة شديدة الفائدة أحيانًا . فقد كنت فى زيارة سريعة لأحد ضباط الشرطة ذات يوم ، وتصادف وصولى فى اللحظة التى كان يحقق فيها فى جريمة قتل ضحيتها رجل عجوز أوقفه البعض فى مكان ما ليس بعيداً عن قريته وقتلوه . إلا أن أهل قريته شهدوا جميعًا بأنهم لايعرفون شيئًا عن ذلك . وقامت الشرطة باحتجاز الزوجة وابن القتيل من زواج سابق ، إلى جانب بعض أقاربه ، أثناء إجراء التحقيقات . كان التحقيق جاريًا مع ابن القتيل وزوجته ، وهى امرأة ذات ملامح زنجية شأنها شأن الكثير من سكان قريتها ، عندما وصلت . كان لدى الضابط شك قوى فى أن الزوجة متورطة فى الجريمة ، وكذلك الحال بالنسبة للإبن . وكانت المرأة أصغر كثيراً من زوجها ، الذى كان له وضعه بصفته فلاحًا . ظللت أراقب المرأة أثناء استجوابها وكان مظهرها لا يسر . وبعد التدقيق فى مظهرها وجدت أنها مازالت تلبس كل زينتها من الذهب وغيره ، بما فى ذلك خزامها . فإذا كانت فعلاً مهمومة بشأن زوجها البائس ، لخلعت تلك الحلى على الفور بمجرد سماعها نبأ وفاته . سألت صديقى ضابط الشرطة إن كان قد لاحظ ذلك أم لا ، ثم أوضحت له عدد الحلى التى كانت لا تزال تلبسها . فسعد جداً بهذه النصيحة التى أيدت شكوكه . ويدل هذا الحادث على أن معرفة ما يتعلق بالزينة الشخصية والعادات المرتبطة بزينة معينة قد تكون مفيدة جداً للمسئولين المهتمين بالتحقيقات الجنائية بين الفلاحين .

وهناك عادة شائعة بين الفلاحين ، وهى ثقب أذن الطفل إذا كان ابنًا وحيداً . ويوضع فى هذه الأذن قرطًا مزينًا (الشكل ٢٠). وعندما يكبر الطفل يخلع القرط ولكن الثقب يظل واضحًا . وليس هناك أى تفسير لهذه العادة ، وإن كنت اعتقد أنها فى الغالب وسيلة لحمايته من العين الشريرة ، وربما تكون وسيلة لإخفاء جنسه الحقيقى .

ويعتبر الوشم من صور الزينة الشخصية . وهو كذلك لدى الجنسين من الفلاحين . وربما يتم اللجوء إليه لأغراض نفعية وتزيينية كذلك . وعملية رسم الوشم مؤلمة جداً ويقوم بها متخصصون فى هذا الفن . وأحيانًا تقوم امرأة برسم الوشم للنساء والفتيات ويقوم رجل بوشم الرجال والصبيان ؛ وإن كانت هذه ليست بالقاعدة الثابتة . والنداء الذى ينادى به فنان الوشم الجوال هو : " يا شاب تعالى دق " . والمرأة التى ترغب فى أن يرسم لها وشم تخرج عند سماعها لنداء فنانة الوشم وتنادى عليها : " تعالى يا شابة يا دقاقة " .

والأدوات المستخدمة فى رسم الوشم هى سبع أبر مثبتة فى عصا قصيرة ملفوف عليها خيط عند طرفها وموضوع عليها مادة لاتجعل الإبر تتحرك . وفى بعض الأحيان تستخدم أبر أصغر حجمًا ولايزيد عددها على خمس لرسم وشم الأطفال . والصبغة المستخدمة فى الوشم هى سناج لمبات الجاز الذى يخلط عادة بالزيت ، وإن كان هناك من يقول إن الماء يستخدم فى ذلك. وعندما شاهدت عملية الوشم آخر مرة ، كان سناج لمبات الجاز يخلط بالزيت .

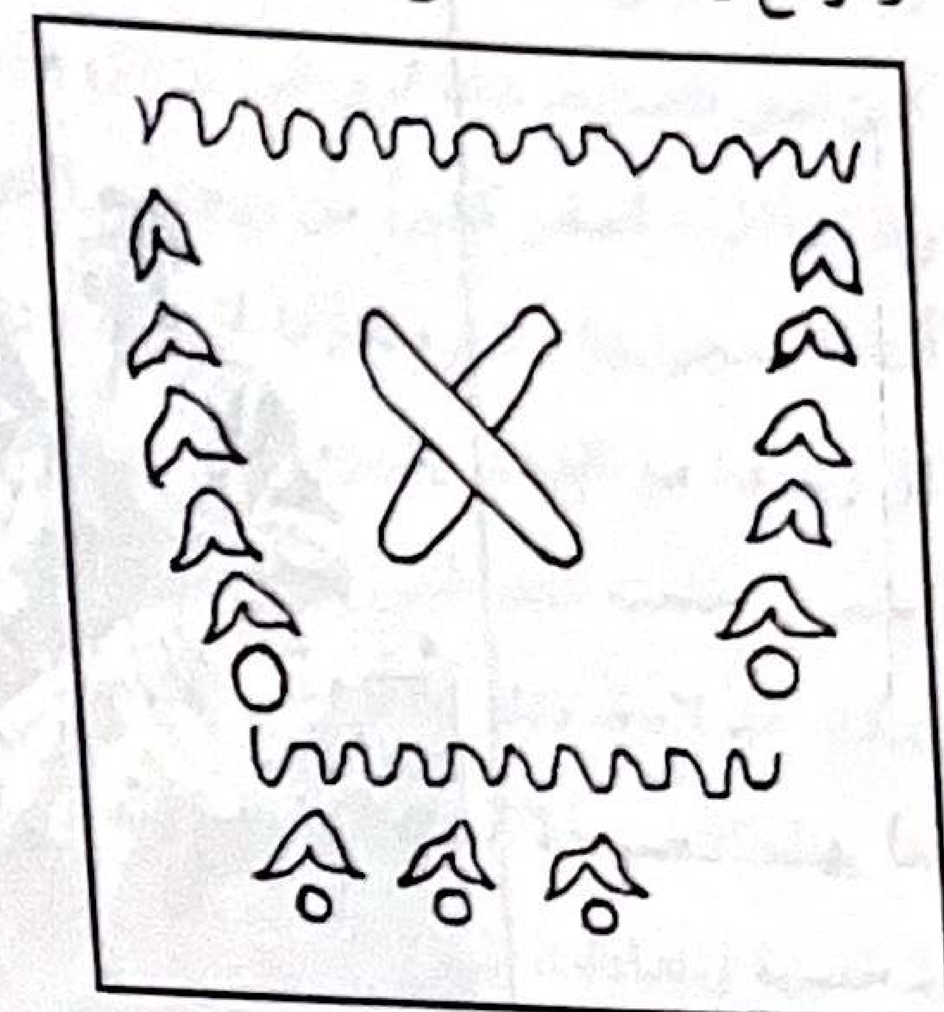


(الشكل ٢٠) طفل (ابن وحيد) يلبس قرطًا خاصًا « موجود فى الصورة الصغيرة »

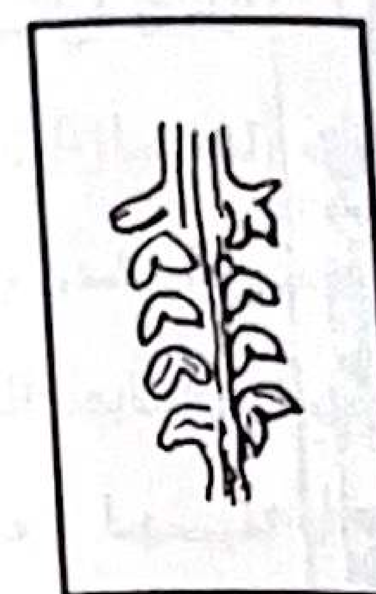
وكثيراً ما يتواجد فنان الوشم فى سوق القرية ، حيث يشاهد وهو يمارس حرفته . وغالبًا ما تستند إطارات تحتوى على عينات من الرسومات العديدة على جذع الشجرة التى يجلس تحتها ، بحيث يختار زبائنه الرسم الذى يفضلونه . وبعض الرسومات شديدة التعقيد وتتسبب فى معاناة قاسية للشخص الذى يرسم له الوشم . وكثير من النماذج عبارة عن رسومات تقليدية . وقد تأكد لى أنها لا تحمل معنى خاصًا ، وإنما يتم اختيارها على أساس الذوق والخيال الشخصى . أحد هذه النماذج اسمه « الشجرة » وهو الرسم الذى يختاره الرجال

والنساء فى العادة لتزيين ظهر اليد اليمنى . وكما لاحظت ، فإن هذا الرسم عندما تستخدمه المرأة يختلف اختلافًا طفيفًا عن استخدام الرجل له . والرسم الموجود هنا (شكل ٢١) نقلته عن يد امرأة . وكان الوشم قد رسم لها وهى فتاة صغيرة .

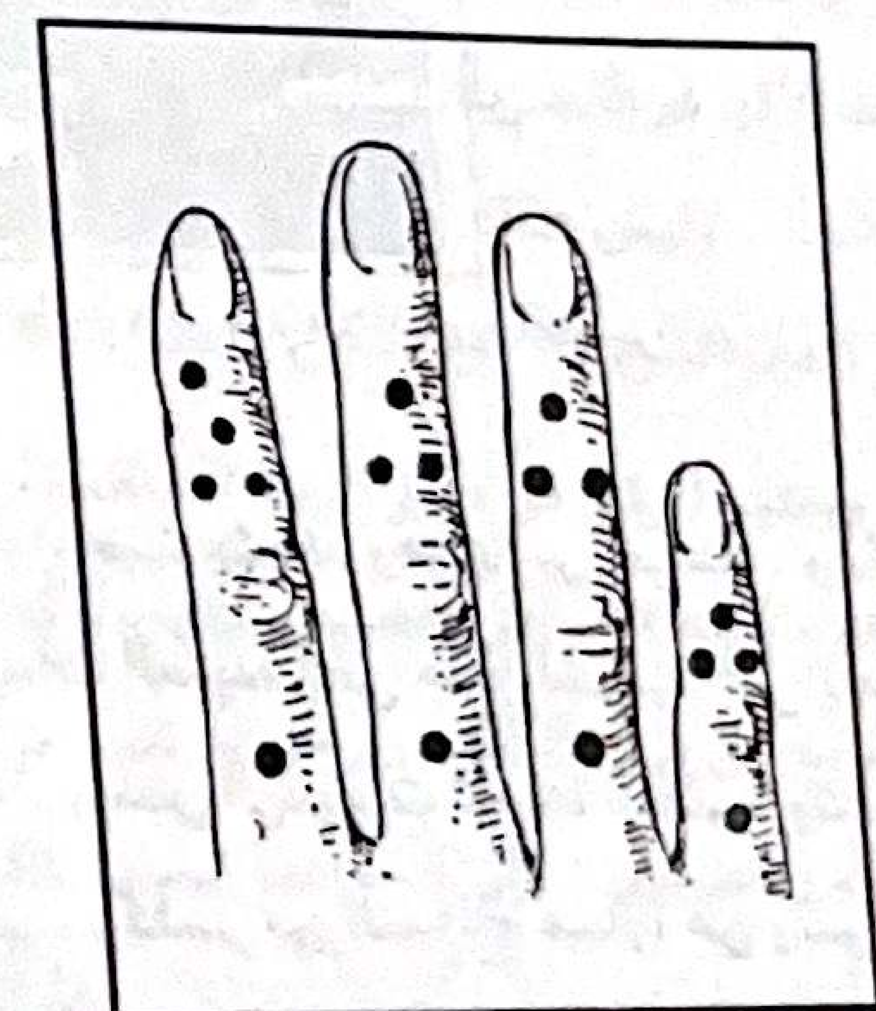
وعادة ما يتم وشم النساء من شفتها السفلى حتى قاعدة الذقن . والرسم المبين فى (الشكل ٢٢) منقول من نفس المرأة وهو أيضًا اسمه « الشجرة » . والوشم الذى على ظهر اليد والرسغ وكذلك الأصابع يقال أنه يقويها .



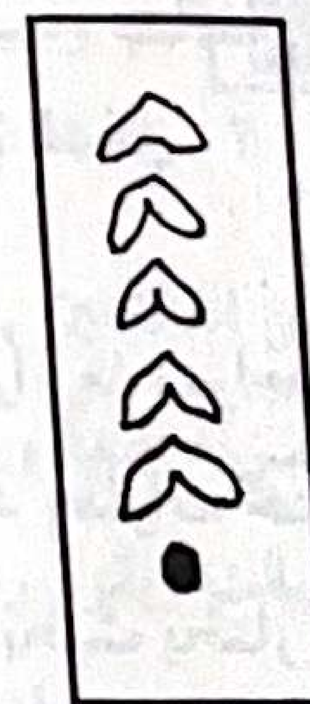
(الشكل ٢١) رسومات الوشم على ظهر اليد اليمنى لإحدى السيدات وعلى ظهر الرسغ



(الشكل ٢٢) رسم وشم من حافة الشفة السفلى إلى أسفل الذقن



(الشكل ٢٣) وشم على أصابع امرأة وضع لتقويتها



(الشكل ٢٤) رسم وشم على الإبهام أسفل العقلة الثانية لتقوية الإصبع

وغالبًا ما يوشم الصبى بنقطة واحدة على خده وأخرى بالقرب من فتحة أنفه اليمنى . ومعظم الأولاد لديهم ثلاث نقاط كهذه ∴ على أحد الذراعين فوق الرسغ بقليل . ويوشم الأولاد بهذه الطريقة وهم بعد صغار (الشكل ٢٥) ، حيث يعتبر الوشم مفيداً لهم . وطبقًا لما قاله أحد مصادرى فإن النقطة التى يتم وشمها بجوار فتحة الأنف تكون أحيانًا علاجًا لآلام الأسنان. وهى علامة شائعة بين عدد كبير من العرب. وقال لى أحدهم إنها إشارة إلى جنسهم.



(الشكل ٢٥) امرأة ترسم وشمًا لصبى

وهناك كثير من الفلاحين يحملون وشمًا على صدوغهم على شكل عصفورة . وأحيانًا لا يتعدى ذلك كونه شكلاً من أشكال الزينة ، إلا أنه يتم أيضًا لعلاج الصداع . وأحد معارفى من الرجال لديه ثلاثة خطوط مستقيمة مرسومة بالوشم بالقرب من جانب جبهته . وقال لى إن ذلك تم عمله عندما كان صبيًا ، حيث كانت العين التى فى جهة الوشم ضعيفة جداً . كما قال لى إن ذلك ظهر مفعوله على الفور ، وكان علاجًا دائمًا لضعف إبصار عينه .

وكان لرجل آخر أعرفه وشم عبارة عن ثلاث نقاط تعلو حلمة كل ثدى بحوالى بوصة ونصف، وثلاث أخرى فى منتصف صدره . وكانت له أيضًا ثلاث نقاط على كل عظمة من عظمتى الكتف ونقطة خلف إحدى أذنيه . وقد حكى لى تاريخ هذه العلامات . ففى يوم من الأيام الباردة كان يلتمس الدفء أمام نار كان يطهى عليها بعض السمك الذى كانت له رائحة

غير طيبة . نظرت امرأة إلى صدره الذى كان عاريًا فغطاه بملابسه لكى لا ترى منه شيئًا . منذ ذلك الوقت بدأ يشعر بالهرش ، وقال له البعض إنه أصيب بالبهاق ، وإن كنت أفترض أن ذلك سببه السمك . ولعلاج تلك الحالة ، تم وشمه بالطريقة المذكورة آنفًا حيث شفى على الفور .

وإذا فقدت امرأة ما عدة أطفال على التوالى ، فإن أول مولود ترزق به بعد ذلك توشم له نقطة فى وسط جبهته وأخرى على الجانب الخارجى لكاحله الأيسر . فهى تعتقد أن الطفل سيعيش بعد ذلك ، لأن قرينتها عندما ترى تلك العلامات لن تحاول أخذ طفلها[2]. والمعتقد هو أن الملك داوود عندما كان يحاور ملكة الأقران ، كما سنرى فى الفصل التالى ، وعدت بأن أى طفل يحمل علامات الوشم تلك على جبهته وكاحله لن تضره قرينة أمه .

وكان لرجل يعمل خفيراً فى إحدى قرى الصعيد وشم سمكة على بطن ذراعه بالقرب من الرسغ . قال لى إن الوشم هذا رسم له قبل سنوات عندما كان يلبسه عفريت ، وإنه شفاه تمامًا ولم يعد يشعر بأية مشاكل من ذلك القبيل بعدها . ووشم السمكة هذا لايتم رسمه دائمًا لأغراض علاجية . ففى إحدى القرى التى تقع على مسافة بعيدة إلى الشمال من قرية ذلك الرجل رأيت صبيًا يحمل وشمًا مشابهًا على ظهر إحدى يديه ، حيث أكد لى أن الغرض منه الزينة فحسب .

ويحمل معظم الأقباط وشم الصليب على بطن الرسغ . وهناك اعتقاد لدى بعض هؤلاء الأقباط الذين ينتمون إلى طبقة الفلاحين ، إن لم يكن لديهم جميعًا ، بأن الأحباش سيغزون مصر ويقتلون كل الأقباط مع المسلمين ، إذا لم يظهروا لهم تلك العلامة التى على رسغهم . ويقال إن الأقباط سوف يرفعون أيديهم بحيث يكشفون عن الدليل على ديانتهم .

وقد أرانى أحد أصدقائى من الأقباط ، ويشغل منصبًا مرموقًا ، بعض علامات الوشم على ذراعه . كان هناك رسم معقد على بطن ذراعه كتب أسفله بالوشم تاريخان حج فيهما إلى القدس وهما ١٩١١ و ١٩١٤ . وقال لى أحد الأقباط كذلك إن اخته الصغرى تحمل وشمًا بتاريخ زيارتها للقدس على أحد ذراعيها وإن أية زيارة تقوم بها فى المستقبل لتلك المدينة المقدسة سيتم تسجيل تاريخها بنفس الطريقة . كما أن والدته التى أدت الحج عدة مرات ، كانت كل تواريخ زياراتها مكتوبة على ذراعيها بالوشم . وبذلك يكون الوشم وسيلة للتسجيل.

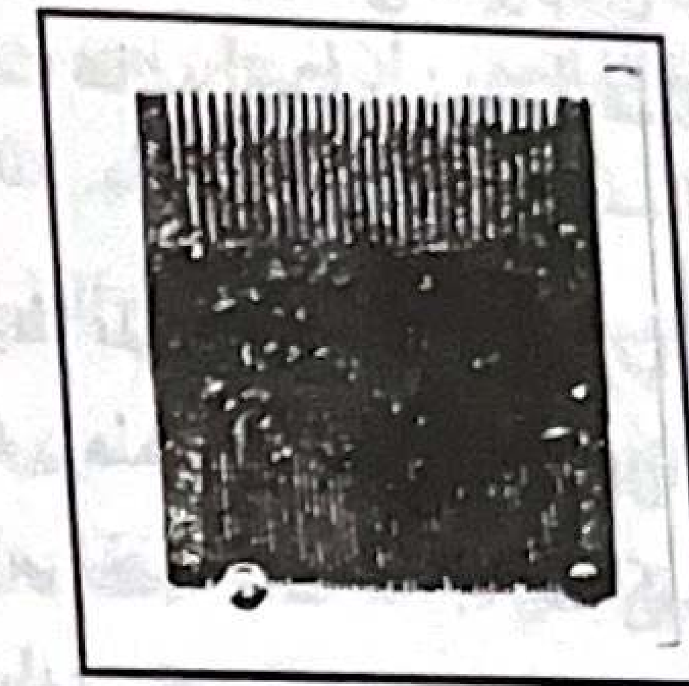
وعملية الوشم نفسها مؤلمة إلى أقصى درجات الألم . وغالبًا ما تكون لها نتائج غير سارة ، وإن كان ما تسببه من متاعب مؤقتًا . فقد كان لأحد خدمى ، وهو شاب فى حوالى الثانية والعشرين ، رغبة شديدة فى رسم وشم على ظهر يده هذا العام . وعادة ما يكون هناك متخصص فى هذا الفن فى السوق الأسبوعية ، حيث يجلس بمجموعة من الرسومات الخاصة به عند طرف السوق فى ظل إحدى الأشجار . وضعت مجموعة من الرسومات أمام الشاب فاختار على الفور الرسم المعروف بـ « الشجرة » وبدأ فنان الوشم عمله . وأثناء العمل ، لم يكن ينظر إلى الرسم . فطول الممارسة جعله ماهراً فى عمله . كان يوخز بالإبر وخزاً خفيفًا ليرسم جزءًا صغيراً من الوشم ثم يعيد عليه مرتين أو ثلاث مرات واستمر على هذه الوتيرة حتى انتهى من عمله تمامًا . لم يلمس فنان الوشم البنصر . وعندما أشرت إلى ذلك قال لى خادمى إن ذلك الإصبع لا يوشم أبداً بالنسبة لأيدى الرجال ، ولا يتم ذلك إلا فى أيدى النساء . مر بعض الوقت قبل أن ينتهى عمل فنان الوشم ، فى الوقت الذى تحمل فيه الشاب المسكين الألم الشديد بشجاعة . وأظن أن ما سيكون عليه من جمال بعد ذلك هو ما جعله يتحمل ! وأعتقد أن رسم الوشم على اليد أحد علامات الرجولة . وهو بالتأكيد أحد طقوس الانتقال إلى مرحلة سنية أعلى التى تتسم بالألم . وبمجرد عودتى إلى منزلى وجدت أن يد الشاب ، بل وذراعه اليمنى بالكامل ، بدأت تتورم . كما أن درجة حرارته كانت مرتفعة . طلبت منه أن يرقد . وبعد مرور ساعات الصباح زادت درجة الحرارة والالتهاب ولم يعد قادراً على الحركة . وعندما أردت استدعاء الطبيب أكد لى أنه سيكون على مايرام وأن معظم الناس يحدث لهم ذلك بعد الوشم . وقبيل المغرب أصبحت حالته أفضل . وبحلول صباح اليوم التالى كان قد استعاد عافيته تمامًا .

وغالبًا ما يشاهد التشريط على خدود أفراد الشعوب ذات الأصول الزنجية فى مصر ، وخاصة "البرابرة ". وربما تكون هذه علامات تميز القبائل . وأحيانًا تشاهد علامات مماثلة بالقرب من الأذن أو على جانب الجبهة . وهذه غالبًا ما تكون لعلاج ضعف العيون أو الصداع أو غيرهما من الأمراض . ولدى بعض المصريين علامات عبارة عن شرطين أو ثلاثة شروط قصيرة على جانبى الوجه بالقرب من الأذنين . وعندما سألت عن معنى ذلك ، قيل لى إنه يتم بحكم العادة . وأعتقد أن هذا فى طريقه إلى الزوال .

ومن المناظر الشائعة أن نرى قطعًا مثلثًا فى الحافة الخارجية للأذن . وأحيانًا يكون ذلك فى أذن واحدة وأحيانًا أخرى فى الأذنين . ويختلف عدد القطوع وقد لايكون هناك سوى قطع

واحد فقط . ولم أصادف هذه القطوع فى أذان النساء . ولاحظت أن هذا التشويه المتعمد للأذن شائع بين كثير من القبائل العربية التى استقرت فى مصر ، وربما كانت هذه علامة عرقية . والمعلومات التالية قدمتها لى سيدة مصرية سألتها عن هذا الموضوع . فهذا القطع يتم بين الفلاحين ، عندما يفترض أن هناك مشكلة ما داخل فم الطفل . ويحدث هذا فى فترة الصبا ، حيث تقوم الداية بدور الجراح فى مثل تلك الحالات . وهى تحدث قطعًا واحداً أو أكثر باستخدام المقص . والدم الذى ينتج عن هذا الجرح يدعك به سقف حلق الصبى . وإذا كانت حالة الفم سيئة جداً يتم عمل أكثر من قطع .

ومن المؤكد أن الشعر الطويل مما تتفاخر به المرأة المصرية ، وإن كانت المرات التى شاهدت فيها شعراً كثيفًا وطويلاً بين نساء وفتيات الفلاحين نادرة أو معدومة . إلا أن هذا العيب يتم علاجه بسهولة ، وتشترى كل سيدة ضفائر طويلة من الشعر المستعار تتدلى إلى ما دون الخصر. وهى تقصر شعرها من على جانبى وجهها وتجعل من هذا الشعر القصير خصلات تتدلى على خديها (مقاصيص) . وهى تربط على رأسها منديلاً من الحرير أو القطن ، يكون لونه زاهيًا إذا كانت صغيرة السن أو داكن اللون إذا كانت قد اجتازت مرحلة الشباب . وهذا المنديل يبقى الخصلات الجانبية على حالها . ولا يتم تمشيط الشعر يوميًا . وعندما يمشط، يستخدم فى ذلك مشطًا خشبيًا مزدوجًا (فلاية) (الشكل ٢٦) له أسنان ضيقة وأخرى متسعة . وغالبًا ما يكون وسط المشط مزينًا بالرسوم الملونة .



(الشكل ٢٦) فلاية من الخشب

والضفائر المستعارة التى تصنعها نساء الفلاحين لها فائدة عملية ، إلى جانب كونها نوعًا من الزينة . فغالبًا ما يربط مفتاح البيت فى إحدى الضفيرتين عندما تخرج ربة البيت إلى السوق أو الحقل ، فى حين تعلق فى الضفيرة الأخرى بعض التعاويذ ، ومنها ما هو موضوع فى أغلفة صغيرة من الجلد . وكانت امرأة أعرفها تضع تعويذة ضد الصداع فى غلاف جلدى

وكذلك خرزة كبيرة شبه شفافة ، كى يظل حب زوجها لها على نفس الدرجة من القوة ، وكى تظل أمه راضية عنها . كانت هاتان التعويذتان مربوطتين بإحدى الضفيرتين وقد أعطت لى الخرزة بعد وفاة زوجها .

وعندما تترمل أية امرأة فإنها تخفى على الفور الخصلات الجانبية . والواقع أنه يجب ألا يُرى أى شعر حول وجهها ، حيث يختفى كل الشعر تحت منديل أزرق أو أسود . وهى ترتدى المنديل بهذه الصورة طوال حياتها ، إلا إذا تزوجت مرة أخرى . وفى هذه الحالة تعود الخصلات إلى الظهور من جديد ويستبدل منديل الحداد بمنديل آخر ذى لون زاه . وإذا فعلت امرأة ذلك قبل أن يكون هناك زوج ثان بالفعل يكون معنى ذلك أنها تسعى إلى الزواج ثانيًا ويصبح ذلك إعلانًا للقرية كلها .

وغالبًا ما تصبغ النساء شعرهن بالحناء ، خاصة إذا بدأ الشيب فى الظهور . وتعطى الحناء لونًا أحمر زاهيًا . وربما تفعل المرأة التى ترغب فى الزواج مرة أخرى وتريد إخفاء آثار تقدمها فى العمر . وذات مرة ، وأنا أزور إحدى القرى التى اعتدت على البقاء فيها عدة أسابيع فى كل مرة ، رأيت امرأة عجوز تتزين على سطح منزلها . كانت تمشط خصلات شعرها الذى بات خفيفًا وقد صبغته بلون أحمر زاه . ولسوء حظها لم تنجح تمامًا فى صبغ شعرها ، حيث كانت هناك أماكن الشعر الأبيض فيها شديد الوضوح . سألت صديقتى التى كنت أجلس فى بيتها إذا كانت المرأة العجوز ترغب فى الزواج ثانية . ضحكت تلك الصديقة وقالت إنها تظن ذلك . ولم أسمع قط أنها صادفت نجاحًا فى مسعاها ذلك !

والرجال إما أن يقصرون شعرهم بصورة كبيرة أو يحلقونه تمامًا بالموسى . إلا أن بعضهم يترك خصلة من الشعر عند مؤخرة الرأس لتطول ، حتى وإن كان سائر شعر الرأس محلوقًا تمامًا. وقال لى أحد الرجال إنه يترك هذه الخصلة حتى إذا ما مات فإن من يغسله لا يلمس رأسه ويمسكه منها . والذى فهمته أنه كان يعتقد أن لمس رأسه فيه تدنيس له ، إلا أننى لست متأكدة من ذلك . ويقول لى أخى الدكتور أ . م. بلاكمان إن رجلاً قال له إن وظيفة الخصلة هى منع من يقومون بالغسل من رفع الرأس عن طريق وضع اليد فى الفم مما يؤذى الميت .

ويحلق الرجال شعر الوجه فيما عدا الشارب . إلا أن كبار السن كثيراً ما يتركون لحاهم تنمو ، حين ينظر إليها على أنها دليل على الوقار فى هذه المرحلة من العمر . ويزال شعر الجسم لدى الجنسين ضمانًا للطهارة .

وغالبًا ما يحلق شعر الطفل بالموسى فوق منطقة الجبهة . وفي بعض مناطق مصر يعتبر هذا مفيداً للعين ، حيث يعتقد أن الشعر الذى ينمو فى ذلك الجزء من الرأس يضر قوة الإبصار عندما يكون الطفل صغيراً جداً . وغالبًا ما يغطى الجزء الذى يحلق بالحناء . وسوف نتناول فى الفصل التالى شكلاً آخر من أشكال قص شعر الأطفال الصغار .

وعقب وفاة شخص ما ، فإن أقاربه من الذكور يتركون شعر وجوههم ورؤوسهم ينمو لبعض الوقت دليلاً على الحداد .

وأية امرأة مصرية تخشى من أن يبدأ جمال وجهها فى الذبول ، وترغب فى إخفاء تجاعيد وجهها وفى أن تكون لها بشرة وردية ، تتبع الطريقة التالية . إنها تأخذ كمية من السكر وقليلاً من الشبه وتغليهما معًا فى كمية صغيرة من الماء إلى أن يصبح قوام المخلوط غليظًا وبلون الكرامل (٣)، ثم ترفع الطاسة من على النار . وعندما تبرد تلك المادة التي تشبه الكرامل ، تأخذ المرأة بعضًا منها بين أصابعها وتضعه على وجهها حيث يلتصق ثم تنزعه . وهى تقوم بتدليك وجهها بالكامل بهذه الطريقة بنفسها أو تطلب من إحدى صديقاتها أن تفعل لها ذلك (انظر الشكل ٢٧) ، إلى أن تصبح بشرتها وردية ناعمة ويتم نزع أى شعر فى الوجه . وعندما يعود زوجها إلى البيت يعجب ببشرتها ويكون « مبسوطًا » منها وتكون المرأة نفسها قد شعرت بالرضا . وأعرف امرأة تفعل الشىء نفسه بوجهها كل يوم لكى تثير إعجاب زوجها ! وبعد تدليك الوجه بهذه الطريقة ، يغسل بصابون وردى وربما توضع بودرة وردية أيضًا . وكثيرات من الفلاحات المعجبات بأنفسهن يتبعن هذه الطريقة بانتظام لتجميل أنفسهن . وقد رأيت بنفسى الوجه وهو يعالج بهذه الطريقة وبدت لى طريقة مؤلمة إلى حد ما . وهناك قول فرنسى شائع يقول « لا بد من المعاناة كى تصبحين جميلة » . وهؤلاء النسوة يتحملن قدراً كبيراً من المعاناة لإتمام زينتهن.

والمادة الشبيهة بالكرامل التى وصفتها من قبل تستخدمها النساء بصورة مشابهة لنزع أى شعر ينمو على سيقانهن .

وأغلب النساء والفتيات يرسمن خطوطًا حول عيونهن بالكحل . ويحفظ الكحل فى قوارير صغيرة ، من الزجاج غالبًا ، تسمى مكحلة . ويوضع الكحل باستعمال عود صغير ذى طرف غير مدبب ، ولا يعتبر الكحل وسيلة للتجميل فحسب ، فهو كذلك علاج لالتهاب العيون .



(الشكل ٢٧) امرأة تنظف وجهها بالحلاوة

ويستخدم الجنسان العطور التى يتسم بعضها برائحته القوية النفاذة . وبعض مناطق مصر يحرم على الرجل أن يضع عطوراً أثناء رضاعة زوجته لأحد أطفالها . ويقال إنه فى حالة عدم اتباع ذلك يظهر الطفح على جلد الطفل .

وذات مرة وضع رجل أعرفه معرفة جيدة عطراً وكانت زوجته ترضع أصغر أطفالهما . وظهر على جسم الطفل طفح جلدى فظيع وقالت لى الأم إن زوجها هو المسئول عن ذلك ، لأنه كان يضع العطر علي شاربه !

وسمعت أحيانًا بعض الإنجليز الذين يعلقون على العادة القذرة التى تتبعها الفلاحات ، وهى ارتداء ملابس طويلة يجررن أذيالها على الأرض فتثير الغبار أثناء سيرهن . هذا طبعًا ليس سلوكًا صحيًا . ولكن ارتداء جونلات قصيرة ينظر إليه على أنه مناف للآداب . فلا ينبغى أن تظهر سيقان النساء والفتيات إلا عند الضرورة القصوى . وهناك سبب آخر للملابس الطويلة . فأغلب الفلاحات يسرن خافيات الأقدام مما يجعل آثار أقدامهن واضحة على الأرض الترابية الجافة . وبما أن المرأة يمكن أن يصيبها الضرر نتيجة للسحر من خلال آثار أقدامها ، فإن الذيل الطويل يكون بمثابة حارس يقوم بإخفاء تلك الآثار .

وترتدى الفتيات الصغيرات جلاليب قطنية ذات ألوان زاهية تصل إلى الأرض تقريبًا . أما النساء والفتيات الأكبر سنًا فقد يرتدين مثل هذه الجلاليب فى البيت . ولكن عندما يخرجن

من البيت إلى السوق أو لملء جرار الماء أو زيارة صديقاتهن ، فإنهن يرتدين فساتين سوداء طويلة فوق الجلاليب الملونة ، إلى جانب الطرحة الثقيلة على رؤوسهن .

وقال لى أحد الأصدقاء منذ عدة سنوات إن النساء فى مديرية الشرقية يضعن طرحًا بيضاء طويلة عليها العديد من الحلى الذهبية أو الفضية . وتأخذ هذه الحلى شكل النقود التى تكون غالبًا عبارة عن جنيهات مصرية . وطبقًا لما ذكره لى مصدرى فإن ذلك يمثل النقود التى تهدى للعروس قبل زواجها . لذلك فإن ثروة المرأة قد تقدر بالنظر إلى طرحتها . وأنا لم أزر مديرية الشرقية بعد . لذلك فلم تتح لى الفرصة للتحقق من ذلك بنفسى .

ووضع خمار يغطى الجزء الأسفل من الوجه أحد أدلة الاحترام بالنسبة للطبقات العليا . كما أنه وسيلة لإخفاء الوجه عن نظرات الرجال . وبالنسبة للسبب الأول فإن النساء في العادة يسحبن الخمار لتغطية وجوههن عندما تمر إحداهن علىّ في الطرقات ، مهما كان عمرها . ويعتبر الأسود والأزرق لونى الحداد . وترتدى الأرملة فستانًا أسود اللون فى البيت بدلاً من الألوان الزاهية التى كان ترتديها قبل موت زوجها . وهى ترتدى كذلك منديلاً أزرق داكن اللون على رأسها وتضع عليه طرحة سوداء عندما تخرج من البيت .

ولا يدخل الرجال أى تغيير على ملابسهم عند فقد أحد أقاربهم . إلا أن البعض لا يحلق ذقنه ، كما ذكرت من قبل . كما أنهم يتركون شعر رأسهم بدون حلاقة لفترة بعد موت أحد أقاربهم ، خاصة إذا كان ذكراً .

والملابس الفضفاضة التى يرتديها الرجال والنساء تتلاءم بصورة جيدة جداً مع الجو ، ويا حبذا لو لم تندثر عادة ارتداء الملابس الوطنية . وسوف يختفى جزء كبير من جمال الريف إذا أصبحت الملابس الأوروبية هى الزى فى القرى المصرية . فالملابس الوطنية أكثر صحية وراحة فى مناخ وادى النيل الذى يتميز بالحرارة والجفاف .

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر .

(٢) انظر شرح القرينة فى الفصل الرابع .

(٣) الحلاوة (المترجم) .

الفصل الرابع

الولادة والطفولة

يشغل الأطفال مكانًا فى غاية الأهمية فى المجتمع المصرى ، كما سنرى فى الفصل الخامس الذى يهتم بالطرق التى تستخدمها النساء لضمان إنجابهن للذرية .

وعندما تحمل المرأة ، غالبًا ما تعلق فى عدة غرف من منزلها صوراً لشخصيات أسطورية لاتقتصر شهرتها على جمال مظهرها فحسب ، وإنما يعرف عنها كذلك سلوكها الرقيق الذى يتسم بالحب . وتعتقد الحامل أنها عندما تنظر باستمرار إلى تلك الصور فإن الطفل الذى تلده يكون شبيهًا لها فى ملامح الوجه والشخصية . كما تعتقد أن أى شىء وكل شىء تطيل النظر فيه يؤثر على الطفل الذى لم يولد بعد[١] . وفي السنة الأولى التى زرت فيها مصر شعرت بالارتباك فى أكثر من مناسبة بسبب أعداد النسوة اللاتى كن يتجمعن حولى وقوفًا أو جلوسًا، عندما كنت أزور إحدى القرى ، ويحملقون فىّ دون أن يرفعن أبصارهن عنى . بعد ذلك قال لى خادمى ، الذى كان يصاحبنى دائمًا ويساعدنى مساعدة كبيرة فى عملى ، إن هؤلاء النسوة جميعًا كن حوامل وكن يرغبن فى أن يلدن أطفالاً يشبهوننى ، ولهذا كن يحملقن فىّ ! ومن وقتها وأنا لا ينظر إلىّ بهذه الطريقة ، وإن كنت لم أفقد نفس الإحساس بالارتباك الذى شعرت به أول مرة .

قالت إحدى النساء وهى تدقق فى ملامحى : " آه لو كانت لى بنت مثلها ، لزوجتها بألف جنيه ! " .

أجابها خادمى : " أنظرى جيداً يا بنت ، وإذا كنت تتوحمين فسوف يكون لك مثلها ! "

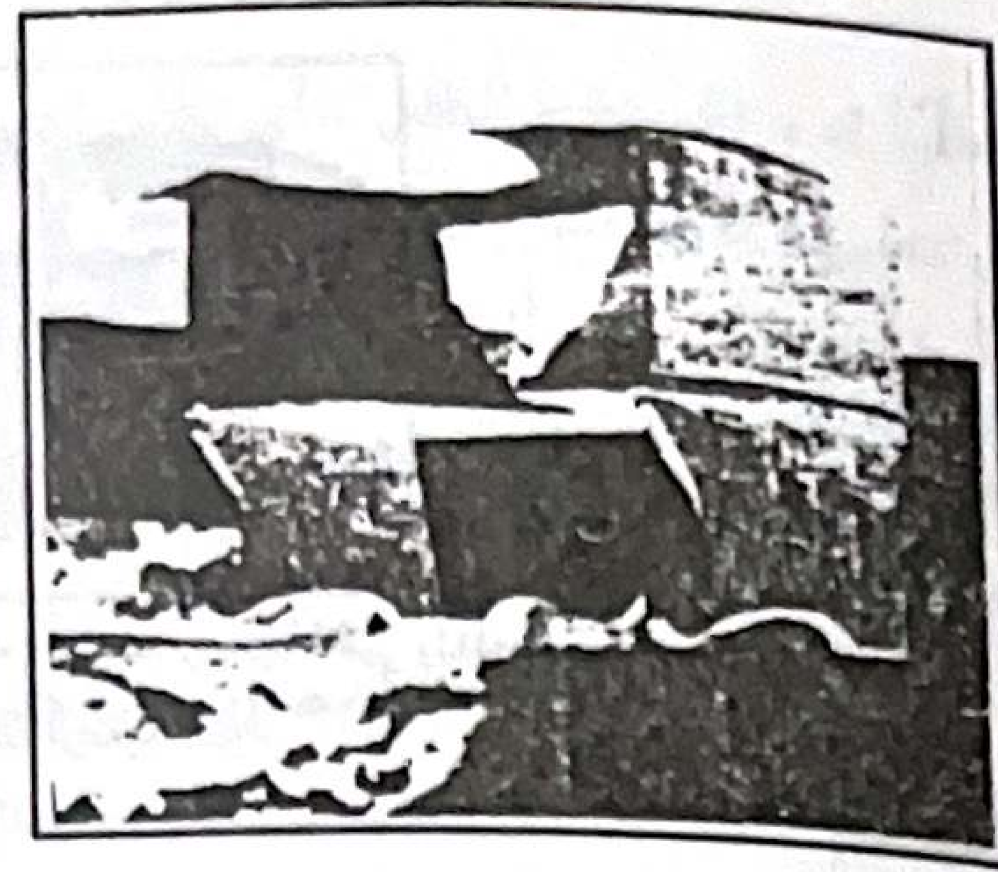
وللسبب نفسه تسعى النسوة الحوامل إلى تحاشى المناظر القبيحة أو غير السارة ، خوفًا من أن يؤدى ذلك إلى تأثر أطفالهن الذين لم يولدوا بتلك المناظر . وإذا تصادف أن رأت امرأة حامل ميتًا ، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً من الجنسين ، دون أن تأخذ الاحتياطات الواجبة ، فهناك اعتقاد شائع بأن الطفل سيموت بمجرد ولادته . لذلك فإن المرأة الحامل عندما ترى ميتًا تقوم على الفور بقطع عقدها لكى تقع حباته فى حجرها ثم ترش الماء على وجهها . ويعتقد أن هذا ضمان لأن يعيش الطفل بعد ولادته .

وقيل لى فى أكثر من مكان فى مصر إن أى شىء " تتوحم عليه " المرأة الحامل يظهر على أى جزء من جسم الطفل عندما يولد ، إذا لم تحصل الأم على ما " توحمت عليه " . فمثلاً سمعت عن امرأة حامل كانت لديها رغبة قوية فى تناول العنب ولكنها لم تحصل على شىء منه ، لأن ذلك لم يكن موسم العنب . فولُد الطفل وعلى رقبته علامة تشبه عنقود العنب . وقال لى مصدرى إنه شاهد بنفسه الطفل وكان عنقود العنب واضحًا تمامًا . كما أبلغنى أن "وحمة " حبة العنب الواحدة أكثر شيوعًا من العنقود الكامل . وفى كلتا الحالتين يزداد حجم "الوحمة " فى موسم العنب ثم تنكمش عندما ينتهى الموسم ! وقد تأكدت منذ ذلك الوقت أن هذا التورم والانكماش الموسمى لا يحدث دائمًا ، وإن كان مصدرى الأول ، وهو رجل موثوق به، أكد لى أنه لاحظ بنفسه تلك الظاهرة . وكذلك الحال عندما " تتوحم " امرأة على أى نوع آخر من الفاكهة ولا تحصل عليه ، فإن شكله يظهر فى مكان ما من جسم الطفل . وقد شاهدت بنفسى طفلاً توحمت أمه على الرمان وكان على إحدى ساقيه شكل هذه الفاكهة . أخذت صورة فوتوغرافية للطفل ، إلا أن الوحمة حمراء اللون لم تظهر للأسف .

وغالبًا ما تكون لدى الحامل رغبة شديدة في تناول الطين أثناء الحمل . وتذهب النسوة إلى بطن إحدى الترع ويكسرن قطعًا صغيرة من الطمى الذى أصبح جافًا نسبيًا بعد موسم الفيضان. وتحتفظ النسوة بهذه القطع فى جيوبهن أو يربطنها فى طرحتهن ، بحيث تكون فى متناول أيديهن عندما يتوحمن عليها . وتسمى هذه القطع « طين ابليز » . وهذا النوع الغريب من الوحم الذى تشعر به الحوامل شائع فى أماكن أخرى من العالم فضلاً عن مصر .

وربما لا يقف مع المرأة ساعة المخاض إلا أمها أو إحدى قريباتها ، وقد تستدعى القابلة (الداية) لمساعدتها . وهناك مراكز لتدريب القابلات حاليًا فى مصر تقوم بالإشراف والتفتيش عليها إنجليزيات على أعلى درجة من المعرفة .

وعندما تستدعى القابلة للمساعدة فى عملية الولادة فإنها تحضر معها كرسى الولادة المعتاد (الشكل ٢٨) ؛ فالنساء فى مصر يلدن وهن فى وضع القرفصاء . وإذا لم تكن هذه المساعدة المحترفة قد استدعيت ، تجلس المرأة القرفصاء بلا كرسى وتضع ذراعيها على الغربال فى وضع رأسى وتضغط عليه (الشكل ٢٩) . وهى تميل للأمام على الغربال ، حتى وإن كانت جالسة على الكرسى . ويقوم الغربال بدور كبير ومهم فى كل طقوس الولادة كما سنرى لاحقًا .


(الشكل ٢٨) كرسى الولادة


(الشكل ٢٩) امرأة تتكىء على غربال

ومن مهام السيدة أو القابلة الموجودة مع الوالدة قطع الحبل السرى . ويتم التعامل مع المشيمة (الخلاص) بطرق مختلفة . وفى مناطق كثيرة ، إن لم يكن فى كل أنحاء مصر ، تسمى الولد الثانى ، وبعض الناس يعتبرونها طفلاً غير مكتمل . وإذا كانت المرأة لديها رغبة قوية فى أن يكون لها طفل آخر ، تقوم بدفن المشيمة تحت عتبة بيتها . وهى تفعل ذلك بحيث يمكنها عندما ترغب فى أن يكون لها طفل آخر أن تخطو فوق المشيمة المدفونة ثلاث أو خمس أو سبع مرات . فهناك اعتقاد بأن روح المشيمة تدخل جسمها مرة أخرى ، لكى تولد من جديد كطفل مكتمل بالطريقة العادية .

وإذا كانت المرأة قد فقدت عدة أطفال بصورة متتالية عند ولادتهم ، فإنها تعتقد أنها أثارت غضب « أختها » أو « قرينتها » أو كلتاهما وأنهما تأخذان الأطفال منها . لذلك فإنها تستشير إحدى الساحرات اللاتى على اتصال بهذه الكائنات التى تعيش تحت الأرض. وتستفسر الأم عما بدر منها وتسبب فى غضب إحداهما أو كلتاهما . وإذا كان الرد هو أنها أغضبت إحداهما أو كلتاهما ، فلابد أن تحضر خبزاً من دقيق القمح تقتسمه هى والساحرة . وعندما تأكل الساحرة الخبز فكأن الأخت أو القرينة تأكله . فهما تأكلانه من خلالها . وبعد تناول الخبز بهذه الطريقة ، يكون السلام قد حل بينهما وبين الأم وتقولان لها إنه فى المرة التالية التى تلد فيها وفى كل مرة تلد فيها بعد ذلك ، لا بد أن تفعل ما يلى : لابد أن يدفن المشيمة ، مع رغيف خبز ورطل ملح ، فى سلطانية (الشكل ٣٠) تغطيها بسلطانية أخرى لها نفس الشكل تحت أرضية بيتها . وبهذه الوسيلة ترضى الأخت والقرينة ولا تأخذان الأطفال منها .



(الشكل ٣٠) إناء به المشيمة ومعها الخبز والملح
ويدفن تحت أرضية المنزل

وإذا عاش الطفل حديث الولادة تقوم القابلة أو قريبة الوالدة بإلقاء المشيمة فى النيل أو إحدى الترع . ولابد أن تضحك أو تبتسم وهى تلقيها ، حيث إن ذلك يجعل الطفل سعيداً ومبتهجًا دائمًا . وإذا أهملت فى واجبها فيما يتعلق بذلك ، فإنه يكون تعيسًا دائمًا .

ولكى تضمن إحدى الأمهات طول العمر لطفلها ، فإنها تأخذ قطعة صغيرة من الحبل السرى وتلفها بفتيل من القطن . ويوضع هذا الفتيل فى مصباح فخار يضاء بالزيت ثم يشعل ويوضع فى قارب صغير ويلقى فى النهر ليسير مع التيار . وهناك طريقة أخرى أكثر شيوعًا ، حيث يأخذ البعض قطعة قصيرة من الحبل السرى وتوضع فى قطعة من القماش القطنى ثم تُخاط وتعلق بقطعة خيط حول رقبة الطفل . وبعد فترة قصيرة توضع هذه القطعة مع بعض التعاويذ الأخرى ، التى نذكرها بعد قليل ، فى حجاب جلدى صغير لا بد أن يحمله طوال حياته . ومن المعتاد أن تعلق أية تعويذة فى الرقبة ، ولكن الحجاب يعلق تحت الإبط الأيمن . وقيل لى إن قطعة صغيرة من المشيمة توضع أحيانًا بدلاً من الحبل السرى ، إلا أننى لم أشاهد هذا الاستعمال لها حتى الآن بنفسى .

وهناك طريقة أخرى لإطالة عمر الطفل . فإذا كانت هناك امرأة مسلمة مات لها عدة أطفال فى طفولتهم المبكرة ثم ولد لها طفل آخر ، فإنها تطلب من امرأة قبطية أن تعطيها البركة لكى يعيش الطفل المولود حديثًا . والبركة التى تطلبها قد تكون جزءاً من فستان تلبسه امرأة قبطية أو جلابية زوجها أو أية قطعة ملابس خاصة بأحد أطفالهما . ولا بد أن تخص قطعة الملابس مسيحيًا وليس مسلمًا . وهذه العادة لا وجود لها لدى الأقباط . وسألت عن السبب الذى يجعل مسلماً يطلب ملابس مسيحى ، فقيل لى لأنهم أناس طيبون .

والمرأة التى تفقد عدة أطفال وتأمل فى أن يعيش الطفل المولود حديثًا تفعل ما يلى : فهى تحمل طفلها بين ذراعيها وعلى رأسها « قفة » مصنوعة من سعف النخيل وتخرج من بيتها

طلبًا لـ « الحسنة » للطفل ، أى تطلب إحسانًا له . وهى تفعل ذلك مهما كانت درجة غناها وتتصرف كأنها امرأة شديدة الفقر . ويعطيها بعض الناس نقوداً ويعطيها آخرون « البتاو » أو الخبز وغيره من أنواع الطعام . بعد ذلك توزع هذه العطايا على الفقراء فى القرية ، حتى وإن كانت فقيرة مثلهم . وهى تعتقد أنه نتيجة لهذا العمل يجعلها الله ، أو قرينتها ، تحتفظ بطفلها .

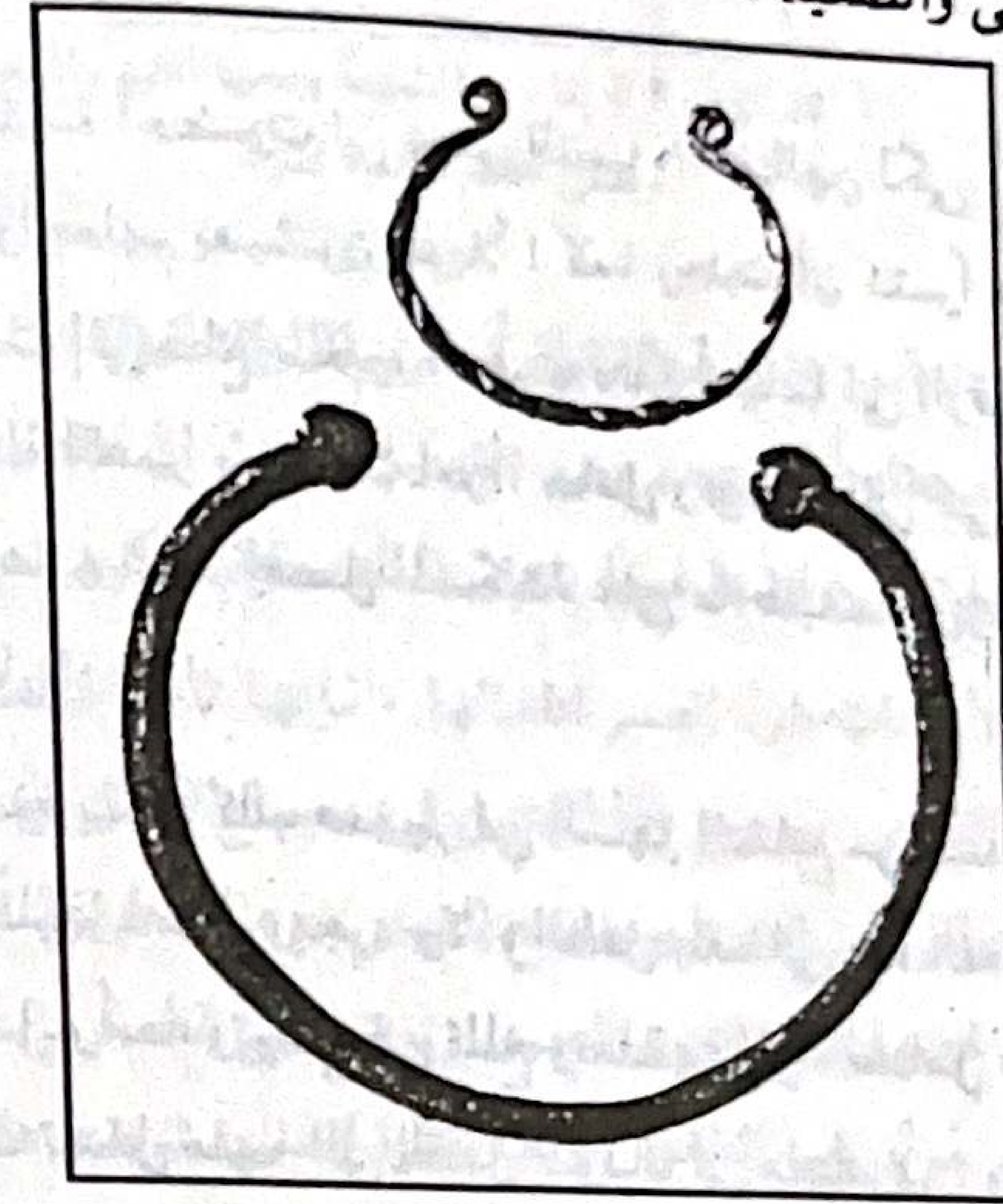
وفى مناسبات عديدة أحضرت لى بعض النساء أطفالهن لكى أبصق فى أفواههم لكى أعطيهم « البركة » وأجعلهم يعيشون طويلاً ! كما وجدت أن كثيراً من ملابسى القديمة التى أتخلص منها قد قطعت إلى قطع صغيرة أعطيت لعدة أمهات فى الرقبة حيث علقت لأطفالهن الرضع كتعويذة لإطالة العمر . وجاءت امرأة حامل وتوسلت إلىّ كى أعطيها أحد فساتينى القديمة ليولد طفلها عليه ! ولم تحصل المسكينة على ما طلبت . ويؤسفنى أن أقول إن طفلها مات بعد ولادته بقليل !

وتقوم بعض النسوة بقتل كلب صغير في الشهر السابع من حملهن . ويذبح الكلب على قطعة قماش يسيل عليها دمه . وبمجرد ولادة الطفل يلف فى هذه القطعة الملطخة بالدم . وبعد أن يذبح الكلب تفصل رأسه وتوضع فى الملح وتعلقها المرأة الحامل فى رقبتها إلى ما بعد ولادتها للطفل حيث تنتقل منها إلى الطفل . وقال لى مصدرى ، وهى سيدة مصرية ذكية على قدر جيد من التعليم ، إن ذلك يتم لأن الكلاب تعتبر حيوانات نجسة فى مصر . لذلك فإن قرينة الأم لا تقترب من طفلها الذى لم يولد ، طالما أنها تلبس رأس الكلب . وللسبب نفسه لا يمكن للقرينة أن تهاجم الطفل أو تؤذيه وهو يلبس هذه التعويذة .

وهناك تعويذة أخرى تضعها الحامل ، إذا كان أطفالها يموتون قبل أن يصلوا إلى سن السابعة . وهى تتكون من رأس هدهد وظفر[٢] حية وقطعة من الشفة السفلى وأذن حمار ميت وناب جمل وحرباية وتعويذة مكتوبة . كل هذه الأشياء تعلقها الحامل تحت إبطها الأيمن أثناء فترة الحمل . وبعد الولادة يلبسها الطفل .

ولقد رأيت مجموعة من هذه التعاويذ كانت تضعها امرأة أثناء شهرى الحمل الأخيرين . وإلى جانب الأشياء المذكورة ، كانت هناك سبعة خيوط من الحرير التى يمكن أن تكون من أى لون . وكانت المرأة تضع التعاويذ في كيسين من قماش قطنى . وعندما رأيت التعاويذ ، كانت قد نقلت إلى الطفل بعد أن وضعت معًا فى كيس من الجلد . ولابد أن يضع الطفل هذه التعاويذ إلى أن يموت . ومن المفترض أنها تضمن له حياة مديدة .

ومن المعتاد في كثير من أنحاء مصر أن تلبس الأم خلخالاً من الحديد إذا كانت قد فقدت كل أطفالها أو معظمهم . وربما يلبس الأطفال الذين يعيشون الخلخال الحديد ، الذى يعتقد أنه يحمى الطفل التالى الذى يولد. وتبين الصورة (الشكل ٣١) خلخالين حصلت عليهما من قريتين فى مصر الوسطى والصعيد .



(الشكل ٣١) خلخالان من الحديد

وإذا اقترب موعد الولادة وكانت المرأة الحامل تشعر بكثير من التعب ، دون أن تكون قادرة على الولادة ، فإنها تزحف تحت جسم جمل سبع مرات للخلف وللأمام . وبعد ذلك تتم الولادة . وقيل لى إن المرأة تزحف من جانب لآخر وليس من بين ساقيه الخلفيتين .

ولو حدث أن تأخرت الولادة ثلاثة أيام وكانت الحامل تشعر بألم مستمر فإن على زوجها أن يغسل كعب قدمه الأيمن ولا بد أن تشرب هى الماء الذى غسله فيه . بعد ذلك لا بد أن يلف الزوج سبع مرات حول القرية . وأثناء ذلك يحظر عليه التحدث مع أحد . وإذا حياه أى عابر سبيل بالطريقة المعتادة ، لا بد أن يرد عليه بلمس جبهته بيده ، ويجب ألا يتكلم مع أحد .
وبمجرد أن ينتهى هذا السير يولد الطفل .

ويقال إن الولادة لا تحدث بعد موعدها أبداً ، إذا كان الزوج والزوجة يتميزان بالطيبة . ولكن إذا كان أحدهما ليس كذلك ، فإن هذا يحدث كذلك .

وإذا تكرر إجهاض أية امرأة ، فإنها تضع آخر جنين داخل كوة فى جدار بيتها . بعد ذلك تأتى بقالب طوب أحمر وتطحنه حتى يصير ناعمًا ، ثم تخلط المسحوق بعسل النحل وتأكل جزءًا من الخليط لمدة سبعة زيام . وفى نهاية هذه الفترة تأخذ الجنين وتضعه فى طشت تدخل فيه وتجلس على الجنين وتستحم . ويعتقد أن روح الجنين تعود إلى جسمها مرة أخرى وأن الحمل يتم على الفور . إلا أنه من الضرورى أن يتم الجماع بينها وبين زوجها بعد استحمامها مباشرة . ويعاد الجنين مرة أخرى إلى الكوة التى فى الجدار بعد الحمام وقبل الجماع . ويظل الجنين فى مكانه . إلا أنه سرعان ما يصير ترابًا .

وعندما يولد طفل يقال أن نجمًا جديداً يظهر فى السماء . وعندما يموت الطفل ، سواء فى طفولته المبكرة أو فى أية فترة لاحقة ، يسقط نجمه . ومن هنا نرى النجوم تسقط من السماء[٣]. ويسقط النجم بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق من موت الشخص الذى يخصه . وهناك تفسير آخر لسقوط النجوم وهو أنها سهام يوجهها الله للكفار[٤] . ويقول لين إن هناك اعتقاداً بأنها سهام يرمى بها الله العفاريت .

وهناك احتياطات معينة لابد أن تتبعها المرأة بعد أن تلد طفلها . فالمرأة التى فقدت مولودها حديثًا لا يسمح لها بدخول الغرفة التى يتم فيها توليد امرأة أخرى . كما يحظر دخولها عليها لمدة سبعة أيام بعد الولادة . وإذا اخترق هذا الحظر ، فإن المرأة التى كانت تضع مولودها لن يكون فى ثدييها لبن لوليدها .

وإذا تصادف أن إحدى القطط ولدت ومات أولادها جميعها فى بيت ما ووضعت امرأة طفلاً فى البيت نفسه الذى كانت تعيش فيه القطة مع أولادها ، فلابد من إخراج القطة من البيت وإلا فإن الطفل قد يموت . وإذا عاش الطفل فإن الأم لن يكون فى ثدييها لبن .

وفى إحدى القرى الصغيرة بمديرية أسيوط ، هناك حجر شبه مخروطى يقف وسط الحقول تحيط به المزروعات بمختلف أنواعها . ويقال إن الرجال حاولوا مراراً نزعه من مكانه بالحفر حوله إلى عمق بعيد ، إلا أن أحداً لم يصل إلى قاعدة ذلك الحجر . ويعتقد الفلاحون أنه حجر قديم جداً . وقد ارتبط به قدر كبير من الغموض بسبب تلك المعتقدات . وطبعًا كان لذلك أثره فى زيادة قيمته السحرية . وتقوم النسوة اللائى لا يوجد لديهن لبن كاف لإطعام أطفالهن بزيارة الحجر أيام الجمعة . ولا بد أن يلتزمن الصمت عند اقترابهن من هذا الموضع أو انصرافهن عنه . ولا بد أيضًا أن تخطو المرأة فوق الحجر سبع مرات ، وهى في صمت تام .

ويعتقد أنها بعد ذلك لا تجد أية صعوبة فى إرضاع طفلها . وقيل لى إن زيارة الحجر تتم لهذا الغرض منذ مائة سنة أو يزيد .

وإذا أحضرت امرأة أو طفل لحمًا إلى بيت فيه امرأة لديها طفل لم يكمل يومه السابع ، فإن هذا الشخص لا ينبغى أن يدخل غرفة الأم ، ولكن الأم هى التى لا بد أن تخرج من غرفتها وتخطو فوق اللحم ثلاث مرات . وإذا لم تفعل ذلك فلن يكون لديها لبن .

وإذا وضعت امرأة مسيحية ، سواء أكانت قبطية أم بروتستانتية أم من أى مذهب آخر ، فإن أقاربها يأتون ببعض دقيق القمح ويخلطونه بالماء ثم يصنعون من ذلك العجين عدة صلبان ويلصقونها على جدران الغرفة التى توجد فيها الأم والطفل . ويكون أكبر عدد من الصلبان فى ذلك الجزء من الغرفة الذى ينام فيه الطفل . ويعتقد أنه بذلك لا يمكن للعفاريت أن تقترب من الطفل . كما أن قرينة الأم لا يمكنها أن تؤذيها .

ويقال إن كل إنسان يولد ومعه شبيه ، وهو مختلف تمامًا عن العفريت[٥]. وهو فى حالة الرجل يسمى « قرين » وفى حالة المرأة «قرينة » . ويولد الرجل دائمًا ومعه قرينه الذكر ، فى حين تولد المرأة ومعها قرينتها الأنثى ، طبقًا للمعتقد الشائع بين الفلاحين . أما الجن أو العفاريت فيسمونهم « أخواننا وأخواتنا تحت الأرض » ولكنهم مختلفون عن الأقران ، وإن كانت الجماعتان علي اتصال ببعضهما .

ويعتقد أن الأقران من ألوان مختلفة ؛ بعضهم أبيض وبعضهم أسود . كما أن أشكالهم تختلف ؛ إذ إن بعضهم جميل وبعضهم قبيح . ولهذا المعتقد تفسير سهل . فقرين أى إنسان هو ولا شك نسخة طبق الأصل منه . والألوان فى الواقع من وسائل التمييز بين جنس وآخر . وأعتقد أن الأقران ليسوا دائمًا شريرين ، وإن كان ما يحكى عن أفعالهم الشريرة أكثر مما يروى عن أفعالهم الطيبة .

والأقران لا يشبهون الآدميين من حيث صورهم فحسب ، بل من ناحية الشخصية كذلك . فالواقع أنهم يعكسون كل أفعال أشباههم من البشر ، خيرها وشرها . وهكذا فإن أى شخص - رجلاً كان أم امرأة - يصيبه الغضب ، يحدث الشىء نفسه لقرينه . وإذا اعتراه ألم أو مرض ، يكون هذا هو حال القرين أو القرينة . وقد اتضحت هذه النقطة ذات يوم منذ ثلاثة سنوات عندما جاء عدد كبير من النسوة كى أطبب لهن عيونهن . كانت إحداهن تتحدث عن قرينتها ، فقلت لها : " ولكن عينيك حالتهما سيئة جداً الآن ، فما بال عينى قرينتك ؟ " .

فردت قائلة : " عيناها أيضًا حالتها سيئة " . قلت لها : " يا للمسكينة . ولكن من يرعى عينيها ؟ " وهنا ردت المرأة على الفور : " طبعًا قرينتك يا جناب الست " .

وهاكم مثال آخر عن الصلة القوية بين أى إنسان وقرينه أو قرينته . عندما يبدأ الشجار بين رجلين أو امرأتين أو أكثر من ذلك فى الاحتدام ، وأراد شخص شرير يراقبهما أن تتحول المسألة إلى مشاجرة فعلية ، فإنه يأتى بقالبى طوب ويوقف كلاً منهما على أحد طرفيه ثم يميل بالطرفين الآخرين على بعضهما ، أو يخلع فردة حذائه ويضعها مقلوبة على الأرض ، أى يكون النعل لأعلى . وهذا يجعل المتنازعين يتشاجران بعنف ، إلى أن يلجأ كل منهما إلى توجيه اللكمات للآخر . وبمجرد إبعاد قالبى الطوب عن بعضهما ، أو عودة الحذاء إلى قدم صاحبه، يتوقف الشجار . وكان مصدرى قد شاهد بنفسه تجربة من هذا النوع ؛ إذ رأى أحد أصدقائى رجلين يتشاجران فى الحقل فقام بوضع فردة حذائه على الأرض بالمقلوب ، وعلى الفور دخل المتنازعان فى قتال عنيف وقام كل منهما بتوجيه الضربات واللكمات للآخر . وبعد ذلك أعاد ذلك الصديق الحذاء إلى قدمه ، وعلى الفور توقفت المشاجرة .

وهناك اعتقاد بأنه عندما يبدأ البشر فى التشاجر فإن أقرانهم يخرجون إلى سطح الأرض ويتشاجرون كذلك . والأقران طبعًا لا يراهم أحد، ولكنهم يرون الطوب أو الأحذية . ومادام قالبا الطوب منصوبين معًا ، أو مابرح الحذاء موضوعًا على الأرض ، فإنهما يستمران فى العراك . ومع استمرار عراك القرينين يستمر الإنسيّان كذلك فى العراك ولا يتوقفان .

وقرين الرجل يتزوج قرينة زوجته . وإذا مات رجل أو امرأة يموت قرينه . وقيلت لى هذه الحقائق أكثر من مرة . وقد وصلتنى حقيقة هذا المعتقد بالطريقة الآتية . فقد توفى أحد أصدقائى من المصريين منذ حوالى ثلاث سنوات ونصف . وفى يوم كنت جالسة فيه مع زوجته فجاءت ساحرة لزيارتها . وعندما اقترحت عقد جلسة لتحضير الأرواح ، جلست الساحرة فى أحد أركان الغرفة وطلبت بطانية ثم غطت نفسها بها ، بحيث لم نعد نرى منها شيئًا . وعلى الفور صفقت مرتين أو ثلاث مرات فاستحضرت بعض العفاريت الذين تحدثوا معها . وبعد أن نقلت إلينا بعض الرسائل ، طلبت منها زوجة صديقى أن تخبرها بما صار إليه أمر قرين زوجها.

كان الرد على سؤالها هو : " لقد مات أيضًا وقرينته أرملة الآن " .

كانت الساحرة أشبه بمن يتحدث من بطنه وتغير صوتها تمامًا ، عندما كانت الكائنات السفلية تتحدث من خلالها .

وكما سبق أن قلت ، فكما أن الأقران يشبهون البشر المرتبطين بهم من حيث اللون والملامح، فإنهم يشبهونهم كذلك من ناحية الطباع . وأغلب الفلاحين المصريين يتميزون بالغيرة الشديدة، وهذه الصفة قوية جداً بين النساء ، فيما يتعلق بإنجاب الأطفال . وعدم الإنجاب مسألة مرعبة بالنسبة لهن . وكلما زاد عدد الأطفال كانت سعادة المرأة أكبر . وغالبًا ما تشعر النساء بالغيرة من ذرية غيرهن . لذلك تتخذ كل الاحتياطات لحماية الأطفال من العين الشريرة ، أو عين الحاسد [٦].

وربما تشعر قرينة المرأة بالغيرة من أطفال الإنس ، مع أنه إذا وضعت امرأة طفلاً ، فإن قرين هذا الطفل أو قرينته يمثل ذرية قرينة الأم . وتتخذ إجراءات عديدة لحماية الطفل الإنسى من أذى قرينة أمه . بل إن الأم نفسها لا بد أن تحتاط أثناء فترة حملها . إذ إن قرينتها قد تدفعها نوبة غيرة إلي ضربها « على بطنها » وهى نائمة ، مما يؤدى إلى إجهاضها . وهذه المسألة تتسم بالغرابة ، حيث إن القرينة سوف تفقد طفلها تبعًا لذلك . إلا أنه يعتقد فى بعض مناطق مصر أنه عندما يموت أحد الأطفال فإنه يذهب إلى قرينة أمه التى يكون لديها بهذه الطريقة طفل واحد على الأقل ، حتى وإن مات طفلها (قرين الطفل الإنسى) فى نفس الوقت الذى يموت فيه شبيهه الإنسى .

وأحيانًا تتحدث القرينة بخشونة مع المرأة الحامل دون أن تقدم على ضربها . وفى هذه الحالة تذهب المرأة فى الفجر لرؤية الساحر أو الشيخ وتطلب منه أن يكتب لها حماية ، وهى عبارة عن اتفاقية ملكة القرينات مع الملك داود . فقد حدث ذات مرة أن رأى داود إحداهن تحل شعرها وتخرج النار من فمها .

سألها داود : " ما هو عملك ؟ " . أجابته : " إذا حملت أى امرأة جئتها ليلاً وضربتها على بطنها فتلد طفلاً ميتًا . وإذا لم أفعل ذلك وسمحت لها بأن تلد الطفل سليمًا ، فقد آتى وأضرب الطفل أو أجعل حية تلدغه أو عقربًا يلسعه فيموت " .

وهنا قال لها داود : " إذا كان هذا هو عملك فسوف أقتلك . " ثم تحدث إليها مهدداً . فما كان منها إلا أن عقدت اتفاقًا معه وقالت : " إذا حملت امرأة كلماتك على جسمها لن أؤذيها أبداً . "

وهكذا وافق داود على اقتراحها هذا وتركها وشأنها . لذلك فإن أية امرأة حامل تعتقد أن لديها سببًا للخوف من إيذاء قرينتها لها فإنها تطالب بالتعويذة أو الحجاب وتعلقه حتى تتم

ولادة الطفل ، ثم تعطيها له حيث تعلقها حول رقبته إلى أن يبلغ السابعة من عمره . وبعد ذلك تصبح لديه مناعة من الأذى .

والقرينة التى رآها الملك داود هى ملكة القرينات جميعًا . والعهد الذى قطعته على نفسها ملزم لكل رعاياها . وطبقًا لما قاله لى مصدرى ، فهى نفسها ليست قرينة لأى إنسى . وهى وحدها التى تعيش إلى الأبد ، وكذلك الحال بالنسبة لملك الأقران .

وقرينة أى امرأة قادرة على أن تفعل ما فيه الخير أو الأذى لأطفالها حتى بلوغ سن السابعة . وقيل لى إنها تؤذيهم فقط إذا كانت الأم تفعل شيئًا غير صحيح ، أو كانت غيورة من غيرها . فمثلاً إذا أطبقت القرينة على رقبة طفل يكون معنى ذلك أن أمه سيئة المعشر .

وليس لقرين الرجل أى تأثير على أطفاله ، وإنما يقتصر أثره عليه هو وحده . فإذا تصرف بعصبية مع زوجته أو أسرته أو أصدقائه ، أو أخطأ فى أى شىء ، ثم ذهب إلى فراشه دون أن يندم على ما فعله ، فإنه قد يستيقظ فى الصباح ليجد أنه أصيب بمرض ما . ويكون القرين هو الذى فعل به ذلك . أما إذا شعر بالندم وتاب عما فعله ، أو استدعى أحد السحرة الذى يعطيه تعويذة يضعها تحت إبطه الأيسر ، فإنه يشفى .

وإذا ظهر المرض على أحد الأطفال وأخذ يزداد نحافة وضعفًا كل يوم عن اليوم الذى قبله ، فإن الأم تعرف أن قرينتها تحاول أن تسحب طفلها منها . وهناك العديد من الطرق لتقليل أثر هذا الشر . وفى إحدى القرى الصغيرة بمديرية أسيوط يوجد حجر ضخم يطلقون عليه حجر الشيخة فاطمة التى يعتقد أنها مدفونة عنده . وإذا كان هناك طفل تحاول قرينة أمه سحبه، فإن أمه تأخذه يوم الجمعة إلى هذا الحجر ، الذى تضع الطفل بالقرب منه وتظل تراقبه . فإذا نام الطفل نومًا هادئًا ، تعرف أنه سوف يشفى . أما إذا ظل يبكى ويرفض النوم ، فإنها تعود به إلى البيت وتعرف أنه سوف يموت عما قريب . وقد رأيت بنفسى طفلا بالقرب من الحجر وهو ينام نومًا عميقًا وأمه جالسة بجانبه .

وفي قرية بمصر الوسطى ، توجد جبانة قديمة مهجورة بها مقام لأحد المشايخ ذائعى الصيت فى المنطقة . وقد أصبحت بقية المقابر عبارة عن حطام وكثير منها تبدو منه فجوات كبيرة خاوية (الشكل ٣٢) . والمرأة التى يتأثر طفلها بقرينتها تأخذه إلى تلك الفتحات وتضعه فيها، وتكون النتائج كتلك التى فى حالة حجر الشيخة فاطمة . وهذه عادة شائعة فى أنحاء كثيرة من مصر.

(الشكل ٣٢) مقابر محطمة يوضع الأطفال فى فتحاتها عندما تصيبهم قرينة الأم بسوء

وقد يحدث أن يصاب أى طفل لم يبلغ الثامنة من عمره بحالة مفاجئة من الرعشة وصعوبة التنفس . فى هذه الحالة فإنه يتم استدعاء الجدة ، وإن لم تكن هناك جدة فإحدى الجارات ، حيث تضع الطفل فى حجرها وتلف عليه جلبابها . وإذا كان هناك أكثر من طفل دون الثامنة تفعل معهم ذلك واحداً تلو الآخر . وبعد أن تلفه فى جلبابها ، تأتى بمغزل وبقطعة الخشب التى يلف عليها غزل الصوف ، وتسمى المحلة ، وتلف عليها الصوف . وإذا لم يكن هناك صوف، فإنها تتخيل أنه موجود وتقوم بعملية اللف . بعد ذلك تكسر كلا من المغزل والمحلة ويشفى الطفل .

وفى بعض الأحيان قد تقوم قرينة المرأة بأعمال طيبة . فهناك امرأة قريبة لرجل أعرفه تقول دائمًا إن قرينتها طيبة جداً معها . وهذه المرأة لديها عشرة أولاد وبنتان . وهى أسرة شديدة الفقر . وهى تقول إن قرينتها غالبًا ما تأتى إليها عندما تكون فى حاجة إلى المال وعاجزة عن أن تفعل أى شىء لنفسها أو لأطفالها . بعد ذلك تأخذها قرينتها من يدها وتخرج بها إلى الشارع الذى تسكن فيه . وعندما تصل إلى نهايته تضع فى يدها بعض النقود وتتركها . وهنا تعود المرأة إلى بيتها .

وسوف يأتى فيما بعد وصف لمثال آخر لطيبة القرينة مع شبيهتها الإنسية .

والشكل (٣٣) عبارة عن التعويذة التى تضعها المرأة الحامل التى لديها سبب للخوف من الأذى الذى قد تلحقه قرينتها بطفلها . ومن الواضح أنها تعويذة قبطية . إلا أن الأمهات المسلمات والمسيحيات على السواء يستخدمنها .

(الشكل ٣٣) تعويذة ومربع تعويذة تضعها المرأة الحامل

وهناك شخصية أخرى بخلاف القرين والقرينة تسمى « الأخت » يعتقد أنها تولد فى نفس الوقت الذى يولد فيه الإنسان . إلا أنه ليس هناك أخ . وكل إنسان ترتبط به أخت ، سواء أكان هذا الشخص ذكراً أم أنثى . وطبقًا لما ذكرته مصادرى من الفلاحين فإن أخت كل إنسان تعيش تحت الأرض[7] ؛ إلا أنها تخرج إلي سطح الأرض أحيانًا . وهى تشبه الإنسان المرتبطة به من ناحية طباعه . وهكذا فإنه إذا كان الإنسان ، رجلاً كان أم امرأة ، طيبًا تكون الأخت طيبة كذلك . وللأخت شخصية مختلفة تمامًا عن القرين والقرينة[8] .

والأحداث التالية حدثت لزوج وزوجة أعرفهما جيداً . فقد كانت المرأة على وشك الولادة. وذات يوم كانت تتناول الطعام مع زوجها ودخلت البيت قطة وحاولت أن تأكل بعض طعامهما. ضربت المرأة القطة التى اختفت على الفور . ونتيجة لدهشة المرأة من هذا الاختفاء المفاجىء للقطة استشارت إحدى الساحرات المعروفات وكانت تعيش فى القرية ، فاتصلت الساحرة بـ «الناس اللى تحت الأرض » الذين قالوا لها إن أخت المرأة المذكورة غاضبة منها وتريد أن تعرف سبب ضربها لها ، عندما دخلت بيتها على هيئة قطة . وهنا أعربت المرأة عن أسفها الشديد ، إلا أنها لم تكن تعرف أن أختها هى التى كانت على تلك الصورة . قالت الأخت : "لماذا ضربتنى ؟ ألم ترغبى فى أن أتناول الطعام ؟ " كما شكت من أن المرأة التى هى أختها ليس لديها " كوز " تضعه على " الزير"، مما يجعل الأخت غير قادرة على الشرب عندما تدخا

البيت . قالت الساحرة للمرأة إن عليها أن تشترى كوزاً وتضعه مع الزير فى " الخزانة " وتغلق عليه بحيث لا يطوله غيرها وتستطيع الأخت أن تشرب ، دون أن يضايقها أحد .

وقيل أيضاً إن أخت المرأة وأخت زوجها شديدتا الغيرة ، لأن الرجل وزوجته يضحكان دائماً معاً . وقالت الأختان إنهما لا يعجبهما ذلك وإذا استمر هذا المرح فإن كل أطفالهما سيموتون. وكان على المرأة أن تضحك من حين لآخر لكى تسير الأمور على مايرام . وحسب معلوماتى، فإن هذه المرأة ذات طبيعة غيورة جداً . وهذا بلا شك ما يتضح فى تصرفات أختها ! أما الزوج فرجل شديد الأدب ، إلا أنه لم تتح لى الفرصة لأحكم عليه إن كان غيوراً أم لا . ومع ذلك فإن علىّ أن افترض أنه كذلك ، حيث إن أخته تبدو على درجة كبيرة من هذه الصفة !

وكما سنرى فى الفصل الحادى عشر ، فإن كل مخلوق من المخلوقات التى تحت الأرض له أخت .

وتظل المرأة غير طاهرة لمدة أربعين يوماً بعد الولادة ، إذا كان المولود ولداً، وثلاثين يوماً ، إذا كان بنتاً . وقيل لى أيضاً إنه محظور على الزوج أن يدخل الغرفة التى فيها زوجته لمدة سبعة أيام بعد الولادة . وإذا أراد أن يتحدث إليها، لا بد أن يفعل ذلك عن بعد . ولست متأكدة إن كانت تلك هى القاعدة دائماً أم لا . ولكنها كذلك بين بعض الفلاحين .

ولا يتم غسل الطفل بالماء قبل اليوم السابع من ولادته . وبعد ذلك لا يغسل سوى الوجه واليدين والقدمين . وعندما كنت أحاول أن أجعل النساء يفهمن مدى خطورة هذا على الصحة كن يقلن لى إنهن يخشين من غسل الطفل قبل أن يبلغ يومه السابع .

وفى هذا اليوم لا تغسل غير تلك الأجزاء التى ذكرتها ، كى لا يصاب بالبرد . وذات مرة جاءوا لى بطفل فى حالة سيئة جداً وكانت الإلتهابات تغطى جسمه من رأسه حتى قدميه . قلت للأم إننى لا يمكن أن أعطيها أية أدوية قبل أن تغسل الطفل . وعندما سمعت ذلك شعرت بأسى شديد وقالت لى إنها لايمكن أن تغسل الطفل . ومع ذلك أصررت علي رأيى فى عدم إعطائها أى شىء قبل أن تجعل الطفل أكثر نظافة . وقد اتضح لى أن والد الطفل كان يعانى من طفح جلدى وهو صغير . ومما قالته المرأة خشيت أن يكون الذى يعانى منه هو

السفلس. إلا أنها قالت لى إن الأب أو الأم إذا أصيب أحدهما بذلك فإن أطفالهما لايمكن غسلهم حتى يصيروا قادرين على الاستحمام بأنفسهم . وقد أكد لى اثنان من أصدقائى الأطباء شيوع هذا السلوك بين الفلاحين . وبالنسبة للطفل الذى أحضرته أمه لى ، يسعدنى أن أقول إنى نجحت فى نهاية الأمر فى إقناع الأم بغسله إلى حد ما وأعطيتها بعض الأدوية . كان ذلك قد حدث منذ عدة سنوات وعندما زرت القرية نفسها مرة أخرى بعد ذلك أسعدنى أن أجد أن الطفل فى حالة صحية جيدة.

وكانت المرأة نفسها قد فقدت عدة أطفال فى طفولتهم المبكرة ، قبل أن يولد ذلك الطفل . أما الطفل نفسه فكان يرتدى لباساً غريباً عبارة عن جلباب وقلنسوة من الخيش (الشكل٣٤). وقالت لى المرأة إن هذا اللباس صنع من الخيش كى يظل الطفل على قيد الحياة . وقالت لى نساء غيرها نفس الكلام . ولا بد أن يصنع اللباس من أكياس الخيش التى يوضع فيها القطن بعد جنيه ولا يجوز استخدام غيره . وقد صنع اثنان منه وقدما لى (انظر الشكل ٣٥) .



(الشكل ٣٤) طفل يرتدى رداء وقلنسوة من الخيش



(الشكل ٣٥) رداء وقلنسوة من الخيش

وفى اليوم السابع من ولادة الطفل تأتى القابلة وتغسله بالطريقة التى ذكرتها من قبل . وكذلك تغسل الأم . ويتم الحصول على الماء المستخدم فى غسل الطفل من الليلة السابقة ويوضع فى إبريق معدنى ذى بزبوز طويل ، ثم يوضع الإبريق فى طشت معدنى ويترك الاثنان على مقربة من الأم والطفل . ويطلق على الماء « مية الملايكة » . والملائكة هنا هم قرينة الأم وقرين الأب وقرين أو قرينة الطفل . ويزين الإبريق بطريقة تختلف باختلاف جنس المولود . وفى إحدى المناسبات التى شهدتها ، كان المولود ذكراً، ولاحظت أن مسبحة الأب كانت موضوعة حول الإبريق بينما كان منديل الرأس الخاص بأخته معقوداً حول رقبته . وفى مرة أخرى كان المولود بنتًا وكان عقد الأم الذهب وبعض المناديل الحرير ذات الألوان الزاهية موضوعة حول الإبريق (انظر الشكل ٣٦) . وكما قيل لى ، فإن تلك الزينة كانت توضع إرضاءً لـ « الملايكة » كى لا تؤذى الأم أو الطفل . وبعد أن يغسل الطفل ، لا بد أن يشرب رجل فى نفس عمر والد الطفل الماء المتبقى فى الإبريق . ويعتقد أن هذا يضمن للطفل أن ينمو ويكبر حتى يصير رجلاً .



(الشكل ٣٦) أم شابة وطفل وإبريق مزين

وفى الليلة السابعة ، أى التى تسبق يوم السابع ، يوضع فى الغرفة التى تقيم فيها الأم والطفل سلتان كبيرتان تحتوى كل منهما على الملح والقمح والبرسيم والفول والحلبة والعدس والذرة . وفى بعض الأحيان قد تملأ إحدى السلتين بالخبز ؛ وغالبًا ما يكون هذا الخبز فى شكل حلقات . ويوضع على إحدى السلتين غربال كبير ينام فيه الطفل طوال الليل . وعندما تأتى القابلة فى اليوم التالى ويتم غسل الطفل والأم ، توضع بعض الحبوب المأخوذة من السلتين فى الغربال الذى يكون الطفل كذلك بداخله . بعد ذلك تقوم القابلة بهز الطفل فى الغربال ، بتحريكه إلى اليمين وإلى الشمال ، وإلى أعلى وإلى أسفل ، فى الوقت الذى تدق فيه الأم على حافة الطشت بكوز من الصفيح . وأعتقد أن دق الأم على الطشت لا يتم دائمًا . ولكن فى إحدى المناسبات التى حضرتها والخاصة بهذا الاحتفال ، فعلت الأم ذلك . وهز الطفل فى الغربال يتكرر عدة مرات ، وبعد ذلك تعاد الحبوب إلى السلة . ثم تأخذ القابلة الطفل بين ذراعيها وتغطيه بقماش أبيض من القطن عليه بعض الحبوب المأخوذة من أحد السلتين . وبعد أن تطوف كل غرف الدور الأرضى بالطفل ، تخرج من المنزل وهى تنثر بعض الحبوب فى كل مكان تمشى فيه مرددة عبارة « الصلاة على النبى » مرات ومرات طوال سيرها .

بعد ذلك يعاد الطفل إلى حجرة الأم ، وتقوم القابلة بوضع الكحل فى عينيه من قارورة أحضرتها معها . وهى تغمس ريشة فى الكحل وتفتح عينى الطفل وتمرر الريشة على كل منهما واحدة بعد الأخرى . وبعد وضع الكحل تربط حول رقبة الطفل كيسًا يحتوى علي قطعة من الحبل السرى مربوط فيها سبع حبات فول وكيس صغير من قماش قطنى يحتوى على كميات صغيرة من الحبوب السبعة المأخوذة من إحدى السلتين (الشكل ٣٧) .



(الشكل ٣٧) الحبل السرى ملفوف بقماش من القطن وغيره من التعاويذ المتدلية منه
(من اليسار لليمين : سلك حديدى مثنى وخيط به سبع حبات من الفول وكيس به عينات من محتويات إحدى السلال)

ويتكون أجر القابلة من سلة كبيرة تحتوى على الذرة والخبز والتمر وأنواع مختلفة من النُقل وأحيانًا بعض النقود [9](شكل ٣٨).

وغالبًا ما يعطى للأب بعض من الحبوب الستة المختلفة مع الملح لينثرها في الحقول . وتعد هذه تعويذة للخصوبة . ويعتقد أنها تضمن له محصولاً وفيراً .

وعلاوة على التعاويذ المذكورة من قبل ، قد توضع للطفل تعويذة أخرى مصنوعة من سلك حديدى سميك ملفوف بشكل معين . وتعلق هذه التعويذة كذلك حول رقبة الطفل، حتى إذا ما بكى فإنه يطبق كفيه ويهزها بنفسه .



(الشكل ٣٨) القابلة تحمل أجرها على رأسها

وفى بعض مناطق الصعيد، تضع القابلة الخليط التالى فى عينى الطفل فى اليوم السابع . فهى تحضر معها بصلة وتعصرها فى فنجان قهوة صغير ، وتخلط العصير بالملح والزيت وكذلك الكحل . بعد ذلك تغمس ريشة فى الخليط وتفتح عينى الطفل وتمرر الريشة عليهما . ويعتقد أن هذا يجعل عينى الطفل واسعتين وجميلتين .

وتعتبر تسمية الطفل جزءًا من مراسم السبوع . وإذا كان الوالدان راغبين فى معرفة أفضل الأسماء وأسعدها لطفلهما ، فإنهما يفعلان ما يلى : تحضر الشموع ، وهى فى العادة أربع شمعات، وأحيانًا تكون بألوان مختلفة ، ويكتب على كل شمعة اسم مختلف وتشعل الشموع كلها فى وقت واحد . والشمعة التى تظل مشتعلة بعد انطفاء سائر الشموع ، يطلق الاسم الذى تحمله على الطفل . وبعد أن يصبح للمولود اسم ، يدخل سجلات الحكومة . ولا يسجل سوى اسم الأم ، أما اسم الأب فلا يسجل بالمرة [10].

وللأولاد قدر يزيد كثيراً عن قدر البنات . ويتم اتخاذ احتياطات خاصة عندما يكون المولود ذكراً لحمايته من العين الشريرة . وفى بعض الأحيان تُرشى القابلة كى تحفظ سر جنس المولود. وإذا أعطى لها مبلغ كبير من المال فإنها توافق على أن تشيع بين أهل القرية أن

المولود بنت . ورويت لى حكاية أم وضعت ولداً دون أن تعلم شيئًا عن جنس مولودها حتى صار عمره ثلاثين يومًا أو يزيد . وكان زوجها جاهلاً هو الآخر بجنس المولود .

ولمزيد من الحماية من العين الشريرة ، غالبًا ما يرتدى الولد ملابس بنت لمدة عامين أو أكثر. ويفترض أن ذلك يجعل كل أهل القرية يعتقدون أنه بنت . وينبغى أن ترضع الأم طفلها لمدة عامين . ولكن إذا حملت المرأة مرة أخرى قبل نهاية هذه الفترة ، فلابد أن تفطم طفلها الذى ولدته من قبل . وعندما يحدث ذلك تعلق « بلحة الغيرة » حول رقبة الطفل لكى لا يشعر بالغيرة من الطفل الآخر عندما يولد . وذات مرة رأيت أفظع مشهد للغيرة من جانب طفل صغير رأى أمه والطفل المولود ، حديثًا بين ذراعيها . فقد تعلق بها فى نوبة من الغضب الذى ينم عن الحسد . و « بلح الغيرة » فى بعض مناطق مصر عبارة عن أقماع شجر البلوط ، وفي مناطق أخرى يصنع من نوع من الطين ويتم تشكيله على هيئة نواة البلح .

وإذا كان الطفل كثير البكاء ، تشترى له الأم نسخة صغيرة جداً من المصحف وتعلقها حول رقبته . ويعتقد أنه عندما يبدأ الطفل فى البكاء ثم ينظر إلى المصحف المعلق حول رقبته ، فإنه يتوقف فوراً عن البكاء . وتوضع هذه النسخ الصغيرة من المصحف كذلك لأى طفل لتحفظه وتضمن له الحياة . وعندما تُستخدم لهذا الغرض ، فإنها توضع فى كيس من القماش القطنى .

وإذا وضعت امرأة ولداً بعد طول انتظار ، يقام له احتفال يسمى « المولد » وهناك عدة أشكال للموالد تقام لأسباب مختلفة وفى مناسبات عديدة ، من بينها الاحتفال بولادة الولد . والمولد عبارة عن شكر من جانب الوالدين ؛ ويعتقد كذلك أن فيه فائدة للطفل . وقد حضرت احتفالاً أو احتفالين من هذا النوع . وهذا هو وصف الاحتفال .

اشترى كبش للتضحية به وقام الجزار بذبحه . وعندما وصلت إلى المنزل أخذونى إلى السطح حيث كان العديد من أفراد الأسرة فى انتظارى . كان الكبش هناك دون أن يدرى شيئًا عن مصيره . وصل الجزار على الفور ، وبعد أن تأكد من أن نصل سكينه حاد بما فيه الكفاية، ألقى بالكبش على الأرض بحيث أصبح راقداً على ظهره . وبعد أن قال الجزار « بسم الله الرحمن الرحيم »[١١] قام بذبح الكبش . ولا بد أن اعترف أننى لم أشاهد هذا الجزء من الاحتفال . فقد أغمضت عينى وسددت أذنى وطلبت من الحاضرين أن يخبرونى بانتهاء الأمر

كله . بعد ذلك علقت الذبيحة وسُلخت . وأعتقد أن الفروة أعطيت للجزار تقديراً لخدماته . وقد احتفظ بجزء كبير من الدم فى سلطانية كبيرة ، حيث رش على باب البيت مع عمل بقعة كبيرة فى الوسط .

وربما يكون السبب فى ذبح الكبش فى مولد الطفل هو تقديم حياة مقابل حياة ، بمعنى أن التضحية بالكبش تضمن حياة الطفل .

بعد ذلك بدأت الأم وبعض قريباتها العمل فى إعداد اللحم وطهيه لهذا العدد الكبير من الضيوف الذين سوف يتجمعون فى المنزل فى المساء . أما أنا فعدت إلى البيت لأستريح بعض الوقت . وفى حوالى الساعة السابعة رجعت مرة أخرى إلى المولد لأجد الاستعدادات الكبيرة التى تم عملها والأعداد الكبيرة من الضيوف الذين تجمعوا . كما وجدت أن كرسى ضيف الشرف حُجز لى . وبعد وصولى بقليل ، دخل شيخ معروف عنه حسن تلاوته للقرآن ومعه بطانته. وكنت قد أحضرت معى عدداً من علب السجائر وقام خادمى بتوزيعها . فى الوقت الذى أحضرت لى فيه القهوة . لم يتوقف توافد الضيوف حتى لم يعد هناك مكان خال ، سواء على « الدكك » أم على الأرض . وبعد ذلك بدأ الشيخ التلاوة . وهذه التلاوة تكون مجودة دائمًا ويرددها القارىء من الذاكرة . وهو غالبًا ما يضع يده على جانب وجهه وهو يتلو ويتمايل فى حركة إيقاعية أثناء التلاوة . وهذا الشيخ بالذات مشهور بحسن صوته ، لذلك كانت كلمات الاستحسان تسمع من كل جانب أثناء التلاوة . وأخيراً وقف الشيخ على مقعد مرتفع واحدى يديه على وجهه والأخرى تمسك بمسبحة وأصبح أداؤه بطبقة أعلى وقدر أكبر من الحماس ، مشيراً بيده التى تمسك بالمسبحة [١٢]. وفى الوقت نفسه ازداد حماس الحاضرين وكانت هناك دائمًا صيحات مثل « يا شيخ » و « أيوه كده » . بعد ذلك قام أحد الرجال واقترب منه وبحماس خلع عمامته وألقى بها على الشيخ وأمسك بركبتيه . فعل آخرون الشىء نفسه ، حيث ألقوا بأنفسهم على الشيخ إعجابًا به .

وبعد فترة من التلاوة توقف الشيخ ووزعت القهوة مرة أخرى كما وزع المزيد من سجائرى . وأثناء هذا التوقف ، دار أحد بطانة الشيخ على المدعوين ليسأل كل منهم إن كان يريد تلاوة الفاتحة له ولأصدقائه الذين ذكروا بالاسم . وقدم كل فرد مبلغًا صغيراً من المال لمساعدة الشيخ. وقد تليت الفاتحة مرات كثيرة لى ولأسرتى ، بينما طلبت أنا الشىء نفسه للعديد من أصدقائى فى القرية . وبعد ذلك بدأت التلاوة من جديد . وبعد قليل توقف الشيخ مرة أخرى.

ولا أستطيع إحصاء عدد علب السجائر التى وزعتها . ولكن الذى أعرفه أنها لاقت تقديراً كبيراً .

استمر الاحتفال حتى منتصف الليل تقريبًا ، عندما وقفت كى أستأذن من أصدقائى فى الانصراف . وكان انصرافى سببًا فى إنهاء هذا الجمع ، حيث تفرق بقية المدعوين بسرعة إلى بيوتهم . وقيل لى بعد ذلك إنه كان واحداً من أنجح الموالد التى أقيمت . فلم يدخنوا من قبل هذا العدد من السجائر ، ولم يجمع الشيخ وبطانته هذا القدر من النقود ! ويؤسفنى أن أقول إن الطفل الذى أقيم المولد من أجله مات فجأة قبل أن أغادر مصر .

وبالنسبة للأقباط ، يحصل الطفل على اسمه عند التعميد ، عندما يأخذه والداه إلى الكنيسة. والغمر التام هو الشكل المعترف به بين الأقباط . وطبقًا لما ذكره الدكتور بتلر[١٣] فإن هذه الطقوس مسموح بها فقط فى مواسم معينة من السنة ، ولا ينبغى تعميد طفل فى فترة الصوم الكبير أو أسبوع الآلام أو أسبوع الفصح . كما أن الولد لابد أن يبلغ عمره أربعين يومًا والبنت ثمانين يومًا قبل إجراء طقوس التعميد [١٤].

ويمكن استثناء هذه القاعدة فى حالات المرض الشديد . وطبقًا لما قاله مصدرى ، فإن ماء التعميد يوضع فى خزان تحت الأرض . وبعد سؤال الأم عن الاسم الذى يسمى به الطفل ، يقوم القس بوضع الطفل فى الماء ثلاث مرات . وفى كل مرة يردد الاسم الذى أختير له . بعد ذلك يعاد الطفل لأمه التى تلبسه ثم يأخذ القس خيطًا حريريًا أحضرته الأم معها ويلفه حول الطفل، بحيث يمر تحت إبطه الأيسر . بعد ذلك يصنع من الخيط عقدة بأنشوطة . وبعد تلاوة عدد معين من الصلوات تعطى للطفل بضع قطرات من نبيذ القربان المقدس ليشربها . وهنا يغادر المكان معظم الذين حضروا هذا الاحتفال . إلا أن الوالدين والطفل يبقون فى الكنيسة فى الوقت الذى تتلو فيه جوقة المرتلين بعض التراتيل المعينة . ثم يسأل القس الوالدين عن استعدادهما لتنشئة الطفل على معرفة المسيحية ، ويوضح لهما عظم مسئوليتهما فيما يتعلق بتوجيه طفلهما التوجيه الدينى الصحيح .

وبعد انتهاء مراسم التعميد ، يعطى الوالدان القس بعض المال ، الذى يختلف مقداره باختلاف وضعهما . ثم يقوم القس بفك العقدة التى عقدها بالخيط الحرير .

وفى كل القرى المصرية يمكن رؤية عدد من الأطفال الصغار الذين حُلقت رؤسهم ما عدا بعض الخصلات التى تركت بلا حلاقة . وكل واحدة من هذه الخصلات توهب فى حالة المسلمين

لأحد المشايخ ، وفى حالة الأقباط لأحد القديسين . وقيل لى إنه ليس هناك عمر محدد تتم فيه حلاقة الشعر بهذه الطريقة . إلا أننى أعتقد أن هذا يتم دائمًا فى الطفولة المبكرة جداً ، وربما بمجرد نمو الشعر . فلم أشاهد قط إلا الأطفال الصغار بهذه الخصلات غير المحلوقة على رؤوسهم . ومراسم قص هذه الخصلات لا تتم ، حسبما اكتشف ، فى سن معينة من فترة الصبا. إلا أن موعد ذلك يحدد طبقًا لمقدرة الأب على دفع التكاليف التى تقتضيها هذه المناسبة .

وعند الرغبة فى حلق الخصلات يتم احتفال مهم ، على الأقل فى مديرية أسيوط ، كما ذكر لى مصدرى . وإذا أمكن ، يؤخذ الطفل إلى ضريح الشيخ أو أضرحة المشايخ (الشكل ٣٩) الذين وهبت لهم الخصلات حيث تتم حلاقتها داخلها أو أمامها . وقد يؤخذ الطفل إلى أحد المساجد حيث يمكن أيضًا القيام بعملية الحلق . وإذا كان الطفل قبطيًا ، يؤخذ إلى الكنيسة أو الكنائس التى تحمل اسم القديس أو القديسين الذين وهبت لهم الخصلات . وفى حالة المسلمين يستدعى حلاق القرية لحلق الشعر . أما فى حالة الأقباط فإن أحد القساوسة يقوم بذلك . وتتم حلاقة الخصلات ، إن أمكن ، عندما يصل طولها إلى أربعة أو خمسة سنتيمترات . ولكن فى بعض مناطق الصعيد يكون هذا الاحتفال مكلفًا بالقدر الذى يفوق قدرة الفلاح الفقير . وهو ما قد يجعل الطفل ينتظر وقتًا طويلاً قبل أن تصبح حلاقة خصلاته ممكنة . ويؤخذ الخبز واللحم إلى الأضرحة أو المساجد التى تتم فيها الحلاقة ، وتقام وليمة يصاحبها الرقص والضرب على الدربكة والتصفيق والزغاريد . وربما يطالب الحلاق فى هذه المناسبات بمبلغ كبير من المال . ونادراً ما تقل جملة التكاليف عن ستة جنيهات ، وغالبًا ما تكون أكثر من ذلك .

وشاهدت بنفسى الاحتفال بهذه الطقوس فى مديرية الفيوم ، حيث كانت خطواته أكثر بساطة . فقد أخذ الطفل المراد قص خصلاته إلى ضريح الشيخ مبارك الذى وهبت له كل الخصلات. وصل بعد ذلك الحلاق وقام بحلق الشعر فى مدخل الضريح . وفى تلك المناسبة كانت عمة الطفل وأمه يمسكانه . إلا أننى لا أظن أن هناك قاعدة ثابتة بشأن من يقوم بذلك . ولم يكن هناك رقص أو وليمة . ولكن هذه المظاهر قد تحدث كذلك فى هذه المديرية ، وإن كانت غير ضرورية . كما قيل لى إن الوضع كذلك فى مديرية أسيوط . وكانت أم الطفل إحدى صديقاتى . وحيث إنى دفعت أتعاب الحلاق ، فقد نجحت بمساعدة المرأة التى كانت تمسك الطفل بأن يكون لى نصف الشعر الذى قص . والشعر المقصوص يدفن دائمًا خارج

الضريح أو المسجد الذى قص فيه . وهو إما أن يُدفن فى الأرض مرسلاً (١٥) ، أو يوضع أولاً فى كرة من الطين . وفى المناسبة التى حضرتها ، وُضع الشعر فى كرة من الطين ودُفن خارج ضريح الشيخ مبارك ووضع النصف الآخر فى كرة من الطين وأهدى لى . والكرة التى فى حوزتى مستوية بعض الشىء عند القاعدة ، حيث إن الطين الذى صنعت منه كان ليناً قليلاً . وعندما وضعت الكرة خارج البيت لتجف فى الشمس ، استوى ذلك الجزء الملامس للأرض .



(الشكل ٣٩) طفل يوشك أن يقص شعره عند ضريح الشيخ مبارك (الرجل الذى على اليمين هو الحلاق)

وكما قلت من قبل ، يأخذ الوالدان القبطيان ابنهما لحلق الخصلات فى الكنيسة أو الكنائس ، وربما إلى ضريح القديس أو أضرحة القديسين الذين وهبت لهم الخصلات . وكما أسلفت ، فإن القس يقوم بعمل الحلاق ويقدم الأب هدية مالية إلى الكنيسة أو الكنائس التى يتم فيها حلق الخصلات . وفى هذه المناسبة تقام صلاة خاصة فى الكنيسة وتذبح العجول والطيور وتوزع لحومها مع الخبز على من تجمع من الأصدقاء والفقراء . وإذا لم يكن الوالدان من الأغنياء ولايقدران على عمل مثل هذه الوليمة السخية ، فإنهما يحضران كمية صغيرة من اللحم الذى يوزعانه مع الخبز على الأشخاص الذين يتجمعون دائماً فى مثل هذه المناسبات .

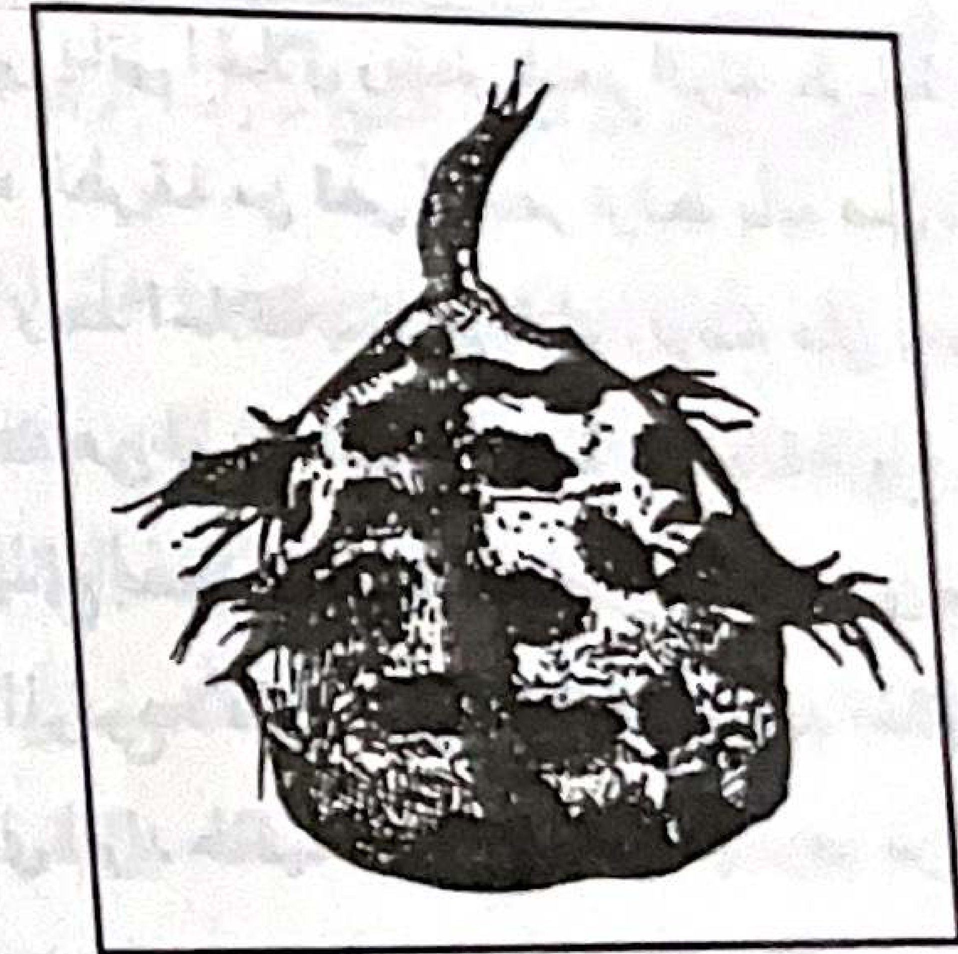
وفى هذه الحالة لا تقدم أية قرابين . وليس هناك رقص فى هذه المناسبة عند الأقباط كما هو الحال عند المسلمين ، ولكن النساء يطلقن الزغاريد ويكون هناك قدر لا بأس منه من الغناء .

وقيل لى إنه إذا ظلت المرأة فترة طويلة بعد زواجها دون أن تحمل ، فإنها تدعو بالولد وتنذر إذا أجيب دعاؤها أن تحلق شعر الولد ولا تترك إلا الخصلات التى سوف تهبها لمن تتوسل به ، سواء أكان شيخاً أم مشايخ ، أم قديساً أو قديسين . وبعد أن تدعو تلك الدعوات، قد تعاود زيارة الشيخ ، أو كنيسة القديس القبطى ، الذى تأمل فى أن يساعدها على تحقيق ما تتمناه . وقيل لى فى مديرية الفيوم إنه إذا شوهد طفل وقد حلق شعره إلا بعض الخصلات ، فإن معنى ذلك أنه طفل وحيد وأن هذه الطريقة فى الحلاقة تضمن له طول العمر . ولا بد أن أشير هنا إلى أن أول حلاقة للطفل يجب أن تتم فى البيت .

وطبقاً لما ذكره الدكتور بتلر(١٦) فلا بد أن يتم الختان قبل التعميد . ومراسم الختان الفعلية تشبه إلى حد كبير مثيلاتها عند المسلمين . لذلك فإن الوصف التالى ينطبق على أتباع الديانتين . والفرق الوحيد هو أنه فى الوقت الذى يجب فيه أن يتم ختان الطفل القبطى قبل التعميد ، فليس هناك ما يحدد العمر الذى يتم فيه ختان الطفل المسلم ، وإن كان ذلك دائماً فى السنوات الأولى من عمر الطفل . وتتطلب مراسم الختان مصاريف معينة ، ولذلك فهى تتم أحياناً مع إحدى مناسبات الزواج ، بحيث يمكن اقتسام التكاليف .

والطفل الذى تجرى له هذه العملية تخضب يداه وقدماه بالحناء عند الغروب . قبل يومين من ذلك . وفى اليوم التالى يأتى الحلاق ويقص شعر الولد بطريقة خاصة يطلق عليها «المقرص». ولا أظن أن هذه الطريقة من قص الشعر ترتبط بأية صورة من الصور بخصلات الشعر التى ذكرناها آنفاً . وبعد الحلاقة يستحم الولد وتوضع على وجهه العملات المعدنية ، كما قيل لى. وربما تكون هذه هى نفسها العادة المتبعة فى حالة الزواج ؛ حيث تذهب المدعوات اللاتى يرغبن فى إهداء مبالغ صغيرة من المال للعروس إليها ويضعن العملة التى يردن إعطاءها لها على وجهها المرفوع لأعلى . وفى حالة الولد يأخذ الحلاق النقود التى تقدم بهذه الطريقة . وبعد ذلك يرتدى الولد طاقية من نوع خاص مصنوعة من اللباد (الشكل ٤٠) . وهذه الطاقية بيضاء اللون وتكون مزينة برسومات باللون الأصفر ولها شراشيب ويشتريها والداه خصيصاً لهذه المناسبة ، ولا يرتديها إلا فى هذه الطقوس . ويزاد فى تزيين الطاقية بوضع قطع من الورق الملون أو قصاقيص القماش أو الموسلين . وبعد أن يلبس الولد هذه

الطاقية يوضع على حصان . وأعتقد أنه يجلس عادة ووجهه ناحية ذيل الحصان . ويغطى بشال ويمسكه أحد الرجال ، لكى لا يقع من على الحصان الذى يقوده رجل آخر ثم يلف به فى أنحاء القرية بصحبة عازفى الموسيقى . وإذا كان هناك أخان تجرى لهما هذه العملية ، فإنهما يركبان معًا على حصان واحد . وبعد أن ينتهى الطواف فى القرية ، يؤخذ الولد إلى البيت ويقدم العشاء للأصدقاء الذين وضعوا النقود على وجهه وكذلك الحلاق . وتقوم الموسيقى بدور مهم فى هذا الاحتفال ولا يكف العازفون عن قرع الطبول وضرب الصاجات ونفخ القرب . وبعد أن ينتهى المدعوون من العشاء يغادرون جميعًا البيت ومعهم العازفون . وفى صباح اليوم التالى يأتى الحلاق وحده إلى البيت حيث يدفع له والدا الطفل أجره أولاً . ويحصل الحلاق على جنيه أو اثنين أو أكثر من ذلك . ويمسك بالطفل ويطلب منه ألا يخاف . ويحاول أحد الأشخاص أن يلفت انتباهه بينما ينتهز الحلاق هذه الفرصة ليقطع القلفة . ويرتدى الولد جلابية بيضاء خاصة بهذه المناسبة ذات كمين طويلين تُربط القلفة فى أحدهما . بعد ذلك يربط الحلاق أم الولد وخالته معًا عن طريق لف عمامة حول رقبتهما ويجرهما خارج الدار . وهنا يدخل الأصدقاء الذين تجمعوا فى الخارج ويهبون النقود مرة أخرى للحلاق الذى يغادر البيت بعد ذلك . ويغسل الجرح يوميًا ويرش عليه مسحوق أظن أنه الحنة . وتظل القلفة مربوطة فى كم جلابية الولد إلى أن يشفى الجرح . ولا بد أن يظل مرتديًا الثوب الأبيض طوال هذه المدة .



(الشكل ٤٠) طاقية يلبسها الصبى فى الاحتفال بختانه

وبعد أن يتم ختان الأولاد ، توضع لهم تعويذة تتكون من قطع قصيرة من جريد النخل حُفرت على أحد جانبى كل منها مثلثات . والغرض منها الحفاظ على الجرح من التلوث ومنع العين الشريرة . وهذه التعويذة يضعها الولد لمدة سبعة أيام بعد العملية، حيث تتدلى من خيط حول رقبته .

وليس هناك سبب لربط الأم والخالة معًا من رقبتيهما وإخراجهما من الدار . إلا أننى أرى أنه من المحتمل أن تكون هذه طريقة للتأكيد على حقيقة أن الطفل قد انضم إلى مجتمع الذكور بإجراء هذه العملية ، وأنه بذلك لم يعد تحت سيطرة الأم وقريباتها . هذا مجرد تخمين وما قدمته إلا على سبيل التفسير المحتمل لهذه العادة التى تتسم بالغرابة .

وهناك اعتقاد شائع فى أنحاء مصر بأن أرواح التوائم بعد أن يتعدوا مرحلة الصبا تخرج من أجسامهم ليلاً وتدخل أجسام القطط . لذلك تعامل هذه الحيوانات برقة شديدة . والقصص التالية حكيت لى فى سياق هذه المعتقدات ، وأكد لى مصدرى أنها حقيقة وأنه يعرف الأشخاص الذين حدثت لهم .

فى قرية صغيرة بمديرية أسيوط كان هناك غلام توفى توأمه . وفى إحدى الليالى جاءت قطة إلى أحد المنازل وصعدت إلى السطح الذى كانت عليه بعض الصوامع الطينية كما هى العادة . وكان بإحدى الصوامع كِشك . وهو يصنع من القمح المخلوط بالحليب ويقطع ويجفف فى الشمس وغالبًا ما يقدم للضيوف كإحدى الوجبات اللذيذة . أوقعت القطة غطاء الصومعة التى بها الكشك وقفزت إلى داخلها وبدأت تأكل بعضًا مما فيها . تصادف صعود أحد أفراد الأسرة إلى السطح فشاهد الصومعة مكشوفة ووضع عليها الغطاء على الفور ، دون أن يلاحظ القطة التى داخلها . وخلال هذه الفترة ظل الغلام المذكور بلا حركة فاقداً للوعى على فراشه ، حيث كانت روحه فى جسد القطة المحبوسة .

وبعد ثلاثة أيام جاء بعض الضيوف إلى البيت الذى فيه الصومعة إياها ، وذهب أحد أفراد الأسرة لإحضار الكشك لتقديمه لهم . وعندما كشف الغطاء ، قفزت القطة وجريت بعيداً . بعد ذلك مباشرة عادت روح التوأم إلى جسده وقام من فراشه سليمًا معافى .

وذات مساء ضربت امرأة قطة ، كانت روح أحد التوائم دخلتها بصورة مؤقتة ، على رأسها. وفى اليوم التالى جاء ذلك التوأم إلى المرأة واتهمها بأنها ضربته فى الليلة السابقة وأشار لها إلى المكان الذى ضربته عليه ، واشتكى من أن الضربة جعلته يشعر بألم شديد .

وإذا قتلت إحدى القطط فى الوقت الذى تكون داخل جسدها روح توأم ما ، فإن هذا التوأم يموت كذلك . وعليه فمن النادر أن يقتل أحد قطة .

الهوامش :

(١) وهذا أيضاً اعتقاد شائع فى انجلترا .

(٢) ربما المقصود قرن حبة قرناء .

(٣) يشيع نفس الاعتقاد فى بعض أجزاء انجلترا .

(٤) . The Manners and Customs of The Modern Egyptian (London 1871) Vol. I, p. 283

(٥) انظر الفصل الرابع عشر .

(٦) انظر الفصل الثالث عشر .

(٧) انظر الفصلين الحادى عشر والرابع عشر .

(٨) انظر مقالى بعنوان : " The Karin and Karineh " فى Journal of The Royal Anthropological Institute, Vol. lvi, January - June 1962, pp. 163 - 169 .

(٩) واعتقد أنها فى بعض الأحيان لا تأخذ إلا الحبوب .

(١٠) اعتقد أن العكس هو الصحيح وربما اختلط الأمر على المؤلفة (المترجم) .

(١١) الرحمة لا تذكر فى موضع الذبح وذكر الله فى هذه الحالة يكون كما يلى : " بسم الله، الله أكبر " وليس كما ذكرت المؤلفة (المترجم) .

(١٢) يبدو أنها فى أول الأمر تصف الشيخ يتلو القرآن جالسًا ثم تصفه واقفًا يردد بعض التواشيح (المترجم) .

(١٣) . The Ancient Coptic Churches of Egypt, (Oxford, 1884), Vol. ii, p. 264

(١٤) المصدر نفسه .P. 263

(١٥) انظر مقالى فى MAN, VOL. xxv, p. 1. E, Fig. 4 .

(١٦) انظر مقالى فى Man, Vol. xxv, p. 263 .

الفصل الخامس
الزواج والطلاق

سبق إن قلت أن الفتيات يهتممن بملابسهن فى سن مبكرة جداً ، بغرض اجتذاب الاهتمام وضمان الزواج . وهؤلاء الأطفال غالبًا ما يتزوجن رجالاً كبار السن يصلحون لأن يكونوا آباء لهن ، أو حتى أجداداً . وهذا الفارق فى السن غير مناسب بالمرة ، وكثيراً ما يؤدى إلى قدر كبير من التعاسة . وتلقى محاولات الفتيات للحصول على أزواج مساعدة أمهاتهن وتشجيعهن . وقد تلجأ الأمهات إلى السحر والحيل المختلفة لضمان الزوج الذى عليه العين . وهاتان الحادثتان اللتان وقعتا أثناء وجودى فى مصر عام ١٩٢٦ ، توضحان إحدى الطرق التى غالبًا ما تستخدمها النساء اللاتى يردن الإيقاع برجل ما ، إما لهن أو لبناتهن .

كانت امرأة تعيش فى إحدى قرى مصر الوسطى تسير فى الطريق عندما لمحت شابًا (الشكل ٤١) جذب انتباهها وتصورت أنه يصلح لأن يكون زوجًا ممتازاً لابنتها . دفعها ذلك إلى الذهاب إلى أحد السحرة الذى طلبت منه أن يكتب لها تعويذة[١] أخذتها ودفنتها تحت عتبة بيتها . بعد ذلك جعلت أحد أقاربها يأتى بذلك الشاب إلى بيتها ، بحجة أنه يريده أن يكون معه عندما يذهب إلى هناك لقضاء بعض الأعمال . قبل الشاب الذهاب معه . وعند الوصول إلى البيت وقف قريب تلك السيدة ، الذى يعرف تمامًا المكان الذى دفنت فيه التعويذة، فى موضع يحتم على الشاب أن يخطو فوق التعويذة عندما يدخل البيت . قامت الفتاة بعمل القهوة للضيفين وأحضرتها لهما بنفسها ، أو جعلت عين الشاب تقع عليها بطريقة أو بأخرى . عاد الشاب بعد ذلك إلى بيته. وفى طريق عودته بدأ يفكر فى الفتاة التى رآها وصارت لديه رغبة فى أن تكون زوجته . وعند وصوله إلى بيته ازدادت رغبته فيها . وما إن حل المساء حتى أصبح مجنونًا بها ورفض الأكل أو النوم، قائلاً أنه لا بد أن يتزوج تلك الفتاة. وقد رأيته بعد ذلك عدة مرات وكان مريضًا بالعشق وتوسل إلىّ أن أتدخل لدى والده ، الذى لم يكن لديه استعداد لدفع مهر العروس لأنه سبق لها الزواج . ولكنى أعتقد أن السبب الأساسى هو أنه لم يكن يرغب فى دفع المال . وكان للشاب صريع الهوى جزء من بيت والده خصصه له ليستخدمه عند زواجه . وغالبًا ما كان يدخل تلك الغرف وينظفها ويرتبها وهو يحلم بالفتاة التى يرغب فى زواجها .



(الشكل ٤١) الشاب الذى كان ضحية لتعويذة الحب

وقيل لى إن تأثير هذه الوسيلة على أى رجل واحد دائمًا . كما أنه إذا كان مرتبطًا بالفعل بأى فتاة أخرى فإنه يحل نفسه من ذلك الارتباط .

والخطبة فى مصر غالبًا ، وليس دائمًا ، ما يكون لها نفس قوة عقد الزواج . ويتحدث الناس عن فك هذا الارتباط على أنه طلاق . والشاب الذى يحدث له ما حدث للشاب الذى تحدثنا عنه وكان خاطبًا ، عليه أن يدفع مبلغًا كبيراً من المال كى يتخلص من الفتاة التى كان يريد أن يتزوجها أصلاً . وقيل لى إن الشاب لم يكن يدرى أن تعويذة استخدمت للإيقاع به . فقد هام بالفتاة دون علم بالفخ الذى نُصب له .

فى الحادثة الأخرى كانت أم لشابة غير متزوجة وأخوانها يسعون إلى تزويجها ، ولكن أحداً لم يأت . وحدث أن رأى أفراد تلك الأسرة ، بمن فيهم الفتاة نفسها ، خادمى الشاب الذى يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا عدة مرات . وهو شاب على قدر من الوسامة ، إلى جانب أن لديه أرضًا وبيتًا جيداً . وكان الأخ الأكبر للفتاة قد ذهب إلى قرية خادمى وزار بيته وعلم أن أسرته أفضل كثيراً من سائر أهل القرية . وبينما كان خادمى يسير فى حديقة منزلى الذى أعارتنى إياه الحكومة ، لاحظ أن هناك قطعة من الورق ملقاة على الأرض تحت واحدة من النخيل . التقط الورقة ووجد أنها تعويذة من نوع ما . كان لا يعرف القراءة أو الكتابة

ولكنه كان يستطيع التوقيع باسمه ، فلاحظ أن اسمه مكتوب فى التعويذة . وكان أحد موظفى الدولة الذى يسكن بالقرب منا على معرفة لابأس بها بمثل هذه الأمور . لذلك أخذ خادمى الورقة وذهب بها إليه . قرأ الرجل الورقة وقال إنها تعويذة كتبت لإيقاع خادمى فى حب الفتاة المذكورة . وكانت الورقة قد علقت فى أعلى النخلة ولكنها لم تربط جيداً فى الجريدة فسقطت على الأرض . ومع ذلك فإنها ما كانت لتؤثر فى شىء ، حيث أن اسم والد خادمى وليس اسم والدته هو الذى كان مكتوبًا فيها . فالمفروض فى مثل هذه التعاويذ كتابة اسم الأم لا الأب . وقال الرجل إن هذه التعويذة لها قوة رهيبة . ولولا نسيان ذكر اسم الأم لكان لها أثر فظيع ! وللأسف أن خادمى مزق الورقة قبل أن يحكى لى عنها أى شىء . وقد كان لومى له شديداً لعدم إعطائها لى ، حيث إنه يعلم مدى شغفى بجمع تلك الأشياء . ولكن من الواضح أنه كان شديد الخوف وشعر أنه لا بد من تمزيقها . وهذا الشاب تزوج الآن من إحدى بنات عمومته ويعيشان معًا حياة آمنة .

وكما قلت من قبل ، عندما تصل الفتاة إلى سن الزواج تفرض قيود على حريتها . وإذا كان لها ابن عم غير متزوج فإنها غالبًا ما تزوج له . وأثناء مشاورات الزواج يناقش أقارب الطرفين مقدار المال الذى يمكن أن يدفعه كل منهما . وبعد أن يتم الاتفاق على ذلك يقوم العريس ، أو والده ، بدفع المهر المتفق عليه لوالد العروس . وبعد ذلك يستدعون القاضى (المأذون) الذى يكتب ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين . وهنا يصبح العروسان مخطوبين . والخطبة ، كما قلت، لها قوة الزواج .

وبالنسبة للمسلمين ، لا توجد طقوس دينية عند عقد القرآن ؛ حيث إن الزواج بالنسبة لهم ليس سراً مقدسًا . ويحدث الزواج الفعلى عندما تذهب العروس إلى بيت زوجها . وكما قيل لى فإن العروس تؤخذ إلى بيت زوجها فى العادة عند الغروب ؛ إلا أننى غالبًا ما أرى العروس تؤخذ إلى هناك فى وضح النهار . وعادة ما توضع على جمل داخل ما يشبه الخيمة[٢] المثبتة عى ظهره وتصحبها بعض صديقاتها . وهذه الخيمة تتمايل بينما الجمل يسير . ويلى هذا الجمل جمال أخرى على ظهورها خيام مشابهة تحمل قريبات وصديقات أخريات . وتطلق كثير من النساء الزغاريد وهن يسرن . وقيل لى إن العروس تنقل على جمل بهذه الطريقة إذا كان زوجها يقيم فى قرية أخرى ، ولكنها تركب حصانًا إذا كان مقيمًا فى نفس القرية التى يعيش فيها أهلها . إلا أننى لم أشهد بنفسى عروسًا على ظهر حصان .

والآن وبعد أن أصبحت سيارات « فورد » منتشرة فى مصر ، صار الفلاحون يستعملونها فى نقل العروس وصديقاتها إلى منزل العريس . وبذلك فقد موكب العرس قدراً كبيراً من جماله . وتنقل العربات الأثاث والمفروشات من بيت العروس إلى بيت العريس . وعادة ما يكون ذلك قبل يوم من ذهابها هى . ويبقى كل شىء مكشوفًا أثناء نقله إلى البيت ، لكى يرى الناس مقدار جودة الأثاث الذى تأخذه العروس معها !

والموسيقى لها دور مهم فى كل احتفالات الزواج ؛ وغالبًا ما يتضمن موكب العروس فرقة موسيقية . ويقيم العريس وليمة فى بيته لكل أصدقائه ، وتبقى العروس فى غرفة بأعلى المنزل مع قريباتها ورفيقاتها . وترقص النساء رقصات غريبة فى هذه المناسبات يعرفها الأوربيون عادة باسم Danse à Ventre . وهو رقص شديد القبح ولا بد أنه يحتاج إلى تدريب خاص لعضلات البطن . والمرأة أو الفتاة التى ترقص بهذه الطريقة تربط طرحة على وسطها وتحكم ربطها . وبعد ذلك تمسك بعصا أمامها بكلتا يديها وتهز بطنها لأعلى ولأسفل، وتدور حولها نفسها مرات ومرات وهى تفعل ذلك . وكما قلت من قبل ، تهدى صديقات العروس مبالغ مالية صغيرة لها، حيث يضعن تلك الهدايا على وجهها المرفوع لأعلى . وعندما يدخل الليل تطلق الأعيرة النارية وتطلق النساء الزغاريد ويساهم عازفو الموسيقى كذلك فى هذه الجلبة . وفى العادة يقام شادر خارج المنزل يتجمع فيه الرجال الذين يهنئون العريس ويشربون القهوة ويدخنون . وعادة ما تستمر الاحتفالات لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، إن لم يكن هؤلاء الناس فقراء جداً .

وبالنسبة للأقباط ، تتشابه الترتيبات الأولية تشابهًا كبيراً مع ما لدى المسلمين . إلا أنهم يتميزون بقداس الزواج الذى يتم فى الكنيسة . وفى حالة الفلاحين ، يذهبون بالعروس إلى الكنيسة على جمل ، إذا كانت هى وعريسها يقيمان فى قريتين مختلفتين ، وعلى حصان إذا كان بيتاهما فى قرية واحدة . وتتبع العروسَ صديقاتُها اللاتى يركبن مثل ما تركب . وقيل لى إن القداس يتم فى المساء ويصاحب الموكب رجال يحملون المصابيح والشموع . وأثناء السير تطلق النساء الزغاريد . ويوجه القس كلامه للعروسين . ولكن قبل أن يفعل ذلك، يتناول خيطًا حريريًا ويمرره فوق كتف العريس الأيمن وتحت إبطه الأيسر حيث يربط الخيط عقدة بأنشوطة . وبعد انتهاء خطبة القس للعروسين ، يدفع له العريس مبلغًا من المال . وهنا يقوم القس بفك العقدة . بعد ذلك يتناول خاتمى الخطوبة اللذين يتبادلهما العريس والعروس أثناء

الخطبة ويربطهما بخيط حريرى . وبعد أن يوجه القس للعروسين بعض الأسئلة يعيد لهما الخاتمين ويضع كل منهما خاتمًا فى إصبعه . ولا يضع العريس الخاتم فى إصبع العروس .

وعقب انتهاء القداس ، يدعو القس أحد الحاضرين كى يتحدث . وربما يقوم رجل ويلقى خطبة يقوم فيها بمقارنة العروس بالقمر والعريس بالشمس ، إلى جانب عبارات المجاملة الأخرى. ويحذو رجال آخرون حذو هذا الرجل . بل إن النساء يسمح لهن بالتحدث فى مثل هذه المناسبات . بعد ذلك إما أن يشكر العريس أصدقاءه على تلك الكلمات الطيبة بنفسه ، أو يطلب من والده أو أخيه أن يقوم بذلك نيابة عنه .

ويرتدى العريس والعروس ملابس جديدة فى مناسبة زواجهما . وهما يرتديان هذه الملابس لمدة سبعة أيام بعد الفرح . وبعد أن تنتهى هذه الفترة ، تستبعد تلك الملابس لعدة أيام . وبعد ذلك يمكن ارتداؤها فى أى وقت .

وبينما تكون العروس فى طريقها لمنزل العريس ، تقوم صديقاتها غير المتزوجات اللاتى يصحبنها إلى هناك بقرصها فى فخذها [٣] . وهن يعتقدن أنهن عندما يفعلن ذلك سوف يحصلن كذلك على زوج . ويقوم أصدقاء العريس غير المتزوجين بقرصه بنفس الطريقة ؛ حيث يأمل كل منهم أن تكون له عروس . وقيل لى إن هذه عادة شائعة بين الفلاحين .

وفى صباح اليوم التالى للزواج يخرج العريس ويسحب جريدة من إحدى النخيل وينزع كل ما عليها من سعف ثم يقطع جزءاً كبيراً من الجريدة من الناحية السميكة ويجعل منها عصا . بعد ذلك يشق أحد طرفيها عدة مرات ، بحيث تتباعد الأجزاء المشقوقة عن بعضها إلى حد ما. وهو يضرب بتلك العصا المشقوقة كل من يقابله من أصدقائه . ويعتقد أن الذين يضربهم العريس بهذه الطريقة سوف يتزوجون قريبًا كذلك . وطبقًا لما ذكره مصدرى ، فإن هذه عادة قديمة جداً كانت سائدة بين كل الطبقات فى مصر ، ولكنها مازالت قائمة بين الفلاحين وحدهم .

والطلاق غير مسموح به عند الأقباط وهو ليس أمراً صعبًا لدى المسلمين ، وإن كان على أى رجل أو امرأة أن يقدم سببًا مشروعًا للحصول على الطلاق . ويذهب أهل الطرفين ، أو الزوج والزوجة وحدهما ، إلى القاضى طالبين أن يتم الطلاق . وأحيانًا يدفع الطرف الذى يطلب الطلاق مبلغًا من المال للطرف الآخر . ويسمح للرجل بأن يطلق زوجته إذا كانت عاقراً . ذلك إذا كان يريد أن يتخلص منها . وإذا أراد الطرفان أن يتزوجا مرة أخرى بعد ذلك الانفصال،

فبإمكانهما أن يفعلا هذا . و « الطلاق بالثلاثة » مسألة أكثر خطورة ، كما سنرى فى القصة التالية .



(الشكل ٤٢) الشيخ الذى طلق زوجته

جاءنى رجل كبير السن أعرفه منذ سنوات (الشكل ٤٢) بمجرد وصولى إلى قريته وكان فى حالة من الضيق . إنه فى الثمانين من عمره أو يزيد ويمتلك معظم أموال المنطقة ، إن لم يكن كلها . كان شديد الانحناء ويمشى متوكئًا على عصاه يتبعه جمع من القرويين الذين كانو يضحكون . ركع الرجل عند قدماى وكاد يقبل حذائى، ويبدو أنه كان فى حالة من الحزن الشديد . اتضح بعد ذلك أنه قبل وصولى تشاجر مع زوجته (الشكل ٤٣) التى تصغره بكثير . وفى غمرة غضبه ألقى عليها يمين الطلاق بالثلاثة . وهذا الطلاق يتم بأن يقول الرجل لزوجته « أنت طالق» ثلاث مرات فى حضور شهود . وما أن يحدث ذلك لايمكنه أن يتزوجها مرة أخرى ، مهما كانت رغبته فى ذلك ؛ إلا إذا تزوجت رجلاً آخر يدخل بها . بعد ذلك إذا اتفق الطرفان يمكنهما الطلاق ويمكن للزوج الأول أن يتزوجها مرة أخرى .



(الشكل ٤٣) مطلقة الشيخ

توسل إلىَّ الرجل العجوز أن أفعل شيئًا أساعده به ، إلا أننى قلت له إنه لا يمكننى أن أفعل شيئًا وإنه فى هذه السن المتقدمة لم يعد ينبغى عليه أن يفكر فى الزواج . فالأجدى له أن يعد نفسه للموت . وقال لى بعض القرويين إن الزوجة المطلقة ذهبت إلى أحد السحرة الذى كتب لها تعويذة تجعل الرجل العجوز مجنونًا بحبها . وفى كل مرة أذهب فيها إلى القرية ، أجد ذلك الرجل العجوز يجوب الشارع القريب من البيت الذى تسكن فيه مطلقته . وقال لى أهل القرية إنه يجلس هناك دائمًا، أملاً فى أن يحظى برؤية المرأة . وفى أيام السوق كان يشترى لها هدايا من اللحم والأقمشة يتركها لها فى بيتها . وقد تعرفت على الزوجة ، وهى امرأة طويلة حسنة المنظر إلى حد ما . كانت تبدو فى حالة من السعادة والبهجة وتشعر بانبساط من الطريقة التى يعرب بها طليقها عن حبه لها . وقبيل مغادرتى لمصر كانت هناك شائعات بأن ابنها من زوج سابق ، وهو رجل له زوجة وأسرة ، كان يتفاوض بشأن زواجها من رجل آخر ! وإذا حدث ذلك، فإنى أخشى أن يحدث ما هو أفظع لصديقى العجوز المسكين !

الهوامش :

١ - عمل (المترجم) .

(٢) الهودج (المترجم) .

(٣) المعروف أنهن يقرصنها فى ركبتها (المترجم) .

الفصل السادس

طقوس الخصوبة

تنتشر الطقوس الخاصة بضمان إنجاب الأطفال فى أنحاء العالم ، وهى متنوعة تنوعًا كبيرًا. والفشل فى إنجاب الذرية يعنى ضعف القبيلة ، التى كانت تعتمد فى العصور القديمة على القوة العددية فى دفاعها ضد اعتداءات جيرانها . ومن هنا جاءت أهمية إنجاب الأطفال، خاصة الذكور .

وحب الأطفال أحد السمات المميزة لشخصية المصريين المحدثين . وكثيراً ما شاهدت الفلاح الجلف وهو يعامل طفله المريض برقة ملحوظة ، وعند إحضاره لى أملاً فى أن أعالجه من علة ما.

والشريعة الإسلامية تسمح للرجل أن يستغنى عن زوجته إذا كانت لا تنجب . والمرأة التى تطلق لهذا السبب تكون فرصتها ضئيلة فى الحصول على زوج آخر ؛ إذا ما شاع سبب طلاقها. ومن هنا نجد أن فكرة العقم تمثل رعبًا لا مثيل له لأية زوجة . والطرق التى تلجأ إليها النساء لمنع هذه الكارثة عديدة .

منذ عدة سنوات ، وبينما كنت أقوم بدراسة مجموعة كبيرة من التعاويذ والأدوات السحرية العديدة فى متحف بيت ريفرز فى أكسفورد ، خطر ببالى أن بعض الدلايات التى كان أخى قد أحضرها لى من مصر قد يكون لها بعض القوى السحرية المرتبطة بها . وهذه الدلايات نسخ حديثة من تمائم زرقاء مصرية قديمة على شكل الآلهة أو الإلهات أو الحيوانات المقدسة أو الجعارين . عرضت تلك الأشياء على شيخ مصرى يقيم فى أكسفورد وسألته عن استخدامها . وبعد تردد قال لى إنها تعاويذ للنساء ، وإنها تستخدم فى الصعيد كوسيلة لضمان إنجاب الأطفال . وقد اكتشفت أن تلك التعاويذ عليها طلب كبير فى كل المديريات الواقعة جنوب القاهرة التى زرتها . وقال لى الشيخ كذلك إن رجلاً يطوف الصعيد ومعه تلك التعاويذ فتتجمع النساء كلما دخل إحدى القرى وتتوسلن إليه أن يسمح لهن بتخطية تلك التمائم .

وفى أول زيارة لى لمصر فى عام ١٩٢٠ ، وعقب وصولى مباشرة إلى معسكر أخى على سفوح الهضبة بمديرية أسيوط ، أرسل عدد من النساء اللاتى لم ينجبن رسائل توسل يرجون

فيها منى أن أسمح لهن بأخذ واحدة من العظام التى كانت متناثرة بأعداد كبيرة فى موقع قديم للدفن كان يقع عليه المعسكر . كان هدفهن هو تخطية العظمة أو القفز فوقها لضمان إنجاب الذرية ، كما كن يعتقدن . أجبت لهن مطلبهن ، وفجأة فكرت فى دلاياتى ، التى نسيت للأسف إحضارها معى إلى مصر . إلا أننى أرسلت رسالة للنساء أبلغهن فيها أننى أرسلت إلى انجلترا فى طلب تعاويذ أمتلكها ذات تأثير شديد القوة وأنها سترسل إلىّ بأسرع ما يمكن.

عندما وصلنى الطرد أردت أن أشيع بين قرى المنطقة العديدة نبأ وصوله . وفى الوقت نفسه ألمحت إلى أننى سأكون سعيدة برؤية أية امرأة تريد استعمال التمائم . ومنذ ذلك الوقت كانت النساء يأتين بأعداد تصل إلى عشرة فى المرة الواحدة من قرى عديدة فى المنطقة . وكن يعبرن الصحراء ويصعدن إلى المعسكر على التلال التى تؤدى إلى الهضبة . وكان يصحبهن فى العادة رجل أو امرأة فى منتصف العمر وأحياناً الاثنان معاً . ولم يكن الرجل يحضر الطقوس، فى حين كانت المرأة تبقى معهن طوال الوقت .

كانت الطقوس كما يلى : النساء يذهبن أولاً إلى أحد المعابد القديمة المليئة بالنقوش ، حيث يقودهن إلى هناك أحد خدمنا الذى يحمل المفتاح . وعند دخولهن ، كانت كل واحدة تخطو سبع خطوات للأمام والخلف فوق ما كن يفترضن أنه فوهة حفرة تؤدى إلى حجرة الدفن الموجودة تحت الأرض . وبعد أن ينتهى ذلك ، يعدن إلى المعبد الخالى من النقوش الذى كنت أقيم فيه . وهناك أقوم أنا بإخراج التعاويذ التى كانت اثنتان منهما توضعان على الأرض فى كل مرة . بعد ذلك تقوم كل امرأة بتخطيها بكل خشوع سبع مرات للخلف والأمام . وكانت التمائم المستعملة كلها أربعاً . وهى عبارة عن رأس إيزيس ومعبود محنط وجعران وقطة (الشكل ٤٤) . وبعد الانتهاء من ذلك يوضع على الأرض الفك الأسفل من جمجمة مصرية قديمة . وكان الطقس نفسه يعاد فى وجود رأسين مصريين قديمين كاملين ، أحدهما رأس محنطة فى حالة جيدة والأخرى عبارة عن جمجمة . بعد ذلك يحضر كوب ماء داخله التمائم الزرقاء . وتشرب كل امرأة بعض الماء ثم تخرج التمائم وتلعقها . وكان بعضهن يدلكن أجسامهن بتلك الأشياء السحرية ويقمن برش الماء على أجسامهن .

وقد يهم قرائى أن يعرفوا أنه عند عودتى لمصر فى العالم التالى كان واحداً من أول الأخبار التى نقلها لى خادمى هو أن اثنتين على الأقل من النساء اللائى لجأن إلى تمائمى أوشكتا على الولادة .



(الشكل ٤٤) التعاويذ الأربع التى تخطو فوقها النساء.

وهناك اعتقاد كبير فى قدرة الأهرام . إذ تذهب المرأة التى لا تنجب إلى أحدها وتدور حوله سبع مرات ، اعتقاداً منها بأن هذا الطواف سوف يساعدها على أن تصبح أمّاً . وفى بعض الأحيان تتوسل النساء أن يسمح لهن بإزالة أجزاء صغيرة من الجدران المنقوشة فى المعابد القديمة كوسيلة لضمان إنجابها . ويبدو أن هناك اعتقاداً فى مصر بأن الأشياء القديمة لها قدرة عظيمة فيما يتعلق بهذه المسألة . إلا أنه من الصعب ، إن لم يكن مستحيلاً ، أن تحصل على معلومات موثوق بها من الناس أنفسهم عن أسباب إضفائهم لهذه القوة السحرية على الآثار. وتشير التخطية فوق حفر المقابر إلى اعتقاد فى تناسخ الأرواح . وهذا الاعتقاد شائع بين الفلاحين ، كما سنرى فيما بعد . ولكن هناك كذلك فكرة أن البركة مرتبطة بكل ما هو قديم أو مقدس أو حتى غريب . وقد اشتقت كلمة « بروكة » ، وهى العملة المعدنية التى تجلب الحظ، من كلمة البركة .

وفى بعض الأحيان تذهب النساء اللائى لا ينجبن إلى ضريح أحد المشايخ ملتمسات وسيلته وينذرن تقديم بعض العطايا إذا تحققت أمنيتهن . وغالباً ما يمكن رؤية حبل أو حبال مشدودة داخل أحد الأضرحة تتدلى منها أشياء مختلفة ، كالمناديل الملونة . وهذه الأشياء فى حالات كثيرة عبارة عن نذور من النساء قمن بتعليقها فى الضريح عندما تحققت دعواتهن بالإنجاب.

ويسجل لين[١] ممارسات زيارة الأضرحة والمساجد للحصول على البركة أو التماساً لطلب خاص ، مثل عطية الأطفال . وهو يقول إن المتوسلين يعتقدون أن دعواتهن سوف تلقى قبولاً أفضل فى تلك الأماكن المقدسة .

وفى بعض الأحيان يعتقد أن البركة يملكها الأحياء أو أنها ترتبط بهم . وفى مرات عديدة كانت النساء تأتينى ليضعن أيديهن علىّ ، اعتقاداً منهن أن لدى هذه الخاصية . ومن بين أعداد النساء اللاتى جئن إلىّ فى عام ١٩٢٦ لتخطية التمائم الزرقاء ، التى آخذها معى دائمًا ، شابة متزوجة كانت على حافة الجنون لأنها لم تنجب أطفالاً . ومنذ خمس سنوات أنجبت طفلاً لم يعيش إلا ساعات قليلة . ومن ذلك اليوم فقدت الأمل فى أن تصبح أمًا . إذ كانت فى حالة شديدة من اليأس . وزاد من خوفها أنها كانت تتوقع أن يطلقها زوجها عما قريب ، حيث لم يعد يبدو أن هناك أملاً فى أن تكون له ذرية . توسلت إلىّ هذه المرأة وبالغت فى الرجاء كى أساعدها . لذلك عرضت عليها التمائم التى خطت عليها سبع مرات . وجاءت مرة ثانية وثالثة وكانت تزداد رعبًا كلما مضى الوقت .

وفى آخر مرة زارتنى فيها قالت لى : " أيها السيدة الطيبة . أعلم أنك قادرة على مساعدتى إن أردت ذلك . إننا جميعًا نعلم أن لديك الكثير من البركة ! " ثم أمسكت يدى وضمتها إلى صدرها قائلة : " إنك قادرة على منحى البركة إن شئت ! "

أبديت لها أسفى وتعاطفى معها ثم انصرفت بعد ذلك . ولم تمر فترة طويلة إلا وسمعت من أحد أبناء قريتها أن أمنيتها تحققت أخيراً وأن لديها أملاً فى أن تصبح أمًا . وقد أرجعت هى الفضل كله إلىّ وقالت إن الطفل طفلى ! بعد ذلك جاءنى كثيرات من قريتها لنفس الغرض ، وسمعت أنهن جميعًا صادفن النجاح نفسه . ولا بد أن تعداد القرية زاد زيادة كبيرة بفضل بركتى المزعومة !

وهناك اعتقاد شائع فى مصر بأن الطفل الميت إذ أحكم لفه بالكفن لاتحمل أمه بعده. لذلك فإن الكفن والأشرطة التى تربطه يفك دائمًا قبل الدفن مباشرة ويوضع التراب فى حجر الطفل. وقيل لى إن التراب يوضع فى هذا الجزء لكى يظل الجثمان مستلقيًا على ظهره . وقالت لى المرأة التى نقلت إلىّ هذه المعلومة إن الجثة تلتوى عندما تبدأ فى التحلل . وإذا حدث ذلك فلن تحمل الأم بطفل آخر . وإذا تم عمل كل هذه الاحتياطات وظهر بعد فترة أن الأم لا أمل لها فى أن تنجب مرة أخرى ، فإنها تذهب إلى قبر طفلها ومعها إحدى صديقاتها وتطلب من الرجل الذى يتولى فتح المقابر[٢] أن يفتح لها المقبرة . وهنا تنزل الأم الثكلى إلى داخل المقبرة التى يرقد فيها الجثمان وتخطيه للخلف والأمام سبع مرات ، اعتقاداً بأن روح الطفل الميت سوف تدخل جسمها وتولد من جديد . ويتضح هنا الإيمان بتناسخ الأرواح .

وهناك ممارسات مشابهة عند البنجالا ، وهى قبيلة تقيم فى شمال الكونغو . ففى إحدى المرات شوهدت امرأة من تلك القبيلة تحفر حفرة فى طريق عام . وأوضح زوجها لأحد الضباط البلجيكيين أن زوجته تريد أن تصبح أمًا ، وتوسل إليه ألا يضايقها ، ثم تعهد له بأن يقوم بإصلاح الطريق بعد ذلك . واستمرت المرأة فى الحفر إلى أن أخرجت عظام طفلها الميت التى احتضنتها بحب شديد متوسلة إليه أن يدخل جسدها ليولد من جديد [٣]. وفى هذه الحالة نرى طقوسًا مشابهة تمامًا لما يحدث فى مصر الحديثة ومصحوبًا بنفس الاعتقاد .

وفى حالة الأقباط ، فإنه إذا مات الطفل وهو مازال رضيعًا بعد أن يكون قد تم تعميده، فإن جثمانه يوضع فى تابوت . وتطلب الأم من الرجل الذى يأخذه ليدفنه فى المقابر (القريبة عادة من أحد الأديرة) أن يخرج الجثمان من التابوت وأن يضع التابوت وحده فى القبو . وبعد ذلك يتم دفن الطفل فى الرمال القريبة من القبو ، حيث توضع الرمال تحت إبطه وذقنه وعلى فخذيه . وتعتقد الأم أن هذا يضمن لها أن تلد طفلاً آخر . ويبدو أن لدى الأقباط اعتقاداً شبيهًا باعتقاد المسلمين الذى ذكرناه من قبل ، وأن الرمال تستخدم لمنع الجثمان من الانثناء الذى يحول دون إنجاب الأم لطفل آخر .

وكذلك فى حالة الأقباط ، نرى أنه إذا مات الطفل قبل أن يُعمد ، فإنه يوضع عريانًا فى قادوس ، وهو آنية فخارية تستخدم فى السواقى . وهذه الجرة تدفن تحت أرضية إحدى غرف البيت أيًا ما كانت ويتم تغطيتها بالطين الذى تصنع منه الأرضيات عادة فى منازل الفلاحين . ويعتقد أن هذا يضمن للأم أن تنجب طفلاً آخر .

ويحدث فى بعض الأحيان إذا لم تنجب المرأة فإن صديقاتها يأخذنها إلى شريط السكك الحديدية ويجعلنها ترقد بين القضيبين لكى يمر القطار من فوقها . ومن الأسباب التى قيلت لى عن هذا الإجراء الذى يتسم بالخطورة ، هو أن الخوف الذى تشعر به المرأة يساعدها على الحمل؛ حيث يقال إن ذلك يجعل الدم يدور بسرعة فى الجسم مما يدفع الرحم إلى التمدد وتكون النتيجة أنها تحمل بسهولة . وهناك تفسير آخر قدم لى عن هذه العملية ، وهو أن الأم عندما تكون فى هذه الحالة من الرعب تأتى قرينتها بروح أحد أطفالها الميتين وتجعلها تدخل جسم أمه . وقيل لى إن روح الطفل تذهب إلى قرينة الأم . وربما يقبل بعض الناس هذه التفسيرات، ولكنى أتصور أنه فى حالات كثيرة تتم هذه الطقوس لأنها علاج معتاد ومعترف به للعقم .

والماء الذى يغسل به الميت قبل دفنه يتم الحصول عليه من أحد المساجد أو البئر المقدس لأحد المشايخ ، إن أمكن ذلك . وبعد أن يتم الغسل تنتهز المرأة العاقر هذه الفرصة وتتخطى فوق هذا الماء سبع مرات . وروى لى عن امرأة لجأت إلى هذه الوسيلة وحملت بعد شهر .

ومنذ فترة ليست ببعيدة ، سمحت لى الظروف أن أشاهد الممارسة التالية التى لجأت إليها امرأة قبطية . وكانت تلك المرأة قد تزوجت من مدة ولكنها لم تنجب .



(الشكل ٤٥) طقس الخصوبة : إشعال " الشمعة "

أختيرت بقعة منعزلة خلف البيت حيث فرشت بطانية على الأرض كى ترقد عليها المرأة. وعادة ما تتم هذه الممارسات داخل المنزل. ولكن حيث أن الإضاء داخل البيت لا تصلح للتصوير. فقد وافقت المرأة على أن تتم فى الخارج. رقدت المرأة على ظهرها على البطانية وحسرت ملابسها عن جسمها حتى وسطها، وغطى نصفها الأسفل بكليم وتركت بطنها عارية. وبعد ذلك وضع بعض الدقيق فى سلطانية بها ماء ليصبح عجينًا متماسكًا. قامت إحدى المرأتين اللتين تولتا هذه المسألة بصنع فطيرة مستديرة مفرودة من العجين ووضعتها على بطن المرأة الراقدة على ظهرها، وبالتحديد على سرتها. وأثناء ذلك اختارت المرأة الأخرى «كوز» ذرة نزعت منه الحبوب ووضعته بشكل رأسى وسط الفطيرة التى وضعتها المرأة الأولى. وهنا قدحت رفيقتها عود ثقاب وأشعلت به عظم « كوز » الذرة الذى يسمونه « شمعة » (الشكل ٤٥) . أبقت المرأتان على تلك « الشمعة » المشتعلة فى مكانها بينما وضعتا عليها قدراً من

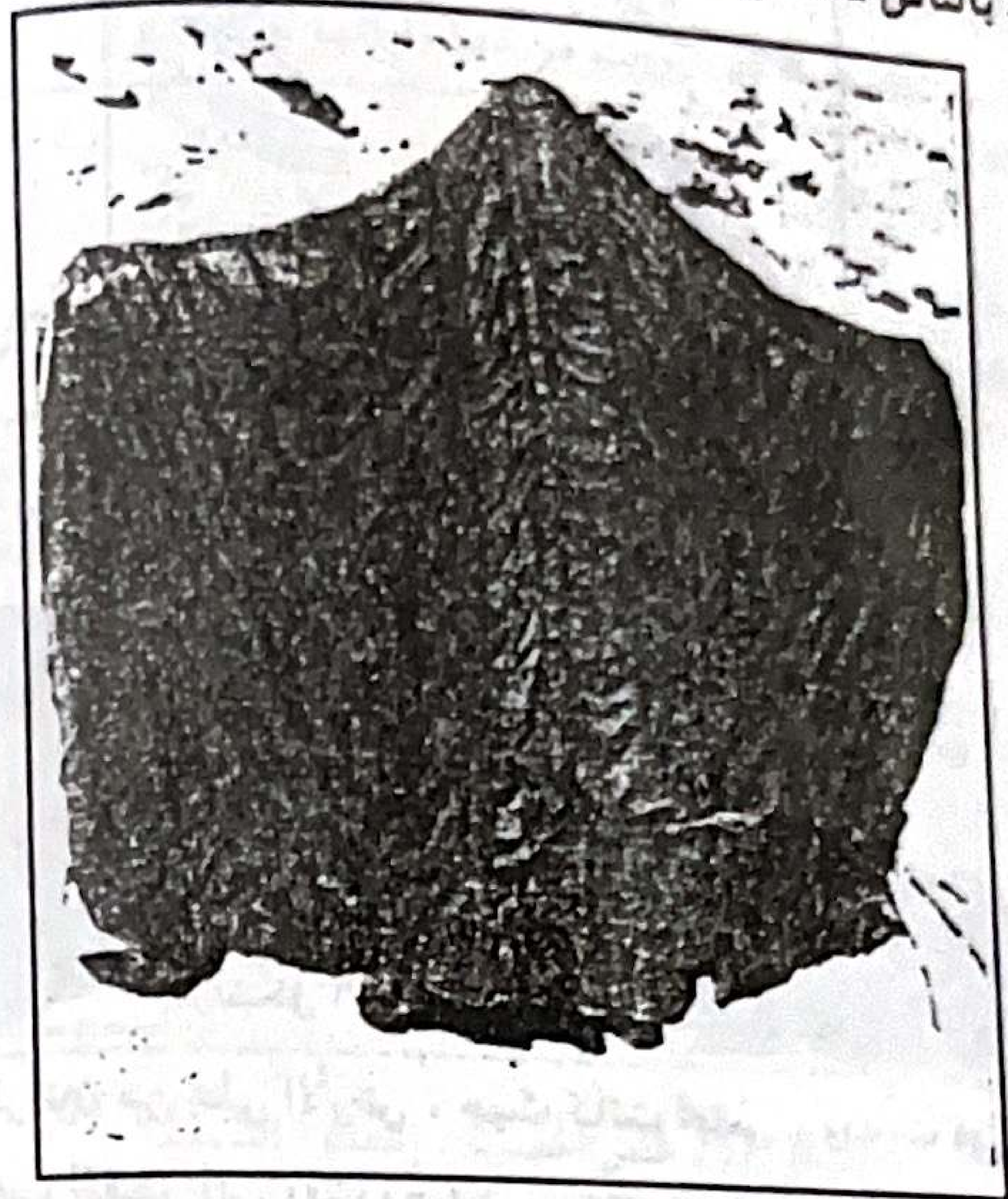
الفخار وضغطتا عليه ليغرس فى الفطيرة . بهذه الطريقة ظل القدر واقفًا دون أن يسنده شىء وترك على هذا الوضع لمدة دقيقة (الشكل ٤٦) . وقد طالبت المرأة القبطية أكثر من مرة برفع القدر ، إلا أن صديقتيها كانتا تحثانها على الصبر وترك القدر فترة أطول على بطنها .



(الشكل ٤٦) طقس الخصوبة باستعمال القدر

قامت إحدى المرأتين من على الأرض ، حيث كانت تجلس ، وبدأت فى رفع القدر عن بطن المرأة. احتاج سحب القدر إلى وقت وجهد . وعندما رفع فى النهاية سمع صوت يشبه الانفجار. وكان التفسير الذى قدم لى هو أن السبب المحتمل لعدم إنجاب المرأة وهو وجود «ريح فى بطنها » وكان الصوت الذى حدث عند نزع القدر هو ذلك الريح وهو يخرج ، كما يفترضون ، من بطنها عن طريق السرة . وقد تكررت هذه العملية مرتين أو ثلاث مرات ، وفى كل مرة ينزع فيها القدر يكون الصوت عاليًا جداً ، وتشير المرأتان إلى كثرة الريح الذى كان فى بطن المريضة . وكما سبق أن قلت ، فإن المرأة التى كانت تقوم برفع القدر كان عليها أن تستخدم كل قوتها لرفعه ومن المؤكد أن هذا الجزء من العملية كان يسبب ضيقًا شديداً للمريضة ، إن لم يكن ألمًا حقيقيًا ؛ حيث أن بطنها كان يسحب إلى أعلى أثناء محاولة رفع القدر . وكان الشفط يحدث بسبب تفريغ الهواء الناتج عن وضع القدر فوق « الشمعة » المشتعلة . ويؤسفنى أن أقول إننى عندما سألت فيما بعد عرفت أن هذه العملية لم تحدث الأثر المطلوب!

وكثيراً ما تلجأ النساء اللاتى لا ينجبن فى مصر إلى طقس الخصوبة هذا ، مهما كانت الظروف . إلا أننى لا أعرف بعد إن كانت تلك عادة شائعة الانتشار أم لا ، حيث إن كونها عملية تتسم بالخصوصية جعل الناس لايتحدثون عنها بصورة علنية . ولا بد للإنسان أن يكون على معرفة وثيقة بالناس لمدة طويلة ، قبل أن يدعونه لحضور مثل هذه المناسبة .



(الشكل ٤٧) امرأة تفرد ذراعيها تماماً وقد لفها الثوب

وقد حضرت مؤخراً طقساً آخر تقوم به امرأتان لم ترزقا بأطفال . حيث أمسكت امرأة ثالثة بقطعة قماش سوداء فوق رأسها وفردت ذراعيها بحيث صارت مغطاة تماماً (الشكل ٤٧). وهذا الرداء يسمى « توب » وترتديه النساء خارج البيت . والمرأة التى تقوم بذلك لا بد أن تكون قد أنجبت أطفالاً وماتوا . تدخل المرأة التى لم تنجب تحت « التوب » وتدور حول المرأة الأولى سبع مرات بحيث تظل تحت الرداء (الشكل ٤٨) . بعد ذلك تفعل المرأة الثانية الشىء نفسه. ويجب ألا تمسك أية امرأة دارت حول امرأة أخرى بهذه الطريقة بـ « التوب » لغيرها ، لأنها إن فعلت ذلك تنزع منها الفائدة التى كانت ترجوها بمشيتها تحت هذا الرداء .

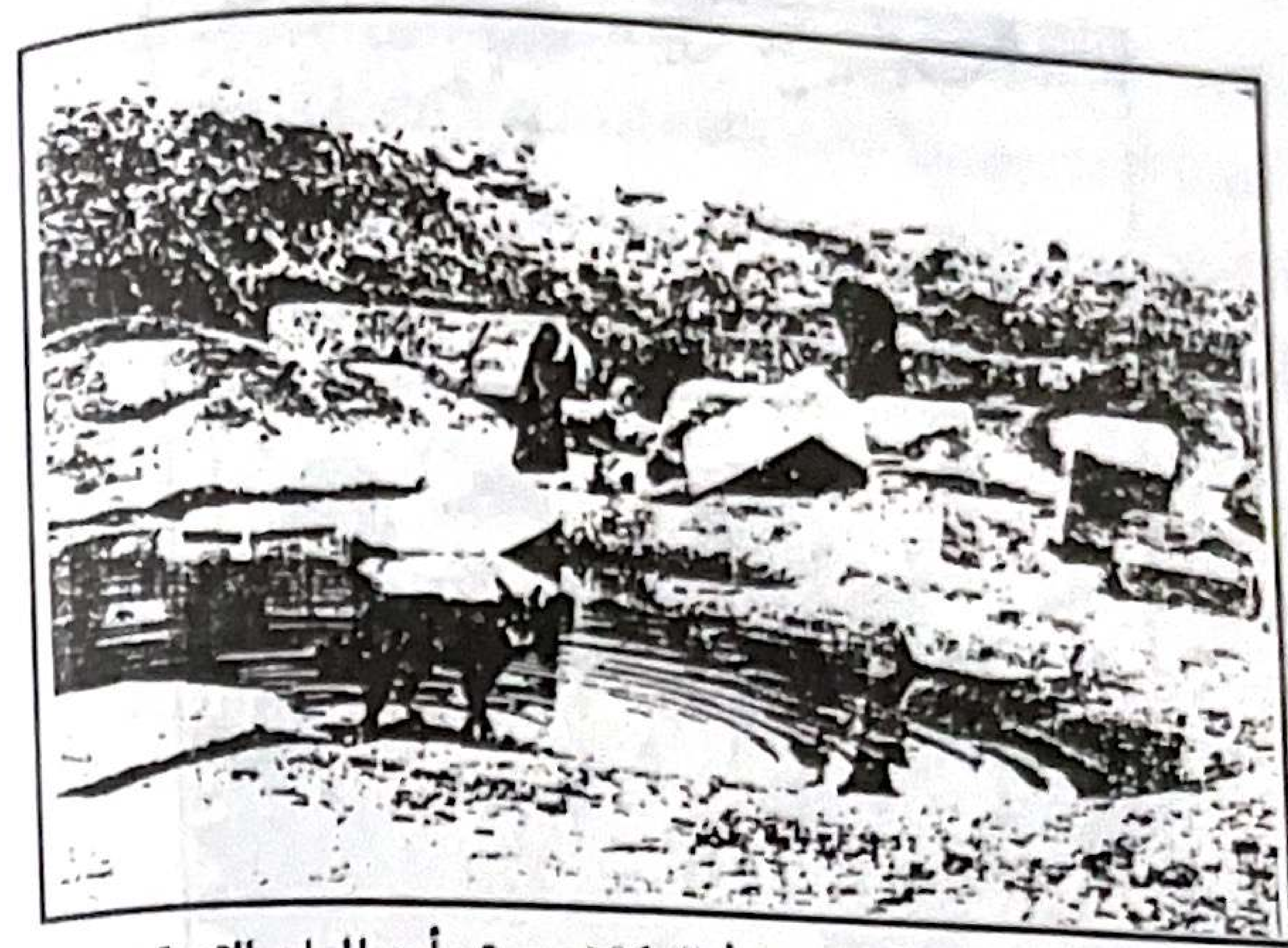
وكانت المرأتان قد أجلتا هذه العملية عندما علمتا أننى سأزور القرية التى كان سيتم فيها ذلك ، حتى أكون حاضرة . وكانتا تأملان من ذلك أن تزيد الفائدة ببركتى . ويسعدنى أن أقول إنه فى الحالتين كُللت العملية بالنجاح !



(الشكل ٤٨) نسوة يزحفن تحت الثوب

سبق أن ذكرت أن الفلاحين ربما يعتقدون فى أن الأشياء القديمة تتميز بما لديها من بركة ؛ وعلى هذا الأساس فهى قد تكون قادرة على علاج النساء اللاتى لا ينجبن من العقم . وفى موقع أحد المعابد القديمة فى مصر الوسطى ، توجد بركة ماء بها حجارة ضخمة عليها نقوش يغمر الماء بعضها والبعض الآخر على الأرض المجاورة للبركة . ويسمى الفلاحون هذا الموقع «الكنيسة » ؛ ربما لأنه أصبح معلوماً أنه موقع أحد المعابد القديمة . ويعتقد أن هذه البركة تتمتع بقدرات عظيمة . وكل يوم جمعة تتوافد النساء اللاتى لم ينجبن على هذا المكان وكذلك على تلك الحجارة التى يغمر الماء جزءاً منها . وتكرر النساء هذه العملية المضنية ثلاث مرات وهن يطفن فى اتجاه دائرى (الشكل ٤٩) . بعد ذلك يأملن فى أن يتم الحمل .

والشىء المستغرب هو أن النساء يأتين إلى نفس المكان ويفعلن الشىء نفسه بغرض منع الحمل . فعند زيارتى للبركة ، قالت لى إحدى النساء اللاتى كن هناك إنها جاءت للسبب الثانى. فهى لم تكن تريد أن تنجب أطفالاً لبعض الوقت ؛ حيث كان لديها طفل صغير أو طفلان .



(الشكل ٤٩) نسوة يطفن حول البركة فى موقع أحد المعابد القديمة

وتأتى النساء كذلك إلى هذا المكان إذا كن يجدن صعوبة فى إرضاع أطفالهن . كما أن إناث الحمير التى لا تدر لبنًا يكفى صغارها يؤتى بها كذلك إلى هذا الموضع . والعملية فى هذه الحالة تشبه ما يتم فى حالة النسوة اللاتى لا ينجبن . ويفترض أن إدرار اللبن يزيد بعد ذلك .

منذ سنوات بعيدة سجل أخى الدكتور أ. م . بلاكمان عادة تعليق جلد الثعالب على أبواب المنازل فى النوبة السفلى (٤). وبعد التحرى اكتشف أنه كان يعتقد بأنها تعاويذ « لحماية نساء الأسرة ومنع الإجهاض ومساعدتهن عند الوضع » . وفى بعض مناطق مصر ، إذا أرادت إحدى الأمهات طفلاً آخر فإنها تربط قطعة صغيرة من جلد الثعلب فى رأس آخر طفل أنجبته ومازال على قيد الحياة . وبعد أن تفعل ذلك تأمل فى أن تتحقق أمنيتها .

وتستخدم حبوب لقاح النخيل كتعويذة للخصوبة . فيخلط بعضها بالماء وتشربه المرأة التى تريد أن تحمل . وربما يكون لتخصيب النخلة الأنثى بحبوب اللقاح دور فى الاعتقاد فى فاعليتها كتعويذة تشفى المرأة من العقم .

ويعتقد أنه إذا ذهبت امرأة وضعت حديثًا لزيارة امرأة أخرى وضعت طفلاً منذ فترة قريبة ولم تكتب له الحياة ، فإن المرأة الثانية لا تحمل مرة أخرى . فالمرأة المحظوظة التى عاش طفلها عليها أن تنتظر حتى يمر خمسة عشر يومًا على وفاة طفل صديقتها ، حيث يكون خطر رؤيتها قد زال . وإذا تمت هذه الزيارة التعسة قبل انتهاء فترة الخمسة عشر يومًا ، فإن الأم التى مات

طفلها يمكنها مواجهة احتمال العقم بزيارة قبر طفلها الميت وتخطية جثمانه بالطريقة التى ذكرناها من قبل . وبدلاً من ذلك يمكنها أن تختار واحداً من الطقوس التى تستخدم للغرض نفسه .

وسوف أصف لكم الآن بعض الطرق المستخدمة لمنع الحمل . إحدى هذه الطرق ذكرتها عندما كنت أتحدث عن الحجارة التى داخل البركة وبجانبها . وإذا أرادت الأم الحامل ألا تلد أطفالاً لفترة معينة ، فإنها تأتى ببذور نبات الخروع وتأكل واحدة منها عقب الولادة ، إذا أرادت ألا تحمل لمدة عام ، واثنتين إذا أرادت ذلك لمدة عامين وهكذا . ويعتقد أن هذه الطريقة لها فاعلية شديدة . وإذا كانت امرأة تحمل ضغينة لامرأة أخرى تتمنى ألا يكون لها طفل فإنها تدس بعض بذور الخروع فى طعامها ، مما يجعلها غير قادرة على الإنجاب .

وإذا أرادت امرأة وهى تلد أن تتوقف عن الإنجاب لبعض الوقت فإنها تأتى ببعض نوى البلح ، وتغطيه بشىء من الدم الذى ينزل منها أثناء الولادة ، وتلفه فى خرقة ، وتخفيه داخل جدار فى بيتها بين قوالب الطوب . بعد ذلك يسد عليه بالطين . وكل نواة يتم إخفاؤها بهذه الطريقة تمثل سنة واحدة من عدم الإنجاب . وطبعًا يختلف عدد النوى باختلاف عدد السنين التى تريد أن تظل فيها بلا إنجاب . وعندما تريد أن تنجب تخرج النوى من مخبأه وتخطو عليه سبع مرات ثم تضعه فى ماء وتستحم به . وقد أتيحت لى فرصة مشاهدة ذلك فى إحدى المرات . ولكى تتيح لى المرأة التصوير فى إضاءة أفضل ، وضعت النوى على عتبة بيتها وخطت فوقه . وبعد ذلك أعطتنى بعض النوى بالخرقة التى كان ملفوفًا فيه .

وكان رجل أعرفه جيداً قد طلّق إحدى زوجتيه منذ عام مضى ، وعقدت تلك المرأة العزم على أن تنتقم من الزوجة الأخرى . وهذه هى الطريقة التى حققت بها مبتغاها : ذهبت تلك المرأة إلى إحدى الساحرات فكتبت لها عملاً على بيضة وآخر على سعفة نخل . وأخذ أحد أفراد أسرة المرأة المطلقة (ربما يكون أخاها) البيضة والسعفة وخبأهما فى إحدى المقابر وظل المكان الذى خبأهما فيه سراً ، لكى لا يخرجهما أحد . ففى حالة اكتشافهما وإبعادهما عن هذا المكان يفقدان مفعولهما . ونما إلى علم زوجة الرجل أن المرأة المطلقة فعلت ذلك وأن العمل، كما تقول ، جعل من المستحيل عليها أن تنجب . ومن المحتمل أن يكون اعتقادها القوى فى قدرة تلك الأعمال وفاعليتها هو الذى أدى إلى دخولها فى حالة من العصاب .

ويشير وجود طرق كثيرة يستخدمها الفلاحون لعلاج العقم إلى أنه برغم ارتفاع معدل المواليد ، فإن العقم شائع فى مصر . وكما أوضح لى طبيب على اتصال يومى بالفقراء ، فإن الأمراض التناسلية المنتشرة للأسف فى بعض القرى مسئولة مسئولية كبيرة عن هذه الحالة . وهناك حاجة ماسة إلى وجود تنظيم صحيح يشمل العلاج والإرشاد ، فيما يتعلق بالأمور الصحية ، كى يحول دون انتشار المزيد من حالات هذه الأمراض الخطيرة . وحسب علمى ، تفتقر البلاد حاليًا إلى الأماكن التى تقوم بذلك .

الهوامش :

(١) The Manners and Customs of Modern Egyptians (London, 1871), Vol. I, pp. 300f.

(٢) التربى (المترجم) .

(٣) Sir J.G. Frazer, *The Golden Bough*, " Adonis, Attis and Osiris", 3rd edition vol. i, p. 92 .

(٤) Man, Vol. ix (1909), pp. 9 f.

الفصل السابع

الموت ومراسم الدفن

عندما يحتضر رجل أو امرأة من المسلمين ، فمن العادة إعطاؤه بعض الماء ليشربه . وحتى الآن ، وبرغم كل التحريات الدقيقة التى قمت بها ، لم أتوصل إلى معتقد محدد يرتبط بهذه العادة . فكل ما قيل لى إنها عادة لا بد أن تتبع دائمًا . إلا أنها قد تكون فى الأصل أحد الطقوس التطهيرية أو المانحة للحياة . وفى بعض مناطق مصر ، جرت العادة على أن يقوم الأشخاص الجالسون أو الواقفون بجانب إنسان يحتضر بالضغط على جسمه بأيديهم لإخراج الروح منه . ويقوم الرجال بذلك فى حالة الرجل ، والنساء فى حالة المرأة . وعند حدوث الوفاة يتم تسبيل عينى المتوفى وإغلاق فمه وتفرد ساقاه وتضم إحداهما إلى الأخرى . بعد ذلك يغسّل الجثمان . ويتم الحصول على الماء المستخدم فى الغُسل ، إن أمكن ، من أحد المساجد أو إحدى الآبار المقدسة أو إحدى البرك المرتبطة بشيخ من المشايخ . وفى الصعيد يقوم فقيه بتغسيل الميت ويكون أجره عن ذلك هو ملابس المتوفى ، بجانب ما تبقى من صابون استخدم فى الغُسل .

وبما أن مصر بلد شديد الحرارة ، فإن الدفن يتم بعد الوفاة بوقت قصير . فمثلاً إذا حدثت الوفاة فى الصباح أو بعد الظهر يتم الدفن فى نفس اليوم . أما إذا حدثت الوفاة نتيجة لإصابة ما ، أو بسبب حادث أو عمل من أعمال العنف ، فإن الدفن لا يتم إلا بعد قيام طبيب الحكومة ومسئولى الشرطة بعمل التحريات والتحقيقات اللازمة .

وعندما يحتضر إنسان فى القرية ، فإن الخبر ينتشر بسرعة ويتوافد الأقارب والأصدقاء على البيت فى جماعات . وفى اللحظة التى تخرج فيها الروح من الجسد تبدأ قريبات الميت وعدد من النائحات المحترفات فى الصراخ والعويل (الشكل ٥٠) . وتغادر الكثيرات منهن منزل المتوفى ويطفن بالقرية سبع مرات ويطلقن صرخات تخرق الآذان وهن يلوحن أثناء سيرهن بمناديل سوداء أو زرقاء أو خضراء . إلا أن طواف النسوة النائحات الذى لا يحدث الآن لا يرتبط بإبعاد روح المتوفى أو شبحه عن القرية . فقد قيل لى إن هذا لايعدو كونه وسيلة للإعلام بحدوث وفاة .



(الشكل ٥٠) نسوة نائحات خارج الوابور ، حيث قتل صبى للتو
(لاحظ ذراعى أم القتيل المرفوعتين ، وسط الصورة ، وهو وضع مميز للحزن ، انظر الشكل ١٣٧)

وبعد أن يغسل الجثمان يلف فى أقمشة قطنية أو حريرية . وتكون الطبقة الأولى عادة بيضاء والخارجية خضراء . والأخضر لون مقدس لدى المسلمين، لارتباطه بالنبى محمد وذريته، أو من يدعون أنهم كذلك ؛ فهم غالبًا ما يرتدون عمامة خضراء . والمسلمون لا يدفنون فى توابيت ويوضع الجثمان بعد لفه بالكفن فى نعش جوانبه منخفضة يغطى بقماش مطرز . وتتم الإشارة إلى جنس المتوفى من خلال الاختلاف البسيط فى الطريقة التى يتم بها وضع القماش على النعش .

وعندما يتوفى رجل أو امرأة ، لا بد من ذبح كبش تُراق بعض دمائه فى المكان الذى حدثت فيه الوفاة . وإذا لم يحدث هذا ، فإن الروح تبقى فى البيت ولا يمكنها الذهاب إلى الجنة . وإذا كان أهل المتوفى فقراء ولا يمكنهم ذبح كبش ، يستعاض عن ذلك بذبح جدى صغير . وعندما توفى والد رجل غنى أعرفه ، ذُبح كبش وبعض الحيوانات الأخرى فى المنزل ، علاوة على ذبح جمل بالقرب من قبره ، ووزع اللحم على الفقراء .

ولا بد من غسل الملابس التى كان يرتديها الرجل أو المرأة عند الوفاة ، ويأتى الفقيه ويتلو آيات من القرآن واضعًا الملابس بجانبه وإحدى يديه عليها . كما أنه يتلو القرآن فى المكان الذى مات فيه الشخص . وإذا لم تتخذ هذه الاحتياطات ، فإن روح المتوفى لا يمكنها مغادرة البيت . وعندما يموت أحد الأطفال ، تذبح دجاجة بدلاً من الحيوانات . أما باقى الإجراءات فلا تختلف عما يحدث عند وفاة إنسان بالغ .

وقد قدمت لى المعلومات التالية مراراً ؛ ولكنى أتصور أن المقصود هو « عفريت » الميت وليس الروح . والعفريت والروح شيئان مختلفان تمامًا ، حسب المعتقد الشائع [١] .

ويحمل الجثمان إلى المقبرة أربعة رجال يتغيرون أثناء السير إلى الجبانة ؛ حيث ينظر إلى حمل الميت على أنها عمل خير ، والذى يقوم بذلك يحصل على قدر كبير من المشاركة فى الحسنات . ويأتى الرجال فى مقدمة موكب الجنازة وسير الأقارب بالقرب من النعش . وخلف النعش مباشرة تسير النائحات (الشكل ٥١) وقد صبغن وجوههن وأيديهن وأذرعهن باللون الأزرق ووضعن الطين على رؤوسهن وصدورهن وأذرعهن . كما يمسكن بمناديل زرقاء أو سوداء، تكون أحيانًا خضراء ، ويلوحن بها فى الهواء وهن يولولن تعبيراً عن الحزن . ونجد بين هؤلاء نائحات محترفات يكون نواحهن أعلى من الجميع .



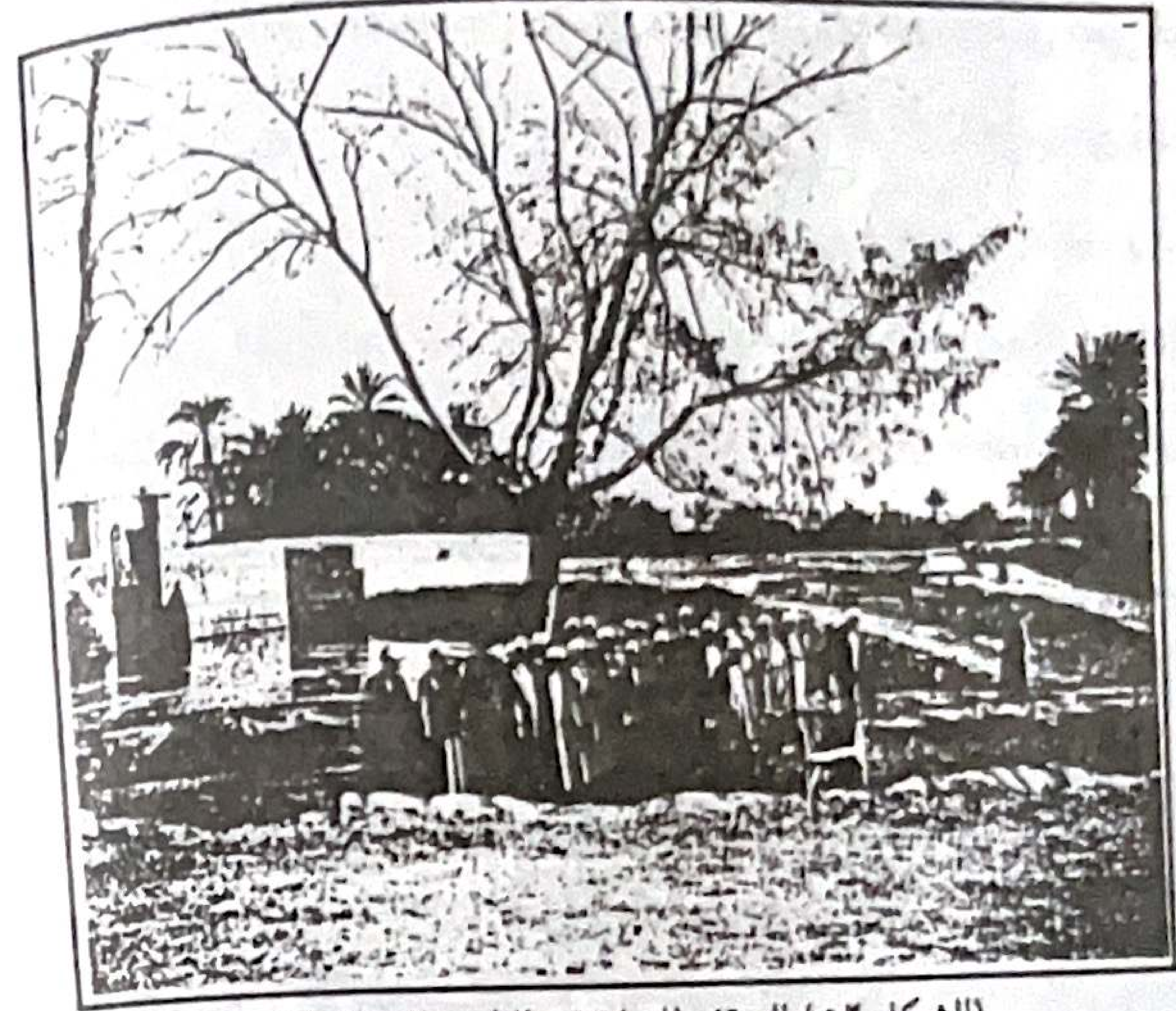
(الشكل ٥١) صف من النسوة النائحات فى موكب جنائزى

ولا بد أن أشير هنا إلى أن النواح والصراخ الجماعى للنسوة عند حدوث وفاة مخالف تمامًا لتعاليم الإسلام . وذكر لى كثير من الفلاحين فى مصر أكثر من مرة أنهم لا يوافقون على مثل هذه العادة ، التى سنرى فيما بعد أنها واحدة من عادات كثيرة باقية من العصور القديمة .

والأمر الذى يدعو للدهشة هو طول الفترة التى يمكن للمرأة أن تستمر خلالها فى النواح، الذى يتم بطبقة صوتية عالية جداً . والواقع أن حناجر النساء غالبًا ما تتأثر بالصراخ المستمر؛ حتى أنه فى نهاية يوم واحد من الحداد لا يمكنهن الكلام إلا همسًا .

وأثناء سير موكب الجنازة إلى الجبانة يتوقف الجميع عند نقطة معينة ويوضع النعش على الأرض (الشكل ٥٢) . يقف الرجال فى صفوف الواحد تلو الآخر فى خشوع تام ، بينما يتلو

الفقيه آيات من القرآن ويشاركه فى ذلك الرجال المجتمعون (٢) . وبعد أن تنتهى التلاوة يرفع الرجال النعش من على الأرض ويستمر الموكب إلى الجبانة . وأثناء السير ، يردد الرجال الشهادتين مرات ومرات إلى أن يصلوا إلى الجبانة .



(الشكل ٥٢) التوقف للصلاة فى الطريق إلى الجبانة

ويعتقد أن الميت وهو محمول إلى المقبرة قادر على أن يجعل حامليه يسيرون بسرعة أو ببطء . فإذا سار حاملوه بسرعة ، يقال إن هذا معناه أن المتوفى رجل طيب - أو امرأة طيبة- يريد أن يذهب إلى قبره بأسرع ما يمكن ولا يخشى من زيارة الملكين ناكر ونكير ، اللذين يعتقد أنهما يأتيان إلى القبر فى الليلة الأولى بعد الدفن لمحاسبة المتوفى بشأن الحياة التى عاشها على الأرض ويسألانه عن دينه .

وعندما يشعر حاملو النعش أنهم يسحبون للخلف ، أو غير قادرين على الحركة تمامًا ، فإنه يعتقد أن المتوفى لا يعجبه المكان الذى أختير ليدفن فيه .

وأثناء موكب الجنازة فى إحدى القرى التى أعرفها جيداً ، لم يستطيع حاملو النعش أن يتقدموا خطوة واحدة بسبب اعتراض المتوفى على موضع قبره . ولكن بما أنهم قد انتهوا بالفعل من الحفر ولم يكن لدى حاملى النعش استعداد للاستسلام لهذه النزوة ، فقد داروا بالنعش مرات ومرات لكى يصيبوا الميت بالدوخة فيفقد سيطرته على حامليه ولايدرك إلى أين يأخذونه ! واستطاعوا بذلك أن يدفعوا به داخل قبره دون تعب !

وفى مرة أخرى رأيت فى الشارع الذى يطل عليه منزلى حاملى النعش وهم يُسحبون للخلف بصورة مستمرة ؛ والسبب الذى قيل لتفسير ذلك هو أن المتوفية التى كانت تُحمل إلى قبرها كانت غاضبة لأن ابنها ، وهو صبى صغير جداً ، لم يكن فى الجنازة . لذلك ذهب شخص لإحضار الطفل . وهنا سارت الجنازة فى طريقها دون أن تتوقف مرة أخرى .

ويبدو أن هناك اعتقاداً بين الفلاحين بأن ظل الرجل كيان منفصل . فهو يمشى معه طوال حياته ويموت عند موته ثم يدخل معه قبره . وأثناء مناقشة هذه النقطة مع بعض الناس ، علمت أنه لا أحد يدرى ما الذى يحدث له بعد ذلك . وقيل لى إنه ليس هناك اعتقاد بأن الرجل قد يضار عندما يطأ شخص ما ظله ، كما هو موجود فى أماكن أخرى من العالم .

وعند العودة إلى بيت المتوفى ، يجلس الرجال خارج البيت ، حيث ينضم إليهم الأصدقاء ويظل الجميع فى صمت تام ، فيما عدا عند وصول شخص ما ، حيث يُقال " البقية فى حياتك" .

وتتجمع المعزيات ، بمن فيهن النائحات المحترفات ، إما داخل المنزل أو فى مكان منعزل خارجه ، حيث يمضين فى عويلهن . وعادة ما يقمن بالرقص . وتدور الراقصات اللائى يتمايلن للأمام والخلف وهن يلطمن خدودهن بكلتا اليدين بإيقاع يتماشى مع نواحهن وصراخهن . وقد رأيت نساء يلطمن خدودهن بهذه الطريقة حتى سال الدم منها . وغالبًا ما تدق إحدى الراقصات «الندم» وهى طبلة مشدود عليها قطعة واحدة من الجلد تشبه الرق ولكنها بلا صناجات.

وتستمر مراسم الحداد لمدة سبعة أيام ، وإن كانت فى بعض الأحيان تقتصر على ثلاثة أيام فقط . وفى الليلة الأولى بعد الدفن يأتى الفقهاء إلى المنزل ويحضر أحدهم مسبحة كبيرة تتكون من خمسمائة إلى ألف حبة كبيرة . ويتلو الفقهاء آيات من القرآن ألف مرة ويتم العد باستخدام المسبحة . ويصل ثواب تلك التلاوة إلى المتوفى . وأثناء فترة الحداد يأتى «الفقها» يوميًا إلى المنزل لتلاوة القرآن . إلا أن ما يتم باستخدام المسبحة لا يحدث إلا فى الليلة الأولى فقط.

ويعطى « الفقها » مبالغ صغيرة من المال مقابل خدماتهم . ويقدم لهم خلال توقفهم عن التلاوة القهوة والسجائر . ولكن أحداً لايفكر فى التدخين أثناء التلاوة ، سواء أكان من القراء أم المستمعين . وكنت حاضرة فى العديد من مثل هذه المناسبات وتأثرت بجمال كثير من

الأصوات وكذلك بالخشوع الذى كان فيه كل الحاضرين . ويجلس الفقهاء على كنبة داخل المنزل ويتمايلون يمينًا ويسارًا أثناء التلاوة ، واضعين إحدى اليدين على جانب الوجه . وعادة ما يقوم أحدهم بدور القائد ويرد عليه الآخرون كالكورس . وأحيانًا يطلب كبير الفقهاء من أحد الفقهاء أن يحل محله فى التلاوة . وتستمر التلاوة لمدة ساعة أو أكثر .

وفى اليوم السابع للوفاة ، يتوقف الحداد فى البيت وتقوم النساء بمصاحبة أقاربهن بزيارة المقابر . وهن يأخذن معهن خبزاً يسمى « كحك » ، وهو إما على هيئة أقراص مستديرة أو حلقات . ويتبع المعزيات إلى الجبانة عدد من الناس شديدى الفقر وكذلك « الفقها » . ويوزع الخبز على الفقراء ترحمًا على الميت ، ويحصل « الفقها » على نصيبهم كذلك مقابل تلاوة القرآن عند المقبرة . وهؤلاء الرجال قد يحصلون على مبالغ صغيرة من المال لقاء خدماتهم ، إلى جانب العطايا من الخبز . وتتكرر الزيارة نفسها فى اليوم الخامس عشر واليوم الأربعين (انظر الصفحات التالية من هذا الفصل) .

ومن المعتاد أن يقوم اثنان أو ثلاثة من « الفقها » بتلاوة القرآن بانتظام مرتين أو ثلاث مرات سنويًا فى البيت الذى حدثت فيه الوفاة ، لضمان الخير للمتوفى . وبعض الناس يزيدون عدد مرات التلاوة على ذلك .

وسوف أصف الآن الأنواع المختلفة للمقابر التى شاهدتها . ويختلف تركيب المقبرة تبعًا لاختلاف طبيعة الأرض التى تقع فيها الجبانة . ففى بعض مناطق مصر يدفن الموتى فى الأراضى الصحراوية المنخفضة . وفى هذه الحالة لايتم إعداد المقبرة سلفًا ، إلا أن عدداً من الرجال الذين يحملون معدات الحفر يصحبون موكب الجنازة . وعندما يصلون إلى المكان المختار الذى يتم فيه إنزال النعش الذى به الجثمان وتثبت المفرش الذى يغطى النعش على عصى مغروسة فى الأرض ، بحيث يكون مصداً مؤقتًا للريح ، يبدأ الحفارون فى العمل . وبعد إزالة طبقة الرمال يحفرون حفرة مستطيلة فى الصخر الجيرى أحد طرفيها ناحية الشرق والآخر ناحية الغرب . وعلى الجانب الجنوبى للحفرة[٣] يتم عمل تجويف يكفى لوضع الجثمان الذى يسجى فى مقره الأخير ، بحيث تكون الرأس ناحية الغرب ، أى يكون متجهًا إلى الشرق نحو مكة . بعد ذلك يُسَدّ التجويف بالطين ، بحيث تكون هناك مساحة تكفى لأن يجلس فيها المتوفى . وهذا ضرورى طبقًا للمعتقد الذى يقول إنه عند زيارة ملكى الحساب للقبر فى الليلة الأولى للدفن لا بد أن يكون الميت قادراً على الجلوس وهما يسألانه . وللسبب نفسه لا بد من فك

الأربطة التى حول الكفن بمجرد وضع الجثمان فى القبر . وبعد الانتهاء من سد التجويف وردم الحفرة بالرمال ، لتصبح على هيئة كومة مرتفعة ، يوضع فوقها بعض سعف النخيل .

وفى بعض الأحيان تُستبدل كومة الرمال بإقامة بناء من الطوب على المقبرة . وسعف النخيل ، الذى يحمله الناس عادة فى مواكب الجنازات ، يوضع على المقابر للاعتقاد فى أنه يجلب البركة للمتوفى . وللسبب نفسه يزرع فى الغالب نبات الصبار بالقرب من المقبرة ، إما فى أصص بها طمى أو فى الأرض مباشرة .

وفى بعض الأحيان تكون أماكن الدفن هذه المبنية بالطوب ذات تصميم أكثر تطوراً . فبدلاً من الحفرة التى توصل مباشرة لغرفة الدفن ، قد يكون هناك ممر بينهما يتم سد نهايته ، وليس المدخل المباشر للغرفة ، بالطوب قبل ردم الحفرة بالرمل وناتج الحفر .

وإذا لم تكن الجبانة موجودة فى الصحراء ، وإنما داخل الأراضى الزراعية أو على حافتها ، يصبح بناء المقابر مختلفًا . فيتم حفر غرفة كبيرة تحت الأرض يعلوها بناء سقفه مسطح أو مقبى ، حيث يختلف ذلك تبعًا لذوق صاحب المقبرة وثروته . وتكون هذه الغرفة مقبرة للأسرة. ومعظم أفراد الأسرة الواحدة يدفنون فيها . وعادة ما يفرق بين الجنسين ، فيرقد الرجال بعيداً عن النساء . هذه هى القاعدة العامة . إلا أنه قيل لى إن هذا ليس هو ما يتبعه الفلاحون دائمًا . ويوجد تجويف عند البناء يشير إلى مكان الفتحة المؤدية إلى المقبرة تحت الأرض. ويوضع سعف النخيل أمام هذا التجويف وغالبًا ما يزرع الصبار على جانبه . وفى هذا المكان كذلك يتجمع الأقارب والأصدقاء ويجلسون أثناء الزيارات الموسمية للمقابر التى سوف أناقشها فى هذا الفصل والفصل السادس عشر .

وظهور الميت لأقاربه وأبناء قريته عقب وفاته ينظر إليه على أنه أمر حتمى ومسألة شائعة الحدوث . وقد سمعت عن كثير من حالات الظهور التى تلقى ترحيباً من أهل الميت وتعد عزاء لهم . وفيما يلى حكاية رويت لى عن ظهور ميت بعد وفاته وأدى إلى الكشف عن جريمة . وقد أقسم لى الصديق القديم الذى روى لى الحكاية أنها صحيحة تمامًا .

فقبل عامين من رواية الحكاية لى ، تزوج رجل من إحدى مديريات مصر الوسطى امرأة ذات شخصية محيرة . وبعد الزواج اكتشف أنها ليست مخلصة له . لذلك أخذها هو وأحد أصدقائه فى يوم من الأيام للنزهة . وبينما أرادت هى الذهاب من طريق ، أصرا هما على الذهاب من الطريق الذى اختاراه . وساروا جميعًا حتى وصلوا إلى بئر حفرت حديثًا فألقوها داخلها

وردموها . وبعد فترة قصيرة ظهرت فى أول الأمر لشقيقها ، ثم ظهرت بعد ذلك لوالدتها، وعادت لتظهر مرة أخرى لشقيقها الذى روت له ظروف موتها وأخبرته بدقة عن المكان الذى يجدون فيه البئر المردومة التى ترقد فى قاعها . أبلغ شقيقها ذلك إلى السلطات المختصة التى ذهبت إلى المكان المشار إليه ، حيث حُفرت البئر وكانت جثة المرأة راقدة فى القاع ، تمامًا كما روت لأمها وشقيقها . وأدين الزوج وصديقه الذى ساعده فى القتل بناء على هذا الدليل وحكم عليهما بالسجن لمدة خمس عشرة سنة .

ويزور القرويون مقابر أقاربهم وأصدقائهم فى يوم معلوم من أيام الأسبوع ؛ وفى بعض مناطق مصر يكون هذا اليوم هو الخميس وفى مناطق أخرى يكون الجمعة . وهذه الزيارة تسمى « الطلعة » . وتقع كثير من الجبانات فى الصحراء . وربما تكون تلك الزيارة قد سُميت بهذا الاسم لأن الناس يتحدثون دائمًا عن « الطلوع » إلى الصحراء و « النزول » منها . ويعتقد أن أرواح الموتى تعود إلى مقابرهم فى يوم الطلعة ، وأنها تتوقع رؤية أقاربها هناك . وقد شاركت فى هذه المناسبات وهذا وصف لإحدى زياراتى يوضح ما يتم فيها .

الجبانة التى وقعت فيها الأحداث التى أصفها موجودة فى الصحراء ، وهى موازية لموقع دفن قديم قريب بعض الشىء من سفح الهضبة . إنه مكان كثير الرمال والرياح . وسعف النخيل المغروس فى أكوام الرمل يصفر لونه بسرعة ، بحيث يصبح باهتًا شاحبًا كلون الصحراء المحيطة بالمكان . ولكن من الجزء المرتفع الذى كنت أخيم فيه مع أخى ، كانت ظلال ذلك الجريد تبدو شديدة السواد حتى يخيل إليك أنها أشباح متشحة بالسواد تركع أمام المقابر فى حزن شديد وتنظر إليها فى صمت . وكنت أستطيع من المخيم رؤية الناس وهم فى طريقهم إلى المقابر ، إلى جانب كثير مما كان يحدث هناك . فى الصباح الباكر كانت مواكب النساء ، اللاتى يصحبهن أقاربهن فى العادة ، يتوافدون من القرى المجاورة إلى الجبانة الواقعة فى الصحراء . كان البعض يسير على قدميه والبعض الآخر ، وأغلبه من الرجال ، يمتطى الحمير . وبمجرد وصول صوت العويل من بعيد إلى المعسكر ، كنت أركب حمارى وأذهب للقاء زوار المقابر. كان هناك دائمًا عدد من « الفقها » فى تلك المناسبات عملهم هو تلاوة آيات من القرآن عند المقابر ، وكان الزوار يستأجرونهم لهذا الغرض .

كانت بعض النساء تحضر سلالاً كبيرة مليئة بحلقات الخبز الذى كن يكافئن به « الفقها » على تلاوتهم ، التى يعتقد أن فيها فائدة كبيرة للميت . والخبز المستخدم فى هذه المناسبات فى هذا الجزء من مصر مصنوع دائمًا على هيئة حلقات . كما أنه يتم إحضار حلويات من كل

الأنواع وكعك وخلافه لتوزيعها ، خاصة فى حالة الأغنياء . وكان هناك دائمًا عدد من الفقراء والأطفال الذين جاءوا على أمل الحصول على نصيب من هذه العطايا . ويقول الواحد من هؤلاء « ادينى حسنة يا ست » . والمقصود بالحسنة هنا هو الخبز أو غيره مما يوزع فى هذه المناسبة . والخبز ، كما قلت من قبل ، يطلق عليه « كحك » .

وعند تقديم الخبز للفقها أو الفقراء يقول الذى يعطى « خد كحك على روح فلان » ويذكر اسم قريبه المتوفى . ومن المناظر المؤثرة رؤية وجوه النساء وقد علاها الحزن والدموع تنساب على خدودهن وهن جالسات عند المقابر يتأرجحن للأمام والخلف (الشكل ٥٣) . ويمسكن فى أيديهن بمناديل ملونة ، غالبًا ما تكون من الحرير ولا تستخدم إلا فى هذه المناسبات أو أثناء الجنازة . وأحيانًا تضع المرأة الحزينة منديلاً كبيراً لونه أسود فى الغالب وحوافه ملونة حول رقبتها بعد أن تثنيه ليصير شكله مثلثًا . وبهذا المنديل يمكنها تنويع حركاتها ، حيث تمسك به من طرفيه وتحركه للخلف وللأمام ، كالمنشار ، بينما تتمايل بطريقة إيقاعية من جانب إلى آخر . ولا بد أن أذكر هنا أن كل تلك الحركات ، بما فيها حركات الفقها أثناء تلاوة القرآن ، إيقاعية تمامًا .



(الشكل ٥٣) نسوة انحنين فوق أحد المقابر

وبينما تمسح النساء الدموع من على خدودهن بالمناديل الصغيرة ، يقمن كذلك بالتربيت على القبر ويمسحن عليه بأيديهن . وفى إحدى المرات رأيت شابة تتضرف بتلك الطريقة وكأنها تربت بكل حنان على إنسان حى . وبعد ذلك أخذت تدق على القبر وكأنها تستلفت إنتباه

الميت الراقد فيه . وكانت تصيح وهى تفعل ذلك قائلة : « يا بوى ، يا بوى ! » . وبعض اللاتى كان يبدو عليهن الحزن نائحات محترفات . وغالبًا ما كن ينظرن إلىّ ويبتسمن لى بطريقة لطيفة ، وسط ما كان يبدو نحيبًا يقطع القلوب ، ثم يعدن بعد ذلك إلى حالة الحزن بمجرد أن أتركهن .

والقادرون يحضرون فى الغالب عدة سلال كبيرة من الخبز لتوزيعها . وقد رأيت ستة أو سبع سلال كهذه ممتلئة عند مقبرة واحدة . حيث اجتمع عدد كبير من الناس وكان عدد من النائحات يجلسن عند أحد الأطراف بينما يجلس مجموعة من الرجال والصبية عند الطرف الآخر . وكان الرجال « فقها » يتمايلون وهم يتلون آيات من القرآن وكان يصحبهم الصبية كما هى العادة غالبًا . وعند الانتهاء من جزء من التلاوة يقوم رجل وامرأة أو امرأتين ، يبدو أنهم كبار أهل الميت [4]، بمناولة كل قارىء حلقة أو حلقتين من الخبز . وبعد ذلك تبدأ التلاوة من جديد وتنتهى بالمكافأة ذاتها . وطوال هذه الوقت والنساء اللاتى على الطرف الآخر من المقبرة مستمرات فى بكائهن الذى يقطع القلب ويحصلن مقابل ذلك على نفس المكافأة التى يحصل عليها « الفقها » (الشكل ٥٤) .



(الشكل ٥٤) توزيع أقراص الخبز عند المقابر

بعد قليل حملت إحدى المرأتين اللتين كانتا تساعدان فى توزيع حلقات الخبز سلة على رأسها وسارت تصحبها امرأة أخرى لتقديم محتوياتها لأهل الموتى عند المقابر الأخرى . وقد طافتا على معظم أجزاء الجبانة وأعطت حلقات الخبز لمن ليس لديه من النساء . وقبول مثل هذه العطية يدل على أن من يأخذها مستعد لأن يكون على وفاق مع من يعطيها له . وأحيانًا تقابل التى تعطى برفض غاضب من المرأة التى تقدم لها الخبز . وهذا يشير إلى أن هناك

خلافات بينهما . وفى هذه الحالة تتدخل الحاضرات ويشجعنها على قبول العطية وضرورة العيش بسلام معًا والتوقف عن التشاجر . وغالبًا ما تنجح وسيطات السلام ويتم قبول العطية فى نهاية الأمر ، وإن كان الأمر يحتاج إلى قدر كبير من التشجيع إلى أن تتم المصالحة .

وهذه المناسبة الأسبوعية تستمر فى العادة ما بين ساعتين وثلاث ساعات تحمل بعدها النساء سلالهن الفارغة ويمتطى من معه من الرجال حمار دابته ، ويعود الموكب إلى القرى . وأحيانًا تولول النساء وهن ينصرفن .

وفى جزء آخر من مصر ، حيث حضرت هذه المناسبة فى جبانة لاتقع فى الصحراء وكانت للقبور أبنية كبيرة ذات فجوات ، أو أبواب وهمية ، كما ذكرت من قبل . وفى أكثر من مرة زرت فيها مقبرة بعينها لاحظت أن أرملة الرجل المدفون هناك تجلس على الأرض بالقرب من الباب الوهمى وتخاطب زوجها الميت قائلة : " نهارك سعيد يا هديب ! إزيك ؟ » وغير ذلك من التحيات المعتادة التى تستخدم لتحية الأحياء . وقالت لى تلك المرأة إنها كانت سعيدة لقدرتها على الذهاب إلى قبر زوجها فى ذلك اليوم كى تلتقى به هناك ، وهو ما يوضح مدى الاعتقاد فى عودة الموتى إلى المقابر يوم الطلعة . والاهتمام بالموتى من الملامح شديدة الوضوح التى تتميز بها الحياة المصرية بصورة عامة ، حيث تمارس تلك الطقوس لمصلحة من رحلوا فى المقام الأول ولضمان سعادتهم فى الحياة الآخرة .

ومرة أخرى تظهر عودة أرواح الموتى إلى الجبانات فى المعتقد التالى . إذ قال لى اثنان أو ثلاثة من أصدقائى القرويين إنه عندما يذهب الناس إلى الجبانة ويرون عدداً من العصافير الخضراء الصغيرة ، فإنهم يعتقدون أن تلك هى أرواح الموتى الذين يرقدون هناك . ويقول لين[5] إن « أرواح الشهداء تقيم فى أجسام العصافير الخضراء التى تأكل من فاكهة الجنة وتشرب من أنهارها » . هذا هو المعتقد كما سمعه هو . وقيل لى بالتحديد إن العصافير الخضراء هى أرواح الموتى .

وهناك بعض المحظورات على المعزين منها ما يلى : فإذا حضر إنسان، رجلاً كان أم امرأة ، إحدى الجنازات وسار فى الموكب ، أو حتى فى جزء منه ، فلا يجب أن يدخل بيتًا به امرأة لديها طفل يقل عمره عن سبعة أيام ، فذلك سوف يؤدى إلى جفاف اللبن من ثدى الأم . ولا بد أن يبلغ هذا الإنسان أم الطفل برغبته فى دخول البيت ، كى تخرج هى وتقابله . وبعد ذلك يمكنه الدخول دون أن يكون لدخوله أية عواقب سيئة .

ومثل هذا الإنسان يجب ألا يدخل كذلك بيتًا فيه شخص يعانى من التهاب فى عينيه ، ففى هذه الحالة سوف يفقد ذلك الشخص بصره . وهذا الزائر لا بد أن ينتظر خارج البيت وعلى الشخص صاحب العين المصابة أن يخرج لمقابلته أولاً ، ثم يمكنه الدخول بعد ذلك دون خوف من أى خطر .

وتتشابه طقوس الموت والجنازات عند الأقباط تشابهًا كبيرًا مع طقوس المسلمين .

وقد شاهدت الأحداث التالية عدة مرات عندما كنت أقيم فى قرية صغيرة بمديرية الفيوم . وما سوف أحكيه رأيته بالفعل ويصف بوضوح المراسم الخاصة بدفن أحد الأقباط . ولابد أن نتذكر دائمًا أن تلك رواية عن طقوس الموت والجنازات كما يمارسها الفلاحون وحدهم ، ولا يقصد بها أن تكون وصفًا للمراسم التى تتم فى أوساط المتعلمين فى المناسبات المشابهة .

فصباح يوم من الأيام جاء أحد الضيوف إلى البيت الذى أقيم فيه بنبأ وفاة رجل قبطى فقير ، ولكنه على قدر كبير من الاحترام ، كان يسكن فى قرية مجاورة . قلت لنفسى إن أقاربه وأصدقاءه سوف يقدرون زيارتى . لذلك انطلقت على حمارى بمجرد سماعى ذلك النبأ المحزن . لم يمض وقت طويل حتى وصلت إلى البيت الذى فيه العزاء ، حيث كان من السهل تمييزه عن طريق المقاعد الموضوعة خارجه .

كان الحاضرون يخيم عليهم صمت مطبق ، بدلاً من الانهماك فى حديث كله حيوية كما هو الحال فى الظروف السعيدة .

استقبلنى الرجال بكل احترام وساروا بى إلى حيث اجتمعت النساء . كان البيت من ذلك النمط الذى تجده دائمًا فى القرى المصرية ؛ إذ كان من الطوب اللبن . وكانت درجات السلم الخشنة شديدة الانحدار تؤدى إلى السطح . وفى الغرفة الأولى التى دخلناها كان النعش ، وهو صندوق ضيق طويل مصنوع من ألواح خشبية تم تجميعها على عجل بالمسامير ، وكان عليه غطاء من قماش أسود خيطت عليه صلبان بيضاء وغيرها من الرسومات . مررنا من هذه الغرفة إلى غرفة أخرى بها عدد كبير من النساء الجالسات على الأرض وتصدر عنهن من حين لآخر صرخات الحزن . جاءت أخت المتوفى ناحيتى وشعرها أشعث وثوبها غير مرتب . وكانت وهى آتية إلىّ تتمايل يمينًا ويسارًا فيما يشبه الرقص بينما ذراعاها ممدودان . وعلى الفور سارت بى إلى غرفة صغيرة تؤدى إلى خارج تلك التى كانت النساء يجلسن فيها . كانت مظلمة وليس فيها سوى شعاع من ضوء يأتى من الباب الموارب . كانت هناك مرتبة على

الأرض تشغل معظم المساحة المتاحة وكان مسجى عليها جثمان المتوفى الذى تغطيه ملاءة ملونة . وكان يأتى من نهاية الغرفة المظلمة صراخ النساء النائحات . وعلى الفور قامت الأخت بإزاحة الغطاء ودعتنى إلى الجلوس على المرتبة بجوار الميت . كان ذلك أمرًا شديد الأدب منها، إلا أنه كان أكثر مما أحتمل ؛ لا لأننى أخاف الموتى ، بل لأن المرتبة كانت بالتأكيد مليئة بالحشرات . نجحت فى الهروب من هذا العرض دون أن أؤذى مشاعر أحد وعدت إلى ذلك الجمع الكبير من النساء فى الغرفة المجاورة . كانت كل امرأة تمسك بمنديل ملون ، أخضر أو أزرق أو بنفسجى أو له كل هذه الألوان مجتمعة . وكن يمسكن بالمناديل كما فى كل مراسم الجنازات . كان منهن من يمسكن وجوههن ، بينما يتمايلن يمينًا ويسارًا ويولولن على الميت ويلوحن بالمناديل من أعلى لأسفل . وكانت وجوه النساء وأيديهن وأذرعهن مصبوغة باللون الأزرق .

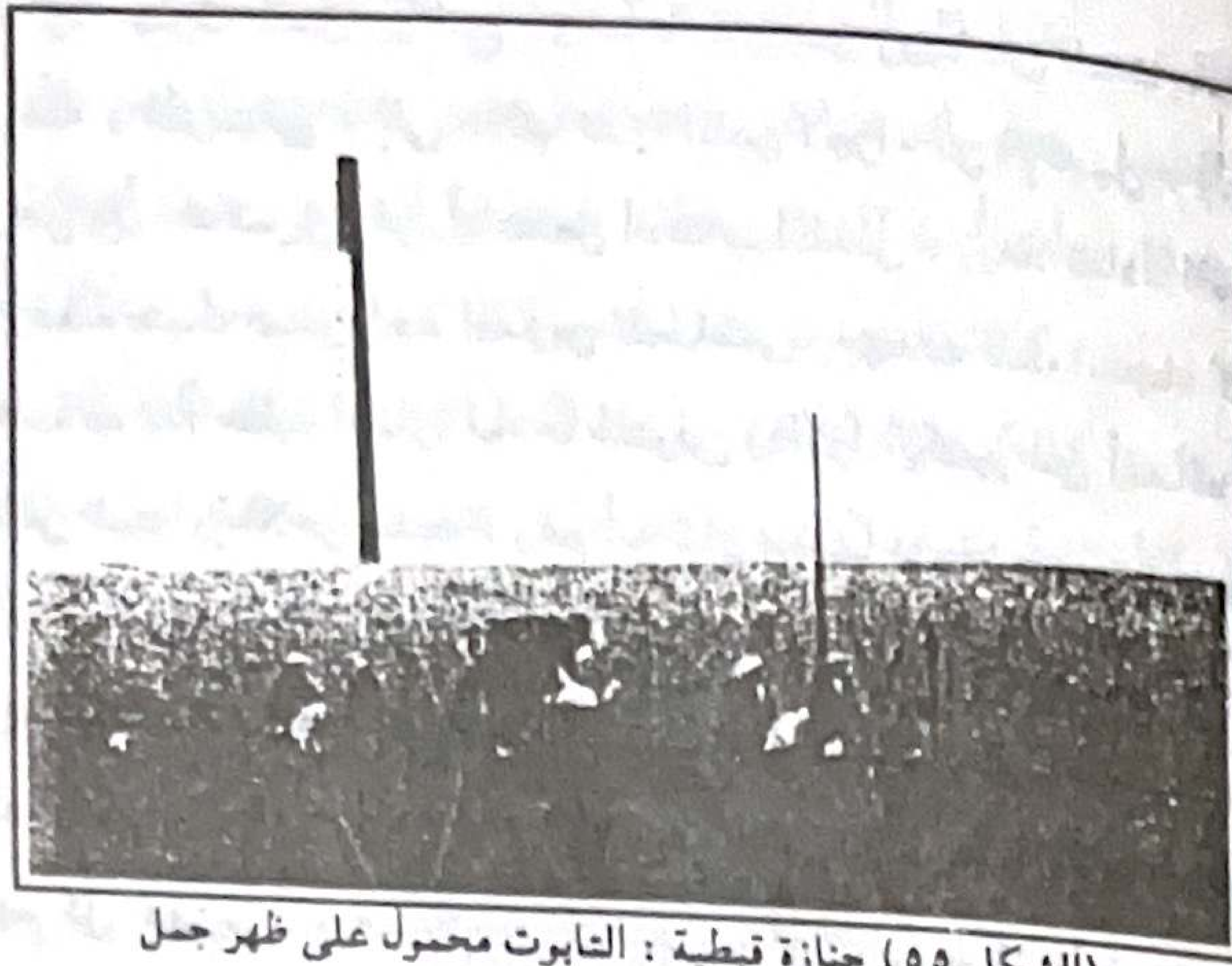
بعد قليل خرجت لأتحدث مع بعض الرجال الذين كان واضحًا عليهم استنكارهم للطريقة التى تتصرف بها النساء . سألونى إن كانت مثل هذه الأشياء تحدث فى أكسفورد عند الوفاة. فقلت لهم « لا » وأوضحت لهم أنه فى مثل هذه الأوقات لا بد أن يتصرف أفراد الأسرة بهدوء تام .

كان ردهم علىّ هو « أحسن خالص » .

فى ذلك الوقت جرت بعض النساء خارج البيت تتبعهن أخت المتوفى ، حيث اندفعن إلى مكان به نخيل خارج البيت وبدأن رقصة غريبة بينما الأخت تقف وسطهن . وعند خروج الأخت من البيت اتجهت إلى كومة طين بالقرب من المدخل وأخذت منها لتغطى وجهها وذراعيها وملابسها ، وبعد ذلك أخذت قطعة كبيرة ووضعتها على رأسها . وبينما كانت النساء يدرن فى حلقة ، كن يغنين أغنية حزينة ويلطمن خدودهن بشدة بكلتا اليدين بإيقاع مصاحب للغناء. وسرعان ما دخلن فى حالة من الجنون . سقطت الأخت على ظهرها مرتين أو ثلاث مرات وقد أغمى عليها تقريبًا ، وكان الرجال يرجوننى أن أقنعها بالعودة إلى البيت ، وهو ما نجحت فى تحقيقه أخيرًا بمساعدة أقاربها الذين كانوا يشعرون بالحرج من هذه الطريقة الوحشية للتعبير عن الحزن . وبعد إدخالها البيت بسلام ، جلست على الأرض مع بعض النساء الأخريات بينهم زوجة المتوفى . وبالمناسبة كانت الزوجة تحتل المرتبة الثانية فى تلك المراسم . حيث تعد رابطة الدم هى الأقوى فى مصر ، ولا بد أن تأتى الزوجة فى المقام الثانى بعد الأخت فى مثل هذه المناسبات.

بعد ذلك بدأت الأخت خطبة طويلة تمدح فيها شقيقها ، وكانت النساء الأخريات ينضممن إليها كل فترة فيما يشبه الكورس . وظلت تشير نحو باب الغرفة التى يرقد فيها المتوفى بينما تصرخ هى ورفيقاتها : « يا خوى ، يا خوى ! » .

وبينما يحدث ذلك كان رجلان أو ثلاثة رجال يقومون بتغسيل الجثمان ويجهزونه للدفن . وبعد قليل خرج أحدهم لإحضار الكفن الذى كان موضوعًا على أرضية إحدى الغرف الخارجية . وكان الكفن يتكون من أقمشة قطنية بيضاء وخضراء ؛ حيث كان أقارب الميت أفقر من أن يشتروا الحرير . وكان القماش الأبيض يلف به الجثمان أولاً . أما الأخضر فكان الغطاء الخارجى ، كما هو الحال لدى المسلمين . وبعد عدة دقائق فتح الباب مرة أخرى وخرج الرجال لإحضار النعش . وعندما كانوا يحملونه إلى غرفة الميت أصاب النساء الجنون (وقد انضمت إليهن فى ذلك الوقت النساء الراقصات اللاتى كن بالخارج) ووجد الرجال صعوبة فى دخول الغرفة مرة أخرى وإغلاق الباب . قامت الأخت واندفعت نحو الباب متجهة إلى داخل الغرفة التى يرقد فيها شقيقها وهى تصيح « تعالى ، تعالى ! » وأثناء ذلك كانت النساء والمعزيات يطلقن صرخات الحزن وكان الصخب يصم الآذان . وعندما خرج الرجال بالنعش الذى يضم الجثمان ، زادت الفوضى وعلا الضجيج أكثر وأكثر . كانت النساء يصرخن وخلعت الأخت طرحتها (وفى غير ذلك من الأوقات يعد ذلك خروجًا على الأدب) وفتحت ثوبها من عند الرقبة وشقته ، إلى حد اضطرت عنده رفيقاتها إلى منعها من ذلك ، من باب الأدب . وضع النعش بعد ذلك على الأرض وجلست النساء حوله . فقدت الأخت سيطرتها تمامًا على نفسها، حتى أننى طلبت من الرجال أن يتقدموا ويرفعوا النعش . وبشىء من الصعوبة استطاعوا أن يرفعوه عن الأرض ويحملونه على أكتافهم ، واستطاعوا فى النهاية الخروج من البيت يتبعهم جمع من النساء اللاتى يصرخن . وضع النعش على ظهر حمار ، وإن كان الجمل هو الأكثر استخدامًا (انظر الشكل ٥٥) ، وتحرك الموكب إلى جبانة الأقباط الواقعة فى الصحراء على بعد عدة أميال . امتطيت حمارى وسرت معهم . سارت النساء معنا لمسافة قصيرة ثم تركناهن حيث كانت الأخت وسطهن وهى فى حالة من الهستيريا . وتجمعت النسوة على الطريق الواقعة بين الزراعة ومضين فى صراخهن ولطم وجوههن ملوحات بأذرعهن إلى أعلى . وعندما سرنا نحو الصحراء الهادئة صارت أصوات صرخاتهن تقل على البعد حتى لم يعد هناك أى صوت يقطع السكون سوى بعض التراتيل التى يتلوها الرجال الذين يشكلون موكب الجنازة من حين لآخر .



(الشكل ٥٥) جنازة قبطية : التابوت محمول على ظهر جمل

وعندما وصلنا إلى بوابة الجبانة دخلناها جميعًا وحمل الرجال النعش إلى داخل الكنيسة حيث وضعوه أمام الستارة التى يقع خلفها المذبح . دخلنا جميعًا المبنى المقدس وقُدم لى مقعد كى أجلس بالقرب من الجثمان . كان هناك جمع كبير من الأقباط والمسلمين ، حيث كان الرجل يلقى احترام أتباع الديانتين الذين كان يعيش بينهم . انتظرنا طويلاً دون أن يظهر أى دليل على وجود قس . وأمضى الرجال الوقت فى الكلام والتدخين . ومع أننى متأكدة من أن ذلك لم يكن مقصودًا ، فقد كان الحاضرون يفتقرون إلى السلوك المحترم بصورة غير عادية . وأخيرًا وصل القس . وقف جميع الحاضرين على الفور . وبعد ذلك صافحنى القس ثم جاء الآخرون واحدًا تلو الآخر وقبلوا يده . رفع الغطاء عن النعش وكشف الجثمان الملفوف بكفنه الأبيض والأخضر . وضعت على الجثمان قطعة قماش شديد القذارة خيط عليها صليب لونه أخضر وأضيئت الشموع ووضعت على حواف النعش ؛ ست شمعات على كل جانب وواحدة عند الرأس وأخرى عند القدمين . تم ذلك بوضع قليل من الشمع المنصهر من الشموع المضاءة على النعش ثم إلصاق الشموع عليه . وضعت شمعتان أكبر حجمًا فى شمعدانين كبيرين على جانبى النعش . ربما كان هذا الشمعدانان من الفضة ، ولكنهما كانا فى حالة قذرة جعلت من الصعب علىّ التيقن من المادة التى صنعا منها .

بدأ القداس بعد ذلك . كان قداسًا طويلاً جدًا استمر ثلاث ساعات أو أكثر ! كان القس يصاحبه « العريف » ، وهو الرجل الذى يقود جوقة التراتيل فى أية كنيسة قبطية . وكان

العريف كفيفًا وذا صوت عميق وواضح . وعندما كان يدق زوجًا من الصناجات . وكان هناك قدر كبير من هذه « الموسيقى » إلى جانب تلاوة القس لأجزاء من الإنجيل . وعلاوة على ذلك قام رجل آخر من بين الحاضرين وقرأ آيات من الكتاب المقدس . وبعد تبادل القراءة والتراتيل كانت هناك وقفة حيث صفق أحد المعزين للحاضرين بهدف لفت انتباه كل من كان في الكنيسة. بعد ذلك بدأ خطبة الجنازة مادحًا المتوفى وذاكراً الكثير من أفعاله الطيبة . وكان يتحدث بحماس كبير وإخلاص شديد ، رغم أنه كان مسلمًا . وقد أعجبت بحركاته المحسوبة وبطلاقة لسانه ومخارج ألفاظه الواضحة . كان بحق متحدثًا جيداً وخاليًا تمامًا من أي تلعثم أو خجل . وبعد انتهاء الخطبة أطفئت الشموع ، ورفعت من على النعش ، وأعيد الغطاء، وحمل الرجال النعش على الأكتاف وساروا يتقدمهم القس والعريف وداروا حول الكنيسة ثلاث مرات يتبعهم كل المعزين . وبعد الدورة الثالثة ، جاءوا إلى مركز المبنى ومن ثم خرجوا من الكنيسة إلى مكان الدفن .

وليس هناك قداس عند القبر لدى الأقباط . وبعد النصائح والاختلافات بصوت مرتفع من جانب كل الرجال الذين تجمعوا حول القبر ، أنزل النعش في آخر الأمر بنجاح إلى مقره الأخير ، وهو عبارة عن قبو دفن به عدد من الموتى من قبل . وفي النهاية سدت فتحة القبو بالطوب وأعيد التراب إلى مكانه وانصرفنا نحن إلي مساكننا .

ويستمر الحداد في المنزل عادة سبعة أيام كما هو الحال لدى المسلمين ؛ وإن كان من الممكن قصره على ثلاثة أيام فحسب . وخلال هذه الأيام السبعة أو الثلاثة ، وحسبما ذكره لي أحد مصادري من الأقباط ، لا يطبخ طعام في بيت أهل الميت ، وإنما يحضر لهم الطعام أصدقاؤهم من القرية . وطبقًا لما ذكره المصدر نفسه ، يقوم القس بتلاوة الصلوات في الكنيسة في اليوم الثالث والسابع والخامس عشر والأربعين بعد الوفاة . ويعتقد أن تلك الصلوات وسيلة لإنقاذ الروح الضائعة . وخلال الخمسة عشر يومًا لا يكنس بيت أهل المتوفى ، إلا أنه لم يقدم لي تفسيراً لهذه العادة .

وفي اليوم الثالث بعد الوفاة ، يذهب القس ومعه العريف إلى منزل المتوفى أو المتوفية . ويعتقد بعض الأقباط غير المتعلمين أن القس يقوم في هذه الزيارة بصرف روح المتوفى من البيت ؛ حيث يعتقد أنها تظل هناك حتى ذلك اليوم . وقد حضرت هذه المناسبة بعد موت القبطي الذي وصفت جنازته قبل قليل . وحيث إن أقاربه فقراء جداً ، فقد كانت المراسم بلا شك أقل كثيراً مما يكون عليه الحال لدى من هم أفضل منزلة .

قيل لي إن القس سيصل في الساعة ٣,٣٠ مساءً . لذلك توجهت إلى المنزل بعد الظهر. رأيت عدداً من النساء جالسات في غرفة داخلية يندبن ويلوحن بمناديلهن الملونة بالحركات الإيقاعية المعتادة . بدأت أخت المتوفى خطبة طويلة في مدحه ، حيث تحدثت عن خصاله الطيبة وأفعاله الجيدة . كانت تتحدث لفترة قصيرة ثم تتوقف ، حيث ترد النسوة النائحات عليها بصراخ إيقاعي كالكورس ويطلقن من حين لآخر الصرخات المعتادة التي تصم الآذان . بعد ذلك تستأنف الأخت موضوعها ويتبعها بعد قليل النساء النائحات كما حدث من قبل .



(الشكل ٥٦) كاهن قبطي يمسك صليبًا

وأثناء ذلك دخل أحد الرجال الجالسين في الخارج وقام بتوزيع السجائر . وقامت نساء عديدات بالتدخين . ولكن هذا الشكل من أشكال المتعة لم يؤثر على النواح أو يقطعه . لم يكن القس قد حضر بعد رغم عمل كل الترتيبات اللازمة لزيارته . إذ وضع طشت معدني كبير على كرسي وبداخله دورق زجاجي به ماء . وأخيراً وصل بعد الرابعة ومعه عريفه ، وقد جاء كلاهما من الدير القائم في الصحراء على بعد أميال . قرأ القس بعض الصلوات ورتل العريف آيات معينة (انظر الشكل ٥٦) ، ثم تلى أحد الحاضرين أجزاء من الكتاب المقدس بصوت مرتفع . وكان القس قد وضع فور وصوله صليبًا فضيًا صغيراً ، في طشت الماء ، حيث ظل هناك طوال الوقت الذي كانت تتم فيه القراءة والتراتيل . وبعد انتهائها أخرج القس الصليب

الذى كان الماء يقطر منه وأداره ناحيتى وضغط به على جبهتى حيث قام فى الوقت ذاته برسم علامة الصليب علىّ . كرر القس الشىء نفسه مع كل الرجال واحداً تلو الآخر . وبعد ذلك استدار نحو جمع النساء ونثر عليهن بعض الماء من الطشت . وظل البخور يحترق منذ لحظة وصول القس . وبعد ذلك حمل هو المبخرة وسار بها نحو الغرفة التى توفى بها الرجل . وكان كل إنسان يبخر أثناء سيره إلى الغرفة ، بينما كان يصاحبه رجل يحمل طشت الماء . قام القس بتبخير تلك الغرفة وبرشها كلها ، بما فى ذلك المرتبة التى كان يرقد عليها المتوفى بالماء . وكان ذلك آخر المراسم ، حيث انصرف القس وعريفه بعدها إلى الدير الصحراوى .

وهناك معتقد شائع بين الأقباط من طبقة الفلاحين ، وهو أن نثر الماء فى البيت يصرف روح الشخص الذى مات . وربما يكون هذا الاستخدام للماء والبخور فى الأصل أحد الطقوس التطهيرية التى تنظف البيت وساكنيه من تلوث الموت . وإن كان هذا المعتقد لا وجود له بأى شكل من الأشكال بين الفلاحين فى الوقت الحاضر .

الهوامش :

(١) انظر الفصل الرابع عشر .

(٢) ربما تصف المؤلفة هنا صلاة الجنازة (المترجم) .

(٣) هكذا كان الحال فى اثنتين من حالات الدفن رأيتهما .

(٤) انظر : Discovery, vol. ii, p. 211, Fig. 3 .

(٥) . The Manners and Customs of the Modern Egyptians (London, 1871), vol. i, p. 83 .

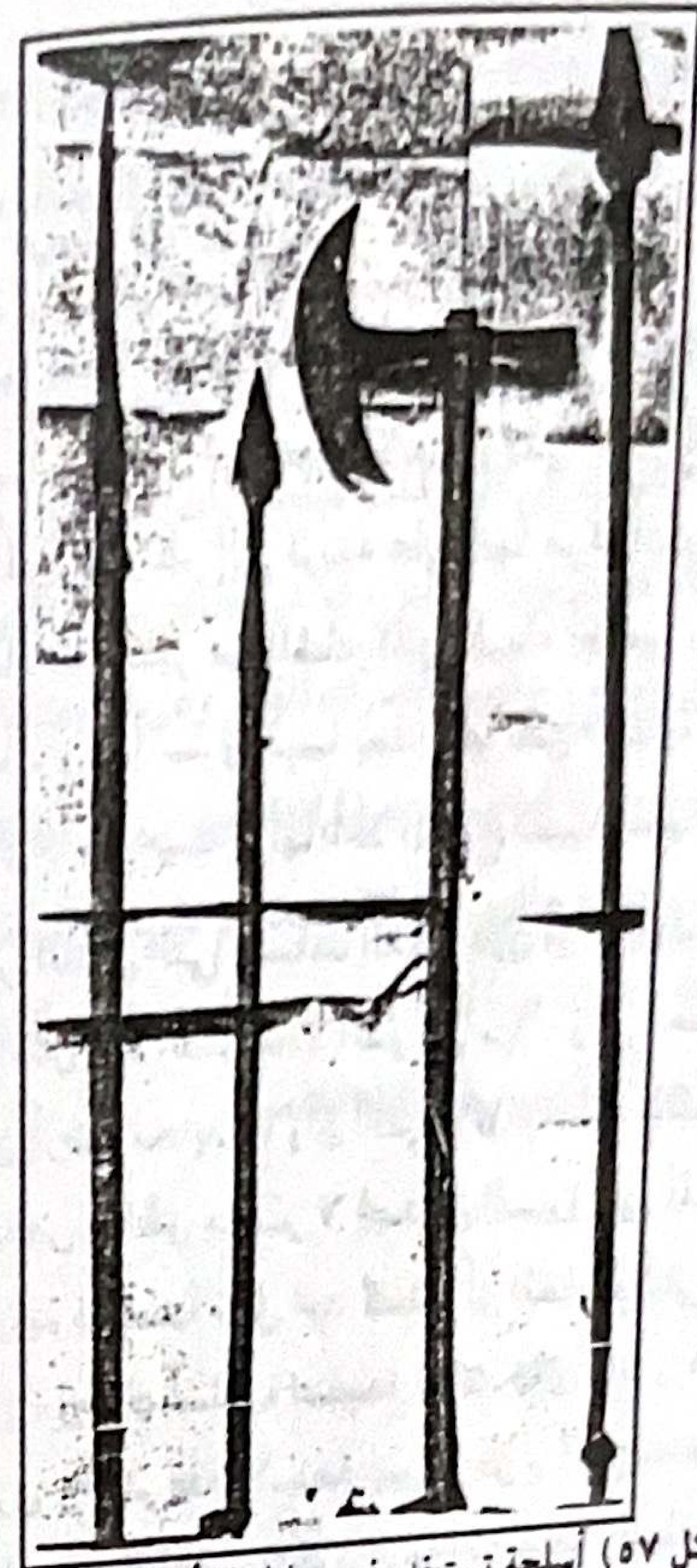
الفصل الثامن

معارك قروية - قانون الثأر

الفلاحون المصريون ليسوا شعبًا مقاتلاً بأى حال من الأحوال ، ولكنهم فى المعارك التى تقع بين القرى ، ولا تحدث كثيراً ، يبدون فى بعض الأحيان قدراً يدعو إلى الدهشة من العنف . ولابد أن نتذكر أن الفلاح المصرى ينظر إلى قريته على أنها مركز الكون وأنه يتعامل مع أهل القرى الأخرى فى بعض الحالات بكثير من الشك كأنهم غرباء أجانب ، وإن كان يعاملهم بكرم ضيافة وأدب جم كضيوف . وكما سنرى فيما بعد ، لم تكن العداوة بين القرى المجاورة فى الماضى أقل مما هى عليه الآن . من حيث كونها أحد الملامح المميزة للحياة المصرية .

وقلما يلتقى أهل بعض القرى التى تتبادل العداء دون أن يحاولوا إثارة مشاجرة على الأقل. وقد شهدت بنفسى مثل هذه الصراعات أكثر من مرة . وفى معظم بقاع العالم نجد أن ساحة السوق عادة ما تكون أرضًا محايدة ، وأن أكثر الأقوام عداء يلتقون فيها وهم مجردين من السلاح . إلا أنه فى بعض مناطق مصر لا نجد أن السوق هى الموقع الذى يختارونه باستمرار للصراعات القروية فحسب ، بل نجد كذلك أن المعارك التى تقع على أرضها لا تقتصر على أيام السوق ! وهناك أسلحة عديدة (الشكلان ٥٧ و ٥٨) تستخدم فى المواجهات التى تقع بين القرى . أكثر هذه الأسلحة شيوعًا هو « النبوت » (وهو عصا ضخمة الحجم) وشكل بدائى من الرماح والبلطة. ويتكون الرمح من عصا طويلة تنتهى بسن حديدية رفيعة أو بنصل على هيئة ورقة الشجر الملساء أو المسننة . والبلطة عبارة عن عصا طويلة عليها رأس حديدية مجنحة . كما تستخدم الحجارة كذلك ، حيث يكون لقذفها أثر مميت .

وأول معركة شاهدتها من هذا النوع حدثت عند غرق قارب كبير فى إحدى الترع والتصاقه بقاعها الطينى . تمت محاولة لرفع القارب من الماء ، حيث قام الغواصون بربط حبلين قويين فيه . وقد تجمع عدد كبير من الناس على جانبى الترعة وطلبت من بعضهم المساعدة فى جهود إخراج القارب ، إلا أن معظم الناس ، وأنا منهم ، كانوا مجرد متفرجين . وكان الحبلان اللذان ربطا بالقارب شديدى الطول ، كما كانا متينين . وكانت كل مجموعة ممن يعاونون فى الرفع تمسك بأحدهما (الشكل ٥٩) . جذب الرجال الذين كانوا على البر أحد الحبلين . وبعد عدة مرات من الجذب، سُحب الحبل الآخر من الجانب المقابل من الترعة . واستمر الحال على هذا النمط لبعض الوقت . وكانت العملية بالكامل تتم تحت الإشراف الجيد للضابط المسئول عن المنطقة .

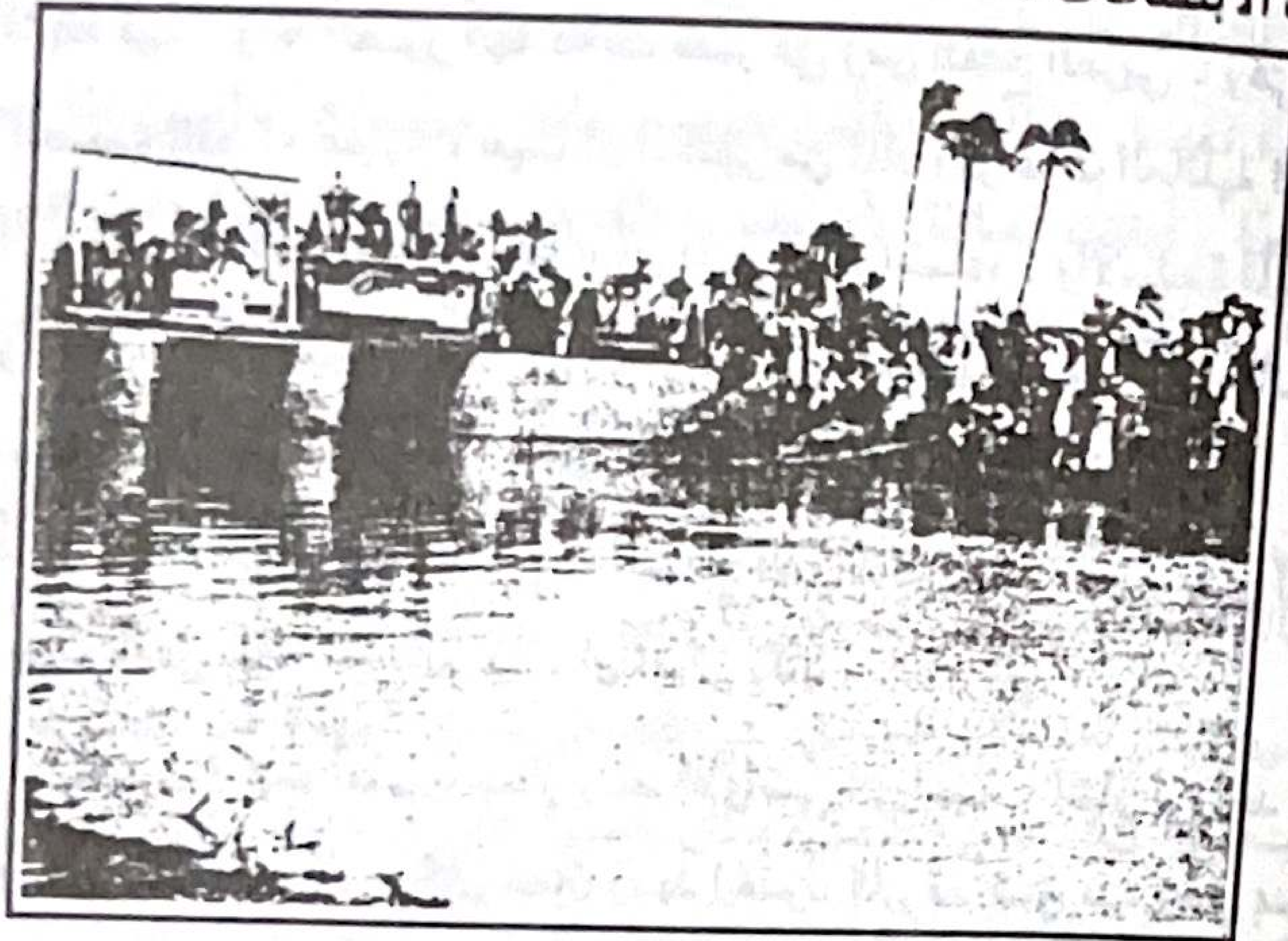


(الشكل ٥٧) أسلحة تستخدم فى معارك الثأر والمعارك التى تقع بين القرى



(الشكل ٥٨) وضع المتحاربين فى المعارك التى تقع بين القرى

إلا أنه اتضح أن الجماعتين اللتين كانتا تواجهان بعضهما عبر الترعة تنتميان إلى قريتين بينهما عداوة . وسرعان ما بدأت حجارة ذات أحجام كبيرة فى التطاير من شاطىء إلى آخر . اندفع الضابط ، وهو صديق قديم ، وتوسل إلىّ أن احتمى بشيد ريثما يحل هو المشكلة ، إلا أننى رفضت التراجع ، لأننى أردت معرفة ما سيجرى . اندفع الضابط مسلحًا بكرباج ضخم بين الجموع التى كانت قد بدأت المعركة بالفعل وكان يضرب بالكرباج يمينًا ويسارًا . وبهذا القدر من السرعة والشجاعة أنهى ما كان يمكن أن يصبح معركة خطيرة ودموية . وكنت أحاول أثناء ذلك التقاط صورة للمعركة ، ولكن الجموع الثائرة المندفعة هنا وهناك أضاعت كل جهدى سدى . وفى النهاية لم يسمح للقرويين الذين بدأوا المعركة بالمساعدة وأمروا بالجلوس على الأرض فى صفوف على مسافة فى خزى شديد . كان لا يبدو عليهم أى قدر من التأثر . وعندما تحدثت إليهم وسألتهم عن السبب الذى جعلهم يتصرفون بهذا الأسلوب السيىء ، قوبلت بألطف الابتسامات .



(الشكل ٥٩) حشد من الناس يشد الحبال لإخراج مركب غارق

وفى مرة أخرى تصادف وجودى فى إحدى المعارك التى وقعت فى الاحتفال السنوى الذى يقام تكريمًا لأحد المشايخ المحليين [١] . فقد اشتبكت إحدى القريتين اللتين ذكرتهما من قبل مرة أخرى فى عراك مع أهل القرية التى كان بها الاحتفال . وقد دعانى كبير حراس [٢] تلك القرية ، وهو رجل مضياف إلى جانب كونه ممتازًا فى إقرار النظام ، لزيارة بيته بعد مشاهدة العديد من العروض التى تعد ملمحًا هامًا من ملامح تلك الاحتفالات . وكانت ببيته شرفة

رائعة تطل على الساحة بأكملها . وبما أن الطقس كان شديد الحرارة ، فقد سعدت جداً لتمكني من مشاهدة ما يجرى من موقع آمن ومريح . وفجأة ودون سابق إنذار ، خرجت « النبابيت » وبدأ المشهد . ولكن شيخ الخفر كان بارعًا فى استخدام الكرباج ، وسرعان ما دخل وسط المعمعة يضرب به يمينًا ويسارًا بصحبة أحد الجنود الذى يحمل سلاحه ، وكان قد أرسل ليكون حارسى الشخصى . وعلى الفور هرب المتشاجرون وتفرقوا فى الشوارع الجانبية . وكانوا يجرون على غير هدى إتقاء لضربات السياط المحكمة التصويب ! وعاد الهدوء من جديد بعد وقت ليس بطويل . وتجمعت مرة أخرى أعداد من أهل القريتين المتخاصمتين وعادت العصى إلى اللعب الحر من جديد . وقد أوقفت هذه المعركة بنفس الطريقة التى أوقفت بها سابقتها ، إلا أن القتال تكرر مرتين أو ثلاث مرات قبل التوصل إلى وقف نهائى للقتال .

والثأر من العادات التى يسر المرء حين يراها تندثر فى مصر . وطبقًا لما جمعته من معلومات من الدارسين الذين لهم اتصال بالتاريخ القديم لهذا البلد ، لا يبدو أن هذه من العادات الأصيلة فيه . وأنا أتصور أنها دخلت مصر فى زمن الفتح العربى . وهى عادة رهيبة سيكون من الصعب القضاء عليها ، حيث إن الكثير من تلك النزاعات العائلية قائم منذ عدة أجيال ومازال مستمراً ، دون أن يكون هناك أى دليل على إخماده . والأسلحة المستخدمة فى الثأر هى فى الغالب تلك المستخدمة فى المعارك التى تقع بين القرى ، وإن كانت الأسلحة النارية تستخدم فى بعض الأحيان . وقيل لى إن القاعدة هى أن القاتل ، أو أحد أفراد عائلته، لا بد أن يقتله المنتقم منه بنفس نوع السلاح الذى استخدمه ، وفى نفس المكان الذى ارتكبت فيه جريمة القتل المراد الانتقام لها ، إن أمكن ذلك .

وفى أحد الأيام بينما كنت أسير بالحمار وسط الأراضى الزراعية ، أشار لى أحد أصدقائى المصريين الذى كان يصاحبنى إلى مكان معين وسط الحقول كان قد شنق فيه رجل بمنديل كبير لف حول رقبته . وبعد قليل قال لى صديقى إن الثأر قام به أحد أفراد عائلة الضحية ، حيث قتل واحداً من أقارب القاتل بنفس الطريقة وفى نفس المكان الذى وقعت فيه الجريمة . بل إن عدد العقد التى عقدت فى المنديل الذى استخدمه الشخص المنتقم كان هو نفسه العدد المستخدم فى الجريمة الأولى .

وفى مرة أخرى توقف القطار بالقرب من قرية معينة فى مصر الوسطى . وقد لاحظت أن المكان كان يعج بالصخب والحركة . وكانت هناك أعداد كبيرة من الناس قد تجمعت فى

الشوارع كما وصلت سيارتان أو ثلاث سيارات ، يبدو أنها تخص مسئولين حكوميين . وفى مكان يكثر فيه النخيل قبالة القرية كانت هناك تجمعات من الناس أغلبها من النساء تجلس حول أشياء مغطاة بعباءات سوداء كتلك التى يرتديها الرجال فى الغالب . وبعد قليل جاء خادمى إلى باب العربة التى كنت فيها ليخبرنى بما حدث . كانت معلوماته التى جمعها من عدة أشخاص فى ذلك الموقع هى نفسها ما أخبرنى بها المسئولون أنفسهم فيما بعد . ويبدو أنه كان هناك عداء طويل فى تلك القرية بين عائلتين ، إحداهما ضعيفة والأخرى قوية . وقبل ثمانية أشهر من تلك الواقعة تقاتلت العائلة القوية مع العائلة الضعيفة وقتلت أو أصابت ، لا أذكر على وجه الدقة ، عدداً من أفرادها . ولم تكن العائلة الضعيفة فى وضع يسمح لها بالانتقام على الفور ، فانتظرت حتى يحين الوقت المناسب وكلها إصرار على الانتقام عاجلاً أم آجلاً . وفى الليلة التى سبقت زيارتى كان خمسة عشر من أفراد العائلة الأقوى فى الحقول، حيث كان عليهم الدور فى الرى . ومن الضرورى دائمًا فى تلك الأوقات أن تتم رؤية الماء وهو يسير فى القنوات الصحيحة وأنه ليس هناك من يسرقه بتحويل مساره . وكانت هناك مسافات كبيرة تفصل بين الرجال الذين يقومون بذلك . وبينما هم يراقبون الماء حل عليهم النعاس جميعًا . أيقنت العائلة الأضعف أن ذلك قد يحدث ، مما يوفر لهم الفرصة التى ينتظرونها للثأر . لذلك خرج عدد منهم ليلاً من القرية وتسللوا إلى أعدائهم النائمين وضربوهم ضربًا شديداً بالنبابيت ، حتى أن الذى لم يقتلوه فى الحال منهم أصابوه إصابات رهيبة ، بحيث لم يكن له أمل فى البقاء على قيد الحياة . لم أعرف على وجه الدقة عدد الذين قتلوا ، وإن كانت هناك إشاعة تشير إلى أنه بلغ إثنا عشر ، وإن كنت اعتقد أن تلك مبالغة .

ويعد قانون الثأر أحد أكبر العوائق التى تقف فى سبيل العدالة التى يجب على مسئولى الشرطة أن يتصدوا لها . ومن الصعوبة بمكان الحصول على أى دليل ، حيث يدرك الشهود أن أقارب الجانى يسوف يثأرون منهم لا محالة ، إن هم أدلوا بشىء يؤدى إلى توجيه تهمة له . لذلك ليس بمستغرب أن الجناة يفلتون أحيانًا من العقاب ، رغم المهارة والصبر اللذين يبديهما الكثير من المسئولين فى تمحيص هذا الكم الكبير من الأدلة المتناقضة . وأنا شخصيًا أشهد على تلك المهارة وذلك الصبر ، وكذلك على الرفض الشديد من جانب الشهود على تقديم أى دليل على الإدانة ، حيث تواجدت مرات ومرات فى تحقيقات جنائية .

إلا أننا يجب ألا نصدر حكمًا شديد القسوة على محاولات القرويين للوقوف فى وجه تحقيق أهداف العدالة . فالناس كذلك فى انجلترا سوف يترددون فى مساعدة القانون إن هم عرفوا أن

تقديم دليل ضد أعتى الجناة معناه الموت المحقق على أيدى المنتقمين . والأغراب الذين لديهم معرفة قليلة بالعادات الشائعة بين الفلاحين ، أو لا علم لهم بها على الإطلاق ، غالبًا ما يقسون فى انتقادهم للمسئولين المصريين عندما يعجزون عن الحصول على الأدلة الكافية لتوجيه التهمة إلى الجناة ، الذين لاشك فى ارتكابهم الجرائم . إلا أن المسئولين الإنجليز ، الذين عاشوا فى مديريات مصر وكانوا على اتصال وثيق بالناس ، يدركون مدى صعوبة هذه المسألة . وفى رأيى أن ما يدعو إلى العجب ليس عدد الجرائم التى يفلت مرتكبوها من العقاب بسبب نقص الأدلة ، وإنما هو عدد الجناة الذين يتم الكشف عن جرائمهم ويقدمون للعدالة .

الهوامش :

(١) تقصد المولد (المترجم) .

(٢) شيخ الخفر (المترجم) .

الفصل التاسع

الصناعات – سوق القرية

صناعة الفخار من أكثر الصناعات شيوعًا فى مصر ، والأساليب المستخدمة فيها شديدة البساطة دائمًا . وعمومًا ، هناك نوعان من الفخار (اليدوى والمصنوع باستعمال الدولاب) . وفى حالة عدم استعمال الدولاب قد يكون صناع الفخار من الرجال أو النساء ، ولكن الدولاب لا يستخدمه سوى الرجال . وسوف أستفيض فى عرضى لهذه الصناعة ، إذ إنه رغم أهمية الأساليب التى يستعملها صناع الفخار فى مصر الحديثة بالنسبة لعلم الآثار ، فهى تحظى باهتمام قليل من جانب علماء الآثار . غير أن الكثير من هؤلاء العلماء ذكر لى مؤخرًا أن أبحاثى حول هذا الموضوع سوف تشكل إضافة قيمة لدراسة فن الخزف، كما ستلقى الضوء على الأساليب المختلفة لصناعة الفخار المستخدمة فى تلك العصور البعيدة ؛ ليس فقط فى مصر ، بل وفى أجزاء من منطقة البحر المتوسط أيضًا .

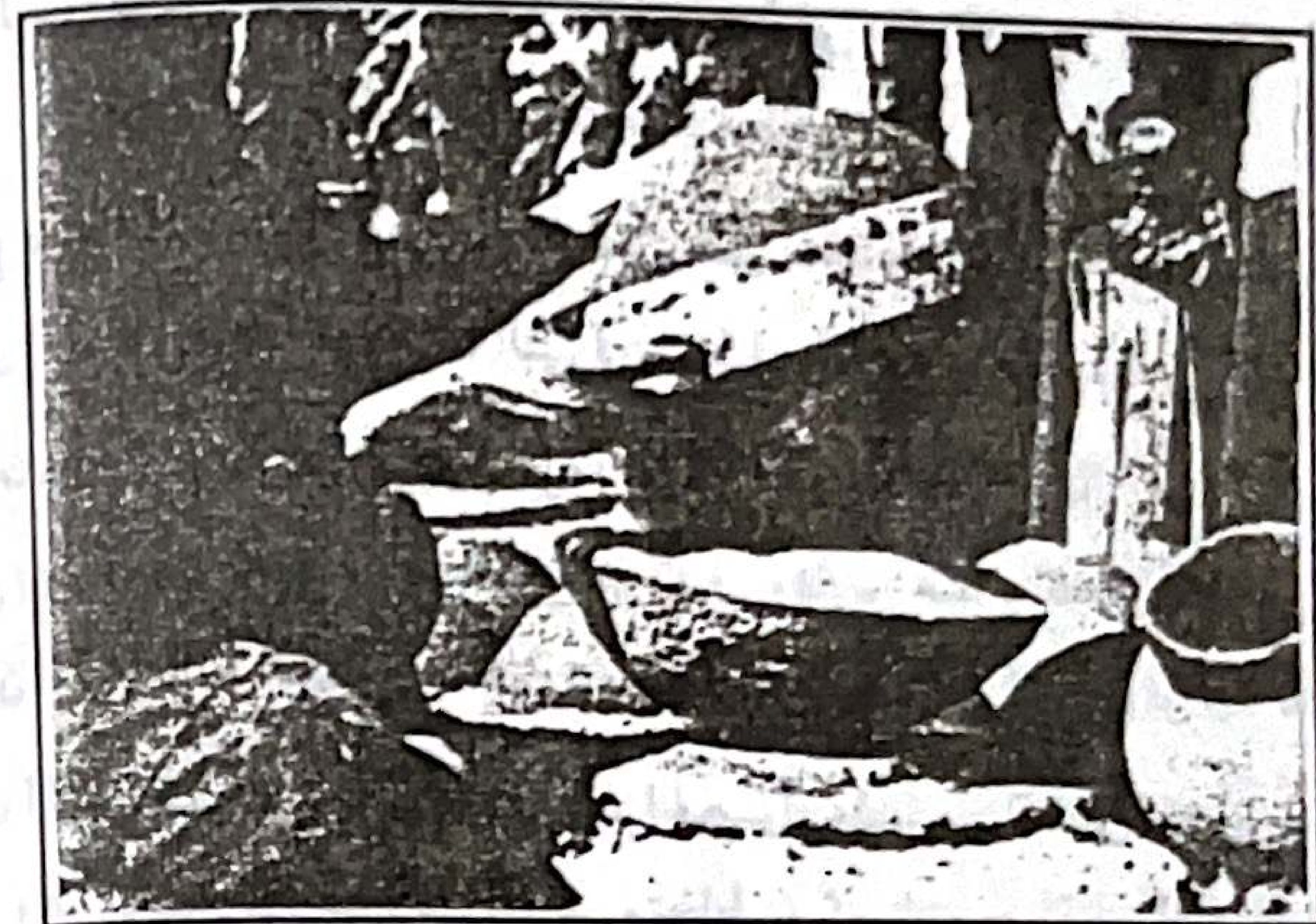
وتتنوع عمليات صناعة القدور فى مناطق مصر المختلفة . وسوف أبذل جهدى لتقديم وصفًا دقيقًا بقدر الإمكان لتلك العمليات التى درستها فى الفيوم والمنيا وقنا .

ففى إحدى القرى بمديرية أسيوط توجد منشأة كبيرة لصنع الفخار يعمل بها رجال ونساء، كما تصنع بها القدور يدويًا وباستخدام الدولاب . ويمارس صناع الفخار فنهم فى بيئة ساحرة ؛ حيث يكون المكان الذى يعملون به عبارة عن بستان من النخيل التى توفر لهم ظلاً وافرًا .

والطين المستخدم فى صنع القدور يتم الحصول عليه من المناطق المجاورة وتقوم النساء بإعداده . وهو يوضع فى حفرة فى الأرض وتخلط به كميات معينة من التبن الناعم إلى جانب ما يكفى من الماء للحصول على القوام المطلوب . وبعد ذلك تقوم النساء بخلط كل هذا معًا بأقدامهن إلى أن يتم خلطه تمامًا .

وفى ذلك المكان على وجه التحديد تقوم النساء وحدهن بصنع القدور اليدوية، وتتم العملية بالشكل التالى . فعندما يكون الطين جاهزًا للاستعمال تتولى إحدى صانعات الفخار تشكيل قطع منه على هيئة أقراص مستديرة مسطحة سمكها بوصتان أو ثلاث بوصات . تأخذ امرأة أخرى واحدًا من تلك الأقراص وتضعه على قدر مقلوب قاعدته مستديرة فى قصعة ليست

عميقة مملوءة بالتبن . ويمكن إدارة القدر المقلوب داخل القصعة حسب رغبة صانعة الفخار . يتم تشكيل قرص الطين على قاعدة القدر المقلوب ، حيث تقوم الصانعة بالدق عليه وتنعيمه ليأخذ شكله بيد بينما تمسك باليد الأخرى شقفة . وعندما ينتهى هذا الجزء من العملية ترفع الطين ، الذى يكون قد أخذ شكل نصف الكرة ، وتضعه بجوارها على الأرض . وتستمر المرأة فى التعامل مع أقراص الطين بنفس الطريقة ، حيث يصير لديها عدد من تلك الأشكال التى تم إعدادها . بعد ذلك تأخذ اثنين من أنصاف الكرة تلك وتثنى حافتيهما للداخل وتضع عليهما ، وهى تفعل ذلك ، الماء الذى تأخذه من إناء قريب منها . بعد ذلك يوضع الشكلان معًا ، بحيث تكون حافة إحداهما على حافة الأخرى . ومرة أخرى تبلل المرأة يدها بالماء لتقوم بعملية اللحام الذى تتمه فى أول الأمر بيدها ثم بالشقفة أو بقطعة خشب منحنية (١) (الشكل ٦٠).



(الشكل ٦٠) تنعيم موضع اللحام فى صنع الجرار

وهنا يصبح الإناء على هيئة كرة كاملة ، فتقوم المرأة بعمل الفتحة باستعمال ظفر إبهامها (الشكل ٦١) . وهى تبقى يدها وإبهامها فى مكانه وتدير القدر بسرعة وهو على الأرض أو داخل القصعة بحيث تتمكن من عمل فتحة دائرية منتظمة . يزال القرص الذى يقطع بهذه الطريقة وتدخل المرأة يدها فى القدر لتنعيم الأجزاء البارزة داخله التى تكونت نتيجة للحام نصفى الكرة . تضاف بعد ذلك حافة حول الفتحة وتثبت حلقتان على جانبيها (الشكل ٦٢) . تترك القدور لتجف فى الشمس قبل حرقها فى القمينة . ولا تستخدم أى مادة فى التزيين .



(الشكل ٦١)شق الفتحة باستعمال الإبهام

وقد وجدت أن الطريقة نفسها مستخدمة فى قرية أخرى بنفس المديرية ، وكان الموقع الذى اختير للمصنع بستان نخيل كذلك . وهناك كان الرجال والنساء على حد سواء يصنعون القدور اليدوية . وهذا الأمر غير معتاد ، حيث إن الرجال فى معظم أنحاء العالم يقتصر عملهم على الدولاب فى صنع الفخار .

فى تلك القريتين كان الرجال يصنعون القدور بالدولاب فى نفس الموقع الذى تشغله النساء، ولكن على مسافة قصيرة منهن .

والطين المستعمل فى القدور المصنوعة بالدولاب هو نفسه الذى يستعمل فى تلك التى تصنع يدويًا . والطاولة المستديرة التى يوضع عليها الطين تدار عن طريق عجلة يحركها العامل بقدمه (راجع الشكل ٧٢). وعند صناعة أى إناء كبير كالزير ، يقوم الرجل أولاً ببل الطاولة بالماء الذى يرشه على كمية معينة من التبن ثم يضع كتلة كبيرة من الطين لتشكيل قاعدة قوية للزير . وعند صنع أوان أصغر حجمًا تكون العملية مختلفة ، كما سنرى . بعد



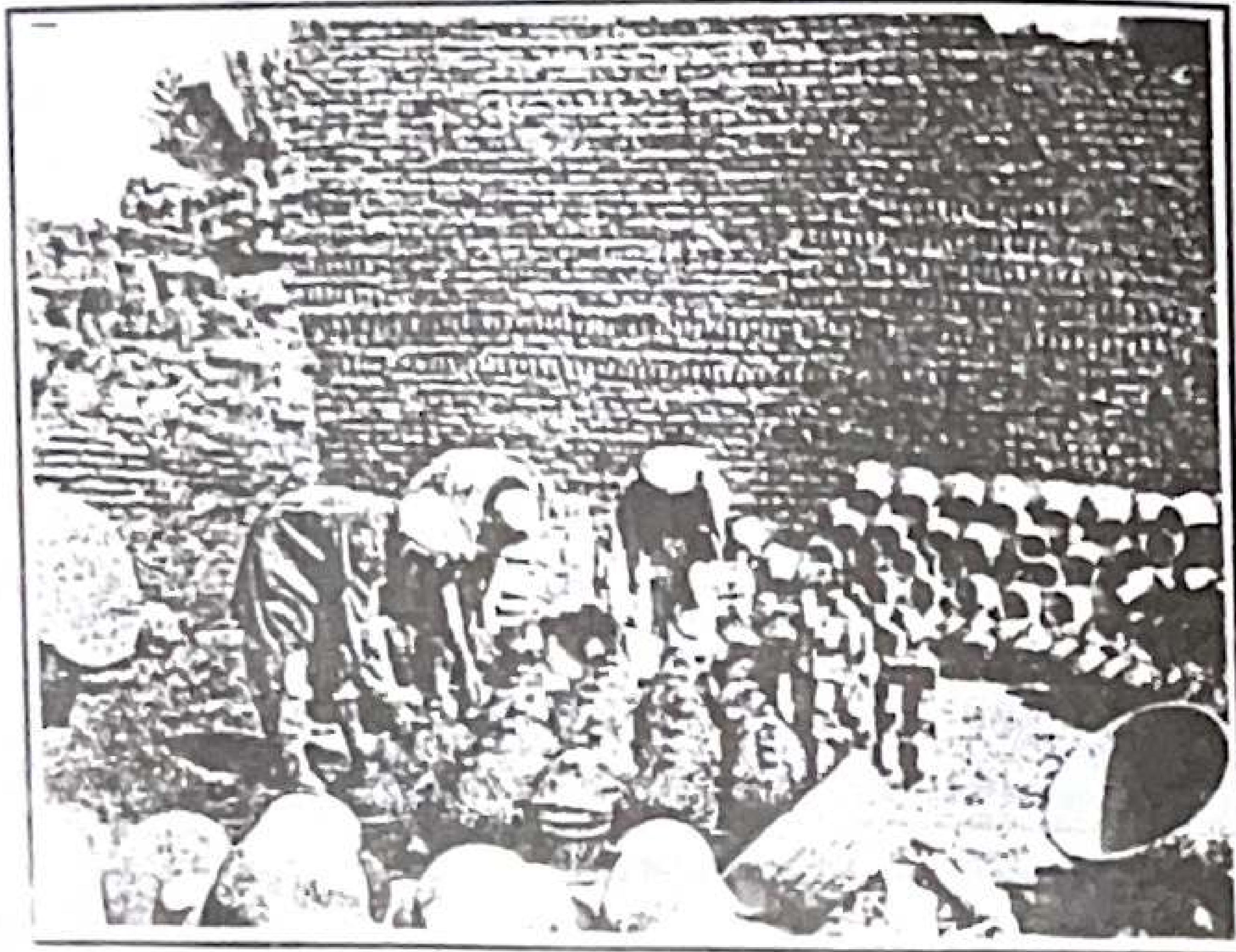
(الشكل ٦٢) تركيب مقبض أحد القدور

ذلك يأخذ قطعة أخرى من الطين ويشكلها على هيئة السجق السميك ثم يلفها حول كتلة الطين ليشكل القاعدة (الشكل ٦٣) . وبينما يدير العجلة يبدأ القدر فى التشكل . وأثناء سحب صانع الفخار للطين إلى أعلى يقوم بتشكيل الجوانب . وبعد أن ينتهى من ذلك ، يأخذ كتلة أخرى من الطين ويضغطها على القاعدة لتقويتها أكثر وأكثر فى هذا الجزء . ولزيادة حجم الإناء ، تضاف لفات أكثر من الطين حول القدر ، بحيث يضع لفة واحدة فى كل مرة . ويرش الرجل قليلاً من الماء بيده فوق كل أسطوانة يضيفها لكى يساعد فى التصاقها . ويظل يكرر ذلك إلى أن يصل إلى نصف الارتفاع المطلوب ، حيث تلف الحبال حوله بشكل حلزونى بمساعدة العجلة (راجع الشكل ٧٧). يتم بعد ذلك رفع نصف الإناء هذا من على العجلة ويوضع على الأرض ، حيث يترك عدة ساعات ليجف . وعندما تشتد صلابته بالقدر الكافى يوضع مرة أخرى على العجلة ويستكمل النصف العلوى بوضع أسطوانات سميكة من الطين بالطريقة السابقة ويتم الحصول على شكل الإناء عن طريق تقليل طول كل أسطوانة طين تضاف عما قبلها . وبعد أن ينتهى الزير بعمل الحافة السميكة ، يوضع فى الشمس مرة أخرى ليجف ، وتترك الحبال الملفوفة على النصف الأسفل منه كما هى . ولا تلف الحبال حول الجزء الأعلى ؛ إلا أنه يتم عمل بعض الخطوط باستعمال ظفر الإبهام أسفل الحافة مباشرة .



(الشكل ٦٣) لف أصابع الصلصال المسطحة حول كتلة الصلصال الموجود على عجلة صانع الفخار

وبعد أن ينتهى تجفيف الأوانى فى الشمس توضع فى قمينة تشعل فيها النار ، بعد أن تكون الحبال قد أزيلت (الشكل ٦٤) ، وإن كانت الآثار التى صنعتها الحبال تظل باقية على الوعاء ، حتى بعد حرقه .



(الشكل ٦٤) إزالة الحبال من على القدور قبل وضعها فى الفرن

وهناك نقش مشابه لذلك الذى يحدثه الحبل يستخدم لتزيين القدور فى كثير من البلاد . ولكن هذه الطريقة المستخدمة لتقوية ودعم أضعف الأجزاء من الوعاء ، أو الجزء الذى يتلقى القدر الأكبر من الضغط ، عن طريق لف الحبل حوله ، ربما هى التى أوحت بهذه الزخارف فى أول الأمر . وعندما اندثرت هذه الطريقة ، ربما بسبب ما تحقق من مهارة أكبر للصانع ، أصبح الشكل الناتج أصلاً عن ضغط الحبل على الزير يقلد بغرض الزينة فحسب [٢] . وفى حالة صانعى الفخار المصريين ، فإن الغرض من استخدام الحبل ، كما سبق وقلت ، هو دعم الجزء الأثقل وزنًا والأكثر سمكًا من الزير أثناء تجفيفه فى الشمس وأثر الحبل الذى على الوعاء لايترك بهدف أن يكون له أى قيمة جمالية ترتبط به .

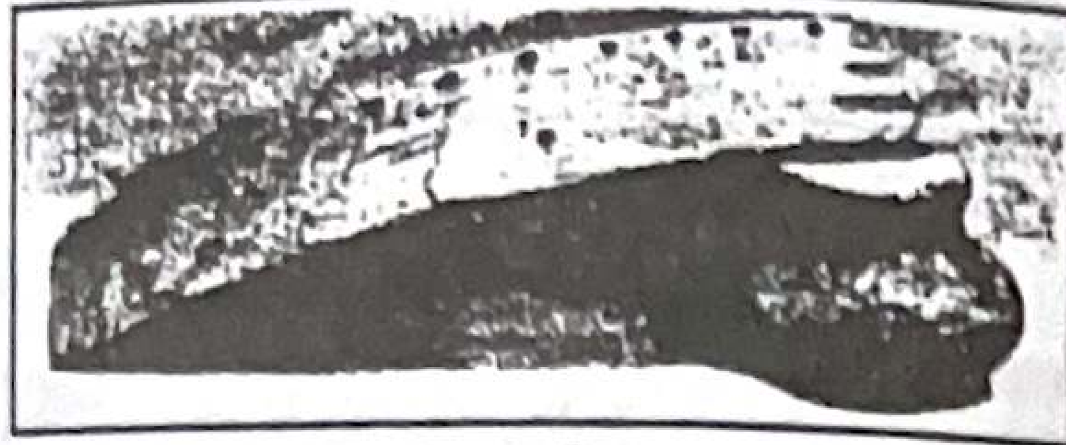
والآنية الأصغر حجمًا ، كالقلة (انظر الشكل ٧٩) ، تصنع على العجلة باستخدام كتلة واحدة من الطين . ونتيجة للخبرة الطويلة يعرف صانع الفخار بدقة حجم كتلة الطين التى يستخدمها لتشكيل كل إناء .

رأيت بالقرب من قرية أخرى فى مديرية أسيوط العمليات الثلاث التالية المستخدمة فى صنع قدر واحد . وكانت الأوعية التى تصنع كبيرة وكروية الشكل وكان ثلاثة أشخاص ، امرأة ورجلان ، مسئولين عن هذه العمليات ، بحيث يتولى كل واحد منهم إحداها ، إلى جانب شخص رابع ، وكان رجلاً ، يقوم بإعداد الطين . وكان الطين يؤتى به من منطقة قريبة ولا يخلط به سوى التبن . وكانت هناك قمينة قريبة لحرق الأوانى (الشكل ٦٥) .



(الشكل ٦٥) رجل يجهز الصلصال ؛ تبدو القمينة فى خلفية الصورة

وكانت المرأة تصنع الجزء الأول من القدر . فهى تأخذ كتلة كبيرة من الطين وتضعها فى حفرة مستديرة غير عميقة أعدت سلفًا بحيث تكون ناعمة جداً . بعد ذلك تقوم بتشكيل الطين على هيئة هذا القالب ، باستخدام قطعة مستديرة من الطين المحروق (الشكل ٦٦) . وبهذا يتم عمل قاعدة القدر . ثم تتناول شقفة فخار وتستعملها مع يدها الأخرى فى رفع الطين من جميع الجوانب ، فيصبح هناك صحن غير عميق جوانبه سميكة .



(الشكل ٦٦) قطعتان من الأدوات التى يستخدمها صانع الفخار

بذلك يكتمل عمل هذه المرأة التى تسلم القدر لرجل يقوم بترقيق سُمك الجوانب ، فيعلو الطين لأعلى . وهو يفعل ذلك باستعمال راحة إحدى يديه التى يضغط بها وهى مفرودة على الجزء الداخلى ، بينما يضرب على السطح الخارجى بقطعة خشب مقوسة يمسكها باليد الأخرى (الشكلان ٦٦ و ٦٧) . وهو يستمر فى هذه العملية حتى ينتهى من تشكيل جرة كبيرة لا حافة لها . وهنا يسلم هذا الرجل الجرة لرجل آخر يضع حلقة من الطين على الفتحة ويديرها على العجلة بحيث يصبح لها حافة (الشكل ٦٨) . وأخيراً تضاف حلقة أو حلقتين يعلق منها الوعاء . وبعد ذلك تجفف القدور فى الشمس قبل أن توضع فى القمينة .



(الشكل ٦٧) تعديل جوانب أحد القدور

ومن المثير للانتباه أن نلاحظ أن هناك ثلاث مراحل منفصلة تشملها عملية صنع وعاء واحد ، وأن نجد أن أحد الرجال يشارك مرة أخرى فى عملية الصنع اليدوية . ولا بد أن أذكر هنا أن تلك الجرار ، رغم أن صنعها يتم يدويًا بالكامل ، فهى متساوية الأبعاد تمامًا . ويعود الفضل فى ذلك إلى مهارة صانع الفخار .

وطريقة تشكيل الجزء الأول من الوعاء فى حفرة فى الأرض أعدت بدقة شائعة فى أنحاء كثيرة من مصر .



(الشكل ٦٨) تشكيل الحافة بمساعدة العجلة

والقاعدة أن العرب لا يشتغلون بصنع الفخار ، وإنما يعتمدون على الفلاحين المصريين فى صنع القدور التى قد يحتاجونها . وحتى الآن لم أجد سوى مكان واحد فقط يقوم فيه العرب بصنع الفخار . وقد عثرت على هذا المكان بالصدفة . فقد كنت أقيم فى مكان ما بمصر الوسطى استقر العرب فيه منذ عدة أجيال . وفى إحدى قراهم القريبة جداً من الصحراء ، وجدت رجلاً مسناً يقوم بتصنيع « البلاليص » التى تجلب فيها النساء الماء إلى منازلهن . وفى ذلك الجزء من مصر كان البلاص . كروى الشكل . وقد قمت بزيارة لمصنع الرجل العجوز ووجدته يقوم بعمله . كان لديه ما يحتاجه من طين خُلط بالتبن وأُعد للاستعمال داخل كوخه وقد غُطى بالخيش لمنع تبخر الماء منه . وكانت داخل الكوخ كذلك عجلة لصنع الفخار . أما الحفرة المخصصة لصنع القدور فكانت خارج الكوخ ، وقد أعدت فى ذلك المكان كى أتمكن من

التقاط صورة له وهو يعمل . وهو لديه حفرة أخرى فى الداخل ، حيث لا يكفى الضوء للتصوير . أما الحفرة فكانت دائرية وغير عميقة وكانت مبطنة بالتبن الذى دُق جيداً بالأرض، حتى صار السطح ناعمًا وثابتًا . تناول صانع الفخار قطعة كبيرة من الطين شكلها على هيئة مخروط عن طريق دحرجتها فى الحفرة (الشكل ٦٩). بعد ذلك أمسك بالعدة ، التى كانت عبارة عن قطعة من الطين المحروق وبدأ فى تجويف المخروط من الناحية السميكة يحولها إلى صحن غير عميق . وبعد أن وضع العدة جانبًا بدأ فى عمل جوانب الوعاء بيده اليسرى والعدة الخشبية بالطريقة التى ذكرناها من قبل (الشكل ٧٠). واستمرت هذه العملية حتى تشكلت جرة كروية كبيرة . أما الفتحة الصغيرة نسبيًا (الشكل ٧٠) فقد شكّلها الرجل بدقة باستعمال أصابعه . وبعد ذلك وضعت الجرة فى الشمس لتجف وتقوى لعدة ساعات قبل أن يتم تركيب الحافة على العجلة (الشكل ٧١) . ولا بد أن نلاحظ أن الإناء فى هذه الحالة لا يخرج من الحفرة إلا وهو جاهز للتجفيف فى الشمس .



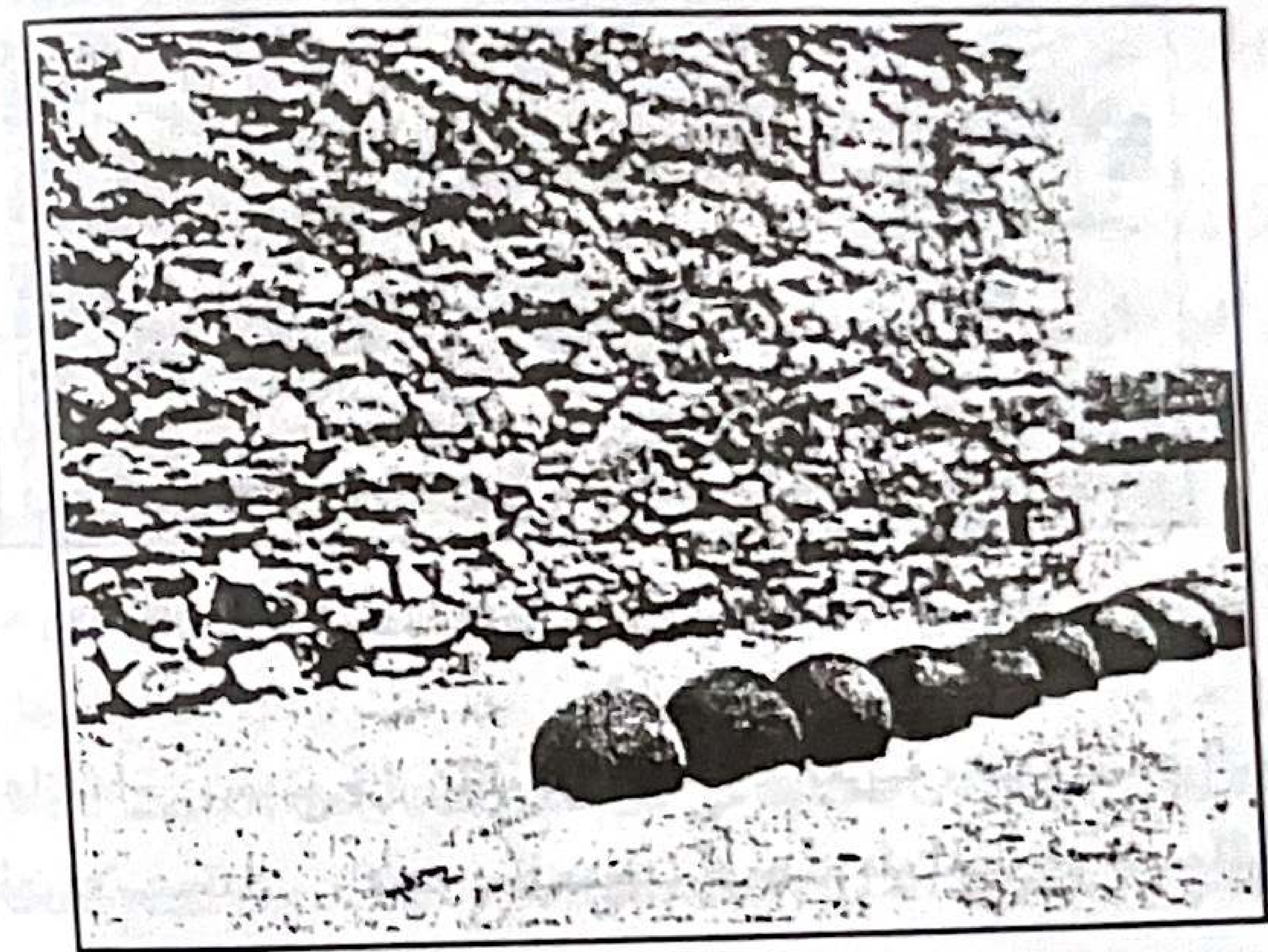
(الشكل ٦٩) صانع الفخار العربى مع قطعة فخار قمعية الشكل

وتقوم عائلة أخرى بصنع جرار مماثلة فى هذه القرية العربية ، حيث تساعد النساء الرجال بإعداد الطين للاستخدام . والأسلوب المستخدم فى صنع هذه الجرار هو نفسه المستخدم فى الطريقة التى ذكرتها للتو .



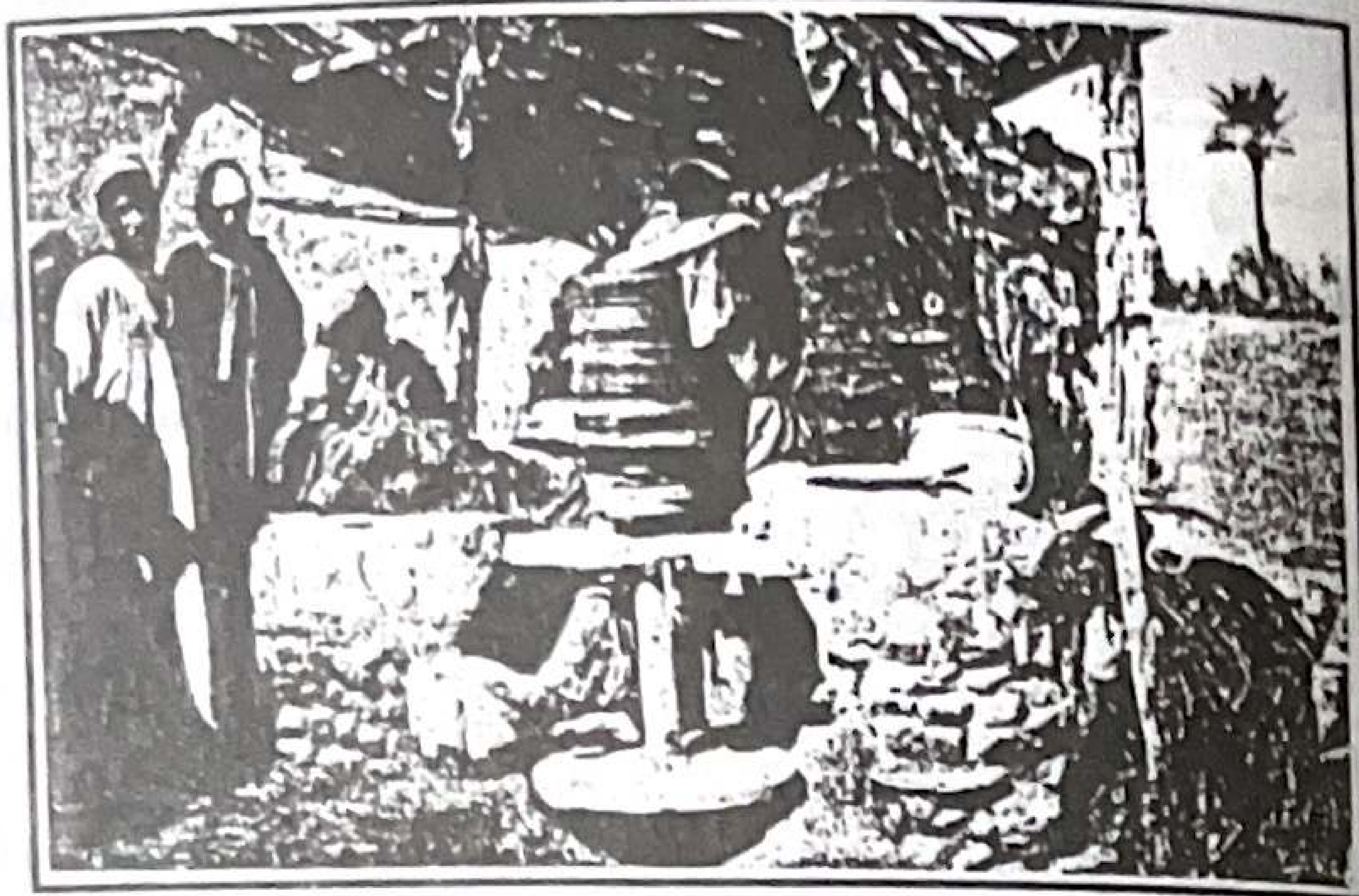
(الشكل ٧٠) جرة الماء وقد أوشكت على الانتهاء

وفى منطقة تبعد كثيراً فى الجنوب ، رأيت أسلوبًا مختلفًا . فالجرار مختلفة الأشكال والأحجام لا توضع بالكامل على العجلة فحسب ، ولكن المادة التى يستخدمونها تختلف عن تلك المستخدمة فى الشمال . كما أن الأوانى تغطى بطلاء من الماء والطين وترسم عليها نقوش بسيطة .



(الشكل ٧١) تجفيف جرار الماء فى الشمس

وتصنع الجرار من « الحمر » ، وهو طين مائل للإحمرار يجلب على هيئة كتل كبيرة من الصحراء المجاورة . تكسر هذه الكتل وتنقع فى الماء ثم تعجن ، حتى يصير لها القوام المطلوب . ولا يضاف إليها التبن . وبعد إدارة القدور على العجلة (الشكل ٧٢) ، توضع على أقراص من الطين الجاف كى تجف فى الشمس لمدة نصف يوم . وأثناء ذلك يتم إمالتها قليلاً من وقت لآخر لكى يمر الهواء من تحتها . ويتم ذلك لضمان حدوث تبخر الرطوبة الزائدة بالتساوى من كل أجزاء الآنية. وإذا لم يحدث ذلك، فإن القدور تتشقق عند حرقها فى القمينة.



(الشكل ٧٢) صانع الفخار يدير عجلته

وبعد تجفيف القدور فى الشمس بهذه الطريقة ، يتم تسليمها لإحدى النساء التى تأخذ كل واحدة على حدة وتنعم قاعدتها بسكين ، حيث تزيل الطين الزائد . وبعد ذلك تعاد القدور إلى الأقراص وتترك لتجف فى الشمس لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم تسلم بعدها إلى امرأة أخرى تطليها بالكامل بطلاء من الطين والماء (الشكل ٧٣). وهذا الطلاء يصنع من الطفلة التى تخلط بالماء . وتترك القدور لتجف لمدة عشر دقائق تقريبًا ثم تنقل إلى مجموعة أخرى من النساء والفتيات يقمن بصقلها من الداخل والخارج بقطعة ناعمة من البازلت (الشكل ٧٤ والشكل ٨٠) . وبعد انتهاء هذه العملية تنقل القدور إلى فنانة ترسم عليها نقوشًا بسيطة (الشكل ٧٥) . والطلاء مصنوع من مادة اسمها «المغرة » ، وهى أكسيد الحديديك الأحمر الذى يطحن ويخلط بالماء . وتستخدم ريشة فى رسم النقوش الحرة التى يتم عملها بسرعة كبيرة ، دون أن يكون هناك نموذج ينقل منه .



(الشكل ٧٣) امرأة تضع شريطًا على القدر

بعد ذلك تكون القدور جاهزة لدخول القمينة ، حيث تحرق بمجرد أن يكون الفرن جاهزًا . إلا أنه يمكن وضعها على جانبها فترة قصيرة ، دون أن يلحق بها أى ضرر إذا لم تكتمل القمينة .



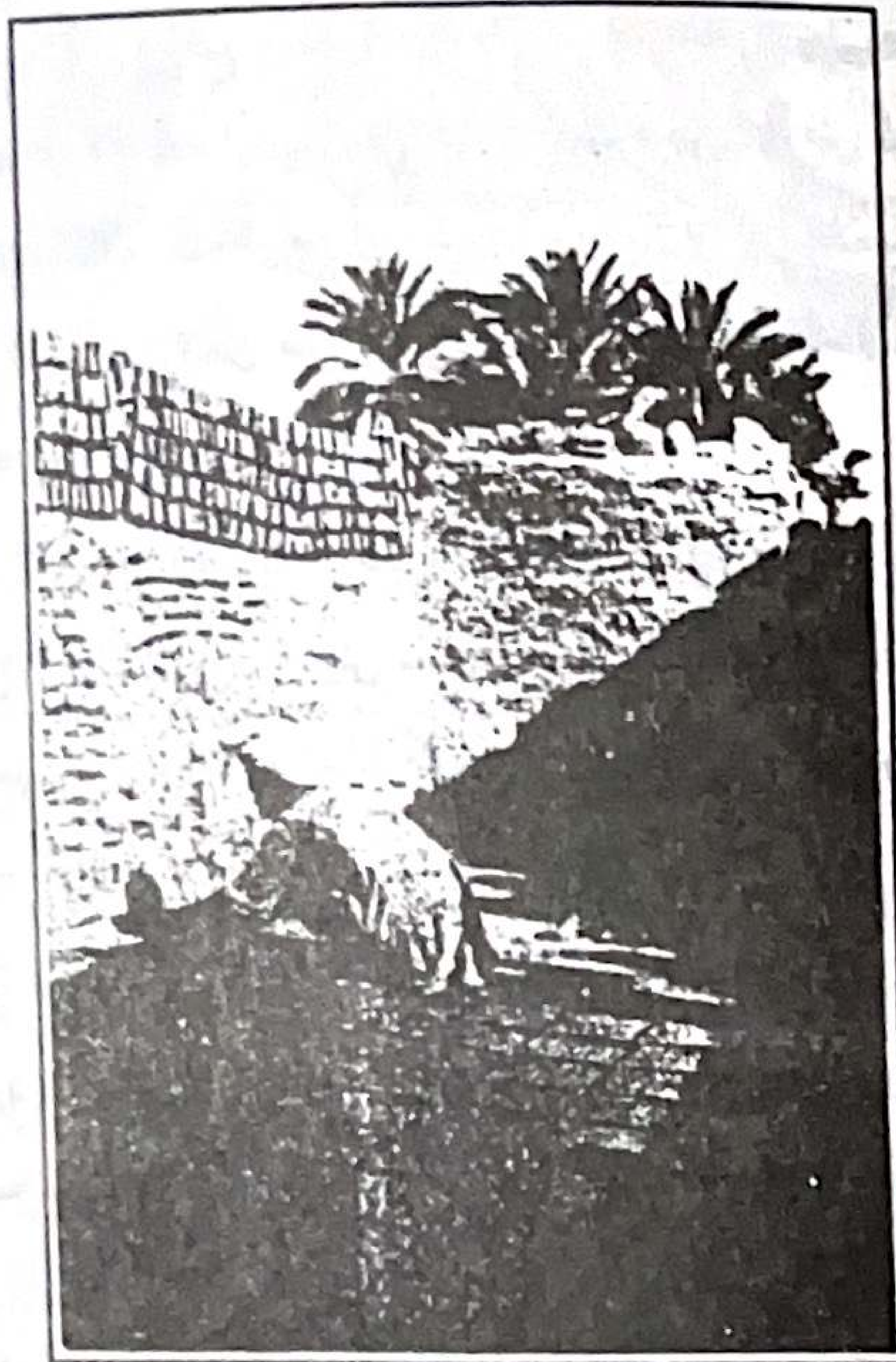
(الشكل ٧٤) تلميع القدور

تستخدم سيقان الذرة الجافة (البوص) كوقود للنار التى تُشعل تحت فرن دائرى كبير ترص فيه الأوانى فى صفوف الواحد فوق الآخر . وتوضع الأقراص المصنوعة من روث الجاموس أو البقر[٣] على الطبقة الأخيرة من القدور . ويلاحظ أن الفرن بلا سقف . كما أن المستوقد الذى أسفل القمينة يترك مفتوحًا ويزود باستمرار بالوقود لعدة ساعات . ثم يغلق وتترك النار حتى تخبو . وأثناء ذلك تسخن أقراص الروث تدريجيًا نتيجة لحرارة الفرن . ويضمن هذا وجود حرارة كافية فى أعلى الفرن كما فى أسفله .



(الشكل ٧٥) فنانة تلون القدور

وفى موقع مصنع الفخار هذا ، تصنع أعداد كبيرة من البلاط كذلك (الشكل ٧٦) ، والمادة المستخدمة فى ذلك هى الطين العادى المخلوط بالتبن . والرجال وحدهم هم الذين يعملون فى هذه الصناعة .



(الشكل ٧٦) رجل يصنع البلاط

وتشكل كل بلاطة باستخدام قالب خشبى سمكه ليس كبيراً ويشبه القالب المستخدم فى صنع الطوب الأحمر (انظر الشكل ٨١) . وتخرج البلاطات من القالب وترص على الأرض وتترك لتجف لمدة أسبوعين فى الشتاء وأسبوع واحد فى الصيف . بعد ذلك ترص فوق بعضها فى الفرن وتحرق ، بنفس الطريقة التى ذكرتها منذ قليل . ويترك المستوقد مفتوحاً ويزود بالوقود باستمرار لمدة خمس أو ست ساعات فى حالة الأفران الصغيرة ، ولمدة سبع إلى ثمان ساعات إذا كانت الأفران كبيرة . وتستغرق عملية الحرق حوالى ثمان وأربعين ساعة من البداية حتى النهاية . وبعد ذلك تبرد البلاطات وتخرج من الفرن .

وفى موقع آخر لصنع الفخار بمديرية الفيوم قمت بزيارته ، تصنع الأزيار الكبيرة والقصاع والقلل وغيرها من الأوانى الصغيرة . وهنا تستخدم الطريقة اليدوية وطريقة العجلة . والطين المستخدم فى صنع الأوانى الكبيرة يجلب من كيمان فارس . وينقع هذا الطين فى الماء حتى يصير له القوام المطلوب ثم يخلط بالموص ويعجن جيداً . و « الموص » و « التبن » كلاهما يعنى القش بعد تكسيره إلى قطع صغيرة . إلا أن الموص يكون على درجة كبيرة من النعومة كالمسحوق . ويترك هذا الخليط ليخمر فى حفرة كبيرة فى الأرض لمدة يوم واحد . بعد ذلك يرفع من الحفرة ويترك مكوماً لمدة أربعة أيام قبل أن يكون جاهزاً للاستعمال . ويأخذ كل واحد من صانعى الفخار كمية كبيرة من هذا الطين الذى تم إعداده ويضعها بالقرب من المكان الذى يعمل فيه ، حيث يغطيها بالخيش لمنع المزيد من التبخر .

وتصنع الأزيار والقصاع الكبيرة[٤] على العجلة ، باتباع طريقة صنع الأزيار التى ذكرناها فى هذا الفصل . إلا أنها تزين بنقوش بسيطة على النصف الأعلى . وتصنع هذه النقوش باستعمال أداة اسمها « جاروت » (الشكل ٨٠) ، وهى عبارة عن قطعة رفيعة من الحديد ثنى طرفها على هيئة زاوية قائمة .

والطريقة الآتية تستخدم لصنع القصاع . يغطى قرص العجلة بطبقة رقيقة من الطين ثم يوضع فوقها عمود سميك من الطين فى وضع رأسى يتم تجويفه تدريجياً وتشكيله . وتسمح الخبرة الطويلة للصانع بمعرفة كمية الطين اللازمة لصنع قصعة واحدة ، بحيث لا تكون هناك حاجة إلى إضافة المزيد من الطين . ويتم تجويف عمود الطين وتوسيعه وعمل جوانبه بسرعة ليأخذ الشكل المطلوب . ولا بد أن نلاحظ أن الحافة لا تضاف . فهى تشكل قطعة واحدة مع بقية القصعة . إلا أن القاعدة تتم تقويتها بإضافة كتلة أخرى من الطين تفرد عليها باليد .

وتصقل داخل القصعة وخارجها بقطعة من الفخار . وبعد ذلك يلف حبل حول القصعة بشكل لولبى ، بينما يلف الوعاء على العجلة (الشكل ٧٧) . ويراعى أن يلف الحبل حول الجزء الخارجى أسفل الحافة مباشرة . ومن ثم يجفف الوعاء فى مكان ظليل لمدة يومين ، وفى الشمس لمدة يوم واحد ، ثم يزال الحبل بعد ذلك (الشكل ٧٨) . وقبل أن توضع القصاع فى الفرن، يكشط الطين الزائد باستعمال « القاروط » . وتظل النار مشتعلة بوقود البوص المعتاد لمدة ساعتين ، يغلق بعدها المستوقد وتترك النار لتأكل نفسها . وعندما تبرد الأوعية تخرج من الفرن .



(الشكل ٧٧) لف الحبال حول الماجور

وربما كانت عادة ربط الحبل أسفل حافة القصاع الكبيرة مباشرة مستعملة فى الأزمنة القديمة عند صنع الجزء الأعلى من الزير . وكما قلت فى موضع سابق من هذا الفصل ، يقوم صانع الفخار بعمل علامات غائرة بظفر إبهامه أسفل حافة الزير مباشرة . وهذه العلامات تشبه تلك العلامات التى يحدثها ضغط الحبل . وربما يكون أثر الحبل هذا قد أوحى بنقش اقتضى العقل المحافظ الذى يتميز به صانع الفخار أن يكون موجوداً دائماً على هذا الجزء من الوعاء ، حتى وإن كان الحبل لم يعد يلف حوله . وهكذا فإن العلامات التى يتم عملها حول قاعدة الحافة باستعمال ظفر الإبهام قد تكون محاكاة للعلامات المشابهة التى يتركها الحبل بعد لفه حول هذا الجزء من الزير فى أوقات سابقة .



(الشكل ٧٨) مواجير ملفوف عليها حبال تجف فى الشمس

وتصنع فى هذا المصنع كذلك الأوانى الأصغر حجمًا كالقلل (الشكل ٧٩) . والطين المستخدم يجلب من قرية اسمها أبقيق . وتخلط الطفلة التى تجلب من كيمان فارس بالطين العادى . والنسبة الصحيحة للخلطة هى مقدارين من الطين العادى مقابل مقدار واحد من الطفلة . وتوضع هاتان المادتان فى الماء إلى أن تصيرا لينتين . بعد ذلك تنقلان إلى حفرة عميقة فى الأرض حيث يقوم أحد الرجال بعجنهما بقدميه . ويخرج المخلوط من الحفرة ويترك على هيئة كومة لكى تتبخر منه الرطوبة الزائدة . وعندما يصبح الطين جاهزاً ، يأخذ كل صانع كمية منه ويضعها فى كوخه ويغطيها كما هى العادة بالخيش . تؤخذ قطعة كبيرة من الطين شكلت على هيئة وسادة سميكة وتوضع على قرص العجلة . وهذه الكمية من الطين يصنع منها عدد من القلل . وبعد اكتمال كل قلة تُفصل عن كتلة الطين باستعمال خيط مربوط فى عصا قصيرة (الشكل ٨٠) .

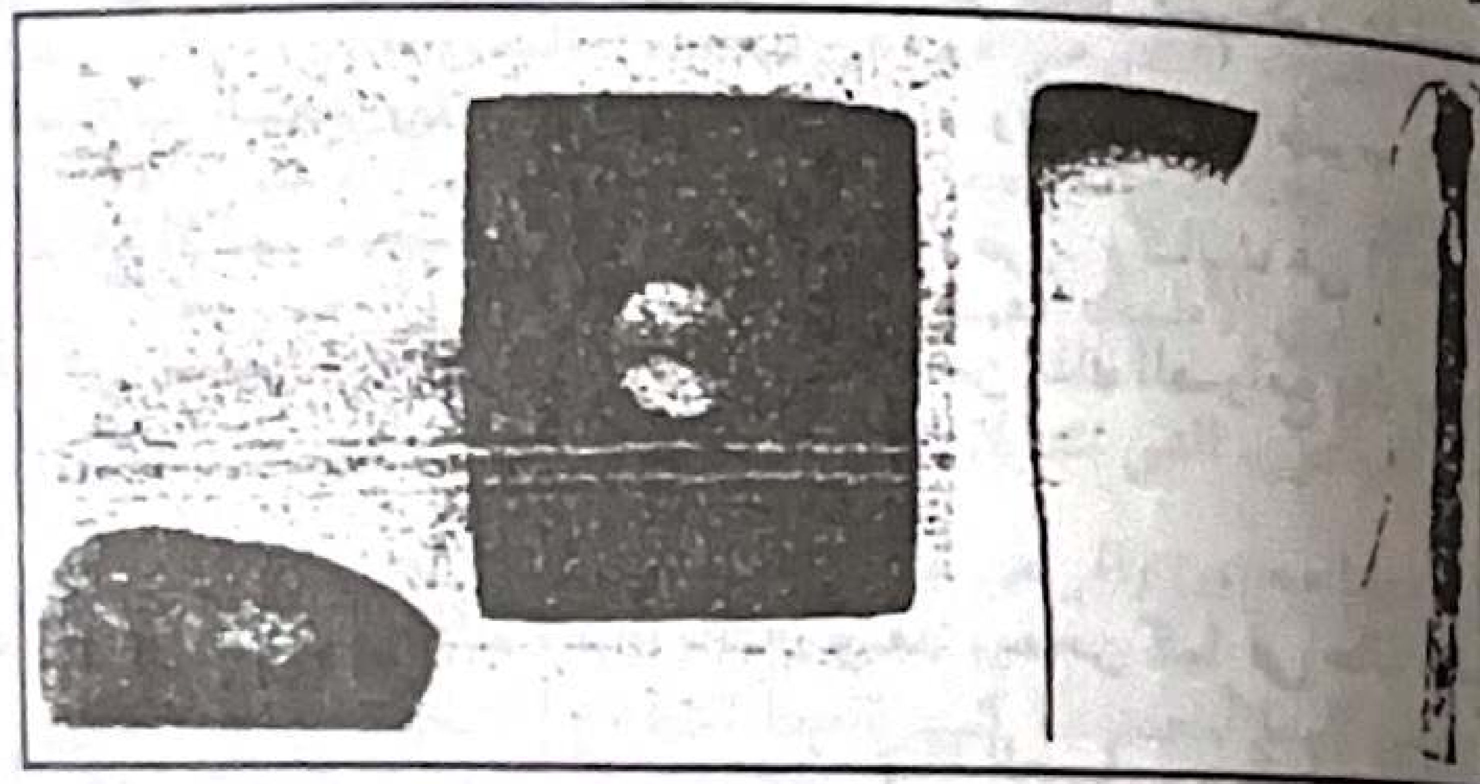
ويبدأ صانع الفخار عمله بتجويف القطعة العليا فى الطين باستعمال إبهامه ، بينما يدير العجلة بقدمه طوال الوقت . ثم يأخذ فى تشكيل جوانب الإناء ببطء ، وهو فى المرحلة الأولى

أشبه بسلطانية ذات جوانب سميكة . ثم يتشكل تدريجيًا ليتحول إلى إناء رفيع عن طريق سحب الجوانب لأعلى ، حيث يصبح أقل سمكًا ، وتتشكل القلة فى نهاية الأمر. ويتم عمل الخطوط الغائرة حول القلة والتشكيل النهائى لها باستعمال أداة اسمها « صادف » . ويستخدم السادف كذلك فى نقش الرسومات البسيطة التى نراها على القلل المصنوعة فى تلك الناحية . بعد ذلك تفصل القلة ، كما قلت من قبل ، بالخيط . وتجفف القلل فى الشمس لمدة يوم واحد ، توضع بعده فى الفرن الذى تظل ناره مشتعلة لمدة أربع ساعات ثم تترك لتنطفىء. ويتم إخراج القلل من الفرن عندما تبرد .



(الشكل ٧٩)
شكلان من أشكال القلل

و « البلاليص » ، وهى الجرار المخصصة لنقل الماء ، التى تخرج من هذا المكان ، مصنوعة بالكامل يدويًا . ومن أجل هذه العملية يتم عمل حفرة مستديرة فى الأرض ، كالتى وصفتها من قبل . وتصنع الصحون المسطحة والسلاطين الكبيرة بنفس الطريقة .



(الشكل ٨٠)
حجر صقل ، وصادف ، وقاروط وخيط لفصل القلل التى تم صنعها

وتوضع كتلة من الطين ، تكفى لصنع بلاص كامل ، فى الحفرة وتدق بأداة مستديرة من الفخار لتأخذ شكلها الأولى . كما تستخدم قطعة الخشب المقوسة هنا لطرق جوانب الإناء . وعند صنع السلاطين والصحون تشكل حوافها بهذه الأداة كذلك . ويستخدم جاروت لإزالة أى طين زائد قد يظهر أثناء تشكيل البلاص . تترك تلك الجرار بعد ذلك لتجف فى الشمس لفترة

قصيرة ، قبل إضافة الحافة باستعمال العجلة . ويستغرق حرق البلاليص نفس الفترة التى يستغرقها حرق الأزيار .

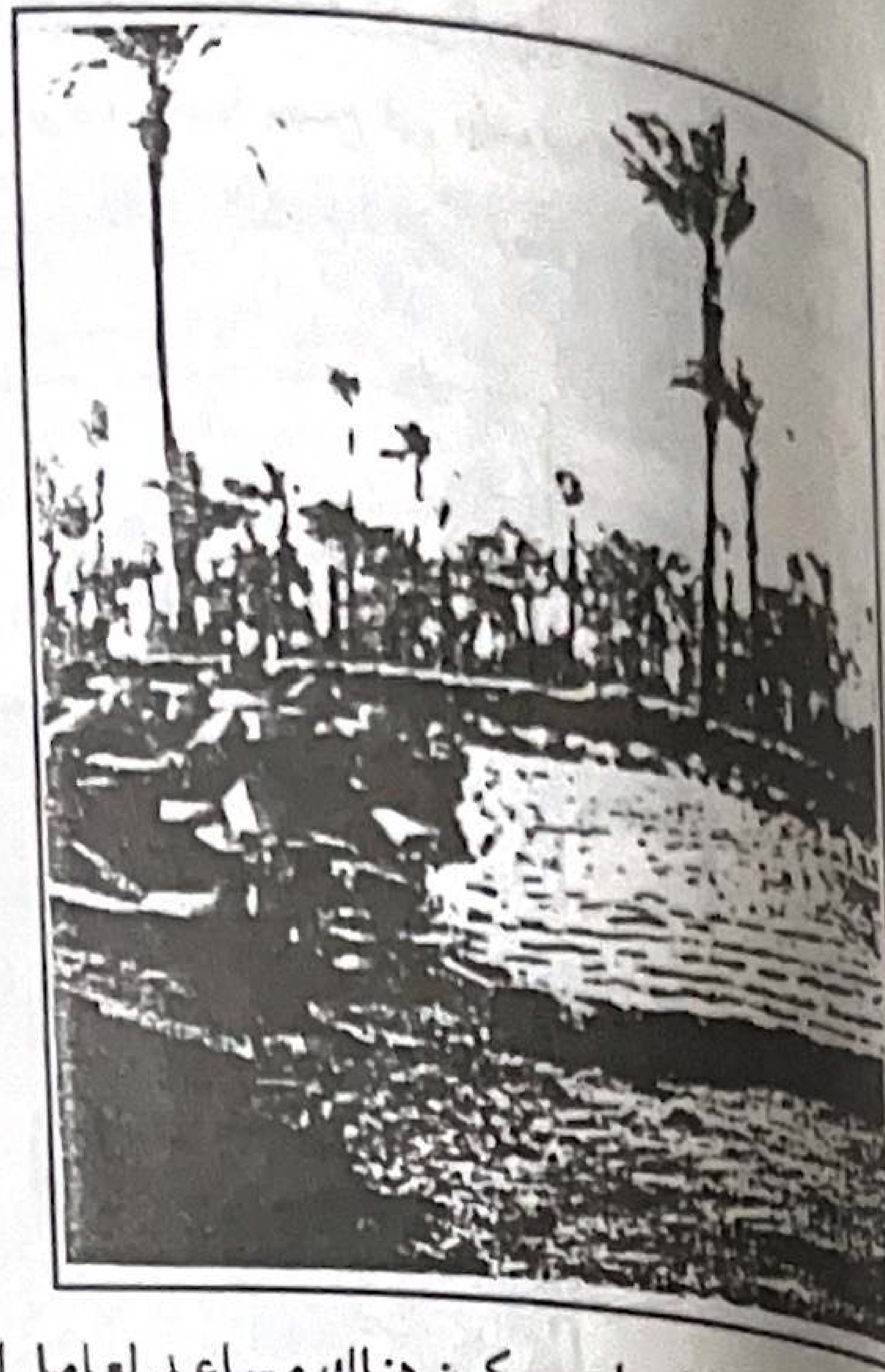
سألت أحد صناع الفخار الذين يعملون بالعجلة عن المدة التى يحتاجها الإنسان كى يتقن الصنعة ، فقال لى إنه تعلمها من والده وإنه احتاج إلى خمس سنوات ليصبح ماهراً فى عمله . ولكنه قال إنه لو كان تعلم الصنعة على يد غيره لاحتاج إلى عشر سنوات كى يصبح خبيراً بها. وأوضح لى أن والده كان معلماً جيداً إلى جانب كونه صانعاً ماهراً .

أما الصوامع التى تقام عادة فوق أسطح المنازل ، فتصنعها النساء من الطين والتبن اللذين يخلطان جيداً معاً . وتحتاج كل صومعة إلى بعض الوقت لكى تكتمل . إذ أنها لا تصنع إلا بالتدريج . والجزء الذى يتم عمله لا بد أن يظل معرضاً للشمس إلى أن يجف جيداً قبل أن يصبح إضافة جزء آخر إليه ممكناً . وبعد اكتمال الصومعة ، تترك فى الشمس إلى تصبح صلبة تماماً .

والصومعة لها فتحة مستديرة فى أعلاها عليها غطاء من الطين . فى حين يوجد بالقرب من قاعدتها فتحة صغيرة تغلق بسدادة من الطين . وهذه الفتحة تستخدم عندما يكون منسوب الحبوب فى الصومعة منخفضاً ؛ إذ يكون استخراج الحبوب منها أسهل من استخراجها عن طريق الفتحة العليا ، لكون ارتفاع كثير من الصوامع يتراوح بين أربعة وخمسة أقدام .

وعادة ما تكون هذه الصوامع مستديرة تقريباً وذات جوانب مستقيمة . أما أعلاها فمقبى بعض الشىء . إلا أن كثيراً منها فى بعض مناطق مصر كروى ؛ وهو شكل قد يكون مقتبساً من بعض الصوامع التى تصنع من السعف ويأتى وصفها فيما بعد . وفى أقصى الجنوب ، فى الكاب ، رأيت بعض الصوامع الأكبر حجماً التى تقف على الأرض . وكانت هى الأخرى مصنوعة من الطين المجفف فى الشمس . وربما يتراوح ارتفاع كثير من تلك الصوامع بين سبعة أو ثمانية أو عشرة أقدام .

والطوب أيضاً من الصناعات المهمة . ويخلط الطين بالتبن ويعد ويعجن كما فى حالة صنع الفخار . وحسب معلوماتى ، فإن الرجال وحدهم يقومون بهذا العمل . ويشكل الطوب باستخدام قوالب خشبية لها يد ، ويترك بعد صبه على الأرض ليجف فى الشمس "(شكل ٨١) . ومعظم منازل الفلاحين ، بل ومنازل بعض أفراد الطبقة العليا ، تبنى بهذا الطوب النى ؛ وإن كان أصحاب النوع الثانى من المنازل يفضلون عادة استعمال الطوب المحروق .



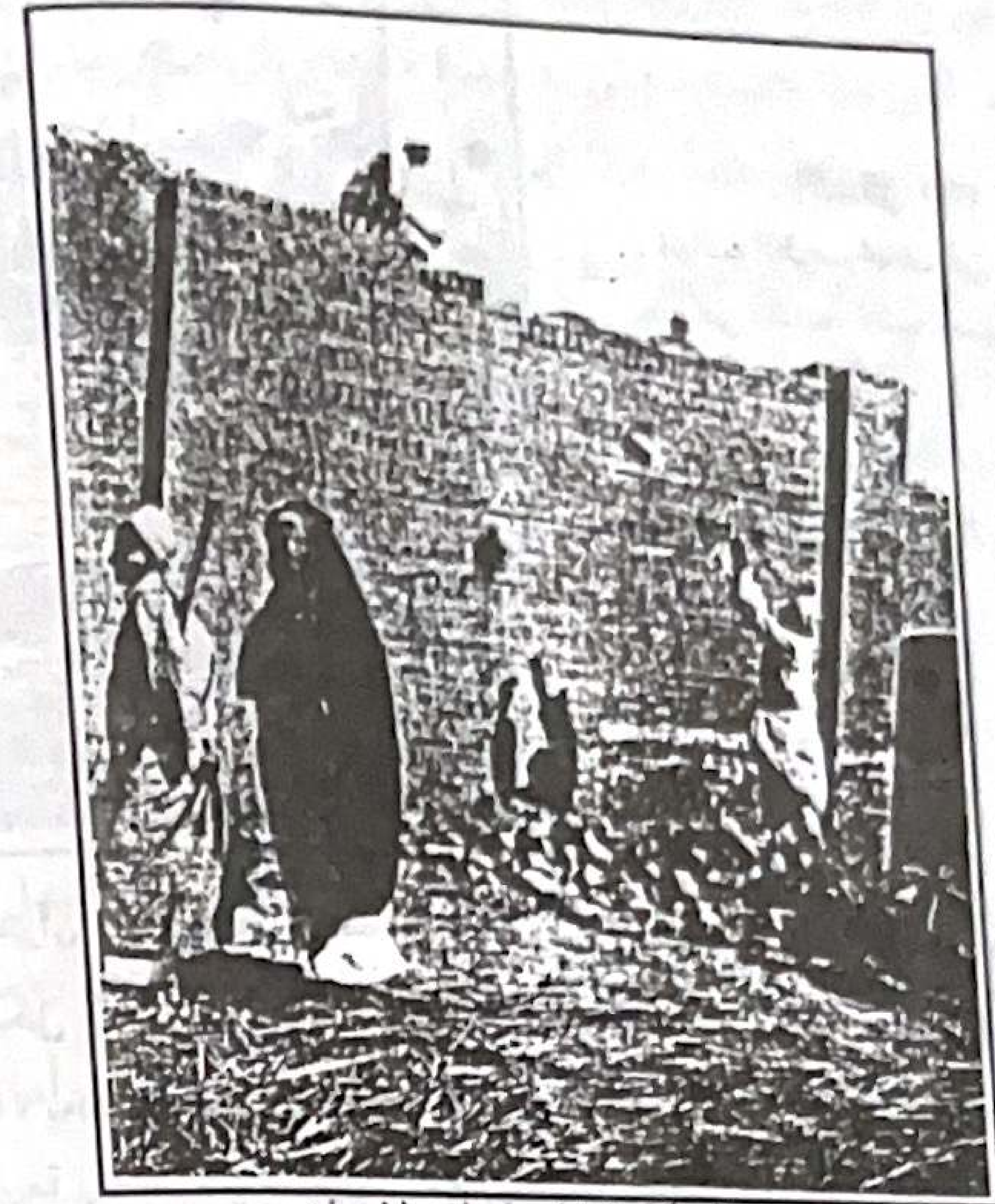
(الشكل ٨١)
قوالب الطوب تجفف فى الشمس:
يبدو فى المقدمة قالب خشبى له مقبض

وعند بناء الجدران ، يكون هناك مساعد لعامل البناء يقف أسفل الجدار ويرمى له طوبة وراء الأخرى (شكل ٨٢) . وكثيراً ما شاهدت حوائط كثيرة تبنى بهذه الطريقة ، ولا أذكر أنى رأيت قط بنّاء يخطىء إمساك الطوبة التى ترمى إليه !

وقد أشرت أكثر من مرة فى الفصول السابقة إلى الوقود المصنوع من روث البقر أو الجاموس . وهذا الروث تقوم النساء والفتيات بتشكيله على هيئة أقراص مستديرة مسطحة. وغالباً ما ترى الأطفال الصغار فى القرى وأيديهم وأذرعهم مغطاة بالروث وهم يقومون بصنع تلك الأقراص ، التى تترك على الأرض لتجف فى الشمس . وتحرص كل ربة بيت على أن يكون لديها مخزون وافر من هذا الوقود الذى يرص بعناية بكميات كبيرة على أسطح المنازل .

وعمل السلال صناعة كبيرة جداً وشديدة الأهمية . وهناك أنواع معينة من السلال التى تصنع فى كل قرية تقريباً من قرى مصر ، إلا أن أنواعاً منها تتميز بها أماكن بعينها . وكثير من أنواع السلال الأكثر شيوعاً قوية وجيدة الصنع . ولكن أفضلها يوجد فى المديريات الجنوبية . والواقع أنك كلما اتجهت جنوباً كانت الصنعة أفضل . والسلال يصنعها الرجال والنساء على السواء ، وإن لاحظت فى بعض المناطق أن هذا العمل يحتكره جنس واحد فقط .

وقيل لى إن نوعًا واحداً من السلال على الأقل يقتصر صنعه على الرجال . وغالبًا ما تصنع السلال من سعف النخيل والجريد ؛ إلا أن نوعًا واحداً يصنع فى الجنوب من سعف أشجار الدوم . وهذه السلال يسهل التعرف عليها من سطحها اللامع الذى تتميز به المادة المستخدمة فى صنعها .

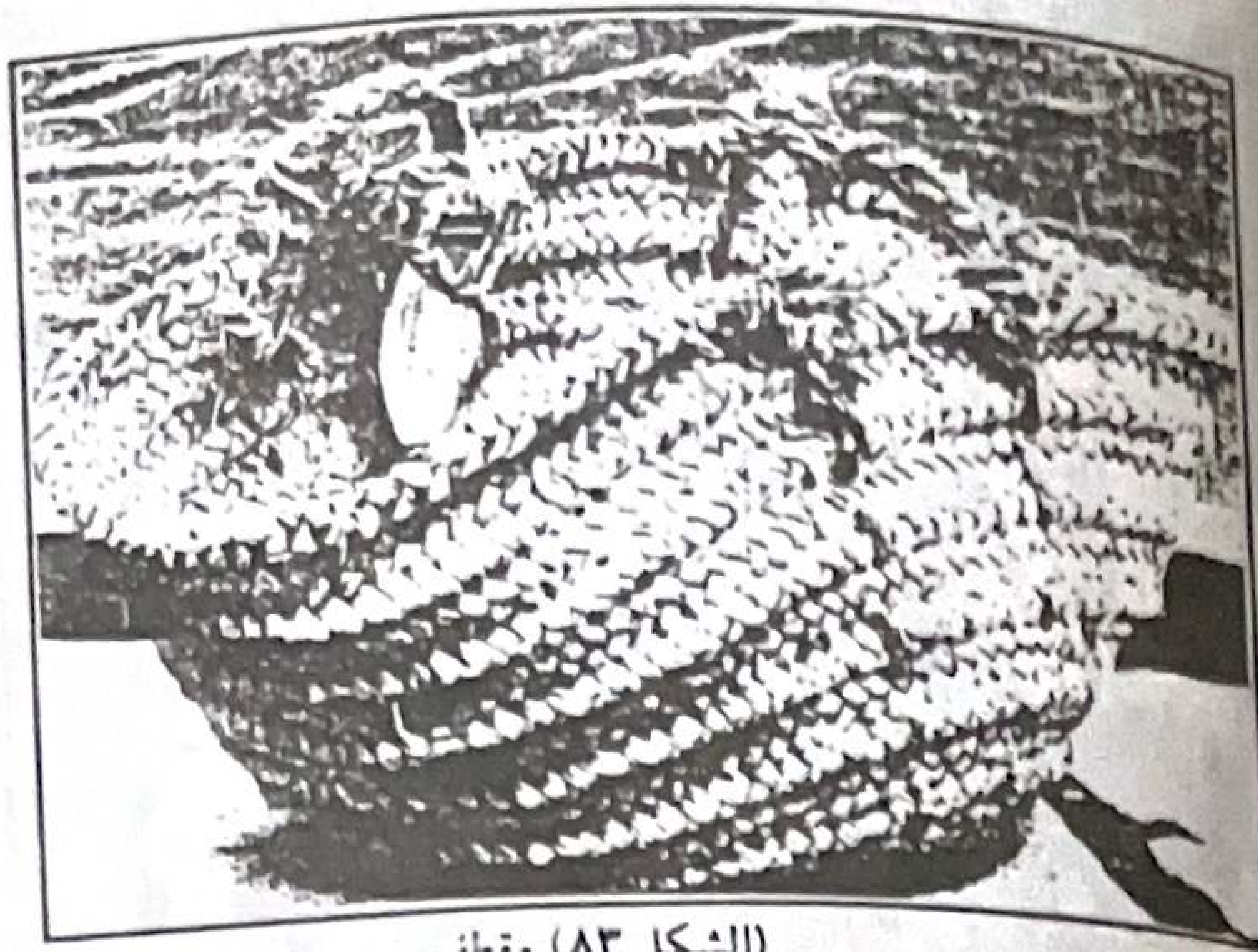


(الشكل ٨٢) بناء أحد الجدران

وأكثر أنواع السلال شيوعًا واستعمالاً بصورة عامة يطلق عليها « المقطف » (الشكل ٨٣) . وهو يستخدم فى الحقل ورفع القمامة ونقل « السباخ » ، أى الأسمدة البلدية ، وفى نقل الحبوب . علاوة على أن المرأة عادة ما تضع فيه الجذور الجافة التى تجمعها من الحقل وتحملها إلى البيت لتكون وقوداً . كما تحمل فيها السلع التى تحملها إلى السوق ومنها . والمرأة دائمًا تحمل هذه السلة على رأسها (انظر الشكل ٣٨) . أما محتوياتها فمتعددة ، وربما يكون بينها طفل صغير (الشكل ١٤) .

والواقع أن عادة حمل الأشياء على الرأس جعلت للنساء قوامًا رائعًا . وأثقل الأحمال وزنًا تحمل بهذه الطريقة بأسهل ما يمكن . فعلى سبيل المثال، تحمل النساء جرار الماء المملوءة حتى

الحافة إلى البيت دون أن يستخدمن أيديهن أو تسقط نقطة واحدة مما فيها (انظر الشكل ١٦).



(الشكل ٨٣) مقطف

والفتيات الصغيرات يبدأن فى حمل الأشياء بهذه الطريقة فى سن مبكرة جداً . وهن يستخدمن جراراً صغيرة أو سلالاً صغيرة . وإذا قيست رؤوس الفلاحات المصريات، لوجد أن هذه الطريقة فى حمل الأشياء الثقيلة منذ الطفولة المبكرة قد تركت أثراً على شكل الجمجمة ؛ فربما تكون جمجمة المرأة أكثر استواء من جمجمة الرجل . ولا أدرى إن كان أى عالم أنثروبولوجيا جسمانية قد اكتشف هذا الاختلاف فى شكل رأس المرأة المصرية أم لا .

ويصنع المقطف ، كما قلت ، من سعف النخيل الذى ينزع من على الجريد ثم يشق إلى العرض المطلوب ويجدل بعد ذلك على هيئة أشرطة طويلة جداً . ويستمر إدخال المزيد من السعف إلى أن يتم الطول المطلوب . وأية شرائح رفيعة من السعف لا تصلح لهذا الغرض توضع جانبًا بعناية ، لكى تتم الاستفادة بها بالطريقة التالية . فبعد أن يكتمل الشريط يأخذ صانع السلال هذه الشرائح ويصنع منها حبلاً عن طريق لفها حول بعضها بين راحتيه . وبعد ذلك يتناول إبرة حديدية كبيرة [٥] يدخل فى ثقبها هذا الحبل ويبدأ فى تشكيل السلة عن طريق خياطة الشريط بشكل حلزونى . ويدخل الحبل فى الشريط بطريقة تجعل منه هيكلا حلزونيًا سميكًا حول السلة (الشكلان ٨٤ و ٨٦) . وغالبًا ما يتم العمل بمهارة شديدة تجعل من الصعب جداً اكتشاف الطريقة التى صنعت بها السلة ، إذا لم يكن قد أتيح لك أن تشاهد

العملية كلها . ويوضع لكل سلة مقبضان من الحبال (الشكل ٨٣) . وتُقوى السلة فى الغالب بنفس المادة . وأية أطراف باقية يدخلها الصناع فى جوانب السلة أسفل المقبضين. وفى بعض الأحيان تقوى السلة من الخارج بلفات حلزونية من الحبال .



(الشكل ٨٤) خياطة الضفيرة بشكل حلزونى

ولابد أن أذكر هنا أن إحدى السلال التى لدى ، وهى من واحة الفرافرة ، تظهر فيها نفس الطريقة المستخدمة فى صنع المقطف . وصنعتها شديدة الدقة والأشرطة رفيعة جداً .

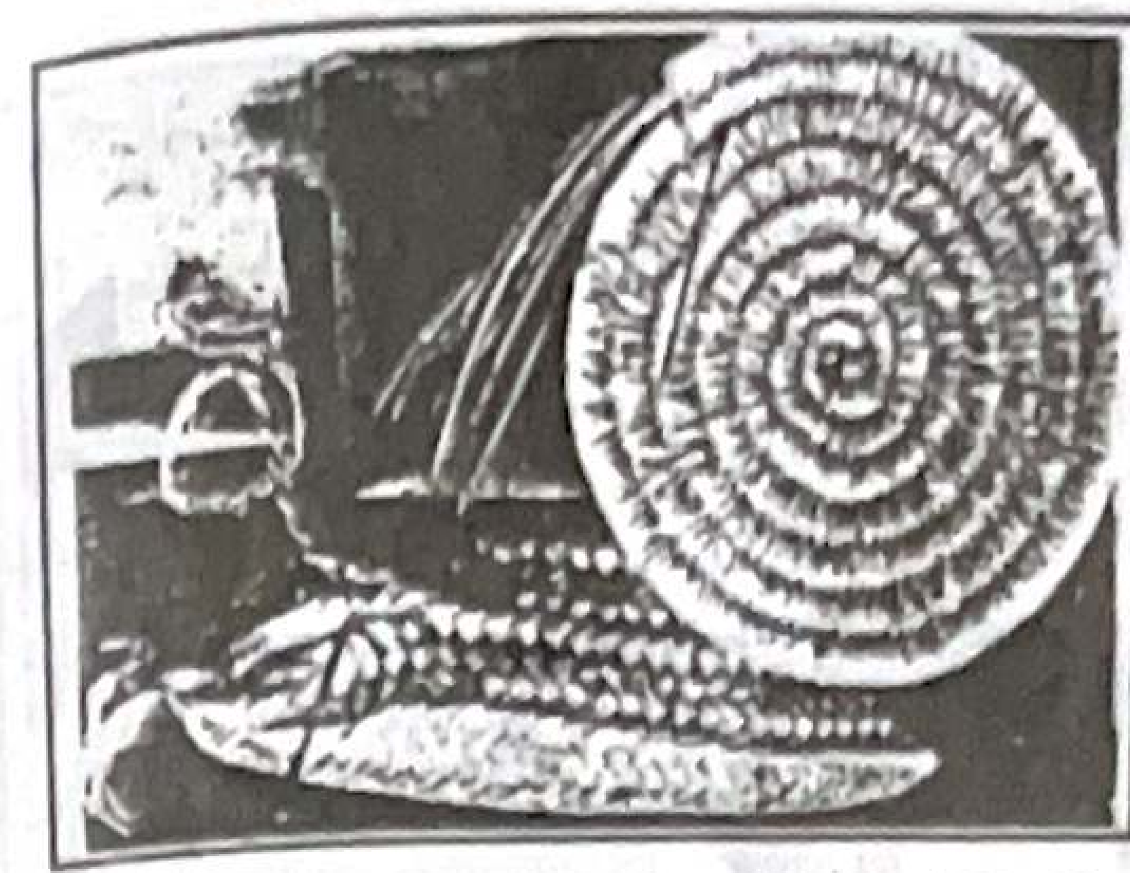
وتستخدم طريقة مشابهة فى صنع الصوامع من السعف . وهذه الصوامع ذات حجم كبير، وقيل لى إن صنعها قاصر على الرجال ، وفى مديرية الفيوم وحدها ، حسب علمى . فأنا لم أجدها فى أي مكان آخر حتى الآن . وتباع أعداد منها فى الأسواق الأسبوعية وربما أمكننا تقدير حجمها بمقارنتها بطول الأشخاص الواقفين بالقرب منها فى الصورة (الشكل ٨٥) . وقد شاهدت هذه الصوامع السلال كثيراً على أسطح البيوت فى الفيوم . وهى فى بعض الأحيان كروية تماماً وتغطى بالكامل بالطين . وقال لى أحد خدمى إن هذا يحدث لمنع الريح والغبار من الدخول فى فتحاتها . ولا يكشف عن البناء الأصلى للسلة إلا عندما تسقط قطع صغيرة من الطين . وكل الصوامع السلال التى رأيتها مصنوعة بدقة شديدة وتتميز بالمتانة .



(الشكل ٨٥) الصوامع القفف

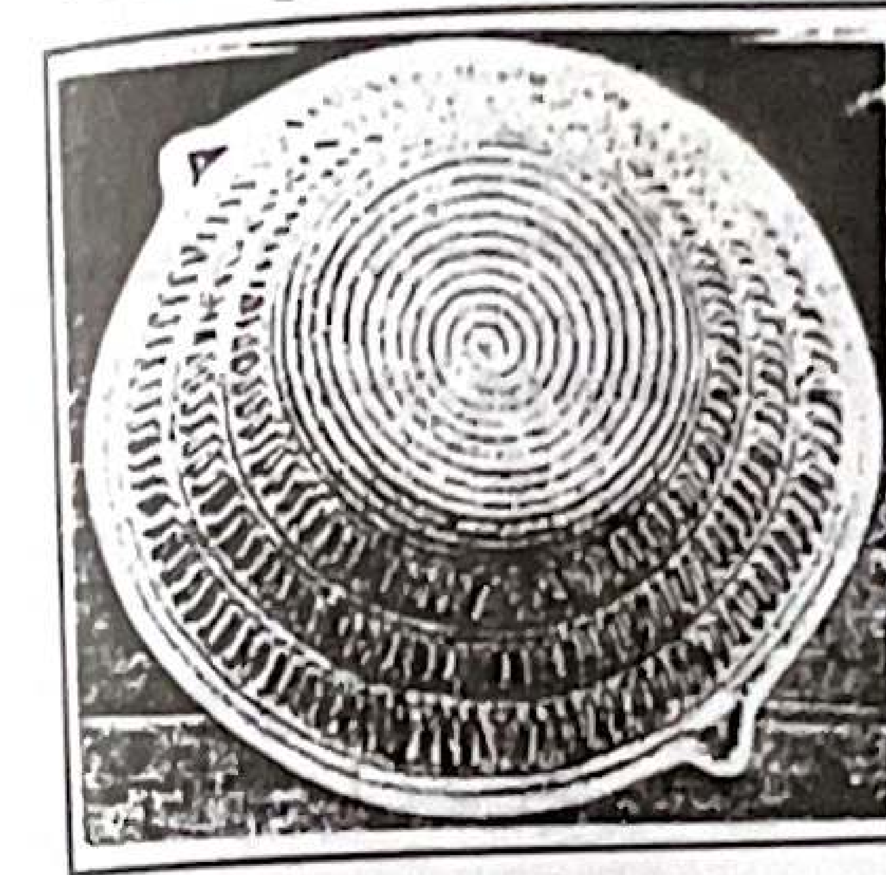
وهناك سلال كثيرة مستخدمة فى كل أنحاء مصر تصنع بالطريقة الآتية ، وتؤخذ المادة الخام المستعملة فى صنعها من النخيل .

يتم شق عدد من الجريد بالطول . كما يُشق السعف بالطول كذلك . يأخذ صانع السلال عدداً من الجريد المشقوق يختلف تبعًا للسُمك المطلوب أن تكون عليه اللفة المستخدمة كأساس. وتستخدم إبرة من الحديد أرفع من تلك المستخدمة لصنع السلال المكونة من أشرطة من السعف المجدول ويوضع فى ثقبها شريحة من شرائح السعف تتم خياطتها حول الأساس مرات ومرات لكى تخفيه تقريبًا . وهذا النوع من السلال يتم صنعه كذلك بطريقة حلزونية (الشكلان ٨٦ و ٨٧) . فكل غرزة يتم تمريرها فى اللفة السابقة . وهذه السلال تصنع بأشكال على قدر كبير من التنوع ، بدءًا بالصوانى المستديرة المسطحة إلى الأوعية الكبيرة ذات الأغطية . وهى تزين فى الغالب بنقوش بسيطة ملونة ، حيث يُصبغ السعف قبل خياطته فى السلال .



(الشكل ٨٦) سلال لم ينته العمل فيها توضح طريقة الصنع

وبعض السلال ، التى قيل لى إنها لا تصنع إلا فى قريتين صغيرتين بمديرية الفيوم ، تكون قاعدتها بالطريقة التى سبق وصفها ؛ فى حين تكون جوانبها على هيئة خط متموج بشكل وحدة زخرفية مفتوحة (الشكل ٨٧) . وهذه هى الأخرى تصنع على درجة كبيرة من التفاوت، من حيث أحجامها وأشكالها . وهى شديدة الجاذبية وتتمتع بقدر كبير من الجمال . والخط المتموج يتكون من أساس من الجريد الملفوف بالسعف . ولا بد أن يكون أخضر عند صنع السلال ، كى يكون ليناً بالقدر الذى يسمح بثنيه بالشكل الذى يريده صانع السلال .

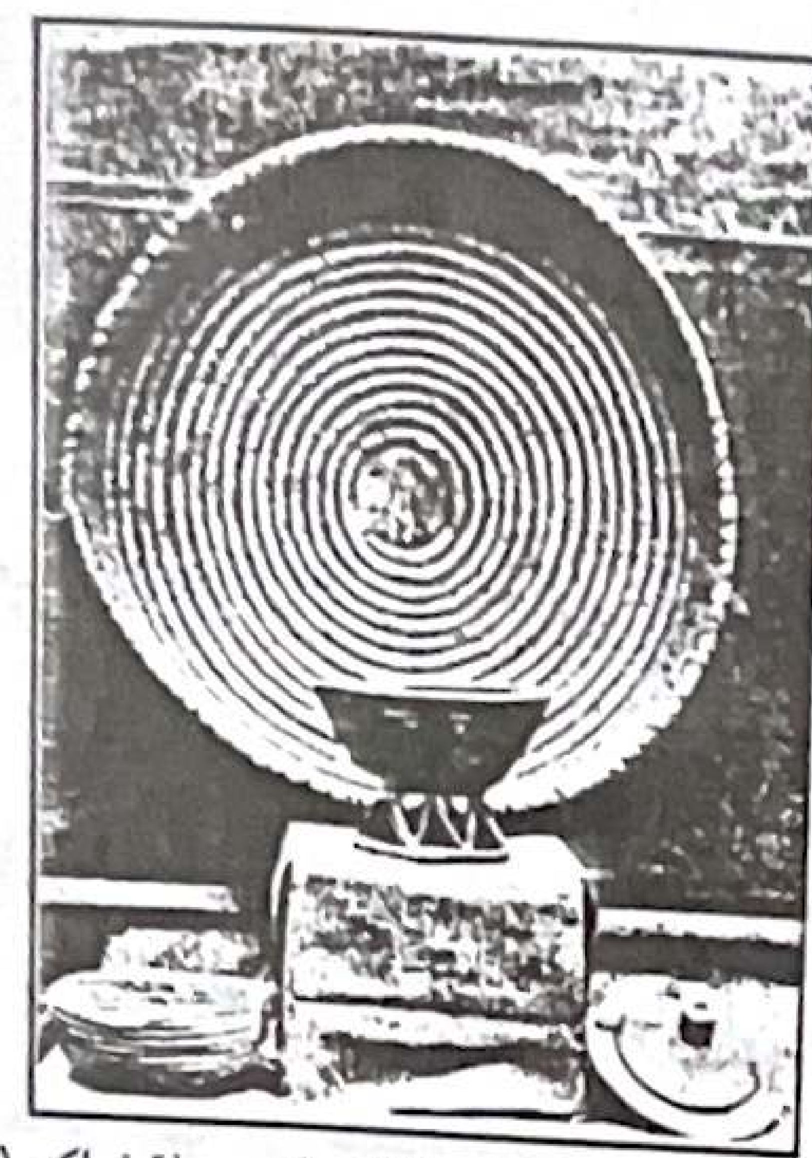


(الشكل ٨٧)
سلة تتميز بوحدة زخرفية عبارة عن خط مموج

وفى قرية صغيرة جداً بالفيوم ، وجدت عدداً كبيراً من الناس يشتغلون فى هذه الصناعة . وهناك أيضاً تاجر سلال فى تلك القرية تمتد تجارته إلى كل أنحاء القطر . وقد أبلغنى أنه أرسل كميات كبيرة من السلال للخارج . بل قال إنه أرسل بعضها إلى انجلترا . إلا أننى لست فى وضع يسمح لى بتأكيد ما قاله . وقد اشتريت منه عدداً من السلال بينها واحدة قال إنها جاءت من واحة سيوة ، وهذه السلة، التى تتميز بصنعتها الجيدة جداً ، نراها فى الشكل ٨٩.



(الشكل ٨٨) صانعات السلال فى قرية صغيرة فى الفيوم



(الشكل ٨٩) سلال مختلفة : صينية (فى الخلف) ، وسلة فواكه (فى الوسط) ، وسلة من سيوة (على اليمين)

وتستخدم الأقفاص (الشكل ٩٠) لنقل الطيور والحمام والأرانب وغيرها . كما أن البرتقال وغيره من الفواكه تعبأ كذلك فى تلك الأقفاص .كما تعبأ فيها الأوانى المنزلية . والرجال الذين يعملون فى هذه الصناعة التى تقوم على جريد النخل ، أكثر عادة من النساء . وتصنع الأقفاص أحياناً قوية لكى تحمل أوزاناً ثقيلة . ويتم إدخال قطع رأسية من الجريد فى

فتحات موجودة فى قطع أفقية من نفس الخامة بحيث تشكل الجوانب الأربعة للقفص . ولا تستخدم أية مسامير أو سواها فى التثبيت . ويصنع الغطاء بالطريقة ذاتها . وأنا دائماً أضع أدوات مطبخى ومخزونى فى مثل هذه الأقفاص ، عندما أنتقل من قرية إلى أخرى . فهى تتميز بخفة وزنها إلى جانب كونها معمرة .



(الشكل ٩٠) أقفاص من جريد النخيل معروضة للبيع فى إحدى الأسواق

وتصنع الأسِرَّة والكراسى والطاولات الصغيرة من نفس الخامة وبطريقة مشابهة لصنع الأقفاص .

والحبال المحلية تصنع عادة من ليف النخيل . وينزع الليف ويقطع إلى شرائح يتم جدلها بين راحتى اليدين (الشكل ٩١) . وهناك صناعة كبيرة للحبال فى مديرية الفيوم . والحبال التى تصنع فى تلك القرية يتم التعامل فيها فى منطقة كبيرة .

وتنسج الأقمشة الصوفية فى عدد كبير جداً من القرى ، إلا أن نسج الأقمشة الأكثر رقة ، كالحرير ، تقتصر على عدد محدود من الأماكن التى يقوم الاختصاصيون فيها بهذا العمل .

وعادة ما تقام الأنوال داخل البيوت . ومع أنها تعمل يدويًا ، فلا يمكن وصفها بأنها بسيطة جداً أو بدائية . وأشعر أن علىّ أن أكرس مزيداً من الوقت لدراسة طريق تشغيلها قبل وصفها بالتفصيل .



(الشكل ٩١) شاب يصنع حبلاً

وتستخدم الأنوال الصغيرة جداً لنسيج الأشرطة الرفيعة أو لإضافة « كنار » للمناديل الحريرية (الشكل ٩٢) .

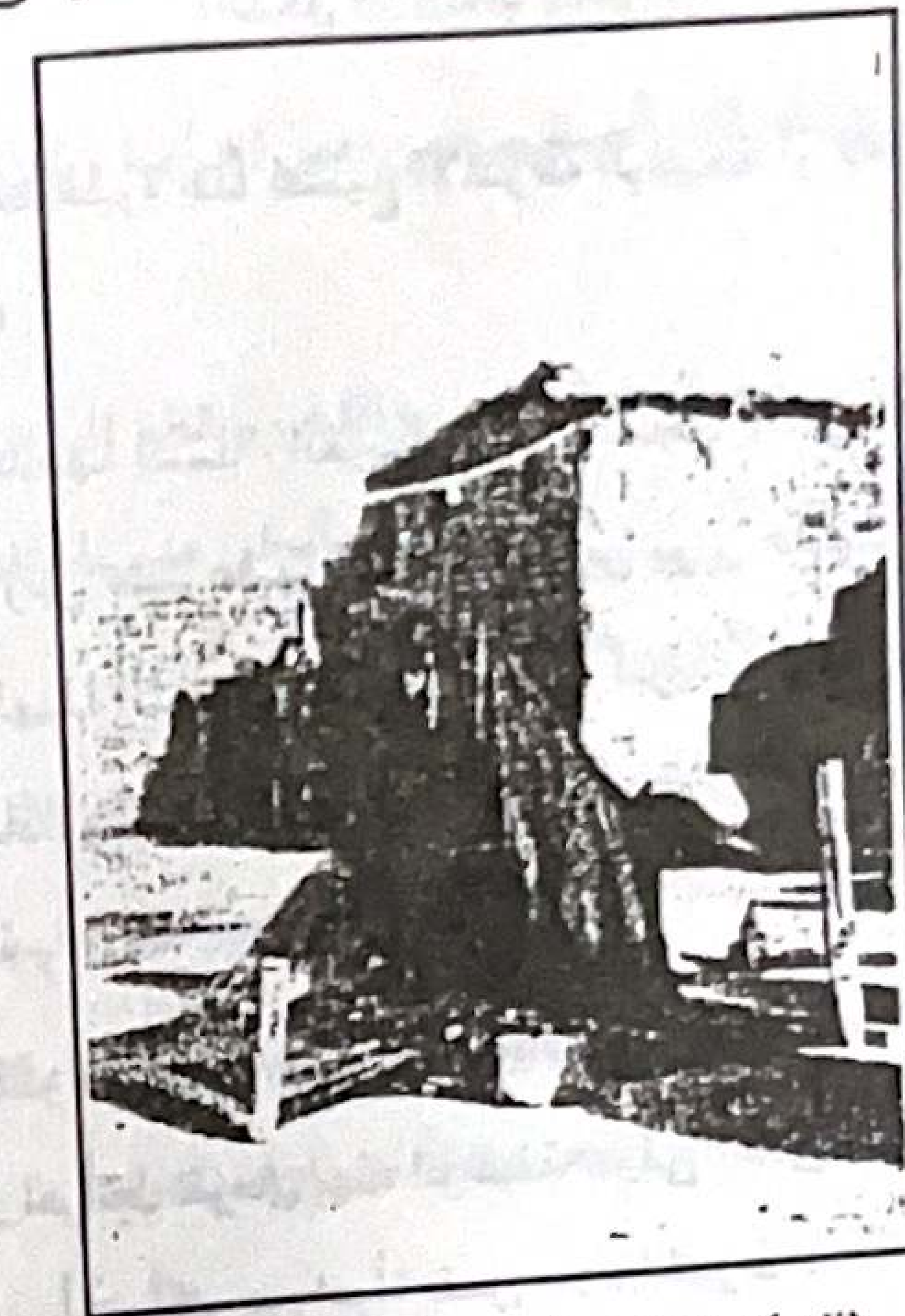
وتلك الأنوال تستخدمها النساء العربيات لنسج سجاد بدائى الشكل . وهى تتكون من أربعة أوتاد تدق فى الأرض تشد عليها السداة وحجرين يوزن عليهما النير (الشكل ٩٣) . ونجد وصفاً ممتازاً لهذا النول فى مقال مسز كروفوت بعنوان Sudan Notes and Records[6] . والسجاد والأكلمة التى تنسج على هذه الأنوال البسيطة قوية جداً ومعمرة وألوانها شديدة الجاذبية .

والغزل ، كما لاحظت حتى الآن ، يقوم به الرجال أكثر من النساء فى القرى المصرية ؛ وإن كنت قد رأيت امرأة أو امرأتين تقومان بهذه الوظيفة . وفى إحدى السنوات ، وبينما كنت أزور إحدى القبائل العربية ، رأيت أكثر من امرأة يقمن بغزل الخيوط .



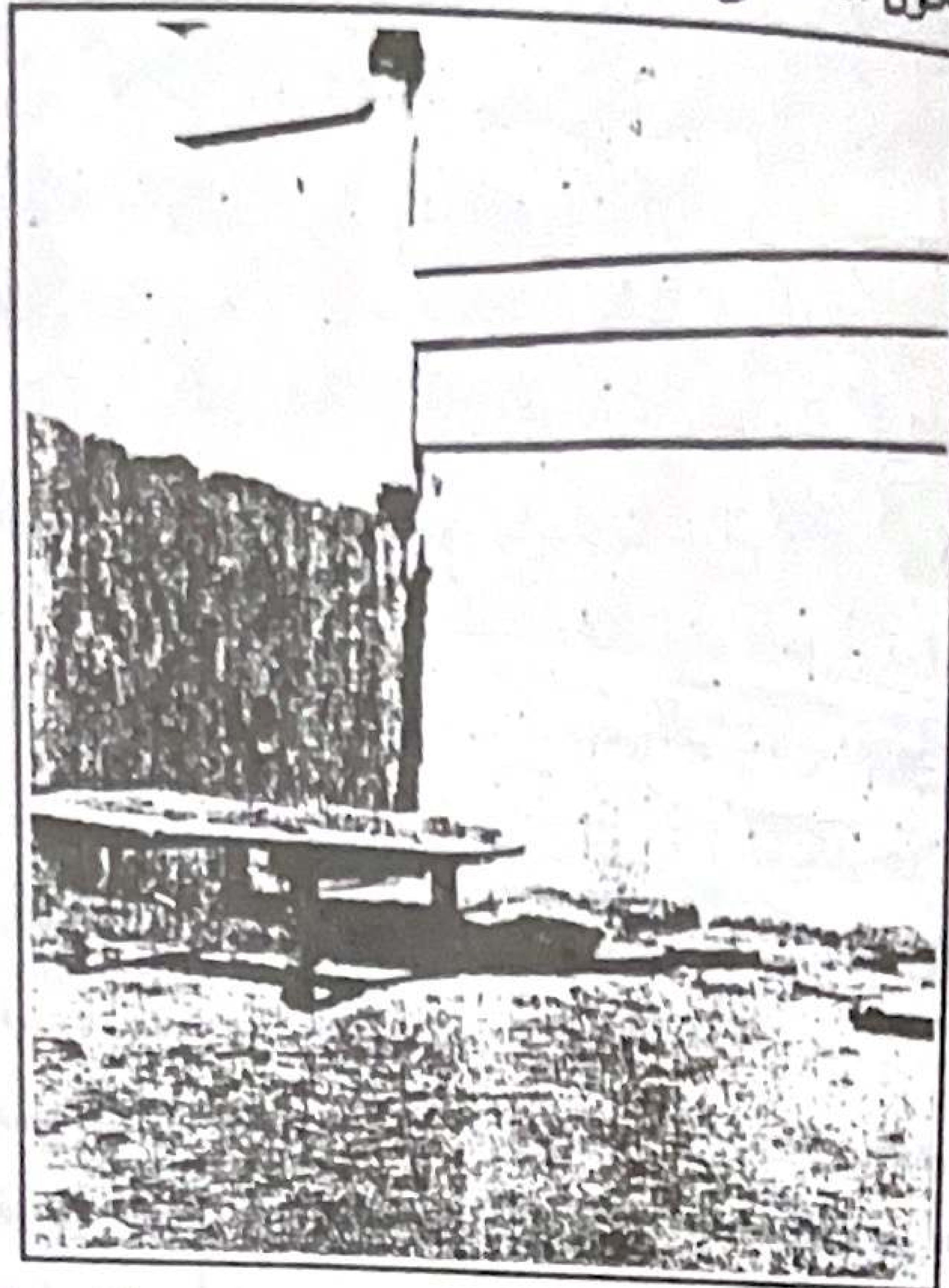
(الشكل ٩٢) نول صغير لإضافة الحواف للمناديل الحريرية أو القطنية أو ماشابهها

وقد أشرت فى فصل سابق إلى أنواع من الخبز تصنعه الفلاحات . وتستخدم خليط من دقيق القمح والذرة أو دقيق الذرة وحده ، المخلوط بالخميرة طبعًا ، ثم يضاف الماء حتى يتم الحصول على قوام العجين المطلوب . وبعد ذلك يترك العجين ليختمر فى الشمس .



(الشكل ٩٣) امرأة عربية تنسج سجادة

وعند عمل أرغفة الخبز القريبة الشكل من نصف الكرة ، يتم تشكيل العجين على هيئة أقراص بالحجم المطلوب وتوضع فى الشمس لتختمر قبل أن تخبز فى الفرن (الشكل ٩٤) . ودقيق القمح هو المكون الأساسى للخبز الذى يأكله عادة الفلاحون الموسرون .



(الشكل ٩٤) أقراص من الخبز لم تخبز بعد موضوعة فى الشمس لتختمر

أما عمل « البتّاو » فأكثر تعقيداً . فعندما يكون العجين جاهزاً للخبيز تؤخذ قطعة صغيرة لينة منه وتوضع على شىء كالمروحة مصنوع من جريد النخيل [٧] . وتأخذ المرأة هذا العجين على « المروحة » إلى أن يفرد ويصبح طبقة رقيقة تغطيها كلها . وبعد ذلك تناول «المروحة» لامرأة أخرى تجلس بجوار الفرن الطينى تنزل العجينة المفرودة المستديرة على بلاطة الفرن [٨] . وتظل النار مشتعلة فى الفرن تحت البلاطة ، حيث تستخدم سيقان الذرة الجافة كوقود . وعندما ينضج أحد جانبى الخبز تقوم الخبازة بقلبه باستخدام سيخ حديدى يسمى «بشكور » مخصص لهذا الغرض ، لكى ينضج الجانب الآخر . وعندما يتم نضجه تخرجه بمساعدة البشكور وتضعه بجوارها على الأرض .

وتُعد عجين البتاو عادة فى وعاء كبير جداً . وتجهز دائمًا كمية كبيرة لخبزها فى كل مرة . لذلك يحتاج العمل إلى ساعات طويلة وإلى مجهود ، وغالبًا ما تبدأ النساء العمل بعد الظهر وتستمر طوال الليل وحتى طلوع الفجر ، وربما بعد ذلك . وتحدث عملية الخبيز مرة أو مرتين كل شهر . وعادة ما تأتى القريبات والصديقات للمساعدة . وهذا الخبز ، إذا ما صنع بطريقة نظيفة ، يكون ممتازاً وهو طازج . فهو مقرمش ورقيق ، ويشبه إلى حد ما فطيرة الشوفان التى تصنع فى شمال انجلترا واسكوتلندا . ولا يستطيع الإنسان الذى لم يجرب ذلك أن يدرك مدى صعوبة هز العجين على « المروحة » . وقد قمت أنا شخصيًا بمحاولة أو محاولتين للمساعدة فى صنع هذا الخبز ، ولكنى فشلت فشلاً ذريعًا؛ وهو ما كان مادة لتسلية صديقاتى القرويات.

ومعظم القرى وكل المدن بها سوق أسبوعية تُباع فيها أنواع كثيرة جداً من السلع . وعادة ما تقع السوق خارج القرية . وأرضها إما ملك للحكومة أو لأحد الأفراد . وكل من يحضر سلعة ليبيعها يدفع مبلغًا صغيراً من المال لصاحب الأرض التى تقام عليها السوق .

وليس هناك مشهد أكثر حركة وحياة من سوق القرية (الشكل ٩٥) . وبعض التجار يحضرون بضاعتهم فى الليلة السابقة معبأة فى الأقفاص وغيرها من الأوعية . وتبيت هذه جميعًا مع حزم من قصب السكر وما شابهه على أرض السوق تحت مسئولية خفر القرية . وفى الصباح الباكر يتجمع الباعة الآخرون الذين لديهم سلع يبيعونها ، حيث يحضرون أكياس البصل والأقمشة القطنية والحلى الرخيصة والأوانى المنزلية والطماطم وغيرها من الخضروات . وعادة ما يكون الجزارون بين أول من يصل ؛ فهم يذبحون الحيوانات فى السوق ويعلقون الذبائح على حوامل خشبية ضخمة ذات ثلاثة أرجل (الشكلان ٩٥ و ١١) . وبعد تعليقها، يقطع اللحم ويمكن للمشترى أن يختار الجزء الذى يريده .

وكل طائفة لها مكان مخصص فى السوق المقسمة إلى قطاعات . فهناك سوق الجمال وسوق اللحم وسوق قصب السكر وغيرها . والنساء يمارسن دورهن كاملاً فى عملية البيع ؛ وربما تراهن جالسات على الأرض يصاحبهن فى الغالب أقرباؤهن ، وبضاعتهن مفروشة أمامهن. وسوق الجبن والسمن لا يعمل فيها سوى النساء ، حسبما رأيت . وهن يحضرن بضاعتهن فى صوان معدنية يحملنها على رؤوسهن .

وهناك دائمًا أعداد كبيرة من القلل المعروضة للبيع فى الأسواق . وأفضلها تلك المصنوعة فى قنا بصعيد مصر وتصدَّر منها عن طريق النيل .



(الشكل ٩٥) أحد أسواق القرى : قصب السكر فى مقدمة الصورة والجزارون فى الخلفية

والسمكرى أيضًا له نشاط جيد فى السوق . فهو يصنع الكيزان والمصابيح البدائية وغيرها من الأشياء فى السوق ، ويستخدم فى صنعها صفائح زيت البرافين والبنزين .

وعادة ما نرى الإسكافى جالسًا القرفصاء وهو يقوم بعمله عند أطراف السوق ، ومعه أعداد من الأحذية الجاهزة للبيع مرصوصة بجانبه على الأرض . ويوجد أمامه سندان حديدى شبيه بذلك الذى يستخدمه النحّاس الذى جاء وصفه فى الفصل الأول (الشكل ٩٦) . وقد يجلس بالقرب منه بائع الأدوات الموسيقية ، كالناى والزمارة والدربكة وغيرها . وعلى مسافة عنه ليست ببعيدة قد يكون فنان الوشم مشغولاً بتزيين يد أحد الشبان [٩] .

وأغلب الأسواق الكبرى يحضرها العديد من الفنانين ، كالحواة ورواة السيرة وعازفو الموسيقى الذين تصاحبهم الراقصات ، إلى جانب العراف الذى يجلس فى خيمة صغيرة ويجتذب أعداداً كبيرة من الناس . وهو يصنع عدداً من الحفر فى الرمل الذى يفرشه على منديل وضعه على الأرض أمامه . وبطريقة معينة للحساب يتوصل إلى نتائجه . أما الحواة فعلى درجة كبيرة من المهارة .



(الشكل ٩٦) إسكافى على أطراف السوق

وهكذا نجد أن الأعمال التى تتم فى أيام السوق يتم خلطها بالمتعة بطريقة ظريفة .

والمناقشات عامة وتتم بصوت مرتفع ، ويتصورها الإنسان الأوروبى الذى لم يتعود عليها شجاراً عنيفاً .

وعندما تشتد حرارة الجو ، يقيم التجار ما يشبه المظلات البدائية يتقون بها الشمس . ولا بد من الوقت والصبر لإتمام الشراء . فبائع أية سلعة يطلب ضعف الثمن الذى سيقبله . ويظل التاجر والمشترى فى المجادلة والإشارات والمشاحنة حول السلعة ، إلى أن يتم تعديل السعر بما يرضى الطرفين . وفى بعض الأحيان إذا كان التاجر مصراً على كلمته ، فإن المشترى يقوم من على الأرض ويمشى بعيداً . وهنا يخفى البائع استعداده لتقديم مزيد من التنازلات . وفى النهاية يوافق على قبول سعر أقل مما طلبه .

وفى موسم الحر ، يقوم السقا بنشاط جيد . فحرارة الجو والمساومة والصياح تؤدى جميعاً إلى الشعور بالعطش . وهو لا يأخذ الثمن نقوداً ، وإنما عطايا صغيرة من بصل وطماطم وغيرهما .

وقد لاحظت أن الناس يبدون اهتماماً يستحق التقدير بالحيوانات التى يأتون بها إلى السوق. فأول ما يفعلونه عند وصولهم هو تقديم العليقة لحيواناتهم ، وكذلك الماء إذا كان ذلك

متاحاً . وفى إحدى السنوات ، عندما كنت أقيم فى الحقول القريبة من إحدى القرى ، كانت السوق تقام على مقربة من مخيمى ولاحظت هذا الاهتمام الذى يبديه الفلاحون بدوابهم .

وعندما يقترب المساء يبدأ التجار فى تعبئة بضاعتهم التى لم يشترها أحد . ومن جاء منهم من مسافة بعيدة ، يحمل أمتعته على حماره، وينصرف الجميع إلى قراهم المختلفة .

الهوامش :

(١) انظر الصفحات التالية من هذا الفصل .

(٢) أدين بهذا الإيحاء للسيد هنرى بلفور أمين متحف بت - ريفرز بأكسفورد .

(٣) الجلة (المترجم) .

(٤) توضح الصورة أن المؤلفة تقصد الإناء المستخدم فى إعداد عجين الخبز المعروفة بـ " الماجور " (المترجم) .

(٥) هذه الإبرة تسمى « مسلة » (المترجم) .

(٦) April, 1921, Vol. iv, No. I, pp. 25 ff.; انظر أيضاً : H.E. Winlock, Ancient Egypt (1922) pp. 71 ff.

(٧) المطرحة (المترجم) .

(٨) الفرن مفتوح من الأمام ولكنه مغطى من أعلى . والدخان يخرج من فتحة فى السقف تصل إلى السطح .

(٩) انظر الفصل الثالث .

الفصل العاشر

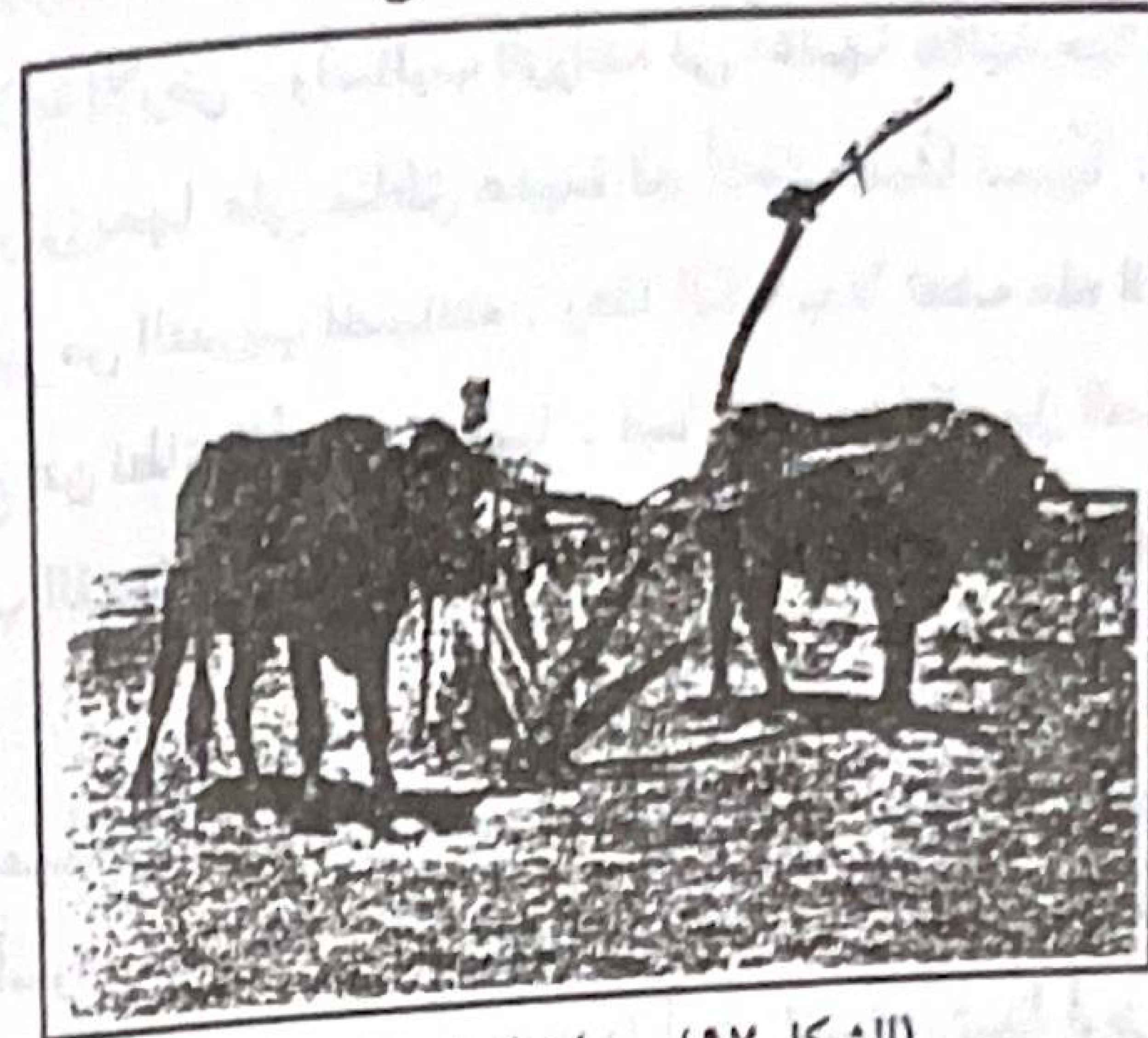
طقوس الزراعة والحصاد

تعتمد الثروة والرفاهية فى مصر دائمًا على ما تغله الأرض . والفلاحون متخصصون فى الزراعة فى المقام الأول . وكلمة « فلاح » معناها الذى يحفر الأرض ويحرثها . والفلاحون ، وأغلبهم أميون ، يتميزون بأنهم مزارعون غاية فى المهارة . وكل طفل صغير على علم كبير بكل ما له علاقة بفلاحة الأرض . وأساليب الزراعة فى أغلبها بدائية جداً ، وإن كان النظام الحالى لتخزين المياه وتوزيعها على مناطق عديدة قد أدخل حديثًا نسبيًا ، ولا بد من وجود مهندسين على قدر كبير من التدريب لصيانته . وهذا الكتاب لا تعنيه هذه التطورات الحديثة، التى تخرج فى الواقع عن نطاق الأنثروبولوچيا . فما يعنيه هو العمل العادى البسيط فى الحقول حيث الأساليب القديمة والأدوات العتيقة مازالت تستخدم على نطاق واسع والعادات القديمة مازالت تتبع .

وتقع الأرض الزراعية فى مصر على امتداد ضفتى النهر ، دون أن تكون هناك أية حدود واضحة . فلا توجد أسوار كتلك التى تفصل بين الحقول فى انجلترا . وبالنسبة للزائر العادى ليس هناك ما يشير إلى النقطة التى تنتهى عندها أرض إنسان وتبدأ أرض آخر . والحقول مقسمة إلى مربعات صغيرة تفصل بينها خطوط مرتفعة من الطين وقنوات ضيقة . وعندما توزع المياه على منطقة ما ، فإنها تسير خلال القنوات إلى داخل المربعات عن طريق الفتحات التى يتم عملها فى الخطوط المرتفعة التى تحيط بتلك المربعات . وبعد الحصول على ما هو مسموح به من ماء ، تسد الفتحات ويوجه الماء إلى جزء آخر من الأرض .

والعدد الأكبر من الفلاحين يمتلك أو يستأجر قطعًا صغيرة تميز عن غيرها بالحدود الحجرية التى توضع فى الأرض على مسافات تصل إلى ستة أقدام أو يزيد . وما أكثر المشاجرات التى حدثت فى القرى بسبب تلك الحجارة . فإزالة علامة الجار سبب دائم للمشاكل . فمثلاً إذا فكر رجل ما فى توسعة أرضه عن طريق الاستيلاء على جزء من أرض جاره ، فإنه يقوم فى الخفاء بنقل حجارة حدوده إلى داخل أرض جاره . وبالطبع سرعان ما يكتشف ذلك من اعتدى على أرضه، ويلى ذلك نزاع مرير قد ينتهى بمعركة عنيفة .

والمحراث الذى يشيع استعماله حاليًا بدائى ، ولكنه آلة مناسبة تمامًا (الشكل ٩٧). وهو مصنوع بالكامل من الخشب بينما يُصنع السلاح من الحديد . والثيران هى التى تجره فى الغالب الأعم ، وإن كنت قد شاهدت فى الصعيد أكثر من محراث يجره جمل وحمار معًا ، وهو زوج غير متجانس من الحيوانات ! ويسير الفلاح خلف المحراث ويوجهه . وعادة ما يقوم بالغناء وهو يعمل . وفيما عدا زمن الفيضان ، لا يتوقف العمل فى الحقول أبدًا . فخصوبة التربة الشديدة تجعل المحصول يلى الآخر فى تتابع سريع .



(الشكل ٩٧) محراث كما يستعمل اليوم

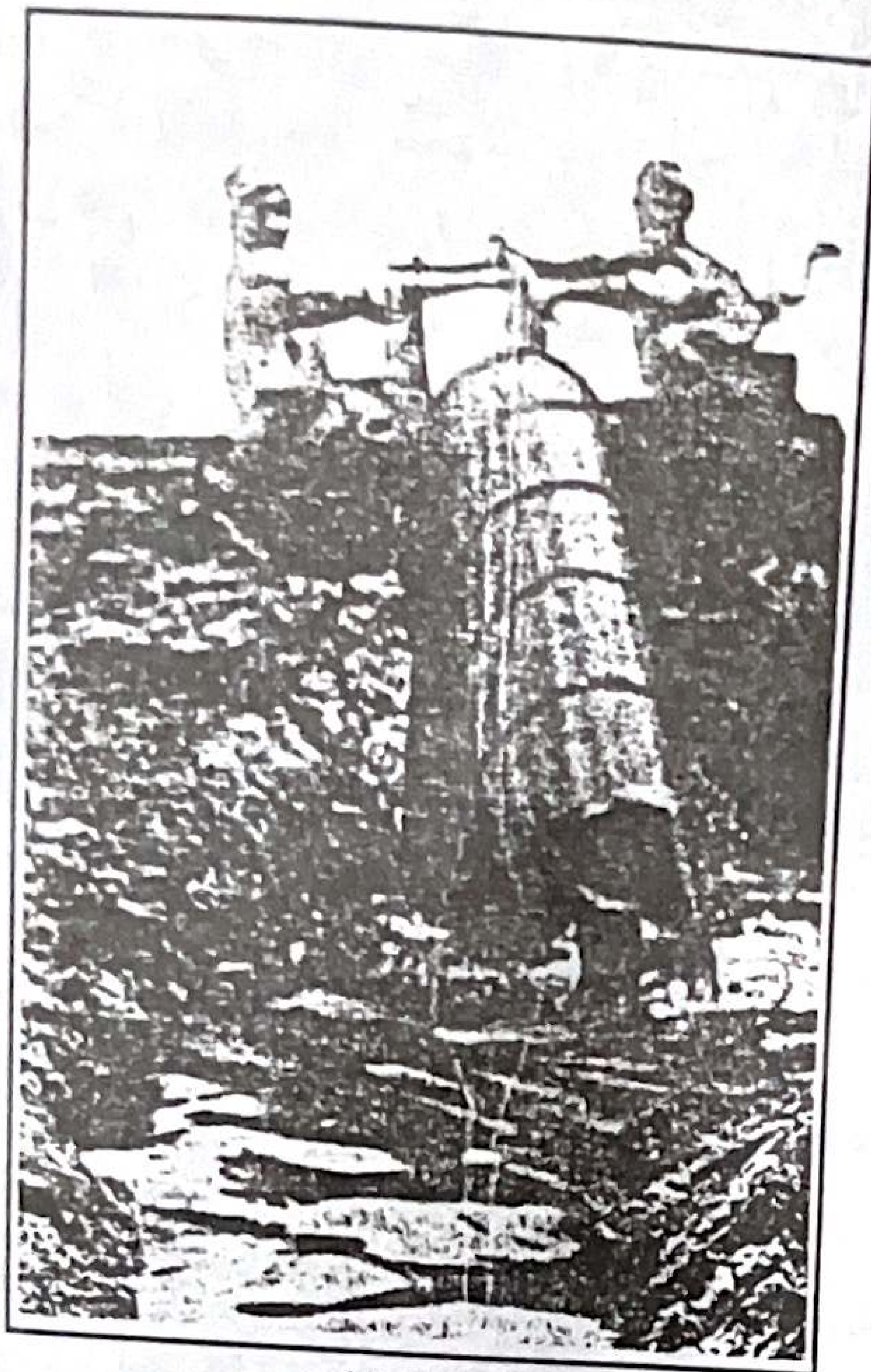
ورى الحقول عملية شاقة . فأكثر الآلات المستخدمة لهذا الغرض شيوعًا هو الشادوف الذى يعد آلة بدائية لرفع الماء . وهو يتكون من قائمين من الخشب ، أو عمودين من البوص والطين، تصل بينهما عارضة أفقية يتعامد عليها فرع شجرة طويل على أحد طرفيه ثقل من الحجارة والطين ، والطرف الآخر معلق فيه دلو من الجلد أو الصفيح . والرجل الذى يعمل على الشادوف يجذب هذا الدلو إلى الماء (النهر أو الترعة) . وعندما يمتلىء ، يسمح للثقل بأن يرفعه إلى مستوى الأرض . وهنا يصب الماء فى قناة أعدت لذلك ليسير فيها الماء فى الاتجاه المطلوب . وإذا كانت الأرض المراد ريها أعلى كثيراً عن مستوى الماء ، يستخدم شادوفان أو ثلاثة شواديف الواحد فوق الآخر .

والرجال الذين يقومون بذلك ، يغنون وهم يعملون . وبعض أغانيهم شديدة الحزن وتصف عملهم المضنى والمجهد . إحدى هذه الأغانى تمضى هكذا :

شواديف
حبالها من ليف
وسطولها من جلد الماعز
واللى بدعها زمان
صالح زيادى المبروك [١].

وما يلى هو أغنية حزينة حول العمل الشاق الذى يرتبط بتشغيل الشادوف :

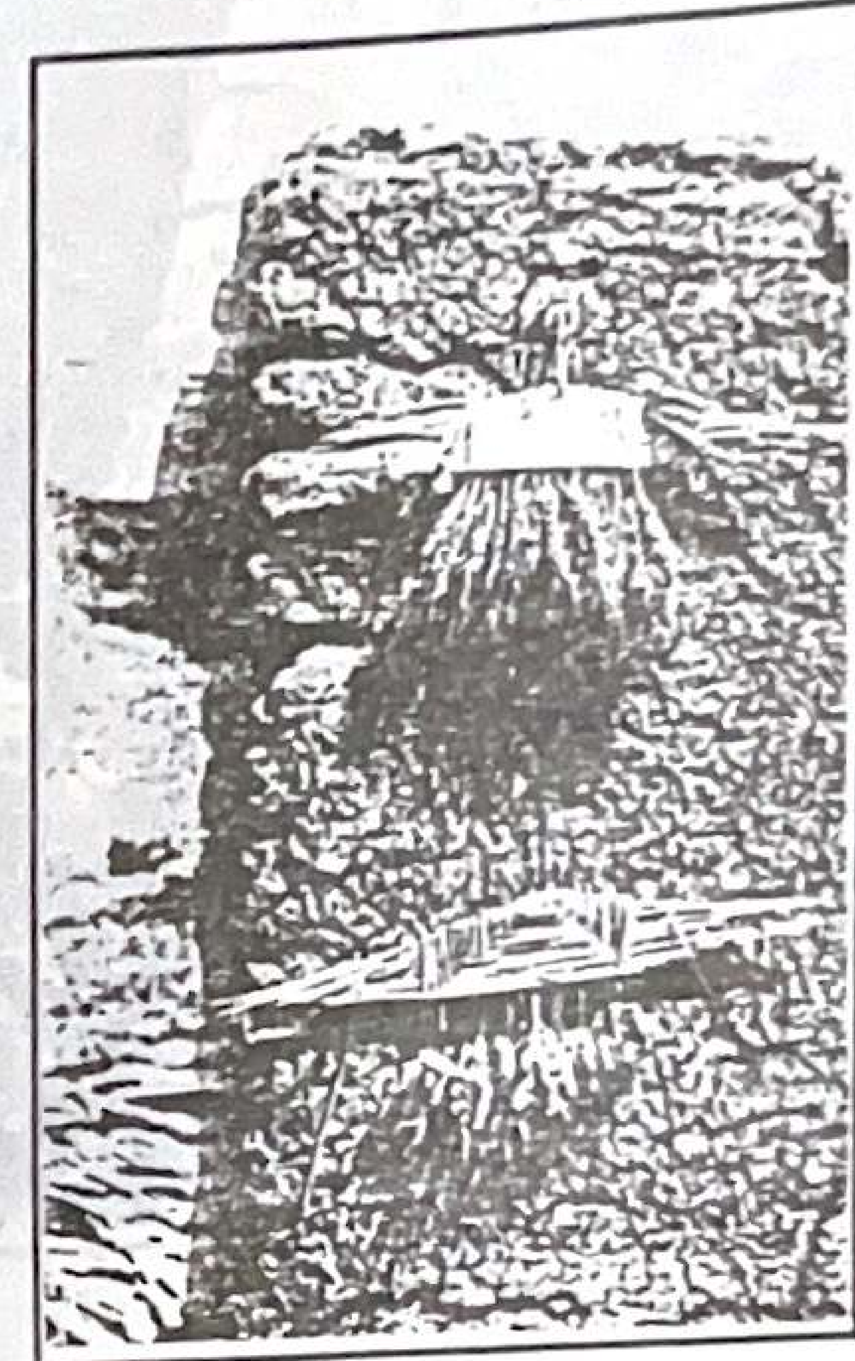
يا رب انت حكمت بالشنق عليّه
فك الخية !
لا أم تبكى
ولا عمة
ولا خية !.



(الشكل ٩٨) الطنبـــور

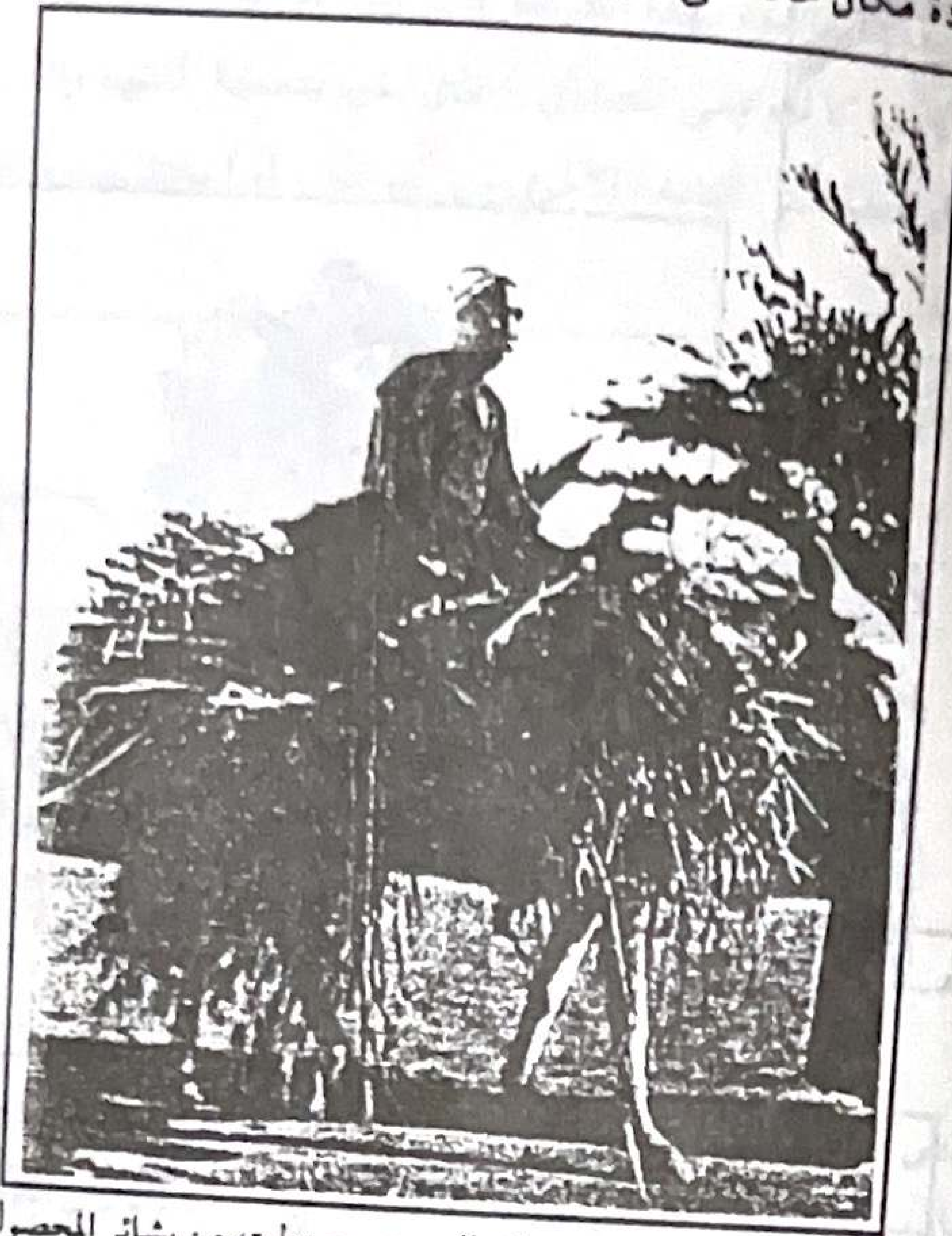
وهناك طريقة أخرى لرفع الماء عن طريق الساقية ، التى تثبت على محيطها الدائرى جرار فخارية . وهناك عجلة صغيرة ذات تروس تتصل بنفس المحور الذى عليه العجلة الكبيرة . وتعشق تروس عجلة أفقية كبيرة فى تلك التروس . ويوصل فرع شجرة طويل بالعجلة الأفقية يُربط فيه ثور أو بقرة أو جاموسة أو حتى جمل ، يسوقه أثناء دورانه رجل أو صبى . وعادة ما تغطى عينا الحيوان لكى لا يصاب بالدوخة . وبالنسبة لى ، يعد الصوت الناتج عن دوران الساقية من أكثر الأصوات تهدئة للنفس . وهناك آلة أخرى لرفع الماء إلى مستوى الحقول وهى الطنبور ، ونجدها فى الشكل ٩٨ .

وفى وقت الحصاد ، يعمل كل رجل وامرأة وطفل فى الحقول . ولكن قبل أن يقطع شىء من القمح [٢] يذهب القرويون إلى الحقول ويقطفون أفضل السنابل بأيديهم ، حيث يتم جدلها معًا فيما يطلق عليه « عروسة القمح » تستخدم كتعويذة . وربما تعلق واحدة على باب الدار منعًا للعين الشريرة . وقد تعلق أخرى داخل الغرفة التى تضم مخزون الطعام كتعويذة تضمن الخير والوفرة . ويعلق كثير من التجار هذه الأشياء فى ڤاترينات محالهم ، اعتقاداً منهم بأنها تجلب لهم الكثير من الزبائن . وفى بعض مناطق مصر توضع « عروسة القمح » بشكل مؤقت على أكوام الحبوب بعد الانتهاء من تذرية الغلة ، كتعويذة لضمان المحصول الجيد فى السنة التالية. وفى بعض الأحيان تؤخذ حبوب هذه السنابل وتخلط بتقاوى العام التالى أثناء بذرها . وقد تترك العروسة فى مكانها إلى أن تستبدل فى موسم الحصاد التالى . وفى أحيان أخرى تترك فى مكانها حتى تتكسر (الشكل ٩٩) .



(الشكل ٩٩) اثنتان من " عرائس القمح " : العليا جديدة والسفلى منذ عدة سنوات

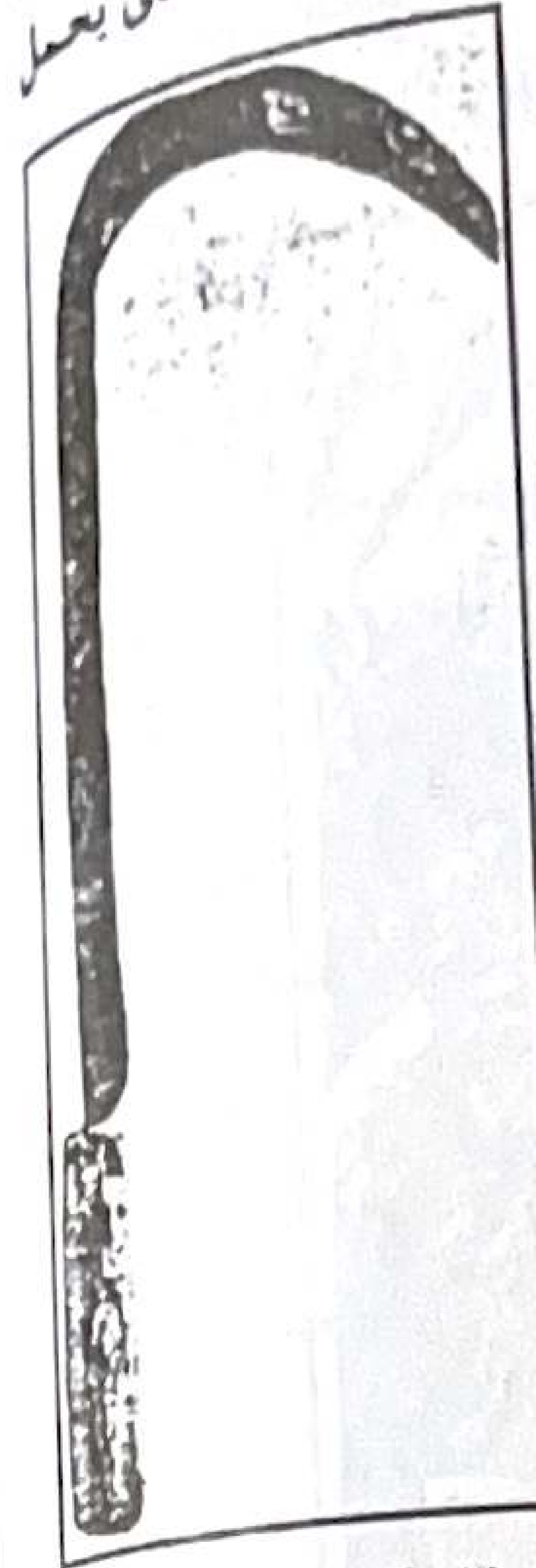
وقبل جمع محصول الحقل ، يقدم صاحبه هدايا من القمح لعدد معين من الناس . وهذه الهدايا من بشائر المحصول تقدم لبعض فقراء القرية وإلى الحلاق وللمؤذن وعازف الزمارة والتجار والفقهاء ، وهم رجال فقراء يتلون القرآن فى المساجد والمنازل والجنازات والزيارات الدورية للمقابر (الشكل ١٠٠) . ويُقطع القمح بمنجل بدائى (الشكل ١٠١) وتربط سيقانه فى حزم صغيرة تنقل إلى أرض الدراس على ظهر الجمال (الشكل ١٠٢) . وأرض الدراس فى العادة مكان خال على مقربة من الحقول تكوم فيه الغلة فى أكوام كبيرة .

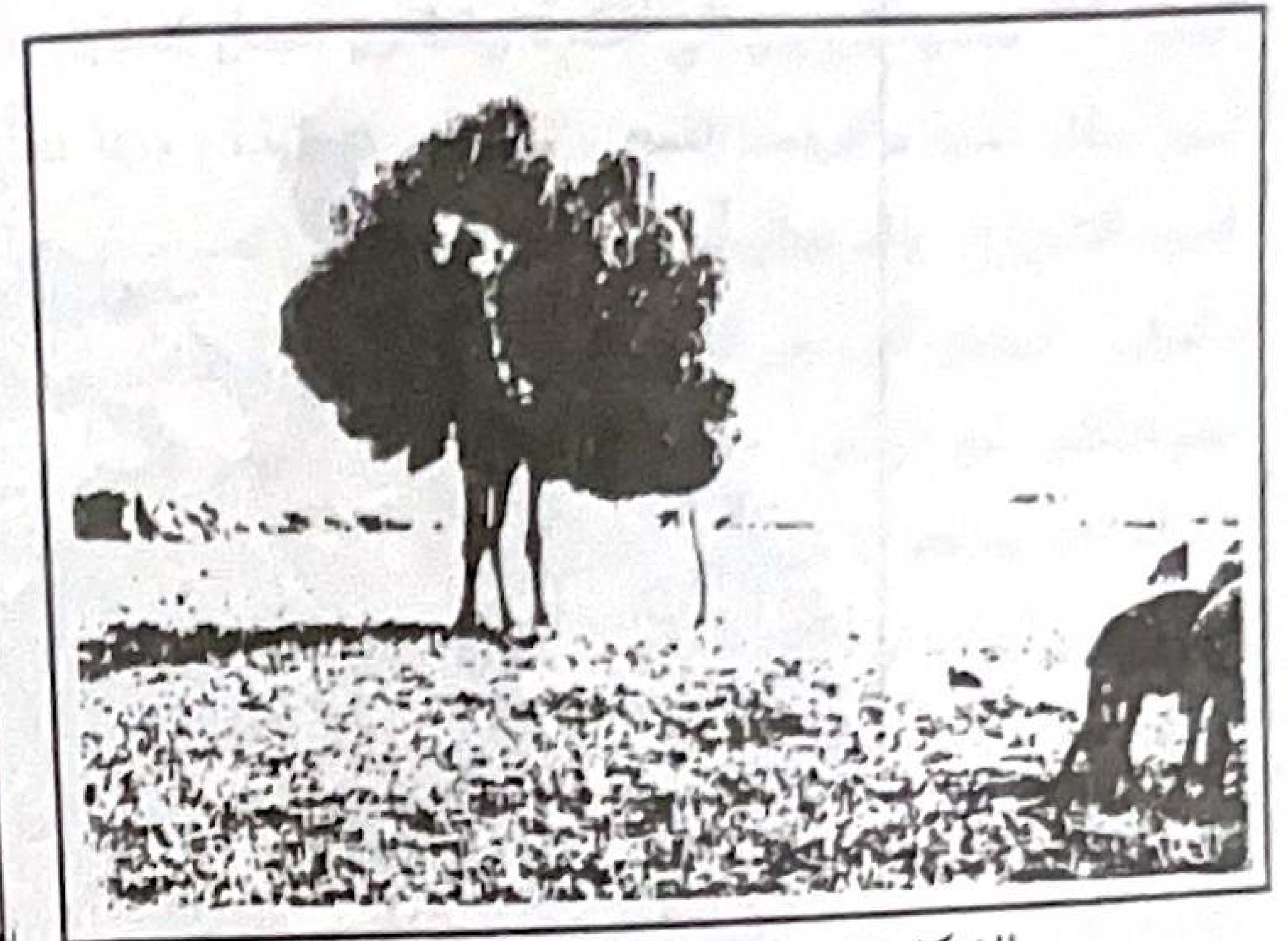


(الشكل ١٠٠) مؤذن عائد إلى بيته مع عطيته من بشائر المحصول

ويتم الدراس باستعمال آلة تشبه الزحافة اسمها « النورج » وتجرها الثيران . وهى تتكون من إطار خشبى يجلس عليه السائق ، وعجلات حديدية تمر على الغلة مرات ومرات فتتكسر السيقان وتفصل الحبوب عن قشرها (الشكل ١٠٣) . وتجمع السيقان المتكسرة وتعبأ فى أكياس تحمل على ظهور الحمير (الشكل ١٠٤)[٣]. أما الحبوب ، التى مازالت مختلطة بالتبن ، فتوضع فى أكوام استعداداً لتذريتها . وفى هذه العملية التى تتم خارج البيوت ،

يقذف بالتبن بعيداً باستعمال جاروف خشبى (الشكل ١٠٥) . فتسقط الحبوب على الأرض على هيئة كوم (الشكل ١٠٦) . وهناك عملية ثانية ضرورية لتنظيف الحبوب تماماً من التبن، وهى غربلته جيداً . بعد ذلك تكوم الحبوب ويوضع عليها فى بعض الأحيان جريد النخيل لمنع الرياح من تطييرها بعيداً . وتترك الأكوام طوال الليل . ومن المعتاد أن يضع صاحب الحبوب أرغفة مستديرة وسط الحبوب . وهذه الأرغفة هى أجر الرجل الذى يحمل الحبوب صباح اليوم التالى إلى صوامع صاحبها .

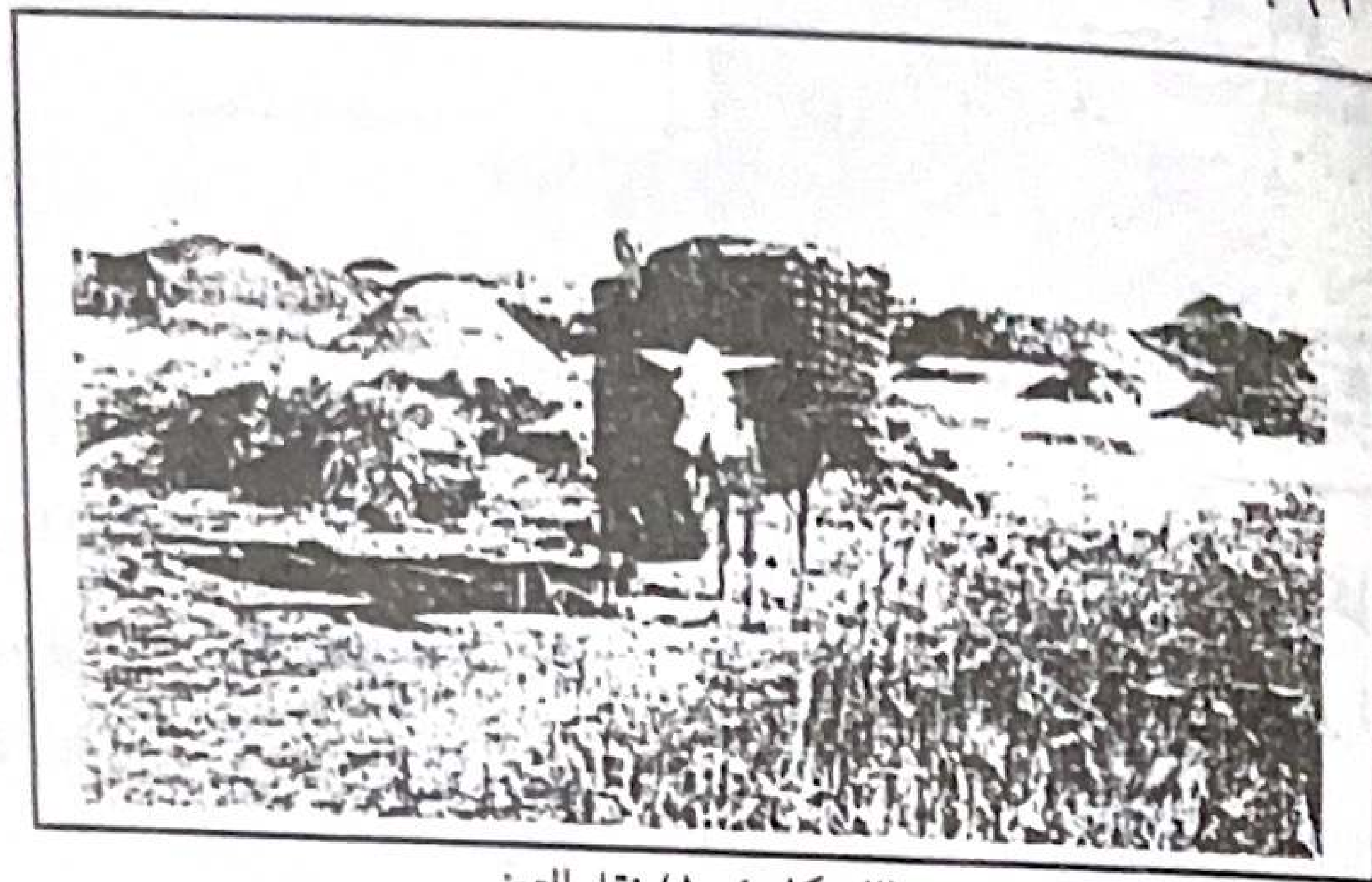

(الشكل ١٠١) منجل


الشكل (١٠٢) حمل الغلة إلى أرض الدراس


(الشكل ١٠٣) درس الغلة باستعمال النورج

وتوجد الصوامع عادة على أسطح المنازل ، وهى مصنوعة إما من الطين أو السعف .

وجرت العادة أن يدفع أجر الحصادين عينيًا (الشكل ١٠٧) . ويمكن رؤية طوابير من النساء والأطفال عائدين من الحقول وهم يحملون أجورهم فوق رؤوسهم . وعادة دفع الأجر عينيًا قديمة جداً ، ولا تقتصر على الحصادين وحدهم . فحلاق القرية هو الآخر يأخذ أجره من القرويين بهذه الطريقة [٥]. والذين يدفعون له بها يطالبونه بخدماته من حلاقة ذقن وقص شعر طوال العام . ويقتصر الدفع بهذه الطريقة على أبناء قريته . أما الغرباء فيدفعون نقداً . وتنطبق هذه القاعدة كذلك على المعداوى ، الذى يقوم بتعدية الماشية والعمال كل صباح إلى حقول القرية الواقعة على الضفة الأخرى من الترعة ، ثم إعادتهم مرة أخرى قبل الغروب (الشكل ١٠٨) .


(الشكل ١٠٤) نقل التبن

وفى بعض مناطق الصعيد تتبع العادات التالية عند زراعة الذرة وحدها . إذ يروى حقل الذرة بالساقية أو الشادوف عشر مرات . وفى آخر مرة تروى فيها الأرض ، يحضر صاحب الأرض ، أو أحد أفراد أسرته ، الفطير أو الكنافة أو الرشتة (نوع من المكرونة المطبوخة بالحليب) إلى الحقل . وبعد ذلك يقف على أحد أعمدة الساقية أو الشادوف وينادى على جيرانه فى الحقل : « تعالوا كلوا » وفى الوقت نفسه يطلق النار من بندقيته . وهذا النوع من إطلاق النار يحدث بانتظام فى الأفراح أو أى مناسبة سعيدة . وبعد أن يؤكل الطعام ، يقطف صاحب الأرض بعض كيزان الذرة ويضعها فى أحد الصحون الفارغة . وهو يهدى هذه الكيزان لمن أحضر الطعام من أفراد أسرته . بعد ذلك يعود إلى الحقل ويقطف أربعة كيزان من الذرة ويثبتها على جبهتى الجاموستين أو الثورين اللذين يديران الساقية . ثم تساق البهيمتان إلى

البيت وكل من يراهما يعرف من كيزان الذرة التى تزين جبهتيهما أن رى حقل ذرة صاحبهما قد انتهى .



(الشكل ١٠٥)

المذراة

وعندما يستخدم الشادوف فى رفع المياه ، يقطف صاحب الأرض كوز ذرة لكل شادوف كان يستخدم فى رى الحقل . وتربط الذرة بذراع الشادوف ، التى تحمل ، كما هو الحال بالنسبة للماشية ، إلى البيت وهى مزينة بالذرة .



(الشكل ١٠٦) التذرية

وآخر مرة يروى فيها حقل الذرة تسمى « الفطامة » . وهى نفس الكلمة المستخدمة لآخر مرة ترضع فيها الأم طفلها .

وفى العديد من مديريات الصعيد تترك حبوب الذرة أو القمح أو الشعير بعد درسها على هيئة أكوام فى نفس مكان الدراس طوال الليل . إلا أنه قبل غروب الشمس وبعد اكتمال العمل ، يحضر صاحب الحبوب بعض الطعام إلى المكان الذى تم فيه الدراس . ويكون ذلك إما فطير أو كنافة أو رشتة أو لحم مطهى . وبعد ذلك يقف فوق أحد الأكوام وينادى على أصدقائه: « تعالوا كلوا » ويطلق النار من بندقيته تعبيراً عن فرحته . وبعد أن يفرغ أصدقاؤه من الأكل يضع بعضاً من الطعام المتبقى حول الأكوام وفيها . ويعتقد أن هذا يجلب البركة والنماء للحبوب . كما أن الفلاحين يعتقدون أن هذا سوف يرضى « العفاريت » التى ستأكل الطعام الذى يوضع هكذا من أجلها .



(الشكل ١٠٧) حصاد مع أجرة على هيئة حزمة غلة

وهذه العادة ، وتلك التى ذكرت قبلها والخاصة بوضع الخبز فى أكوام الحبوب بعد تذريتها، تشير إلي الاعتقاد فى وقت من الأوقات فى وجود إلهة الذرة التى لا بد أن تقدم لها القرابين.

وحتى الآن لم أجد ما يشير إلى وجود أى أثر لهذا المعتقد فى أذهان الفلاحين . إلا أن هذه المراسم تشير بالتأكيد إلى احتمال وجود اعتقاد قديم فى وجود إلهة للخصوبة أو الأرض. والاسم الذى يطلق على آخر مرة للرى ، وهو الفطامة ، يحمل هذا المعنى .



(الشكل ١٠٨) معدية

وفى فصل لاحق ، سوف نرى أن بعض عادات الحصاد هذه يمكن أن تعود إلى عصور قديمة جداً من تاريخ البلاد .



(الشكل ١٠٩) الدرس باستعمال هراوة

وقد ذكرت من قبل أن الحصادين يتقاضون أجورهم فى صورة عينية بدلاً من النقود ، وأن النساء والفتيات الصغيرات يحملن هذه الأجور إلى بيوتهن فوق رؤوسهن . والطرق المستخدمة فى دراس وتذرية الغلة ، التى تؤخذ كأجر ، أكثر بدائية من تلك التى وصفت من قبل فى هذا الفصل . فالدراس يتم بدقها بعصا (الشكل ١٠٩) . وهذه العملية غالبًا ما تقوم بها النساء ، وإن لم تكن هذا هو الحال دائمًا . وبعد أن تدرس الغلة ، توضع عادة فى طشت غسيل مستدير من الصفيح وتتم التذرية بأخذ الحبوب باليدين وإلقائها فى الهواء (الشكل ١١٠) . وتطير الريح التبن وتسقط الحبوب فى الطشت . وبعد ذلك تدخل فى عملية تنقية أخرى باستعمال الغربال .



(الشكل ١١٠) امرأة تذرى الغلة بيديها

وعندما تأتى الحاجة لاستخدام الحبوب ، تطحن باستعمال مطحنة يدوية بدائية [٦]. ومن الشائع فى القرى المصرية أن ترى امرأتين تطحنان بالمطحنة (الشكل ١١١) . وعلمت أن

الحجارة التى تستعمل فى صنع المطاحن اليدوية يؤتى بها من الصحراء وتُقطع بالشكل المطلوب . والدقيق الناتج عن الطحن بهذه الطريقة خشن جداً . كما أنه بعد أن يسقط حول حجرى المطحنة على الأرض القذرة ، لا يمكن وصفه بأنه نقى أو نظيف ! ولحسن الحظ أن معظم القرى بها مطحن واحد على الأقل يعمل بالبخار تحمل النساء دقيقهن إليه لكى يطحن للمرة الثانية . وفى هذه العملية تتم إزالة الكثير من الشوائب من الدقيق .



(الشكل ١١١)

الرحاية

والخبز المحلى يحتوى على كمية كبيرة من دقيق الذرة المخلوط بدقيق القمح . وهو جيد جداً عندما يؤكل طازجاً ويكون بإمكانك اختيار خبازتك ! ومن المؤكد أنه يشبع أكثر من الخبز الأبيض الذى يؤكل فى إنجلترا . وربما يرجع جمال الأسنان الملحوظ عند المصريين من كل الطبقات إلى أن معظم العناصر المغذية تبقى فى الدقيق .

الهوامش:

(١) هذه ترجمة وليست النص الأصلى (المترجم) .

(٢) استعملت المؤلفة كلمة Corn عند حديثها عن الحصاد . وهذه كلمة عامة معناها "الغلة" أو "الحبوب". وبما أنها تتحدث عن " السنابل " ، فقد آثرت استخدام كلمة قمح (المترجم) .

(٣) هذه ليست أكياس من الخيش كالتى تعبأ فيها الحبوب وإنما شباك من حبال الليف الأحمر (المترجم).

(٤) المذراة (المترجم) .

(٥) هذه الطريقة فى الدفع تسمى « المسانية » (المترجم) .

(٦) " الرحاية " (المترجم) .

الفصل الحادى عشر

السحرة والسحر

تشتهر مصر منذ أقدم العصور بسحرتها . وقد وصلتنا حكايات عن أفعالهم العجيبة ؛ ليس فقط من السجلات المصرية القديمة ، وإنما كذلك من التوراة ومن كتابات العديد من الكتّاب القدامى . فضلاً عن أن كثيراً من الحكايات التى فى مجموعة القصص الشهيرة المعروفة بـ " ألف ليلة وليلة " تشير إلى أن القوى التى تفعل الأعاجيب مرجعها إلى السحرة ، الذين كانوا فى مصر العصور الوسطى . ويكثر السحرة كذلك فى مصر الحديثة . فالواقع أن كل قرية تقريباً بها ساحر أو إثنان . ويعتقد أن لديهم نفس القوة التى كانت لدى أسلافهم فى مصر القديمة والعصور الوسطى .



(الشكل ١١٢)

شيخ وساحر ذائع الصيت

والساحر المصرى الحديث ، من الجنسين ، يلجأ إليه الناس فى كل أحوال الطوارئ، وأحياناً تتخطى شهرته حدود قريته ، وربما تضطره الاستدعاءات الطارئة ، طلباً لمساعدته من أماكن بعيدة ، إلى السفر خارج المنطقة التى يعيش فيها . ولا أظن أنه من المعتاد بالنسبة للساحرات أن يبتعدن عن قريتهن أو القرى المجاورة . إلا أننى أعرف أكثر من ساحر يمتد

نشاطه إلى العديد من المديريات . والقرويون يخشون الساحر ، بسبب معرفته بالأعمال والتعاويذ التى يمكن استخدامها فى الشر ، إلى جانب استخدامها فى الخير . ولكى يكسبوا وده ، فإنهم يقدمون له هدايا من الحبوب والطعام وغيرها من الأشياء التى تحوز القبول . فهناك دائمًا خوف كامن فى عقل الفلاح من أنه قد يثير دون أن يقصد غضب الساحر الذى ربما يتسبب فى إلحاق الأذى به . أو ربما كان من السهل على أحد أعدائه أن يحثه على فعل ذلك.

وهناك ساحرة أعرفها عليها " شيخ " اسمه محمد (الشكل ١١٣). هذا الشيخ لم يعش قط فوق الأرض . ولكنه واحد من الكائنات غير البشرية التى يفترض أنها تعيش « تحت الأرض » . وهذا الشيخ يلازم المرأة دائمًا ؛ أى أنه يلبسها . وهى تناديه لتلفت انتباهه عندما يطلب منها أن تستعمل قدراتها . فعلى سبيل المثال ، إذا جاءوا لها بمريض ، سواء أكان طفلا أم شخصًا بالغًا، يفترض أنها تستطيع بمساعدة الشيخ الذى يلبسها أن تقول إن كان المريض سيعيش أم سيموت . والناس يأتونها فى الغالب من أجل الأعمال والتعاويذ . والشيخ هو الذى ينصحها بما تستخدمه فى كل حالة . ويقال إنه ينزل تحت الأرض لكتابة العمل أو التعويذة المطلوبة ويحضرها لها بعد الانتهاء منها ، ثم تقدمها هى للشخص الذى جاءها من أجل العلاج أو النصيحة . وفى تلك الأوقات تسمى هذه المرأة " الشيخ محمد" ، ويفترض أنها تتقمص جنسه وشخصيته .



(الشكل ١١٣)

المرأة التى مسها الشيخ محمد

اصطحبتنى إحدى صديقاتى القرويات ، وكانت تشكو من ألم فى رأسها ، ذات يوم لاستشارة تلك الساحرة وطلب العلاج . وسرعان ما امتلأ البيت الذى دخلناه بالناس كما سد

المتفرجون النافذة . وكانت أرضية الغرفة وجدرانها من الطين . إلا أنهم أعدوا لى حصيرة نظيفة كى أجلس عليها . وكانت الساحرة ومريضتها تجلسان على الأرض بالقرب منى . أخذت الساحرة منديل المريضة من على رأسها وطوت أحد أركانه على الركن المقابل له ثم قاست المسافة بين الركنين الآخرين بيدها . بعد ذلك عقدته وجلست عليه . وفجأة بدأ جسمها ينتفض بعنف ، وأخذت تصدر عنها أصوات غير مفهومة . كان ذلك يشير إلى أن الشيخ يساعدها ويجعل وجوده محسوسًا . فى ذلك الوقت حدث تغير ملحوظ فى تعبيرات وجهها ، وأصبح صوتها وهيئتها وسلوكها بالكامل رجاليًا بصورة واضحة ، وخاطبها كل الحاضرين بالشيخ محمد . طلبت الساحرة من مريضتها أن تزور بئر أحد المشايخ الذى كان يقع على بعد عدة أميال من القرية . وسألت المريضة إذا كان هناك ما يمنع الذهاب إلى بئر الشيخ الذى فى قريتها ؛ إلا أن هذا الطلب رفض على الفور . قالت إنه لا بد من زيارة البئر التى ذكرت أولاً . وقعت تلك الحادثة فى شهر رمضان وطلبت الساحرة من المرأة أن تأتيها مرة أخرى يوم العيد الصغير ، وقالت لها إنها سوف تعطيها حجابًا لتعلقه .

استمرت الساحرة فى تقمص الشخصية الرجالية ، حتى بعد انتهاء الجلسة . وبعد فترة قصيرة أعلنت أنها وقعت فى غرامى وتتمنى أن تتزوجنى ؛ الأمر الذى أسعد القرويين وجعلهم يضحكون ! وكان يعتقد أن هذا الكلام المضحك مصدره الشيخ محمد الذى كان يلبسها ، وكانت تتحدث بصوته فى ذلك الوقت . ولم ترض حتى وافقت أن تلتقط لى صورة معها !

وهناك ساحرة أخرى أعرفها مشهورة داخل حدود قريتها (الشكل ١١٤) . تلك السيدة زوجها متوفى وتعيش مع اثنين من أولادها . وهناك غرفة فى البيت مخصصة لاستخدامها هى فقط . وليس مسموحًا بدخولها سوى لـ « الناس اللى تحت الأرض » الذين يفترض أنها على علاقة وثيقة وحميمة بهم . ويوجد لهم دائمًا زاد من الطعام وقلة ماء فى غرفتها . وعندما تريد أن تأكل تذهب إلى تلك الغرفة . كما أنها لا تأكل مع أحد . وهى لها خمسة خدام يعيشون تحت الأرض . ومن خلال هؤلاء تتصل بالكائنات الأخرى التى تحت الأرض ، بما فى ذلك العفاريت . وإحدى هؤلاء الخدام تُدعى زيديمال وآخر اسمه معوض ، وهو ابن زيديمال . والثالث رجل اسمه الأخرس . وهناك امرأتان إحداهما اسمها الحاجة . وهذه الأخيرة أهمهم جميعًا ، ولكنها لاتصعد فوق الأرض أبدًا . وزيديمال هى خادمتها .

وعلمت أن هذه الساحرة لا بد أن تكون نظيفة جدًا ، فى بدنها وملابسها . فإذا ارتدت ثوبًا واحدًا قذرًا جاءها ، الأخرس من تحت الأرض وألبسها . وهو يمسك بها لدرجة أنها تسقط على

الأرض وينتفض جسمها بالكامل وتصبح عاجزة عن الأكل أو الحركة . وفى تلك الحالة يجلس ولداها بجوارها ويطلبا منها أن تقول لهما ماذا يحدث . بعد ذلك تأتى زيديال (ولم أعرف كيف يؤتى بها إلى فوق الأرض) وتضع حداً لكل الغضب . وفى الحال لا بد أن تخلع الساحرة قطعة الملابس القذرة وترتدى أخرى نظيفة . وهناك لونان ، إضافة إلى اللون الأسود ، يمكن أن ترتديهما . وهما الأخضر والأحمر . وعندما ذهبت إلى مصر فى الخريف الماضى أخذت لها منديلاً من الحرير . اخترت منديلاً بنفسجياً ، ظنًا منى أن هذا اللون يناسب إحدى الأرامل. إلا أن هذا كان لا بد من استبداله بمنديل آخر من اللونين المسموح لها بهما .



(الشكل ١١٥)

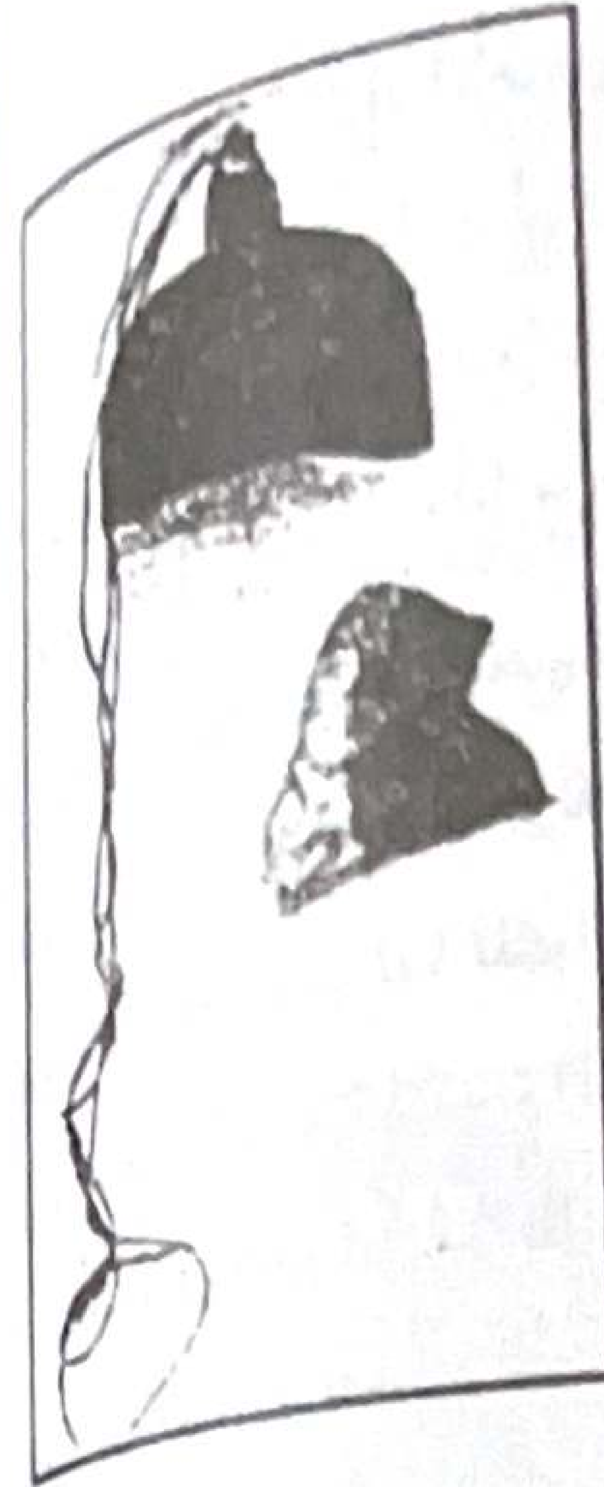
الساحرة التى لها خمسة خُدام

والصُلحة عبارة عن وليمة للمصالحة . ويقيمها أحيانًا هؤلاء الذين يغضبون الشيخ أو الشيخة الى تلبسهم . وعندما يريد رجل إقامة الصلحة ، ترتدى تلك الساحرة ملابس الرجال وتضع على رأسها كوفية كتلك التى يضعونها وتمسك فى يدها عصا فى طرفها قطعة من الفضة . أما إذا كانت امرأة هى التى تطلب الصلحة ، فإن الساحرة ترتدى ملابسها العادية . وهذه الطقوس سأتعرض لها بالتفصيل فى مكان لاحق من هذا الفصل . وفى آخر مرة رأيت فيها تلك الساحرة ، كانت هناك مشكلة بين الأخرس خادمها وأخته . فكل شخص تحت

الأرض له أخت . وأراد الأخرس صلحة يتقاسمها مع أخته ، ولكنها غضبت ورفضت ذلك قائلة إنها أعظم منه ولابد أن تكون لها وحدها أضحية كبش . كما طلبت أن تكون صلحتها هى أولاً . وساعتها وجدت الساحرة نفسها عاجزة عن توفير الأضحيتين . لذلك تأخرت المسألة ولم يتم عمل أى شىء وأنا موجودة فى مصر .

وهذه الساحرة يستدعيها الناس للمساعدة وعمل الأحجبة وتقديم المشورة فى كل المناسبات. فإذا اشتكت امرأة من شيخ لبسها فإنها تستشير الساحرة بخصوص الدافع الذى جعل الشيخ يسبب لها تلك المشاكل . وهناك امرأة أعرفها منذ سنوات أصابتها هذه الحالة، فاستدعت الساحرة لتقديم المشورة . وكنت حاضرة وشهدت كل الطقوس التى تمت . فبعد أن استمعت الساحرة إلى ما قالته المرأة عن متاعبها ، لجأت إلى أحد أركان الغرفة وغطت نفسها تمامًا ببطانية . وبعد أن تمتمت بكلمات لبعض الوقت صفقت فجأة وبدأت حواراً مع خادمتها زيديال . تبودلت التحية بين زيديال وكل من فى الغرفة . بمن فيهم أنا . بعد ذلك سألت الساحرة عن السبب الذى جعل الشيخ يضايق المرأة . قيل إن الشيخ يطلب زوجًا من الأقراط الذهبية تضعه المرأة التى يلبسها فى أذنها . وكذلك جلابية جديدة لونها أصفر ، ترتديها المرأة أيضًا . وإذا أحضرت تلك الأشياء فسيكون الشيخ راضيًا . وكان زوج المرأة فقيراً . ولكن إحضار القرط الذهبى والجلابية الجديدة كان أمراً لا بد منه ، على أن يدفع ثمنهما بالتقسيط . وبعد فترة قصيرة ذهبت إلى القرية مرة أخرى وسألت عن أحوال المرأة فعلمت أنها اشترت القرط والجلابية ، ولكنها كانت لا تزال تعانى من المشاكل ، وإن لم تكن بالقدر الذى كان من قبل . استشارت الساحرة مرة أخرى ، وأعتقد أن الشيخ طلب المزيد ، غير أنى لم استمع إلى كل التفاصيل !

وفى إحدى قرى الصعيد الصغيرة كان هناك ساحران ، أحدهما قبطى والآخر مسلم . وكلاهما على قدر من المهارة ويتمتعان بشهرة تعدت المنطقة التى يعيشان فيها . وهما من أصدقائى وقد أخبرانى بعدد من الوسائل والأحجبة التى يستخدمانها فى مناسبات عديدة . وأية تعويذة مكتوبة تؤخذ من السحرة توضع عادة فى كيس صغير من الجلد وتعلق بخيط أو شريط رفيع من الجلد حول رقبة الشخص الذى كتبت من أجله أو وسطه (الشكل ١١٥) . وهذه هى المعلومات التى حصلت عليها من هذين الرجلين .



(الشكل ١٢٥)

تعويذتان تضعهما أية امرأة
كى يظل زوجها يحبها

عندما يستدعى أحد السحرة لإخراج كنز مدفون فإنه يذهب ليلاً إلى الأرض التى يقال إن الكنز مدفون بها . وهناك يقوم بكنس تلك البقعة للتخلص من كل الشوائب ،ثم يرشها بالماء. وبعد أن يفعل ذلك ، يوقد ناراً يحرق فيها بعضاً من ريش الهدهد . وتكرر هذه العملية مرتين أو ثلاث مرات متتالية . وفى الليلة الثالثة يرسم الساحر صليبًا بطول ذلك الموقع وعرضه ، مستعملاً سكينًا فى ذلك . وهذا السكين منقوش عليه حروف الملك ألف ، وهى ترمز إلى خُدّام الملك . « ولابد أن أوضح هنا أن كل حرف من حروف الأبجدية ، التى أولها الألف ، له ملك مرتبط به » . بعد ذلك يحضر الساحر فروعًا من أربع أشجار مختلفة ، وهى الزيتون والرمان والمشمش والطرفا . يغرس الساحر هذه الفروع عند أطراف الصليب الأربعة ثم يجمع بين أطرافها العليا فتصير كالخيمة . ثم يأتى بجريدة من نخلة صغيرة لم تثمر بعد . ولابد أن يكون طول الجريدة كالمسافة بين كوع الساحر وأطراف أصابعه مضافًا إليها طول كفه. وبعد أن يربط أطراف الفروع الأربعة ، تربط عليها الجريدة فى وضع أفقى ، على أن يكون السعف قد نزع منها . ويكتب الساحر على جانبى الجريدة الحروف الخاصة بملوك النار والماء والهواء والتراب . فلكل من هذه العناصر ملكان ، أحدهما عفريت والآخر كائن سماوى . بعد ذلك يراقب الجريدة ليرى الاتجاه الذى تميل فيه . فإذا مالت ناحية اليمين نقل الفروع الأربعة المغروسة فى الأرض ناحية اليمين ثم يراقب الجريدة . ويظل يكرر هذا إلى أن يصل إلى النقطة

التى تظل عندها الجريدة أفقية تمامًا ولاتتحرك . ساعتها يعرف أنه وصل إلى المكان الذى أخفى الكنز تحته .

وها هى طريقة أخرى لاكتشاف الكنوز المخبأة . وفى هذه الحالة قام قس بدور الساحر واستطاع معرفة المكان الذى كان فيه الكنز .

عند أطراف قرية من قرى الصعيد يوجد حجر شديد الضخامة . ويستقر هذا الحجر على الأرض ويغطيه الماء جزءًا كبيراً من العام ؛ ربما يكون الماء المتبقى من زمن الفيضان . ويعتقد أن هذا الحجر مدفون تحت كنز قيمته عظيمة . ويقال إن الحجر يمتد مسافة تحت الأرض ، حيث تقع قاعدته على عمق عدة ياردات . ويفترض أن ديكًا هو الذى يحرس هذا الكنز ؛ إذ يظهر أحيانًا لبعض أهل القرية ويؤذن مرتين أو ثلاث مرات ثم يختفى .

ويمتلك أحد القساوسة الأقباط فى المنطقة كتابًا يحتوى على قائمة بكل الكنوز المدفونة فى تلك الناحية ، التى يعتقد أن بها العديد من تلك الكنوز المخبأة . وهناك إشارات كثيرة إلى وصف تلك الكنوز وأماكنها ، ومن بينها هذا الكنز الذى ذكرته . ويصر هذا القس على معرفة إن كان بإمكانه الوصول إليه أم لا . وبناء على ذلك ذهب إلى الحجر فى منتصف الليل ومعه الكتاب الذى يحتوى على الكلمات التى يجب قولها فى مثل هذا الموقف . وكان معه كذلك بخور حرقه فى صحن ، وهو يتلو الكلمات المذكورة فى الكتاب . وفجأة انشق الحجر إلى نصفين محدثًا صوتًا كأنه زئير الأسد . أزعج هذا الصوت سكان القرية فى المنطقة القريبة فهرعوا لمعرفة ما حدث . خشى القس من افتضاح أمره فتسلق نخلة عالية لا تبعد كثيراً عن ذلك المكان وظل فوقها حتى الفجر ثم عاد إلى بيته .

وقيل لى إنه ما إن توقف القس عن حرق البخور وقراءة الكلمات التى فى الكتاب ، وهو ما حدث فجأة عندما جعله الرعب يحتمى بالنخلة ، حتى إلتأم النصفان وعاد الحجر كما كان قطعة واحدة ليس بها أدنى أثر لشرخ .

ويقول الناس إنه لا طائل من محاولات إخراج الكنز . فكلما ازداد الحفر عمقاً هبط الحجر أكثر وأكثر .

وهناك أعداد كبيرة من القصص الشائعة فى أنحاء الريف حول الكنوز المخبأة . وقد سمعت عن وجود أكثر من كتاب يضم قائمة بالأماكن التى بها كنوز .

ومن عادة أهل الريف أن يخفوا أموالهم تحت الأرض ؛ داخل بيوتهم أو خارجها . وأعرف أكثر من ثرى يرفض وضع أمواله فى أحد البنوك ويفضل دفنها . وهؤلاء ، رغم ثرائهم ، ليسوا على أى قدر من التعليم ، سوى معرفتهم بالقراءة والكتابة . وربما أسروا بالموضع الذى أخفوا فيه أموالهم لأخ أو زوجة ؛ إلا أنهم قد يموتون دون أن يقولوا لأحد أين أخفيت الأموال . وقيل لى إن مثل مخابىء المال هذه يتم اكتشافها بالصدفة من حين لآخر . وهذه الاكتشافات تكفى وحدها لتفسير هذا الكم الكبير من القصص التى تروى عن الكنوز المخبأة التى يتداولها الناس فى طول الريف وعرضه .

وكما قلت من قبل ، وحسبما تؤكده الفقرات التالية ، فإن السحرة يستخدمون أحياناً لأغراض شريرة .

فإذا أراد رجل أن يجعل زوجته تكرهه كى يسهل عليه تطليقها ، طلب المساعدة من أحد السحرة الذى يفعل ما يلى . فهو يأتى ببيضة وضعتها دجاجة يوم أربعاء ثم يكتب على قشرتها بعض الكلمات السحرية ، يفترض أنها تكوّن معًا اسم ملك المقابر . بعد ذلك يدفن البيضة فى إحدى المقابر . ولا ينبغى أن يعلم إنسان بأى حال من الأحوال المقبرة التى دفنها فيها . وفى حالة المسيحيين ، لا بد أن يكون القبر لمسيحى ، وفى حالة المسلمين يكون لمسلم . ومع عودة الساحر من دفن البيضة فى المكان الذى أخفاها فيه يبدأ مفعول السحر . ولا بد أن تبقى البيضة دائمًا فى المكان الذى وضعها فيه . وإذا حدث أن اكتشف إنسان المكان وأخرجها منه ، فقد السحر أثره وعادت المرأة إلى حب زوجها من جديد .

وإذا أراد إنسان الموت لرجل يعتبره عدواً له ، ذهب إلى الساحر الذى يقوم بالآتى . فهو يأتى بدجاجة ويذبحها ويضع دمها فى وعاء . بعد ذلك يأتى ببيضة وضعتها دجاجة ريشها أسود غطيس ويكتب عليها المربع السحرى (الشكل ١١٦) بدم الدجاجة التى ذبحها . يلى ذلك حرق البخور الذى يمسك بالبيضة فوق دخانه بحيث تكون الكتابة لأسفل . وهو يتلو هذه الكلمات ثلاث مرات : « بسم الله الرحمن الرحيم . بسم الله القوى ذى الجلال . مالك الملك ، العرش والكرسى . السماء والأرض . تبارك الله رب العالمين ، رب القوة والقدرة . نور الأنوار وروح الأرواح . سبحانه رب الملائكة والأرواح وتعالى . تول أيها الملاك جبرائيل مرض (بمعنى اجعله مريضاً) فلان ابن فلانة . بسرعة ، الآن » . وبعد ذلك تخبأ البيضة فى إحدى المقابر .

وقيل لى إن هذه تعويذة تثير الاهتمام : فهى عبارة عن شر أسود مجسم وأرواح تجتذب الدماء وقبر تسكنه أرواح شريرة [1].

١١١	١ع	١٣	١٤١
١٤	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ى	١٩	١٠٩	ع
حى	ص	٢٥	١٩

(الشكل ١١٦)

مربع سحرى

وقد يفيد أن أذكر هنا أنه فى كل تلك الأعمال والتعاويذ والكلمات السحرية لا بد من كتابة اسم أم الإنسان الذى يعنيه الأمر . وإذا ذكر اسم الأب بدلاً من الأم فسد مفعول السحر. والأحداث التى أرويها فى القصة التالية ، يؤكد مصدرى بشدة على أنها صحيحة تمام الصحة.

فى إحدى القرى الصغيرة بالصعيد كان يعيش رجل وزوجته التى كانت تتمتع بجمال المنظر. وفى يوم من الأيام كان قاض [2] معين يزور القرية فرآها ووقع فى حبها فى التو واللحظة ورغب فى زواجها . ولعلمه بأنها متزوجة بالفعل ، لم يكن أمامه سوى التخلص من زوجها . لذلك قرر أن يصيب ذلك التعيس بالجنون . ولكى يحقق ذلك ، جعل ساحراً يكتب له تعويذة على قطعة ورق ربطها فى جريدة نخلة غير ظاهرة ، بحيث لا يراها أحد بسهولة . والسبب فى ربطه للعمل فى جريدة النخلة هو أنه مع تحريك الريح لها فى كل الاتجاهات يصاب عقل الرجل المذكور اسمه فى العمل بالعذاب والاضطراب . ومن المحتمل أن يكون زوج المرأة قد عرف ما حدث ، إلا أن هذا المسكين كان قد فقد عقله . فكان يقطع ملابسه ويربط حبلاً حول وسطه ويتحدث أحيانًا بلغة غير مفهومة .

كان يقول لصبية القرية الذين يتجمعون حوله : « لازم تقولوا كى رى براراكى رى برو » .

وكان دومًا يقول « كاملة راحت شرق ، كاملة راحت شرق » ويكرر ذلك مرات ومرات . وعندما وجدت زوجته كاملة أنه لم يتحسن ، طُلقت منه . وإثر طلاقها طلبها القاضى للزواج وقُبل طلبه . وأثناء ذلك كان الزوج المسكين يطوف القرية بلا هدف قائلاً إنه ملك القرية . وكان يجمع أعواد البوص ويعتبر كل عود منها بندقية ويسلح كل صبى من صبيان القرية

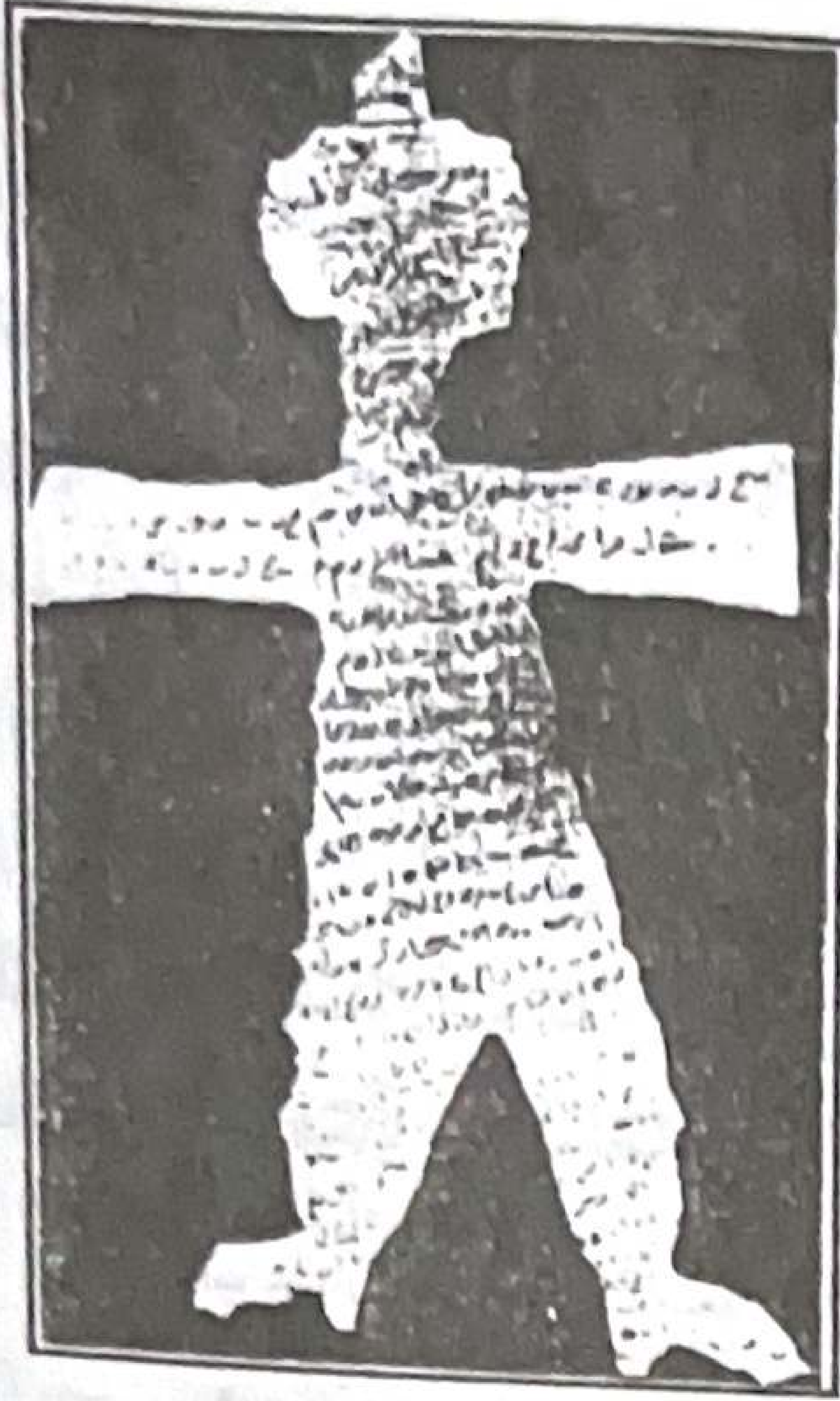
بأحدها قائلاً إنه ملكهم ولا بد أن يتبعوه لمحاربة القرى الأخرى . وفى يوم السوق كان يسلب قطعًا كبيرة من اللحم المعد للبيع ويأكلها نية . وكان يفعل الشىء نفسه بالسمك الذى كان الصيادون يصطادونه من البركة القريبة من القرية . وفى النهاية ، وبعد أن وجد عمدة القرية أن هذا الرجل المسكين قد أصبح عنصرًا مسببًا للمشاكل ، كتب عنه للمسئولين فأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية الذى مات فيه . وحتى آخر لحظة كانت الكلمة الوحيدة ذات المعنى التى ينطق بها هى اسم زوجته . ومازالت الأحداث المرتبطة بهذا الموضوع مادة مشتركة فى حديث قرية الرجل المجنون .

وقد شهدت بنفسى القاضى الذى قام بهذا الدور البارز والشرير فى ذلك الجزء من تاريخ القرية . وتمثل زوجة المجنون المسكين التى تزوجها الطريقة التى يمكن بها سحب امرأة من على مسافة بعيدة كما سنرى .

وهذا ما يفعله الساحر كى يحضر رجلاً أو امرأة من مسافة بعيدة . فهو يأخذ أربعة فروع من شجرة رمان ويغرسها فى الأرض ويربط أطرافها العلوية معًا . بعد ذلك يقص ورقة على هيئة رجل أو امرأة ويكتب عليها العمل (الشكل ١١٧) [٣]. وقد قام بعمله والكتابة عليه ساحر قبطى تحدثت عنه من قبل . ومع أنه يفترض من الناحية النظرية أن يختلف الشكل حسب كل جنس ، فهذه القاعدة لا تراعى دائمًا . فالشكل الذى لدى يقال أنه يمثل كلا الجنسين على حد سواء . وبعد الانتهاء من الكتابة على الشكل الورقى ، يعلقه عند نقطة التقاء الفروع بقطعة خيط أحمر من الحرير ويضع أسفله البخور المحترق ثم يبدأ فى تلاوة التعاويذ المكتوبة على الشكل .

ولا بد هنا من الإشارة إلى ما يقال عن وجود سبعة ملوك تحت الأرض ، ثلاثة منهم أكثر شهرة من الآخرين . وهم طارش وقاسورا وزُبا ذو الأربعة رؤوس . وهؤلاء أسماؤهم مكتوبة على الشكل . والملوك الأربعة الآخرون هم ميمون وبرقان والأحمر والأبيض .

وتقول التعويذة : " أيها الملك طارش ، أيها الملك قاسورا ، أيها الملك زُبا صاحب الأربعة رؤوس ! أيها الملوك العظام الثلاثة من العالم السفلى ، اعطوا أوامركم لخدامكم كى يحضروا فلانًا (أو فلانة) ابن (أو ابنة) فلانة ، (ويذكر اسم الأم) . إذا كان جالسًا (أو كانت جالسة) إجعله يقف (أو اجعلها تقف) واخطفه (أو اخطفها) وضعه (أو ضعها) على حصان وطر به (أو بها) فى الهواء حتى تصل إلى بيتى " [٤].



(الشكل ١١٧)

تعويذة لجذب رجل أو امرأة من على بعد

كان أحد أصدقائى يعرف ذلك الساحر القبطى معرفة جيدة . وكان فى وقت من الأوقات يشك كثيرًا فى قدراته ويميل إلى الاعتقاد بأنه يخدع الناس بحيله الذكية . وكان الساحر يعلم ذلك جيدًا . وعندما التقى به ذات يوم فى القرية تحدث معه وأبلغه أنه على علم بعدم اعتقاده فى سحره . بعد ذلك عرض عليه أن يريه قدراته إذا ذهب معه فى التو واللحظة إلى بيته . وافق الرجل وأدخله الساحر غرفته الخاصة حيث قام بإعداد فروع الشجر بالطريقة التى ذكرتها من قبل . فى أول الأمر استدعى العفريت الذى أمره بإحضار المرأة التى كان القاضى قد تزوجها . وأظن أن العفريت كان إما أحد هؤلاء الملوك أو واحدًا من رسلهم . وقال صديقى إنه رأى العفريت رأى العين . وبعد دقيقة أو دقيقتين ظهرت أمامهما المرأة التى استدعاها الساحر وقال لى الرجل إنه لاحظ أن جلبابها كان مغطى بالدقيق . وبعد لحظات صرفها الساحر واختفت . وكان قد جىء بالمرأة من قرية تبعد ما يقرب من ثلاثة أميال . وبعد التحرى ، علم صديقى أنها كانت تعد الخبز عندما أحضرت أمامهما ؛ فكان من الطبيعى أن يكون هناك دقيق على ملابسها ! وبعد هذا العرض المشهود ، قال لى صديقى إنه شعر أن الساحر لديه بحق بعض القدرات غير العادية .

وإحدى التعاويذ التى فى حوزة صديقى الساحر « تجعل أى ملك أو حاكم رحيمًا برعيته وتضمن أن يوافق على أى طلب يقدم إليه » . ولكى تتحقق فاعلية هذه التعويذة لا بد من

عمل التالى : يقوم الساحر عند شروق الشمس بإيقاد نار باستعمال الخشب أو الفحم أو «الجلة» وليس البوص . يضع فى هذه النار نوعين من البخور : المستكة وبخور معطر بالمسك وفى الوقت الذى يحترق فيه البخور ، يردد الساحر أسماء الملائكة الذين فى السماء الرابعة واسم قائدهم سبع مرات . واسم قائد ملائكة السماء الرابعة هو كليميا .

وبعد أن ينتهى من ترديد الأسماء ، يبدأ فى ترديد صيغة أولها : " يا ملائكة السماء وقائد ملائكة الرابعة ! أيتها الشمس التى تهب النور للعالم أجمع ! " ثم يعود فيخاطب الشمس قائلاً : "أرجوك أيها الشمس من أجل ملك الملوك (أو الحاكم ، إذا كانت الحال كذلك، ويذكر اسمه واسم أمه) أن تجعلى قلبه رحيمًا مع فلان (أى صاحب الطلب) " . ثم يكتب الساحر حجابًا ويعطيه لصاحبه الحاجة .

والحجاب عبارة عن تكرار لأسماء ملائكة السماء الرابعة ، ولا بد من تعليقه تحت الإبط الأيسر . وهذه الأحجبة توضع عادة فى أكياس من الجلد ، وتعلق بخيط حول الرقبة بطريقة تجعل الحجاب يتدلى تحت الإبط .

وإذا أراد رجل أن يضر عدواً بجعله فاقداً للوعى ، فإنه يذهب للساحر الذى يطلب منه إحضار بعض جذور الفوة (٥) وبذور الكرات ودهن غراب ودهن فكرون (سلحفاة) وبذور البصل . وقيل لى إن هذه الأشياء يمكن شراؤها من بقال القرية . بعد ذلك لا بد من إشعال نار تلقى فيها الأشياء الخمسة التى ذكرتها . والدخان الصادر عن هذه النار يجعل كل من يشمها يفقد وعيه . ومن الواضح أن الرجل يحتال على عدوه كى يأتى إلى بيته ، دون أن يدرى شيئاً عما دُبر له : حيث يفقد وعيه بسبب الأدخنة قبل أن يدرك المقلب الذى وقع فيه . وطبقًا لما قاله مصدرى ، فإن هذه الطريقة جربت كثيراً ولم تفشل قط .

ولكى يستعيد الرجل وعيه ، لا بد أن يحقن بوله فى فتحتى أنفه : فهذه كما قيل لى طريقة مؤكدة للإفاقة . وأى إنسان يشعل ناراً من هذا النوع لا بد أولاً أن يصنع خليطًا من السمن وزيت الزيتون ويسد به فتحتى أنفه لكى لا تؤثر عليه الأدخنة .

هذه الوسيلة يلجأ إليها كذلك المسافرون عبر المناطق الخطرة والمنعزلة : حيث يحتمل أن يتعرضوا لخطر الحيوانات المتوحشة . فهذه الحيوانات تفقد وعيها عندما تشم الأدخنة الصادرة عن النار . وبذلك يمر المسافرون من عندها فى أمان .

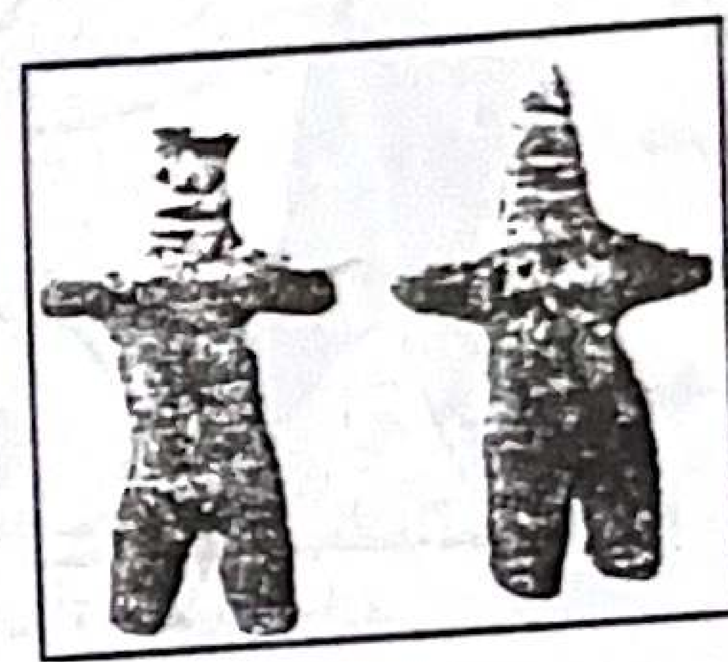
وفى يوم من أيام عام ١٩٢٦، عندما كنت أزور قرية معينة فى مصر الوسطى ، جاءنى أحد أصدقائى ، وكان عى قدر كبير من الاحترام والمكانة الرفيعة ، وأبغلنى أن أشياء عديدة سرقت من منزله وأنه يعتزم الاستعانة بساحر مشهود له بالبراعة فى الكشف عن اللصوص عن طريق التنجيم . دعانى هذا الصديق لحضور العملية التى تمت بعد عدة أيام . جاء الساحر من قرية أخرى تبعد عدة أميال ، وأتوا به ليتعرف علىّ . طلبت له قهوة وسجائر وبعد أن فرغنا من تناولها بدأ العمل . قطع الساحر بعض الورق المكتوب إلى شرائح صغيرة وكتب على كل واحدة منها اسم كان يقترحه صديقى . بعد ذلك أخرج الساحر مصحفًا وطلب مفتاح أحد الأبواب . أحضر مفتاح ولكنه رفضه ؛ إذ قال إنه ليس محلى الصنع . وبعد أن وجدوا المفتاح المطلوب ، قام الساحر بفتح المصحف عند صورة معينة ووضع واحدة من الشرائح التى تحمل الأسماء ثم وضع المفتاح ، وترك مقبضه ظاهراً خارج المصحف . بعد ذلك ربط المصحف بطريقة تحول دون تحرك المفتاح ، ثم أحضر صحنًا من الفخار به فحم مشتعل ألقى فيه بالبخور . جلس رجل ثالث كان موجوداً أمام الساحر وبينهما البخور المحترق والمصحف معلق من المفتاح فى سبابة اليد اليمنى لكل منهما (الشكل ١١٨). كانت أدخنة البخور تتصاعد حول



(الشكل ١١٨) العرافة باستخدام القرأة لتحديد السارق

المصحف فى الوقت الذى كان الساحر يتلو فيه بعض آيات القرآن . وبعد قليل بدأ المصحف يتحرك . وحسب الاتجاه الذى يتحرك فيه ، إلى اليمين أو اليسار ، فإن الرجل الذى كتب اسمه على قطعة الورق التى أختيرت يكون مذنبًا أو بريئًا . بعد ذلك أجرى الاختبار نفسه على العديد من قطع الورق . وقد اتضح أن رجلين أو ثلاثة منهم لصوص . وقال لى الرجل الذى سرقت منه الأشياء إنه كان يشك فى هؤلاء منذ البداية . ولأنهم من أقربائه ، فهو لم يرد أن يوجه لهم الاتهام . وهؤلاء هم الفرع الفقير من عائلته . ولذلك فهم شديدو الغيرة من قريبهم الغنى . والساحر الذى استخدم فى هذه المناسبة مشهور بمهارته فى مثل هذه الطرق الخاصة بالتنجيم ولا يشك أحد فى قراراته .

وفى مصر مازال هناك شكل من أشكال السحر الأسود يمارس حتى الآن باستعمال أشكال آدمية من الشمع أو الطين . فإذا أراد رجل أن ينتقم من رجل آخر يتصور أنه ألحق به ضرراً شديداً ، فإنه يزور أحد السحرة ويطلب منه أن يصنع شكلاً من الشمع أو الطين (الشكل ١١٩) يفترض أنه يمثل الرجل الذى يريد إيذاءه . وإذا استخدم الشمع فإن الشكل يلقى به أحيانًا فى النار فى الوقت الذى يتلو فيه الساحر بعض التعاويذ . أما إذا كان من الطين فيوضع فى الماء . وعندما تختفى هذه الأشكال فى النار أو الماء ، فإن الرجل المراد التأثير عليه يموت شيئًا فشيئًا . وهذا الإجراء المتطرف نادراً ما يتم اللجوء إليه . فالواقع أنه من الصعب جداً أن تجد ساحراً يوافق على القيام به ؛ حتى إذا تلقى وعداً بمبلغ كبير من المال . ويفترض أن الرجل الذى يستخدم ضده مثل هذا النوع من السحر لا علاج له . فموته حتمى ؛ تمامًا كما هو الحال بالنسبة للأشكال التى لا يمكن لأحد إنقاذها من النار أو الماء .



(الشكل ١١٩)

شكلان من الشمع يستخدمان فى السحر الأسود

وهذه الأشكال الطينية أو الشمعية تستخدم بصورة أكبر لإحداث نتائج أقل خطورة لمن يفترض أنها تمثلهم . فالإبر أو الدبابيس تغرس فيها . وإذا لم تتوفر هذه أو تلك ، استخدمت بدلاً منها أطراف سعف النخيل الحادة . وحيثما غرست الإبرة أو الدبوس فى الشكل ، فإن ما يقابل هذا المكان فى جسم صاحبه يصاب بالألم ما بقى الدبوس أو الإبرة فى الشمع أو الطين . وهذا الوخز يجب أن يقوم به دائمًا الساحر بنفسه ، حيث تصاحب ذلك تلاوة بعض التعاويذ السحرية . وإذا خمن الرجل الذى يحدث له ذلك السبب فى حدوث هذا الألم ، فإنه يذهب إلى الساحر ويغريه بمبلغ أكبر من المال لإزالة الدبوس من الشكل . وبمجرد أن يفعل ذلك ، يتوقف الشعور بالألم لدى الرجل .

وكان الناس يلجأون إلى ممارسات شبيهة حتى وقت قريب فى أكثر من واحدة من الجزر البريطانية . ومازال ذلك موجوداً فى كثير من بلاد العالم ، كما يتضح من المجموعة الموجودة فى متحف بيت ريفرز بأكسفورد .

وقد قلت فى مستهل هذا الفصل إنه يُعتقد أن بعض الناس تلبسهم مشايخ . وهؤلاء المشايخ من بين العديد من الأقوام التى تعيش تحت الأرض التى يؤمن الفلاحون إيمانًا قويًا بوجودها . وهؤلاء المشايخ إما طيبون أو شريرون . فإن كانوا طيبين ، كانوا عونًا لمن يلبسونه، وإن كانوا شريرين ، فإنهم لا يتوقفون عن طلب ما يرضيهم .

واللبس قد يحدث فجأة دون أن يعرف له سبب . ويعتقد كذلك أنه إذا فزعت امرأة فإنها تكون عرضة للبس . مثال ذلك ما سمعته عن أن أية امرأة تهبط درجات السلم المؤدى من صحن البيت إلى السطح فى الظلام ، ولم يكن معها أى ضوء ، فقد يصيبها الخوف وتسقط . وفى هذه الحالة يلبسها أحد المشايخ على الفور . وسوف تدرك هى ذلك وتطلب من الشيخ أن يبلغها باسمه ؛ حيث يعتقد أنه يرد قائلاً « أنا الشيخ فلان » .

ويمكن أن يلبس الرجل أو المرأة أكثر من شيخ من الجنسين . والذين تلبسهم المشايخ يظلون كذلك إلى أن يموتوا . وكما أوضحت من قبل ، فإن الشخص الذى يسبب له الشيخ الذى يلبسه مشاكل يستشير أحد السحرة فيخبره بما يريده الشيخ .

وأحيانًا يكون من الضرورى عمل الزار . والواقع أن الذين يعانون من أحد المشايخ يقيمون الزار فى بيوتهم ، أو يحضرون الزار الذى يقام فى بيوت الآخرين . وعندما يعقد زار ، يعلم بذلك كل أهل القرية ؛ حيث يسمعون صوت الطبول ويشمون رائحة البخور . ويجتذب هذا

بالطبع كل المصابين بهذا النوع من اللبس . وقيل لى إن المشايخ هم الذين « يجعلونهم يذهبون » . وهناك أغانى معينة يغنيها قائد فرقة الزار ومساعدوه . وفى بعض الحالات لا يكون هنا معنى للأغانى . ومن الأغانى ما يرضى شيخًا ولايرضى غيره . لذلك فإنه إذا كان رجل ما يلبسه عدة مشايخ ، فلابد أن تغنى الأغانى التى ترضى كلاً منهم بدوره .

وهناك امرأة أعرفها فقدت القدرة على استعمال ساقيها اللتين تورمتا بصورة غير عادية بعد أن لبست بهذه الطريقة . وكانت إذا تحركت تصرخ من الألم . وعندما رأى أخوها ما حاق بها ، قام بعمل ترتيبات عقد الزار وأحضر قائد فرقة الزار ومساعديه إلى بيته ومعهم آلاتهم الموسيقية ، الطبلة والدفوف . وما إن بدأ الزار ، الذى عقد فى غرفة داخلية ، حتى قامت المريضة فجأة وبدأت فى الرقص وتحدث الشيخ من خلالها .

سأله أخوها والمجتمعون فى الزار عما يريده فأجابهم « لا أريد شيئًا » .

سأله مرة ثانية أخوها وأصدقاؤه : « لماذا إذن تجعلها حزينة ؟ ومن أين أتيت ؟ هل أنت مصرى أم سودانى ؟ »

أجابهم : « كانت دائمًا جالسة وكانت حزينة بسبب موت أبنائها وبذلك دخلت فيها . »

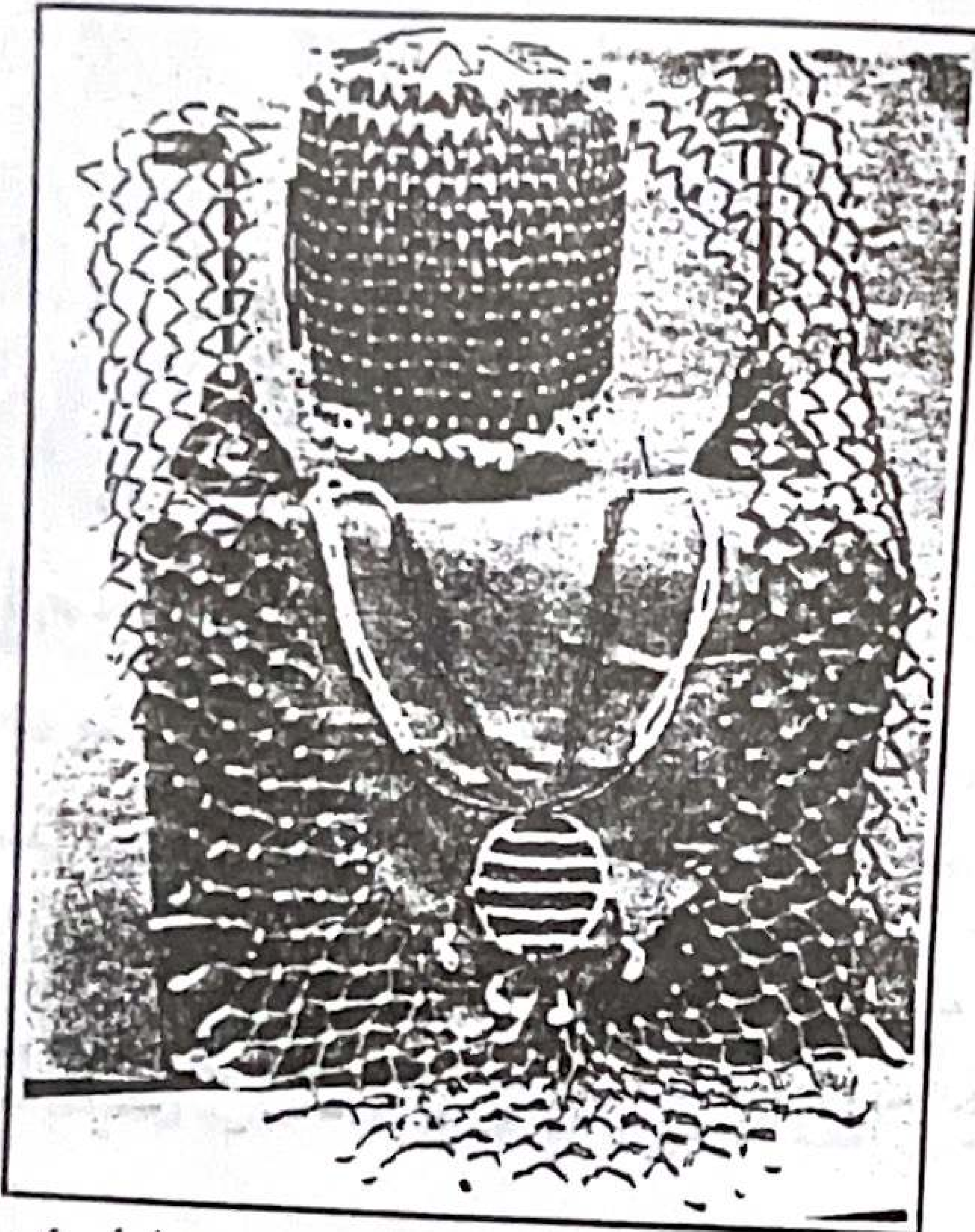
عادوا ليسألوه : « ماذا تريد ؟ »

فى هذه المرة قال الشيخ « أريد خلاخيل فضة وملابس جميلة . ولا بد ألا تكون بائسة » .

بعد أسبوع احتفل بالصلحة ، التى تحدثنا عنها من قبل وخطواتها كما يلى : يذبح خروف ويوضع بعضًا من دمه على جلباب المرأة الملبوسة ، ويظل الناس يغنون ويعزفون آلاتهم الموسيقية طوال الوقت . وتحضر سبع شموع وتوضع فى صينية نحاس كبيرة فى وسط الغرفة . كما توضع فى وسط الصينية سبع أنواع من الفواكه المسكرة ومعها التمر واللوز والزبيب. وتغطى بمنشفة وتوضع عليها إحدى الشموع . بعد ذلك توقد كل الشموع ويأكل الحاضرون ومعهم المريض أو المريضة ، وتقدم كمية إضافية للساحر أو الساحرة . أو يعطى أحد الحاضرين الساحر أو الساحرة قطعة نقود فئة الخمسة قروش يغمسها فى دم الخروف . والذى فعل ذلك فى حالة المرأة التى تحدثت عنها هو أخوها . وتلف القطعة فى قماش قطنى وتعطى للمرأة الملبوسة أو الرجل الملبوس ليضعها فى كيس جلدى يعلقه فى رقبته، بحيث يتدلى تحت إبطه الأيسر . وهذه تعويذة يفترض كذلك أنها هدية للشيخ الذى يلبسها أو يلبسه وتسمى «لازمة».

وفى إحدى المرات التى حضرت فيها الزار ، دخل رجل وجلس بعض الوقت ثم خرج . وقيل لى بعد ذلك إن شيخه لم تعجبه الأغانى التى كانت تغنى ؛ مما جعله لا يطيق الجلوس فى الغرفة . وعندما وقفت امرأة ملبوسة فى ذلك الزار ورقصت ، أخذت تنبح كالكلب وتغيرت ملامحها تمامًا وأصبح وجهها شاحبًا ومسحوبًا . وفى مرة أخرى أصبح رجل شديد العنف وأخذ يلقى بنفسه هنا وهناك ، واحتاج الأمر إلى أن يوقفه ثلاثة أو أربعة رجال . وبعد أن مرت هذه النوبة من الإثارة ، بدت على وجهه نظرة هادئة .

وفى هذه المناسبات ترتدى النساء أنواعًا خاصة من الزينة (الشكل ١٢٠) ، إن كن قادرات على شرائها . ولا بد أن ترتدى المرأة ملابس جيدة . والذين تلبسهم المشايخ ، غالبًا ما يفترض أن لهم مقدرة على تحديد الأماكن التى تخبأ فيها الأشياء المسروقة . وذات مرة فقد شاب من معارفى مفتاحًا . وعندما ظن أن أحد تلامذته سرقه ، ذهب إلى رجل ملبوس . وبعد أن أعطاه مبلغًا صغيرًا من المال، سأله أى التلاميذ سرق المفتاح . قال له الرجل إن أحدًا منهم لم يسرقه ، وإنما سقط منه فى حقيبة سفره . عاد الشاب إلى المدرسة وبحث فى حقيبته بهدوء فوجد المفتاح كما قال له الرجل .



(الشكل ١٢٠) الزينة – حزام ودلاية وقلنسوة – ترتديها المرأة أحيانًا فى الزار
(الخرز من اللونين الأبيض والأخضر)

وليس من الضرورى أن تتبع الصلحة الزار . فهى تحدث عندما يثير الشيخ المشاكل للرجل أو المرأة لبعض الوقت ، ثم يرضى فى نهاية الأمر . وهى شكل من أشكال عقد الصلح بين الشيخ والإنسان الذى يلبسه . وإذا كان أى إنسان يلبسه أكثر من شيخ ، لا تكون هناك ضرورة لذبح أكثر من خروف فى الصلحة ؛ فالأضحية الواحدة ترضيهم جميعًا .

وهذا الاعتقاد فى احتمال أن يلبس الإنسان أحد المشايخ مؤلم جدًا . فالنساء اللاتى يفترضن أنهن يعانين من هذه الحالة ، يصبحن على قدر كبير من الهستيريا . كما أن أزواجهن ينفقون أموالاً كثيرة ، خوفًا من العواقب الوخيمة . ويحاول المسئولون وقف عقد الزار . إلا أن منع هذه الحفلات تمامًا مسألة صعبة ؛ فالمعتقدات المرتبطة بها جذورها عميقة فى عقول الفلاحين .

الهوامش :

(١) أدين بهذه المعلومة للسيد إى . إس . توماس .

(٢) المقصود بالقاضى هنا « المأذون » .

(٣) هذا الشكل يسمى فى المأثور الشعبى « عروسة » (المترجم) .

(٤) الكتابة الموجودة على هذا الشكل عبارة عن حروف غير مشبكة . وما ذكرته هنا هو ما قاله لى الساحر أنه مكتوب عليه . ولاشك فى أن عدم اتقان النسخ بصورة مستمرة وراء هذه الكتابة التى لا معنى لها .

(٥) الفوة نبات صبغى تستخرج منه صبغة حمراء (المترجم) .

الفصل الثانى عشر

مشعوذ ومشعوذة القرية

كثيرًا ما يجمع ساحر أو ساحرة القرية بين ممارسة الطب وممارسة السحر . والحقيقة أنه يصعب فى كثير من الحالات تمييز الأولى من الثانية ؛ فكلتاهما وثيقة الارتباط بالأخرى . وكثير من العلاج ليس سوى سحر صرف . وعندما توصف بعض الأعشاب ، فإن ذلك غالبًا ما تصاحبه توجيهات من « طبيب » القرية بضرورة تلاوة بعض التعاويذ السحرية . وبدون هذه الإضافة ، يعتبر كثير من الفلاحين الدواء عديم الفائدة ؛ لإيمانهم الشديد بفاعلية السحر !



(الشكل ١٢١)

معالجة تمرر قطعة من بوص الذرة حول رأس مريضة لتعالجها من المرض

وفى إحدى القرى ، التى أقمت فيها لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فى كل مرة ، تعيش امرأة اشتهرت بطيبة قلبها . وكل أبناء قريتها يعتقدون فيها أيما اعتقاد . وكثيرًا ما يرجوها المرضى أن تأتى إليهم وتشفيهم . وهى تجلس أو تقف بجوار الشخص المريض وتمسك بقطعة قصيرة من البوص وتمررها حول رأسه ، مرددة أدعية وآيات من القرآن (الشكل ١٢١) . وبعد ذلك ، لا بد من حرق قطعة البوص أو إلقائها فى ماء جار . ويعتقد أن العلة تدخل قطعة

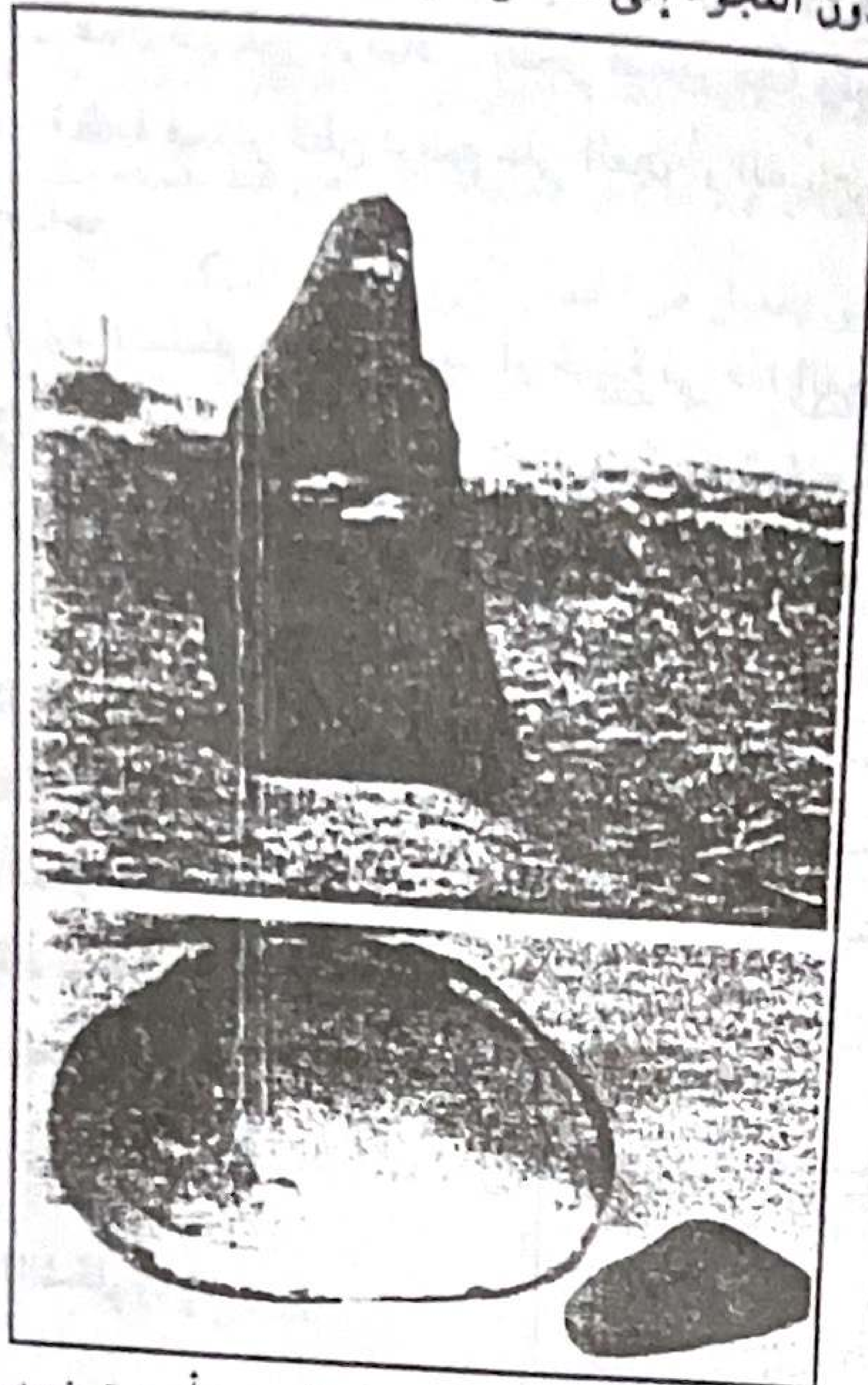
البوص ويقضى عليها بالنار أو يحملها الماء بعيداً . وحدث مرتين أن صحتى لم تكن على مايرام ، وطلب أصدقائى فى القرية من هذه المرأة أن تزورنى . وفى المرتين وافقت على طلبها وقامت بحرق البوص بعد أن انتهت من عملها . وقال أصدقائى إنهم لاحظوا تحسناً واضحاً على حالتى .

ومن الواضح أنه فى تلك القرى المصرية التى يكثر فيها الغبار والذباب ، وحيث الفلاحون أنفسهم شديدوا الجهل بقواعد الصحة ، تشيع أمراض العيون ومشاكلها . إنه أمر مرعب أن ترى العيوب التى يعانى منها إبصار كثير من الناس فى طبقة الفلاحين ومقدار أمراض العيون، إن لم يكن العمى الكامل ، التى تنتشر فيها . ويحدث كل هذا رغم وجود مستشفيات العيون الممتازة التى تديرها الحكومة . ومما يؤسف له أن بذور هذه الأمراض تعود إلى فترة الطفولة ، وربما مرحلة الرضاعة . وإلى أن تصبح المرأة أقل جهلاً وتتعلم كيف تدرك أهمية المحافظة على نظافة طفلها ، سيكون من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، على الأطباء أن يكافحوا هذا الكم الكبير من أمراض العيون التى يعانى منها مئات الفلاحين. وفى ظل هذه الظروف ، هناك حاجة ملحة إلى علاج التهاب العيون الذى يأخذ أشكالاً عديدة. وها هى بعض أنواع العلاج الخاص بمشاكل العيون التى يستخدمها مشعوذ أو مشعوذة القرية.

وتتمتع المشعوذة التى تحدثت عن أسلوبها فى العلاج من قبل بشهرة كبيرة كطبيبة عيون . وهؤلاء الذين يعانون من التهاب العينين وتورم الجفنين غالبًا ما يلجأون إليها للعلاج . وهى تتناول قطعة سكر وتقلب الجفن الملتهب وتحكه بقطعة سكر . وقيل لى إن « الدم الأسود » يخرج بعد هذه العملية . بعد ذلك تتناول بصلة كبيرة وتعصرها وتخلط عصيرها بقليل من الملح ثم تقطر هذا الخليط فى عينى المريض . وقالت لى مصدرى : « إن هذا مؤلم جداً » . إلا أنها أضافت أن لذلك فائدة كبيرة . وفى الوقت الذى تحك فيه الجزء الداخلى من الجفن بقطعة السكر ، غالبًا ما يقوم مرضاها بشد آذانهم بأصابعهم ؛ إذ يفترض أن هذا يقلل الألم الناتج عن العمليـة . ولا بد أن تظل العين ، أو العينان ، مغطاة بمنديل لمدة ثلاثة أيام ، كى لا يدخلها الهواء. وفى نهاية الأيام الثلاثة ، تعطى المرأة لمريضها جرعة ثانية من عصير البصل والملح . وبعد عدة دقائق تقطر خليطًا من التوتيا(1) وعسل النحل تحت الجفن . ويعتقد أن الالتهاب سرعان ما يختفى بعد ذلك .

وفى قرية أخرى تقع جنوبُ هذه القرية ، هناك كذلك امرأة يعتبرونها اختصاصية فى العيون. وما لديها من معرفة تتعلق بهذه الحرفة ، إلى جانب إحدى الأدوات التى تستخدمها ،

تتوارثها عائلتها طوال جيلين أو ثلاثة أجيال ، حسبما قالته هى لى . فهى لديها محارة وحجر أسود يسمى « حجر الطرفا » . وهى تصنع أدوية العين عن طريق بل الجزء الداخلى للمحارة بالماء، ثم تحكه بالحجر (الشكل ١٢٢). وهى بذلك تكون سائلاً أبيض يسميه الفلاحون «لبن» . وهم يعتقدون ، وتشاركهم المرأة نفسها فى ذلك ، أن هذا « اللبن » يخرج من الحجر؛ فى حين أنه ينتج عن سحق الحجر للجزء الداخلى للمحارة . ويعتقد أن هذا السائل علاج ممتاز لالتهاب العين . والذين يعانون من ذلك يزورون المرأة ويجعلونها تقطر دواءها فى عيونهم . وهذا النوع من أدوية العيون معروف فى أنحاء أخرى من مصر كذلك . إلا أن الناس يصنعونه ويضعونه بأنفسهم ، دون اللجوء إلى مشعوذ أو مشعوذة .



(الشكل ١٢٢) المتخصصة فى العيون ممسكة بمحارتها وحجر أسود توضحهما الصورة السفلى

ويوجد المحار فى الصحراء . لذلك فإنه عندما تبلى واحدة ، لا يصعب الحصول على أخرى جديدة . ويقال كذلك إن الأحجار المستخدمة يؤتى بها هى الأخرى من الصحراء .

وأبلغنى شيخ يجمع بين حرفة السحر وحرفة الطب أنه غالبًا ما يصف العلاج التالى لمداواة التهاب العيـون . إذ تدق بعض أوراق اللوتس فى هاون ثم تخلط بحليب الماعز . ثم تغسل

الجفون مرتين أو ثلاث مرات يوميًا بهذا المستحضر ، حيث يختفى أى ارتفاع فى الحرا وتشفى العين بسرعة . وعلاجه الخاص بالعين التى تصاب بلكمة ، يتم بإحضار بعض سعف النخيل الذى يغسل جيداً ويوضع فى هاون ويستخرج عصيره بدقه بيد الهاون . يخلط العصير بقليل من الملح ويقطر الخليط فى العين المصابة . وهو يقول إن وضع الخليط ثلاث مرات كفيل بإتمام الشفاء . وطبيبة العيون التى تحدثت عنها من قبل لديها علاج مختلف للعين التى تعرضت للعنف . فهى تحك محارتها كما ذكرت ثم تخلط السائل بالعسل الأسود وتغسل العين بهذا المستحضر .

وإذا كان هناك رجل يعانى من التهاب فى العين ، أو تدمع عيناه بكثرة ، فعليه أن يأتى بدرهمين من الأفيون ودرهمين من بذور الرشاد . تطحن البذور معًا وتخلط ببياض بيضة، ثم يُصب المستحضر على قطعة قماش قطن توضع على العين أو العينين . وهذه وصفة لساحر قبطى يقول إنها علاج ناجع .

ويدرك الفلاحون قيمة التدليك . وهناك خبير أو خبيرة فى هذا الفن فى كثير من القرى . ويستعان بخدمات هؤلاء فى حالة الإمساك المستعصية ، وكذلك لعلاج آلام الظهر والأطراف . والشخص الذى يعانى من ألم فى الظهر يعالج بالطريقة التالية . يطلب « الطبيب » من مريضه أن ينام على الأرض على وجهه، ثم يربط رسغى قدميه بحبل ويربط يديه خلف ظهره بحبل آخر . بعد ذلك يضع « الطبيب » قدمه على المكان الذى يشكو منه المريض فى ظهره ، ثم يمسك بكلتا يديه طرفى الحبلين اللذين يربطان يدى الرجل وقدميه ويشدهما لأعلى . ويضغط بقدمه على العمود الفقرى . وربما يسمع صوت قرقعة ، أو قد يشعر المريض نفسه أن شيئًا ما فى ظهره قد عاد إلى مكانه ، ثم يشفى . وتقوم امرأة بعلاج بنات جنسها بنفس الطريقة العنيفة .



(الشكل ١٢٣)

تعويذة لعلاج الصداع

كما يعالج الصداع أحيانًا بالطريقة التالية : إذ يكتب الساحر تعويذة تعلق على رأس المريض فى الموضع الذى يشتد فيه الألم ، ولابد من كتاب التعويذة بشكل دائرى وباللغة العربية طبعًا، والشكل ١٢٣ نسخة طبق الأصل ، ولكنها مترجمة .

وفيما يلى وصفة لعلاج طحال عليل : إذ يحضر الساحر أوراق الأثل ويصب عليها الخل الأحمر ويغلى الخليط على النار ، وبعد ذلك يُصفى الخليط بمصفاة . ولا بد أن يشرب المريض مل ء فنجان قهوة من هذا الدواء فى الصباح الباكر ويكرر هذه الجرعة لمدة سبعة أيام . وخلال هذه الفترة ، يجب ألا يتناول أي طعام صلب، وإنما يشرب مرقة الطيور .

وانتفاخ المعدة علة شائعة بين الفلاحين بسبب سوء الهضم الحاد . وفى بعض أنحاء مصر يوصف غراب مسلوق لعلاج هذه العلة . وقيل لى إن المريض سرعان ما يتحسن بعد تناول هذا الطعام الكريه . إلا أن هناك علاجًا آخر معقولاً أكثر من هذا يصفه مشعوذ أعرفه . إذ تخلط كمية صغيرة من الدقيق بقليل من الخميرة فى الصباح الباكر . ولا بد أن تترك لتختمر فى الشمس حتى منتصف النهار ، ثم تضاف كمية كافية من الماء لجعله سائلاً . وبعد وقت قليل من تناول هذا المستحضر ، لا بد أن يشرب المريض مرقة طيور . وبعد ذلك تعمل الأمعاء وسرعان ما يشعر المريض بالراحة .

وإذا عانت امرأة من طول المخاض وتعثرت الولادة ، فإن أهلها يستعينون بأحد السحرة الذى يكتب تعويذتين على هيئة مربعين سحريين على قطعتى ورق منفصلتين ؛ يعلق أحد المربعين حول وسط المرأة بخيط بحيث تتدلى الورقة المكتوبة على فخذها الأيسر ، أما التعويذة الأخرى فتحترق . وأثناء حرقها ، يتلو الساحر ما هو مكتوب عليها مرة واحدة . وبعد ذلك يولد الطفل على الفور . والشكل (١٢٤) عبارة عن نسخة طبق الأصل من التعويذة التى تعلقها المرأة. وقد قيل لى إنه ليس لها مفتاح .

٤B	٢٣	٦ک	١٢
١:٢٠	١٠B	١٠٨	١٣
<١	٩٨	٧>	٥٤
٩٨	٧٧	٦٥	٤٣

(الشكل ١٢٤)

التعويذة التى تعلق حول خصر المرأة

وما يتلوه الساحر هو السورة الرابعة عشر بعد المائة من القرآن : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من

الجنة والناس) . ثم يضيف الساحر قائلاً : اجعل أمتك فلانة ابنة فلانة (ويذكر اسم أمها) تلد بسرعة بعون الله القوى .

وهذا علاج للصداع : « ممتاز جداً . ولابد أن تكتب التعويذة على جلد أحمر وتعلق على صدغ المريض . وكل من يضعها تزيله بمشيئة الله » . هذه هى كلمات المشعوذ نفسه . أما الكتابة فليس فيها سوى حروف ؛ المجموعات الأولى منها عبارة عن أسماء الله بالسريانية، والمجموعات الأخرى أسماء سبعة من المشايخ الطيبين .

أما هذا فعلاج للحمى . وقد أعطانى أحد المشايخ المشهور بقدراته كمشعوذ هذه الكتابات التى قال لى إنه عالج بها إناسًا عديدين . إذ يأخذ الشيخ أربع قطع من الورق ويكتب على الأولى « جهنم حارة » وعلى الثانية « جهنم باردة » وعلى الثالثة « جهنم عطشانة » وعلى الرابعة « جهنم جائعة » . ولا بد أن تكون حروف كل الكلمات منفصلة عن بعضها . بعد ذلك يضع سبع حبات من الكمون الأسود على كل ورقة . وبعد أن ينتهى من هذا يتناول قطعة قصيرة ورفيعة من الجلد المستخدم فى صنع الغرابيل ، ولا بد أن تكون قديمة . يُقطع الجلد إلى أربعة أجزاء بعدد قطع الورق . كما تقطع شمعة ، كالشمع المستخدم فى الكنائس القبطية ، إلى أربع قطع وتضاف إلى الأشياء الأخرى التى على الورق . وهنا تلف الأوراق بما فيها وتربط كل لفافة بخيوط عنكبوت . وعندما تحدث الحمى يحضر بعض زيت الزيتون الذى يجب على المريض أن يغمس اللفافة الأولى فيه . وبعد ذلك توقد نار فى إناء فخار وتوضع فيها اللفافة. وأثناء احتراقها ، لا بد أن يجعل المريض دخانها يتصاعد على ملابسه . وإذا شُفى المريض بعد هذه الورقة الأولى ، فلا حاجة لاستخدام اللفافات الأخرى . إلا أنه فى حالة عودة الحمى لا بد من استخدام اللفافة التالية . وهكذا حتى يشفى .

وكما علمت من الشيخ الذى حصلت منه على المعلومات التى ذكرتها ، يجب استعمال قلم من البوص الجاف فى كتابة التعاويذ ؛ والسبب الذى ذكره لى فيما يتعلق بهذه القاعدة هو أن البوص من صنع الله ، فى حين أن الريشة المعدنية مصنوعة بيد الإنسان .

وكتب الشيخ نفسه لى علاجًا لامرأة تعانى من نزيف . حيث يؤتى بصحن أبيض شديد البياض يكتب عليه من الداخل بالحبر الأسود . وبعد ذلك يوضع ماء عذب فى الصحن تشربه المريضة . وبعد ذلك تشفى بمشيئة الله . والحبر الذى يكتب به يذوب فى الماء ؛ وتكمن الفاعلية فى شرب الجمل المكتوبة بهذه الطريقة .

وقبل أن أصل إلى قرية الشيخ بأسبوعين ، كان قد عالج امرأة بهذه الطريقة . وهذا ما قاله الشيخ :

« علاج يوقف تدفق الدم . مجرب وصحيح . تكتبه على صحن أبيض ثم يغسل بالماء وتشربه المرأة على الريق قبل الإفطار . وسوف تتخلص منه (أى المرض) بمشيئة الله العلى القدير . وهذا هو ما تكتبه : شلاش ، شلاش ، شينيوش ، شينيوش ! أوقف الدم من أجل الحق . سوف يتوقف الدم من فلانة ابنة فلانة (ويذكر اسم الأم) من أجل دمرواراج . جف أيها الدم من رحم فلانة ابنة فلانة (ويذكر اسم الأم مرة أخرى) كما جف البحر لموسى وولدت مريم عيسى » (٢) .

وقيل لى إن شلاش وشينيوش هما من أسماء الله باللغة السريانية . وربما يكونا من الكلمات القديمة جداً . لذلك يمكن اعتبارهما أكثر فاعلية فى تعويذة مكتوبة بهذه الكيفية . وغالبًا ما ترد فى التعاويذ المصرية المكتوبة حديثًا كلمات من الواضح أنها قديمة جداً ضاعت معانيها فى الوقت الحاضر .

وهذا علاج للقشور الجافة التى تظهر على الجلد ، وقد أعطانى إياه ساحر قبطى . ففى الصباح المبكر وقبل غسل الوجه أو تناول الطعام ، يمرر أحد الأصابع على الأسنان الأمامية ثم تدعك به القشور . ولابد من تكرار ذلك ثلاث أو خمس أو سبع مرات مع ترديد هذه الكلمات:

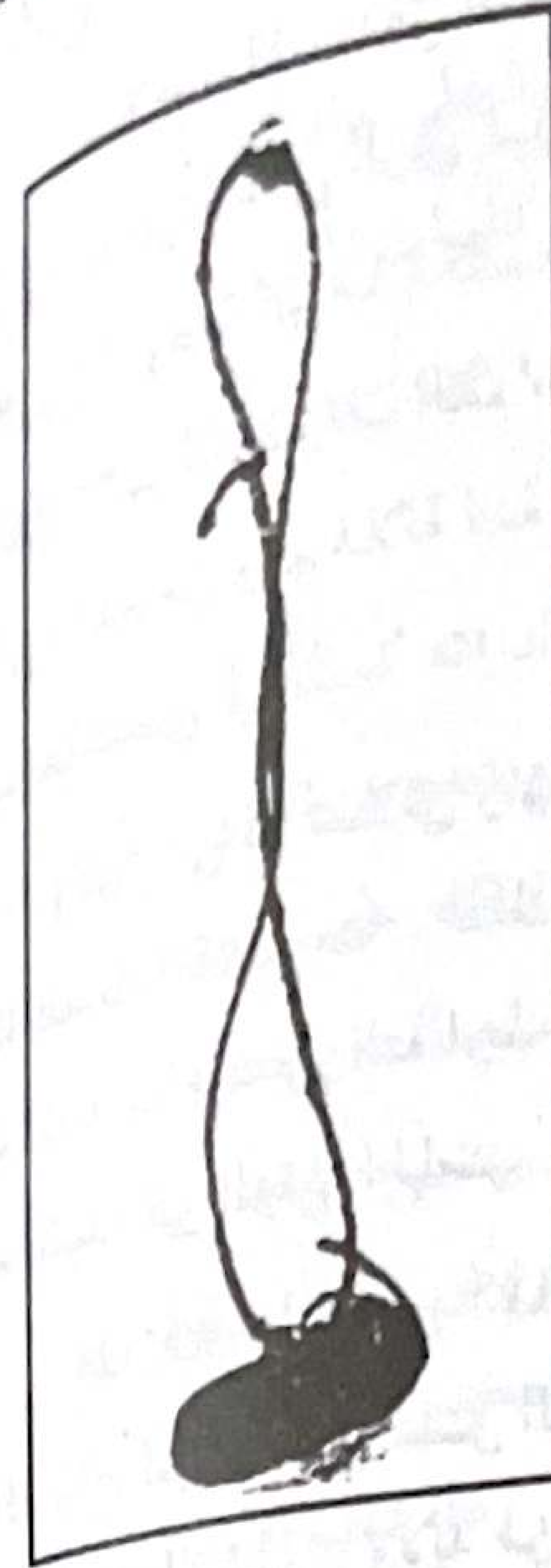
« أيتها القشور الجافة تكسرى إلى نصفين واذهبى إلى جلد كلب . »

وهناك رجل أعرفه منذ سنوات كان يعانى من قشرة جافة على رسغه الأيسر وذهب إلى أحد الأطباء للعلاج ، إلا القشرة لم تختف . وبعد عودته إلى قريته تحدث مع الساحر القبطى ، الذى كان يقيم فى نفس القرية ، وأبلغه بعلته ، فنصحه الساحر باتباع العلاج المذكور . وبعد تنفيذ تلك التوجيهات ، اختفت القشرة بسرعة كما قال لى الرجل !

وفيما يلى علاج آخر لنفس العلة . يؤخذ قرن ترمس بعد الحصاد ، وبعد أن يتم إعداد البذور التى داخله للأكل ، يُضغط على القرن بإصبع واحدة ثلاث أو خمس أو سبع مرات ، مع ترديد نفس الكلمات التى فى العلاج السابق . ويعد الترمس للأكل بغمره فى الماء الساخن عدة مرات . وبعد ذلك يصفى الماء ويضاف الملح إلى الترمس الذى يظل صالحًا للأكل فترة طويلة .

وإذا أصيب طفل بالسعال ، فإن الأم قد تذهب إلى أحد السحرة الذى يتناول سعفة رفيعة من جريدة نخل ويكتب تعويذة عليها . بعد ذلك يطوى السعفة ويلفها بخيط يكفى طوله

لتعليقها حول رقبة الطفل (الشكل ١٢٥). وقد رأيت العديد من الأطفال يعلقون مثل هذه الأشياء التى يفترض أنها علاج للسعال . ولدى واحدة أو اثنتان منها .



(الشكل ١٢٥)

تعويذة لعلاج سعال الطفل

وقيل لى فى مديرية أسيوط إنه يجب من قطع ثلاث سعفات من نخلة ورثتها عائلة الطفل المريض من أحد أقاربها وتكتب هذه التعويذة على كل سعفة :

« سَامكن ، سَامكن ، سَامكن

سَماكن ، سَماكن ، سَماكن

سَموكن ، سَموكن ، سَموكن » (٣).

« اذهب يا سعال من أجل الله وابعد بأسرع ما يمكن » .

ولابد من طى كل سعفة على حدة ثم تلف بالخيط وتعلق حول رقبة الطفل . ويعتقد أنه بمجرد جفاف السعفة يتوقف السعال .

وهذه وصفة تعطى لعلاج السعال ، وأخبرنى الشيخ الذى وصفها أنها قديمة جداً : تطحن بعض بذور القطن التى تجفف على النار ، ويتناول المريض بعضاً من هذا المسحوق فى الصباح الباكر والليل .

وهناك الكثير من أنواع العلاج الخاصة بأمراض عديدة يعرفها الناس أنفسهم ، لدرجة أنه ليس هناك ما يدعو إلى الاستعانة بـ « الطبيب » . وهذا جزء من العدد الكبير الذى جمعته .

علاج للسعال : توضع حزمة من وبر الجمل على صدر المريض وتوضع حزمة أخرى على رأسه ، على أن يكون الوبر قد غمس فى الزيت أولاً . وتترك الحزمتان فى مكانهما بعد ربطهما بمنديلين يتم لفهما حول جسم المريض ورأسه . ويعتقد أن هذا يجعل المريض يعرق وبعد ذلك يختفى السعال . وهذا العلاج يستخدم للأطفال وحدهم .

بدأ رجل يعيش فى قرية صغيرة من قرى الصعيد يعانى من الروماتيزم فى ساقية منذ عامين أو ثلاثة أعوام . ازدادت حالته سوءاً على سوء ، إلى أن أصبح عاجزاً عن المشى . ذهب إلى عدة أطباء ، ولكنهم لم يفيدوه بشىء . وذات يوم جاءه بعض أصدقائه لزيارته وأبلغهم كيف أن كل العلاج الطبى الذى تلقاه كان عديم الفائدة . لذلك أقنعوه بتجربة العلاج التالى : بعد أن أحدث عدة جروح فى ساقيه تناول بعض الثوم وعصره على الجروح ودعكها جيداً . كان الألم شديداً بحيث أبكى الرجل . إلا أنه استمر فى العلاج يوميًا لمدة أسبوعين . وفى كل يوم كان كثيراً من الصديد يخرج من ساقيه وكانت حالته تتحسن ويقل الألم الناتج عن الروماتيزم . وكانت الجروح قد أحدثت لمرة واحدة فقط ، ولكن عصر الثوم عليها كان يجرى كل يوم . وقيل لى إنه فى نهاية الأسبوعين كان الرجل قد شفى تمامًا ! وأظن أن الفلاحين يعتقدون أن الروماتيزم ، أو أسبابه ، يخرج مع الصديد ، أو ما يطلقون عليه « الماء الأصفر».

وفى بعض الأحيان يدخل « الطبيب » خيطًا من الحرير فى جلد البطن ، كعلاج لأى ألم فى هذه المنطقة . وهو يمسك الجلد بالإبهام والسبابة ثم يدخل إبرة بها خيط حريرى فى الجلد . ثم يربط الخيط بقوة ويتركه فى الجلد لمدة ستة أيام . وبعدها يسحب قليلاً إلى اليمين أو إلى اليسار ، حيث قد يكون هناك بعض الصديد الذى يغطيه . وبعد يوم أو يومين يسحب إلى الاتجاه المقابل ، حيث يزال المزيد من الصديد . وتتكرر هذه العملية عدة أيام متتالية إلى أن تختفى كل آثار الصديد . وبعد أن يشفى الجرح ، يبقى أثره بارزاً . وفى بعض الأحيان يدخل المعالج خيطًا حريريًا فى الجزء الخارجى الأعلى من الأذن كعلاج للحمى ؛ وذلك فى حالتى الأطفال والكبار. ولعلاج آلام الجانب أو المعدة أو الظهر ، توضع حلقة ملساء فى الجزء الأعلى من الأذن .

والشخص الذى يعانى من السعال يأخذ واحداً من الخيوط التى تشكل سداة حصيرة ويضع أحد الطرفين على رأسه ويمسكه ، بينما يلف الطرف الآخر حول أحد أصابع القدم أو يثبته على الأرض بقدميه . وبعد ذلك يوضع الخيط داخل كفن شخص توفى للتو بحيث يدخل معه القبر. وبذلك يختفى السعال عند الشخص الحى . ويستعمل العلاج ذاته فى حالة الحمى والرعشة ، إلا أنه تعقد عقدة بالقرب من نهاية أحد طرفى الخيط .

ولعلاج الإسهال تجفف بعض أوراق الجميز فى الفرن أو فى الشمس ، إذا كان الطقس شديد الحرارة . وبعد أن تجف الأوراق تطحن ثم يتناول المريض ملعقتين صغيرتين من المسحوق بعد خلطه بقليل من السكر كل صباح . وعادة ما يستمر العلاج لمدة يومين ويتم الشفاء . إلا أنه قد يحتاج إلى وقت أطول من ذلك .

أما علاج التهاب العين فيتم عن طريق تسخين فضلات كلب أسود فى النار ثم تلف فى قطعة من قماش الموسلين وتوضع على العين . ويجب تكرار هذا العلاج أكثر من مرة ، حيث توضع كمادات جديدة بمجرد أن تبرد الأولى . وهكذا حتى تشفى العين . وطبقًا لما يقوله مصدرى ، فإنه بعد فترة يخرج كل الماء الذى فى العين وتختفى كل الإلتهابات .

والعرب لديهم علاج للالتهابات والصداع وغيرها من العلل عن طريق الكى بالمسامير الساخنة . وفى إحدى المرات جاءنى رجل به مرض رهيب فى كلتا يديه وعلى رسغه . وكان عربى قد كواه فى عدة أماكن حول رسغيه وتلوثت تلك الحروق ، بحيث كان طبيعيًا أن تصبح حالته أسوأ مما كانت . وقمت بالتغير على يديه كل يوم ، إلى أن غادرت القرية وكانت حالته أفضل .

وفى بعض الأحيان يستخدم علاج مشابه للحمى أو الاضطرابات العصبية . فتوقد نار من «الجلة» وتوضع فيها بعض المسامير ، إلى أن يحمر لونها من شدة الحرارة . بعد ذلك يجلس المريض القرفصاء وقد وضع يديه تحت إبطيه ثم يمسكه رجل بقوة وهو فى هذا الوضع . ويقوم رجل آخر بإخراج مسمار من النار ويكوى به موضعًا أو موضعين على قفا المريض . ويفترض أن الاضطراب العصبى الذى يعالج بهذه الوسيلة هو ذلك الناتج عن رؤية شبح فى الحقول ليلاً أو أى شىء مفزع آخر . والواقع أن المرء يميل إلى التساؤل عن حالة أعصاب المريض بعد إجراء هذا العلاج بالغ الألم !

وفيما يلى علاج للعظام المكسورة : يؤتى ببعض الصمغ من شجرة سنط . وبعد طحنه ونخله باستعمال منخل حرير ، يخلط بالماء . يفرد هذا الخليط على قطعة من الورق البنى

السميك الذى يوضع فى الحال على الجزء المصاب من الجسم ويترك فى هذا الموضع لمدة أسبوع ثم يرفع . إذ يعتقد أن العظمة المكسورة تكون قد التأمت .

وأثناء زيارتى للسوق يوم انعقادها بإحدى القرى ، رأيت رجلاً يجلس على مقربة من مجموعة بائعين ومشترين . وعندما اقتربت منه وجدت أن أطفالاً يعانون من التهابات شديدة فى عيونهم قد أحضرتهم أمهاتهم إليه . وبعد فحص عينى أحد الأطفال قال : « نعم عنده » وطلب من أمه التى كانت تجلس أمامه على الأرض أن تمسك الطفل بحيث يكون وجهه لأسفل. بعد ذلك وضع إحدى يديه على مؤخرة رأس الطفل ثم مسح برفق على عينيه باليد الأخرى (الشكل ١٢٦) . وعلى الفور سقطت منها يرقات صغيرة جداً على الأرض رأيتها تتلوى . وقد فعل ذلك مع كل طفل حان دوره ، وكانت النتيجة واحدة . ورأيته وهو يزيل اليرقات من عيون الأطفال أكثر من مرة . ولم أتمكن من كشف أى خدعة فى الأمر . وقال لى أحد أصدقائى أنه كان مثلى حائراً . ولابد أن أذكر هنا أنه كان يتلو الفاتحة وهو يمسح عين الطفل.



(الشكل ١٢٦) « طبيب عيون » يزيل اليرقات من عينى أحد الأطفال

ويفترض أن يعالج احتباس الصوت بهذه الطريقة الغريبة : كان طفل أعرفه معرفة جيدة قد أصيب باحتباس فى الصوت . وعندما وجد أهله أنه لا يتحسن ، أرسلوا فى طلب أحد جزارى القرية . رقد الطفل على بطانية وضعت على الأرض وتظاهر الجزار بأنه سيقطع رقبته ، واضعاً ظهر نصل السكين عليها وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » (الشكل ١٢٧) . وهذه

الكلمات نفسها تقال عند ذبح حيوان أو طير لأكل لحمه (٤) . ولا بد أن يحرص الأهل والأصدقاء الحاضرين على عدم ترديد تلك الكلمات ، وإلا كان العلاج عديم الجدوى . وقد شاهدت الطفل بعد ثلاثة أو أربعة أيام ولم أجد أنه تحسن كثيراً . وقال أخوه الأكبر إن ذلك يرجع إلى أن الجزار كان أصغر مما يجب . وكان هناك رجل أكبر منه بكثير وكان موفقًا في العلاج بهذه الطريقة ، إلا أنه لم يكن موجوداً في ذلك الوقت .



(الشكل ١٢٧) الجزار يتظاهر بقطع رقبة الصبي ليعالجه من احتباس الصوت

ويقوم حلاق القرية بدور الجراح بالنسبة للفلاحين فيما يتعلق بمعظم العمليات الصغرى . والفصد أحد تخصصات حلاق القرية ويعد علاجًا للصداع . ويقوم الحلاق أولاً بحلاقة الشعر القريب من الجبهة التي يحدث بها عدداً من الشقوق الرأسية من الصدغ إلى الصدغ . ويميل المريض برأسه فوق طشت ينزل فيه الدم . وبعد أن يستمر نزول الدم لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، يغسل الحلاق الجبهة بالماء البارد إلى أن يتوقف الدم عن النزول (الشكل ١٢٨) . ويظهر الفلاحون تماسكًا يدعو للدهشة أثناء هذه العملية التي تعد في غاية الألم دون شك . إلا أنهم يؤمنون إيمانًا قويًا بفاعلية هذا العلاج . وهذه العملية ، قد تكون ذات فوائد جمة في بلد حار مثل مصر ، حيث إنها تحول دون زيادة كمية الدم في الجسم عما يجب .



(الشكل ١٢٨) فصد الدم من الجبهة بعد جرحها لعلاج الصداع

ويعتقد المسيحيون والمسلمون معًا أن القساوسة الأقباط لديهم قدرة على العلاج . فإذا عقر إنسانًا كلب سعران ، استدعى أحد القساوسة لرؤية المصاب . وهو يأخذ بعضًا من شعر الكلب المسعور . وبعد أن يمسح الجرح بالكحول ، يضع الشعر عليه ويحرقه . ويجب ألا يقوم بذلك سوى قس ، وإلا أصيب هذا الشخص بداء الكلب .

ويستدعى « طبيب » القرية أو « جراح » القرية لعلاج الحيوانات ، إذا كانت هناك ضرورة لذلك . فإذا كان أحد الحيوانات يعاني ألمًا في إحدى سيقانه مثلاً ، فإنه يكوى بمسمار ساخن في الموضع المصاب . وبينما كنت أسير في الحقول ذات يوم ، رأيت بقرة كانت قد كويت على إحدى سيقانها ، وكان الكي عبارة عن وحدة زخرفية (الشكل ١٣٠) . وعند الاستفسار قيل لي إن ذلك تم لأن البقرة كانت تعاني من ألم في الموضع الذي فيه الكي .

وأثناء تجوالي في مصر ، اعتدت أن آخذ معي سلة أدوية وأن أبذل ما في استطاعتي لعلاج الحالات المرضية البسيطة . وبفضل وصفة ممتازة أعطاني إياها طبيب من أصدقائي في انجلترا ، استطعت أن أعالج بعض حالات التهاب العين المخيفة (الشكل ١٢٩). وكان رد فعل الفلاحين لأنواع العلاج البسيطة مدهشًا . وقد عالجت حالة مرض جلدي شديدة بوضع كريم البوريك ؛ وكان هناك طلب كبير على الكاركسارا ؛ ولا أبالغ إذا قلت إنني كنت أوزع المئات من هذه الأقراص كل عام . كما شفيت حالات الحمى بسرعة بجرعات من الأسبرين أو الكينين كانت تعطى بحكمة . وقد أكسبني هذا السلوك من جانبي اسم « الشيخة شفا »

(الشكل ١٣١) ، وهو لقب أعتز به وأقدره ، وإن كنت قد لا أستحقه . لقد تأثرت كثيرًا بالعرفان الذى أظهره لى كثير من مرضاى المساكين . وفى بعض أنحاء مصر ، كانت هناك مناسبات عالجت فيها أكثر من مائة فى اليوم الواحد . وقد قربنى ذلك من الناس وأعطانى فرصة التحدث مع النساء حول الحفاظ على نظافة أطفالهن والتأكيد على قيمة الماء والصابون. والقاعدة الآن هى ألا أعطى دواء لأى طفل تحضره أمه وهو قذر . فلا بد أن تعود الأم إلى البيت وتغسل طفلها أولاً ثم تحضره لى . ويسعدنى أن أقول أنهن غالبًا ما يعدن بطفل أكثر نظافة .



(الشكل ١٢٩) علاج عينى أحد مرضاى



(الشكل ١٣٠) بقرة موسومة كعلاج لألم فى الساق

وهناك حاجة ملحة لتوفير تسهيلات أكبر فيما يتعلق بتقديم الرعاية الطبية الصحيحة للفلاحين فى مصر فى الوقت الراهن . والشىء المشجع هو سماع أن الحكومة تخصص حاليًا مبالغ معينة لإنشاء المزيد من المستشفيات . ومثل هذا المشروع يستحق قدرًا كبيرًا من التشجيع والدعم .



(الشكل ١٣١) بعض مرضاى

الهوامش :

(١) سلفات الزنك .

(٢) هذه إشارة واضحة إلى معتقد مرتبط بالطريقة التى تمت بها ولادة المسيح ، وهو شائع بين المسلمين .

(٣) يقال إن هذه من أسماء الله باللغة السريانية .

(٤) سبق توضيح ما يقال فى هذا الموقف (المترجم) .

الفصل الثالث عشر

العين الشريرة وغيرها من الخرافات

أشرت فى الفصل السابق إلى الإهمال الذى يتعرض له الأطفال ؛ بسبب الجهل التام للأمهات بالقواعد الصحية من جهة ، ولعدم وجود التسهيلات التى تجعلهن يحافظن على نظافتهن ونظافة أطفالهن من الناحية العلمية فى القرى المصرية من جهة أخرى . ولا بد أن يضع قرائى فى اعتبارهم أن كل الماء ، باختلاف الأغراض التى يستخدم فيها ، تحضره النساء من النيل أو من إحدى القنوات ، بل ومن بعض البرك غير النظيفة . وهذه المصادر كافة تقع على مسافة بعيدة من بيوتهن . إلا أن السبب الأساسى لكون الأطفال على هذه القدر من القذارة هو الاعتقاد فى العين الشريرة ، أو عين الحاسد ، الموجود فى كل أنحاء العالم تقريباً ، والخوف الشديد من الحسد . وهذا الاعتقاد لم يختف تمامًا فى انجلترا الحديثة ؛ حيث أعلم أنه موجود فى أجزاء من المقاطعات الشرقية ، وربما يكون موجوداً فى غيرها من المقاطعات كذلك. وبالنسبة للفلاحين المصريين ، يعد الخوف من العين الشريرة رعبًا حقيقيًا ، منذ الطفولة وحتى أرزل العمر . ومن هذا المنطلق ، فمن الحماقة أن يدع شخص طفله يبدو جميلاً ويكون عرضة لعين الحاسد . ومن المؤكد أن القاذورات ، التى يدعونها تتراكم على بعض من هذه المخلوقات الصغيرة ، توفر الحماية الفعالة ضد كل عين شريرة مهما كانت !

ولمواجهة هذا الأثر المهلك ، تتبع وسائل عديدة أورد منها هنا بعض الأمثلة .

فإذا ظهرت علامات المرض على طفل بعد زيارة الصديقات والجارات لأمه ، فإنها تظن على الفور أن عينًا شريرة من عيون هؤلاء قد أصابته . لذلك تقوم بقص ورقة على هيئة إنسان (الشكل ١٣٢) وتأتى بدبوس وتذكر أسماء كل من زرنها وهى تخرم الورقة . وبعد أن تذكر كل الأسماء تحرق الشكل قائلة لطفلها : « انظر إليها ، انظر إليها ، انظر إليها! » وباحتراقها تمامًا ، تتناول قطعة شبّة وتدلك بها جبهة الطفل ثم تضعها فى النار التى يخطو الطفل فوقها سبع مرات . وبعد احتراق الشبّة مخلفة مادة متضخمة تخرجها الأم من النار وتدوسها بقدمها . ويعتقد أنه بعد ذلك يكون الضرر الذى لحق بالطفل من العين الشريرة قد تم التصدى له، ويتحسن الطفل مرة أخرى .



(الشكل ١٣٢) شكلان من الورق يمثلان رجلاً (على اليسار) وامرأة (على اليمين) ، لكى يتم تخريقهما بالإبر ثم يحرقا كعلاج لطفل أصابة سوء من العين الشريرة

والطريقة الأخرى لإبعاد العين الشريرة هى إلقاء التراب خلف الشخص الذى يُشك فى أنه نظر نظرة مهلكة ، أثناء سيره فى الشارع . أو قد يقطع جزء من الملابس الخارجية للشخص المشكوك فيه ، دون أن يدرى ، بسكين حاد ثم يوضع فى صحن فخار به بخور يحترق . ويلوح بهذا الصحن أمام الشخص المصاب لكى يمر الدخان فوقه ويبطل الأثر الضار . وهناك كذلك كسر قطعة فخار خلف الشخص الذى يعتقد أن له عينًا شريرة .

وهناك احتياطات مشابهة يتم اتخاذها عندما يعتقد أن الحيوانات قد أصابتها عين حاسد.

فعندما كنت أقيم فى قرية صغيرة بمصر الوسطى ، رفضت الجاموسة التى كانت تنتج احتياجاتى اليومية من الحليب أكثر من مرة أن تعطى الكمية اللازمة لوجبة إفطارى . وكان أصحابها مقتنعين بأن ذلك مرجعه إلى العين الشريرة . لذلك وضعوا بعض النار فى صحن فخار ووضعوا عليها البخور ، ثم مرروه فوق رأس الجاموسة سبع مرات . وبعد ذلك مباشرة بدأ الحليب فى التدفق ؛ وهو ما أقنعهم بأنهم كانوا محقين فى شكوكهم !

وإذا كان لدى امرأة ، قبطية أو مسلمة ، طفل رضيع دائم البكاء ، فإنها تعتقد أن العين الشريرة قد أصابته . ولكى يتم إبعاد الشر الذى لحق به ، فإن جدة الطفل (لأمه أو أبيه) تحمله ، بحيث لايكون ملاصقًا لجسمها ، وتلفه حول الزير سبع مرات . وبينما هى تفعل ذلك تقول : " يا ملاك الماء خذ العين الشريرة من هذا الطفل " . ولأن للماء قيمة كبيرة فى مصر،

فهناك اعتقاد بأن كل إناء يحتويه فيه ملاك حارس للماء . وهم يعتقدون أن هذا الملاك سوف يزيل آثار العين الشريرة من الطفل .

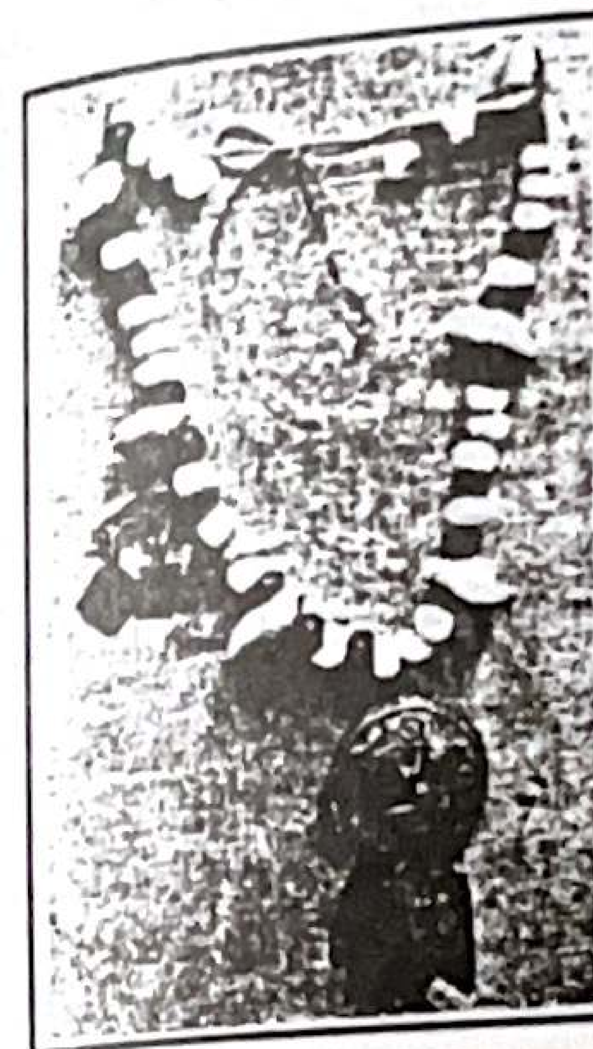
وعندما تبدى إعجابك بطفل أو بأى شىء يخص جارك ، ينبغى أن تقول « ما شاء الله » أو « الصلاة على النبى » ، وذلك كى لا يؤخذ مدحك على أنه حسد ، وحتى لا يكون هناك شك فى أنك تصيب الشىء الذى أعجبت به بعينك الشريرة .

فى العام الأول الذى أقمت فيه بقرية مصرية ، مرضت مرتين أو ثلاث مرات بالحمى . وكان الفلاحون لم يتصلوا قبل ذلك بأية امرأة إنجليزية . لذلك كانت كل قطعة من ملابسى يعلق عليها ، وكذلك الحال بالنسبة لعيناى ولون وجنتى وغيرها . وعندما كنت أسير فى القرية، كان هناك الكثير من التعليقات اللطيفة والمجاملة : " انظرى ، إن لها عينين كعينى قط " ، وهذه مجاملة عظيمة بالنسبة لعقول القرويين ، و« ما أجمل لون خديها ! » وغيرها . وعندما مرضت لثانى مرة ، كان خادمى ، وهو رجل شديد الأمانة والإخلاص ، مقتنعًا تمام الاقتناع بأن ذلك سببه عين شريرة أصابتنى . وبناء عليه تحدث إلى أهل القرية وقال لهم إن من حقهم أن يبدوا إعجابهم ، وأن كل ما قالوه صحيح . ولكنه طلب منهم ألا يفعلوا ذلك فى المستقبل دون أن ينطقوا بعبارة واحدة على الأقل مما ذكرت . وكانت النتيجة أننى عندما سرت فى القرية فى المرة التالية تبعنى جمع من الرجال والنساء والأطفال وهم يرددون جميعًا « ما شاء الله ، ما شاء الله ، الصلاة على النبى ، الصلاة على النبى » بأسرع ما يمكن .

وفى عام آخر وبينما كنت أزور هذه القرية ، أصبت برعشة صحبتها حمى . أصرت بعض نساء القرية على رؤيتى . وبعد هز الرأس عدة مرات أعلن أنها العين الشريرة مرة أخرى ، وأنه لا بد من إجراء الاختبار المعتاد لمعرفة الأمر . أحرق بعض الشبّة فى نار موضوعة فى صحن فخار . وبينما كانت الشبّة تحترق ، كانت الصديقات القرويات يراقبنها عن كثب . فعند حرق الشبّة بهذه الطريقة يتكون العديد من الفقاقيع التى يسميها الفلاحون « عيون » . وعلقت النساء اللاتى كن يراقبن هذه العملية على عدد العيون التى أصابتنى وقلن أنه ليس عجيبًا أن أصاب بالمرض . وبعد أن تصبح الشبّة كتلة متفحمة ، يفترض أنها تأخذ إما شكل الذكر أو شكل الأنثى . وفى هذه الحالة كانت تأخذ شكل الاثنين معًا . لذلك فقد تقرر أن الضرر الذى أصابنى تسبب فيه رجل وامرأة . وفى بعض الأحيان تقدم الشبّة بعد حرقها لامرأة عجوز يفترض أنها قادرة على تحديد من هو الفاعل الحقيقى . وبعد هذا الاختبار الذى أجرى

لى ، أرسلت لى عدة هدايا من البخور من جاراتى المسكينات . كما أن القس القبطى ، وكان وقتها يقيم فى دير قريب بالصحراء ، أرسل هو الآخر بعض البخور الذى قال إنه تمت مباركته فى الكنيسة . وكل هذا البخور أحرق عدة مرات فى الغرفة التى كنت أرقد فيها مريضة ، وكان الصحن الذى يحرق فيه يلف به فوق رأسى سبع مرات . وعندنا تحسنت حالتى بعد يوم أو يومين ، أرجع الفضل فى ذلك إلى البخور الذى كان يعتقد أنه قضى على الضرر الذى سببته لى العين الشريرة .

وترتدى النساء والأطفال الخرز الأزرق والعقود المصنوعة منه كتعويذة تحمى من شر العين (الشكل ١٣٣) . وتزين الحيوانات بشرابات قطنية زرقاء وعقود من الخرز لنفس الغاية . واللون الأحمر أيضًا تعويذة لها فاعليتها . وقد لاحظت مرارًا عند رؤية مجموعة من الجمال ، وأنا فى الأراضى الزراعية أو الصحراء ، أن الجمل الذى يسير فى المقدمة تعلق فى رقبته شرابات حمراء أو خرز أزرق أو الاثنان معًا . وأنا أفترض أن الفكرة هى أن العين تصيب أول جمل . وهناك شكل زخرفى يتم عمله بقص الوبر الذى فى أعلى واحدة أو أكثر من سيقان الجمل . وقيل لى إن هذا غالبًا ما يتم لإبعاد العين الشريرة عن هذا الجزء من جسم الحيوان . فإذا كانت السيقان قوية ومليئة باللحم ، فإن العين تصيبها ويسقط الجمل .



(الشكل ١٣٣)

عقد يلبسه الطفل الصغير لإبعاد العين الشريرة

وقد رأت امرأة معروفة بأن لها عينًا حاسدة جملاً جميل الهيئة يسير بين الأراضى الزراعية فصاحت « يا له من جمل رائع ! » فسقط الجمل على الفور وكسرت إحدى سيقانه . وقد أكد لى مصدرى أنه شاهد هذه الحادثة بنفسه وسمع بأذنيه ما قالته المرأة .

وإذا كان طفل لم يبلغ الثامنة بعد وكان نحيفًا رقيقًا ، فإن أمه تحمله إلى ضفة النيل فى اليوم الأول للفيضان وتأخذ معها بعض التمر والكشك . بعد ذلك تقف عند حافة الماء ممسكة الطفل بين ذراعيها وتجعله يلقى بالتمر والكشك واحدة وراء الأخرى فى النهر . وفى كل مرة يرمى فيها الطفل شيئًا عليه أن يقول للماء : « كلما ازددت عمقًا ، ازددت أنا قوة ! » وبعد ذلك تخلع المرأة ملابس الطفل وتغسله فى النهر . وإذا رفض الأب أن تقوم الأم بذلك ، تذهب به إحدى جاراتها إلى النهر . ويعتقد أن الطفل بعد ذلك يزداد قوة . ويفترض أن الملائكة موجودون فى الماء ، ويعتقد أنهم يأخذون التمر والكشك ويردون هذه الهدايا برفع الضعف عن الطفل .

وقد يصاب طفل بسعال مصحوب بنهجان وعدم القدرة على التنفس . وربما يحدث هذا فى أى وقت قبل بلوغ الطفل عامه السابع[1] . ولعلاج هذه الحالة ، تأخذ الأم ، أو الجدة (لأمه أو لأبيه) أو إحدى الصديقات ، الطفل فى الصباح الباكر إلى الزريبة التى تحبس فيها الأغنام والماعز ليلاً فى الحقول . تدخل المرأة الزريبة وتسلم الطفل للراعى الذى يجعله يرقد على ظهره ويتناول سكينًا ويضع الحافة غير الحادة على رقبة الطفل متظاهرًا بأنه سيقطعها . ساعتها يبدأ الطفل فى البكاء . وهنا يرفع الرجل السكين ويعيد الطفل للمرأة التى أحضرته .

وتعد الأغنام حيوانات شديدة الرقة . لذلك فإنه يفترض أن الملائكة ترعاها . وعند سماع الملائكة لبكاء الطفل فإنها تبعد قرينة الأم التى سببت المرض بإمساكها برقبة الطفل .

وإذا كان طفل دون الثامنة عاجزًا عن المشى ، فإن الأم تعتقد أن قرينتها قد أرسلت عفريتًا ليلبسه . ولعلاج هذه الحالة ، تطلب المساعدة من إحدى جاراتها . وتُجلس الأم الطفل على الأرض وتضع فى حجره بعض التمر والكشك . بعد ذلك تذهب الجارة والطفل إلى المسجد ومعهما التمر والكشك . ويوم الجمعة هو اليوم المفضل لهذه الزيارة ، بحيث يكون الوصول عند الظهر أثناء الصلاة . تترك المرأة الطفل عند باب المسجد وتجلس هى بعيدًا عنه . وعندما يبدأ المصلون فى الخروج من المسجد ، يرون التمر والكشك على جلباب الطفل فيأخذ كل منهم نصيبه منه . يصيب تكالب الناس على التمر والكشك الطفل بالفزع ويبدأ فى الصراخ . وعند سماع المرأة التى أحضرته لصراخه ، تذهب وتأخذه بين ذراعيها وتعود به للبيت . ويعتقد أن صرخات الطفل المرعوب تخيف العفريت الذى فى ساقيه . وبعد ذلك يصبح قادرًا على المشى .

ويستعمل الأقباط نفس العلاج لأطفالهم الذين يعانون من الحالة نفسها . ويلاحظ أنهم يأخذونهم إلى المسجد وليس إلى الكنيسة . وقال لى أحد معارفى ، وهو قبطى ، إن أحد أطفاله كان فى وقت من الأوقات عاجزاً عن المشى ، ولكنه شفى من تلك الحالة بعد زيارة مسجد القرية بالطريقة المذكورة . وأضاف أنه كان قد ذهب به لعدة أطباء فى القاهرة وأسيوط ولكنهم عجزوا جميعًا عن علاجه !

وفى إحدى مدن الصعيد الكبرى مسجدان فى كل منهما عمود قديم . ويذهب مرضى اليرقان إلى أحد المسجدين ويلعقون العمود . وقيل لى أنهم يشفون بسرعة بعد ذلك . زرت أحد المسجدين وتعرفت على العمود القديم على الفور وكان فى الجزء الرئيسى من المسجد بين غيره من الأعمدة التى تحمل السقف .

وفى مصر ، كما فى غيرها من البلاد ، يحافظ على الشعر بعد قصه أو سقوطه نتيجة لتمشيطه ، وعلى قلامة الأظافر . فإذا حصل شخص آخر على شىء من هذا فإنه يستطيع أن يكون له تأثير على صاحبه ، وبالتالى يمكنه إلحاق الضرر به . كما أن العظم الذى يؤكل اللحم من عليه وقشر الفاكهة وما شابه ذلك ، إما أن يدفن بحرص أو يحرق فى النار للسبب ذاته .

وإذا أحب رجل امرأة وأراد أن يتزوجها وهى لا تحمل له أى مشاعر حب ، فإنه يطلب من إحدى الصديقات أن تساعده بهذه الطريقة : تزور الصديقة تلك المرأة فى الوقت الذى يحتمل أن تمشط فيه شعرها . ومن العادة أن تخفى المرأة الشعر الذى يتساقط مع التمشيط فى جدار إحدى الغرف بين الطوب . فتلاحظ الصديقة المكان الذى تضع فيه الشعر . وفى أول فرصة تسرق بعض الشعر ، عندما لا تكون موجودة ، وتعطيه للرجل . يأخذه الرجل الشعر ويعطيه للساحر الذى يقيس طول كل شعرة بيده . بعد ذلك يكتب الساحر تعويذة ويذهب إلى أحد القبور ويضع فيه الشعر دون أن يعرف أحد المكان الذى خبأه فيه . يضع الساحر التعويذة فى جيبه ويزور بيت المرأة بحجة ما (كأن يطلب شرب فنجان قهوة مثلاً) . وأثناء جلوسه فى البيت ، يخرج الورقة المكتوب عليها التعويذة ويطلب منها أن تضعها تحت إبطها ، قائلاً أنها سوف تحميها فى حالة كتابة إنسان لتعويذة تمنعها من الزواج . تقبل هى التعويذة وتعلقها. وعلى الفور تصبح مجنونة بحب الرجل الذى يحبها وتكون سعيدة جداً لو تزوجها ! وهذه الممارسة شائعة جداً فى كثير من أنحاء مصر .

ومن المعتاد كذلك حماية المنازل من العين الشريرة . وهناك نقوش كثيرة تستخدم لهذا الغرض . وأحيانًا يلصق صحن فى الجدار أعلى المدخل الرئيسى . وربما يتم إدخال نقش قديم جىء به من وسط ركام قديم فى الجزء المحيط بالباب . كما تعلق قرون الأغنام وغيرها من الحيوانات على المدخل كتعويذة لحماية البيت من العين الشريرة . وتعلق « عروسة الغلة » كما قلت من قبل على باب البيت للغرض نفسه . وداخل المنزل ، رأيت على جدران غرفة المعيشة رسومات قال لى صاحب البيت إنها وضعت هناك لمنع العين الشريرة . والواقع أن الوسائل التى يتم اللجوء إليها لحماية المنازل والحقول والحيوانات والناس من كل الأعمار من هذه القوة المخيفة كثيرة جداً . وذكر كل ما عرفته عن هذا الموضوع يحتاج كتابًا بكامله .

وهناك معتقد شائع فى مصر ، كما فى غيرها من البلاد ، وهو أن الروح تغادر الجسد أثناء النوم . لذلك يعتقد أنه من الخطر إيقاظ إنسان ما بطرقة مباغتة ، خوفًا من ألا يكون لدى الروح الوقت الكافى لعودتها إلى جسم النائم . ويجب أن يتم الإيقاظ ببطء شديد ، كى يتوفر للروح الوقت اللازم لعودتها . ولا أدرى بالضبط ما الذى يمكن أن يحدث إذا لم تعد الروح فى موعدها . ربما تتبدل شخصية النائم أو يصاب بالخبل .

وهناك كذلك اعتقاد قوى بين الفلاحين بأن الموتى يمكن أن يظهروا للأحياء ويتحدثوا معهم ويصدروا لهم الأوامر . ويمكن ملاحظة قوة هذا المعتقد من خلال موضوع الاعتقاد فى المشايخ الذى أناقشه فى الفصل الخامس عشر . وهناك عدد من قصص الأشباح الشائعة فى الريف . وينظر عادة إلى الشبح على أنه عفريت الميت ؛ وهو كما سنرى فى الفصل المقبل ليس الروح وإنما كيان مستقل . وهاتان القصتان عن الأشباح قد يهم قرائى سماعهما . والشبح الثانى لم يبدأ فى « المشى » إلا قبل وصولى إلى قرية المتوفى بأسبوع أو نحو ذلك .

تعمل ماكينة الرى التى تروى حقول العمدة الغنى فى إحدى القرى بالبخار ، ويغطى الغلاية لوح كبير من الصاج ، ويغلق البخار كل مساء فى حوالى الساعة السابعة والنصف ويفتح مرة أخرى مع شروق الشمس . ولكى يُفتح يقف رجل على الصاج الذى يعلو الخزان . وذات يوم ارتكب ابن مساعد الميكانيكى خطأ . إذ قال إنه فتح البخار فى حين أنه لم يفعل ذلك . وكانت النتيجة أن البخار الذى تكوَّن زاد عما تحتمله الغلاية فانفجرت على الفور . كان رجل تعيس الحظ يقف على لوح الصاج فدفع إلى السقف ومات فى الحال . وفى إحدى الليالى ، أخذ رجل كان ينام فى غرفة الماكينة مع بعض زملائه العمال فى الصياح . قام

زملاؤه من النوم بعد أن أفزعهم صراخه وسألوه عما حدث . قال إنه شاهد الرجل الذى قتل وهو يولول قائلاً « آخ ! آخ ! آخ ! » كما أنه حاول إخراج عينيه باثنين من أصابعه . ومنذ ذلك الحادث يسمع كل ليلة صوت انفجار رهيب فى غرفة الماكينة فى الساعة الثانية عشرة . وفى أول مرة ظن الحراس وغيرهم أن حادثًا آخر وقع . ولكنهم عندما ذهبوا لرؤية ما حدث ، لم يجدوا شيئًا . وكانت الماكينة تعمل . ويسمع الانفجار بانتظام كل ليلة فى الساعة الثانية عشرة . إلا أن أحدًا لم يعد يلتفت إليه الآن حيث تعود الجميع عليه .

وقبل أن أصل القرية التى حدثت فيها تلك الأحداث بفترة قصيرة قتل رجل فى الحقول المتاخمة لها . ولم يمض وقت طويل على وصولى حتى وقعت الحادثة التالية . كانت امرأة تسير من هذه القرية إلى قرية أخرى لا تبعد كثيرًا عنها ، وكانت تحمل خبزًا وبيضًا لاثنين من أحفادها كان يدرسان هناك ، وكانت بمفردها . وما إن اقتربت من المكان الذى وقعت فيه الجريمة حتى رأت رجلاً كان يبدو عليه المرض وكان يردد « آخ ! آخ ! يابوى ! يا بوى ! » اتجهت إليه وأمسكت بيديه ومشيت به وهى تحاول تهدئته . ولكن بعد المشى مع الرجل لمسافة قصيرة اختفى فجأة . ساعتها شعرت بالرعب وبكت خوفًا . لحق بها رجل كان متجهًا إلى نفس القرية. وعندما رآها فى هذه الحالة سألها عما بها ، فأخبرته عن ذلك الغريب الذى وجدته وحاولت تهدئته والذى اختفى بتلك الصورة الغامضة . طلب منها الرجل ألا تخاف ، فذلك لم يكن شيئًا وأن ما رأته رآه هو من قبل بنفس الطريقة . ويفترض أن هذا الشبح الباكى هو عفريت الرجل الذى كان قد قتل .

الهوامش :

(١) بعد هذا السن لايمكن لقرينة الأم أن تؤذيه .

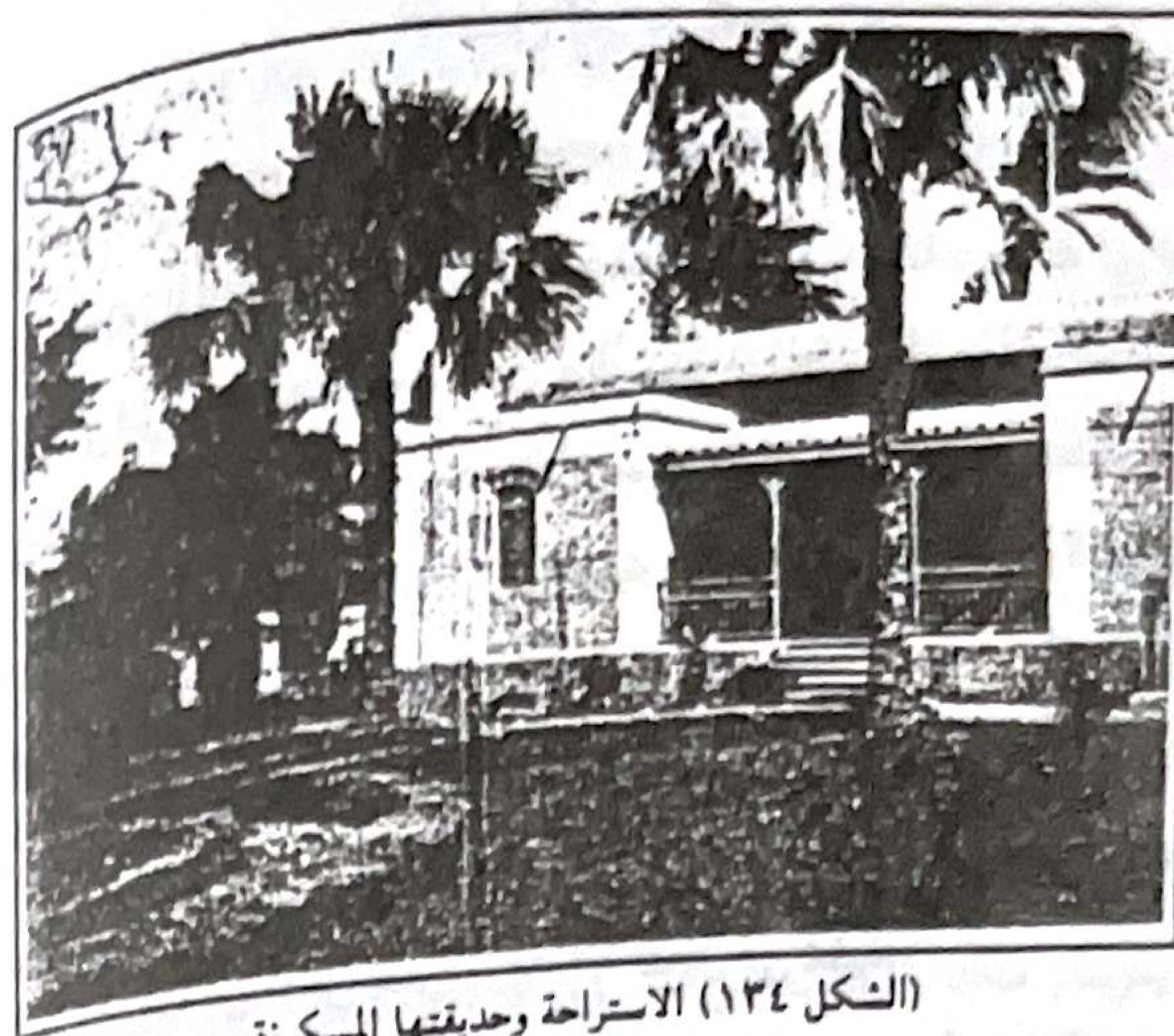
الفصل الرابع عشر

العفـــاريت

العفاريت من بين الكائنات الخرافية العديدة التى تحتل مكانة واضحة فى حياة الفلاحين المصريين . وهناك فرق بين العفاريت والجن ، الذى يعد أرواحًا طيبة[١] . إلا أننى وجدت أن الفلاحين يستعملون كلمة « جن » و « عفاريت » على أنهما شىء واحد ، وإن كانت كلمة عفاريت هى الأكثر شيوعًا . ويعتقد أن العفاريت مخلوقة من نار ، وكان خلقها قبل آدم بآلاف السنين . وربما تكون العفاريت هى العناصر المساعدة لأصحاب النوايا الشريرة الذين يرغبون فى إيذاء الآخرين . وربما تدخل كذلك فى أجسام أى شخص يرتكب خطيئة ، حيث إنه بذلك يكون قد ترك نفسه معرضًا لمثل هذا اللبس . والعفاريت فى بعض الأحيان لا تكون مؤذية بالمرة ولا تصيب أى آدمى بسوء ، إلا إذا تدخل فى شئونها .

ويفترض أن العفاريت تعيش تحت الأرض ، حيث تشكل مجتمعًا منظمًا على رأسه ملك . ويعتقد أنها تسكن الينابيع والآبار فى المناطق غير المأهولة ، كالصحراء والطرقات الضيقة بين الأراضى الزراعية . وهناك أماكن أخرى ، بعضها على الطرق الكبيرة ، يقول العالمون بهذا الأمر إنها « تخص » العفاريت .

وفى زيارة قمت بها مؤخرًا لمصر ، وضعت الحكومة المصرية استراحة رائعة ذات حديقة (الشكل ١٣٤) جميلة تحت تصرفى . وكان من عادتى عندما يكون الطقس حارًا أن أجلس فى الحديقة كل مساء ، حيث كان بعض أصدقائى من القرية يأتون للجلوس معى وتناول القهوة وتجاذب أطراف الحديث. وكان بين هؤلاء تاجر صغير للتحف على قدر لا بأس به من المعرفة بالفلكلور . وقد قال لى فى سياق الحديث إن الطريق الذى يمر أمام بيتى كان قبل ذلك بسنوات مسكونًا بالعفاريت ، وإن جزءًا من الأرض التى تواجه البيت وأقيم عليه مسجد قبل ذلك بوقت قصير كانت خاصة بها . وبالطبع أخرجت من تلك البقعة بعد بناء المسجد . كما أنه بعد دخول السيارات والتليفونات ، التى تعارضها بشدة ، أصبحت لا تسكن الطريق كذلك . ولهذه الأسباب لجأت إلى حديقة الاستراحة ، حيث زعم عديد من الناس أنهم رأوها . وقد حدث أن ظهرت ثلاث مرات أثناء إقامتى .



(الشكل ١٣٤) الاستراحة وحديقتها المسكونة

ففى إحدى الليالى ، وبينما كان حارسى ينعم بالنوم العميق ، استيقظ فجأة وهو فى حالة من الرعب ورأى فوقه شبحًا ضخمًا على هيئة رجل ، حيث ظل واقفًا هكذا لمدة دقيقة أو دقيقتين ثم اختفى . وفى مرة أخرى رأى الحارس نفسه عفريتًا على هيئة كلب كان يجرى فى الحديقة ويدخل نوافذ المكاتب الحكومية التى تطل عليها ثم اختفى . وبعد حوالى أسبوع كان خادمى يعبر الحديقة فى طريقه من المنزل إلى المطبخ وكان يحمل مصباحًا مشتعلاً فى يده فانطفأ الضوء فجأة ، رغم أنه لم تكن هناك ريح . وفى الحال رأى خيالاً يجرى فى نفس الاتجاه الذى جرى فيه الكلب . وقد قال لى وهو يروى تلك المغامرة إن ذلك كان عفريتًا .

وكما سبق أن قلت ، يفترض أن العفاريت مخلوقة من نار . لذلك فمن الطبيعى أن نجدها على الحالة التى خلقت عليها . ولهذا السبب فإنه قبل إطفاء النار أو وضع أى شىء فيها ، جرت العادة النطق بالبسملة لإعطاء الفرصة للعفريت الذى قد يكون فيها كى يخرج . وكذلك فإنه قبل رش الماء أو أى سائل آخر على الأرض يقول كثيرون « دستور » أو « دستور يا مباركين » تحسبًا لوجود عفريت فى ذلك المكان . وإذا كانت هناك عفاريت فى النار فى الوقت الذى تطفأ فيه ، أو لمستها الماء عند رشها على الأرض ، فإنها تنتقم من الإنسان الذى لم يحذرها مما كان سيفعله .



(الشكل ١٣٥)

ساحر من معارفى

وقبل الأكل ، وكذلك قبل نقل أى طعام من الغرفة التى يوجد بها خزين البيت ، ينطق كل من المسلمين والأقباط بالبسملة . وقيل لى إن هذا يهدف إلى منع العفاريت من أخذ شىء من الطعام . وأحيانًا يقول الأقباط « بسم الصليب » ثم يرسمون علامة الصليب على الأكل ، لنفس الغرض . كما أن كل امرأة تنطق بواحدة من العبارتين قبل البدء فى خلط الدقيق لصنع الخبز .

ويفترض أن أى ساحر قادر على التحكم فى العفاريت وجعلها تظهر أمامه . ويمكنه كذلك أن يصدر الأوامر لملكهم الذى عليه أن يطيعه . ويستدعى الساحر العفاريت من تحت الأرض عن طريق تلاوة بعض التعاويذ وحرق البخور . وأحيانًا يصب قربانًا من الماء .

والذين تلبسهم العفاريت يلتمسون مساعدة السحرة بانتظام . وهؤلاء السحرة هم فى الغالب رجال طيبون يفعلون الخير . وإذا كان ملتمسو المساعدة من الفقراء ، فإنهم يمارسون سلطانهم نيابة عنهم دون أن يتقاضوا منهم أى أجر .

وربما تظهر العفاريت من تلقاء نفسها للأشخاص العاديين . ويكون ذلك أحيانًا فى صورة آدمية ، وإن كانت العادة هى أنها تظهر فى صورة حيوان كالكلب أو القط أو الحمار . كما أن

الحيوانات تراها فى الوقت الذى لا يراها فيه الإنسان . لذلك فإنه عندما يحرن حمار عن السير فى مكان ما فى الصحراء أو الأراضى الزراعية ، فإن صاحبه يعرف أن عفريتًا يسد الطريق . وعادة ما ينزل ويقود حماره بالقوة إلى خارج منطقة الخطر (٢).

ومن المفترض أن بعض السحرة متزوجون من إناث العفاريت لينجبوا منهم أطفالاً . وهذا المعتقد لا يقتصر على مصر وحدها ، بل هو موجود فى بلاد أخرى كذلك . وأى رجل يتزوج بهذه الطريقة لا يفصح عنها أبدًا . إلا أن هذا الأمر يكون معروفًا لأقاربه ، الذين يبحثون عنه أحيانًا فى المكان الذى ينام فيه فى الليل فيجدون أنه قد اختفى . وساعتها يفترضون أنه ذهب إلى زوجته « تحت الأرض » . ولكنهم لا يجرؤن على الحديث معه فى هذه المسألة . وهذا هو ما يعتقد أنه حال أحد السحرة الذين أعرفهم ويقيم بقرية صغيرة فى الصعيد . كان أهله يحثونه دائمًا على الزواج ، حيث إن الفلاحين المصريين يعتبرون أنه من العار أن يظل الرجل أعزب . وكان هذا الساحر يرفض دائمًا أن يتخذ لنفسه زوجة وضرب عرض الحائط بكل توسلات عائلته . لذلك فهم يعتقدون الآن أن له زوجة عفريتة ، حيث إنهم لا يجدونه نائمًا على حصيرته بالليل . وحيث إنه قبطى ، فإنه لا يمكنه أن تكون له زوجة ثانية من البشر ، وهو ما يستطيعه أى مسلم فى مثل حالته . وهذه الزوجة غير الآدمية تساعد زوجها فى كل أعماله كساحر . والواقع أن الناس غالبًا ما يرجعون نفوذه بالكامل إلى المساعدة التى يتلقاها من زوجته تحت الأرض .

ويمتلك معظم السحرة كتبًا هى فى العادة مخطوطات نسخوها بأنفسهم . وهى تحتوى على عدد من التعاويذ التى تردد ، إلى جانب توجيهات خاصة بأداء الطقوس المصاحبة وتعاويذ على هيئة مربعات سحرية . وتلك التعاويذ ربما تكون مستخدمة فى عائلة الساحر على امتداد الأجيال ونقلها الآباء إلى الأبناء شفاهة . إلا أنه فى الآونة الأخيرة أصبح ذلك يتم كتابة ، حيث إن معرفة الكتابة أصبحت أكثر شيوعًا بين القرويين .

والساحر القبطى الذى تحدثت عنه منذ قليل لديه العديد من تلك المخطوطات التى يحمل أحدها عنوان « كتاب آدم » . وقد بذل جهدًا كبيرًا فى جمع وتدوين أنواع العلاج السحرى والحماية بالنسبة لهؤلاء الذين تسبب لهم العفاريت المشاكل . وتمثل هذه محتويات أحد الكتب. وكما قال هو لى ، فإنه تعلم حرفته تلك من ساحر آخر لم يكن من أسرته . إلا أنه تتلمذ على يديه لفترة طويلة .

وخلال إقامتى فى مصر روى لى الكثير عن أنواع العلاج المدهش الذى يجريه السحرة لأشخاص تلبسهم العفاريت . وقد دونت التفاصيل عندما رويت لى . وربما يكون فى بعضها ما يهم قرائى أن يعرفوه . وقد حذفت أسماء الأشخاص الذين لهم علاقة بتلك الحكايات وأسماء القرى التى يقيمون فيها ، حفاظًا على مشاعرهم . فإفشاء تلك الأسماء فيه خيانة للثقة التى أولانى إياها أصحابها . ومثل هذه الأحداث لاتناقش فى العادة مع الأجانب . وقد رويت لى أنا بصفة خاصة ، حيث اعتبرنى القرويون صديقة جديرة بالثقة .

غضب شاب فى الصعيد غضبًا شديدًا من زوجته ذات ليلة ، بينما كانت أمام النار تطهو طعام العشاء . وفى غمرة غضبه تناول قلة وضربها بها . وعندما فعل ذلك انكسرت القلة وسقط الماء وبعض من الفخار المكسور فى النار فانطفأت . وبعد لحظة سمع صوتًا يقول له : « لقد كسرت رأس أحد أطفالى ، ولذلك سوف ألبسك » . ومن وقتها أصبح الرجل مجنونًا يجرح وجهه ويضرب كل من يقترب منه . وعندما رأى بعض أقاربه الحالة الرهيبة التى وصل إليها قرروا ربط يديه خلف ظهره كما ربطوا قدميه معًا ، لمنعه من إيذاء نفسه أو إيذاء الآخرين . إلا أنه استمر فى الصراخ والنطق بكلمات غير مفهومة . وطاف به أقاربه على الأطباء دون جدوى ، واستمرت حالته من الجنون العنيف .

وبعد أن ظل على هذه الحالة لمدة ثلاثة أشهر ذهبوا إلى شيخ معين . هذا الرجل ساحر ذو شخصية خيّرة . توسلوا إليه كى يعالج ذلك الرجل التعيس ، إلا أنهم قالوا له إنه فقير . وهذا الشيخ ، الذى يمتلك العديد من كتب السحر والتعاويذ ، كتلك التى ذكرتها من قبل ، كان متعاطفًا معهم واستمع لهم وقبل رجاءهم ووافق على زيارة الشخص الملبوس ، غير أنه طلب منهم أن يحضروا له أولاً قطعة صغيرة من ملابسه . عادوا إلى البيت ورجعوا إليه بقطعة القماش التى طلبها ، حيث كتب عليها الشيخ بعض الكلمات السحرية . وبعد ذلك أخبر أقارب الرجل الملهوفين أنه يلبسه عفريت ، ثم أوفى بوعده وصحبهم إلى بيت الرجل المجنون .

وجد الشيخ المريض نائمًا على الأرض وقد غطوه ببطانية ، بعد أن قيدوا يديه خلف ظهره وربطوا قدميه معًا بحبال قوية . بدأ الشيخ فى حرق البخور الذى وضعه فى أحد الصحون وأخذ يقرأ بعض التعاويذ من أحد كتبه . وهنا مزق الرجل المجنون الحبال التى كانت تربطه وبدأ يضرب يمينًا ويسارًا . وعندما سأله الشيخ عن سبب تصرفه على هذا النحو ، رد عليه العفريت ، الذى كان يتحدث من خلال الرجل ، قائلاً : « هناك امرأة غير طاهرة فى

الغرفة.»[٣] وعند سماع ذلك غضب الشيخ غضبًا شديداً ، إذ لا ينبغى أن تكون المرأة غير طاهرة حاضرة فى مثل هذا الموقف . لذلك أمر الحاضرين ، وكانوا كثيرين ، بمغادرة الغرفة باستثناء عدد قليل من أقارب الرجل الذكور . والناس تتجمع دائمًا لأتفه الأسباب فى كل القرى المصرية ويقدمون نصائح متضاربة بأعلى أصواتهم . وفى مناسبة كهذه الزيارة التى يقوم بها الشيخ للرجل المجنون ، فإن الغرفة تكون مكتظة بالمتعاطفين والمشاهدين الذين يدفعهم حب الاستطلاع .

وبعد أن أخرج الناس من الغرفة ، أصبح المجنون هادئًا واستمر الشيخ فى حرق البخور وفى تلاوة الجمل السحرية . وفى نهاية الأمر طلب الشيخ من العفريت أن يترك الرجل، ولكنه رد عليه (وكان طبعًا يتحدث من خلال الرجل) قائلاً : « من أى جزء من جسمه تريدنى أن أخرج ؟ هل أخرج من إحدى عينيه التى تصبح بعد ذلك عمياء ، عقابًا له على كسره لرأس أحد أطفالى ؟ » قال الشيخ إنه لن يسمح له أن يفعل ذلك وطلب من الخروج من أصبع قدمه الكبير . بعد ذلك وضع الشيخ قلة على الأرض وقال للعفريت : « سوف أعرف أنك تركت الرجل عندما تقلب هذه القلة » .

وبعد قليل ، وبينما كان الشيخ مستمراً فى قراءة بعض تعاويذه ، رأى بعض قطرات من الدم تتطاير من أصبع الرجل الكبير نحو القلة التى اصطدمت على الفور بالجدار . وهنا جلس المجنون وتساءل « أين أنا ؟ ومن أنتم ؟ » وبعد قليل تعرف على كل أقاربه الذين لم يكن يعرفهم طوال الفترة التى كان فيها مجنونًا . وعندما سألوه أين كان رد عليهم قائلاً : « كنت بين العفاريت » .

ومنذ ذلك اليوم وهو فى منتهى العقل . وهو يعيش الآن فى سعادة فى قريته .

وهذه حالة أخرى رويت لى فى عام ١٩٢٣ ، وقيل لى إن الحادثة نفسها وقعت عام ١٩٢٠ ففى إحدى مدن الصعيد الصغيرة كان يقيم ساحر قبطى ذائع الصيت سوف نطلق عليه الشيخ «ب» . وكان معروفًا عن هذا الساحر أنه متزوج بعفريته ، لأنه يختفى كل ليلة ولكن أحداً لا يرى زوجته أو أطفالها ؛ إذ اكتشف الناس أن لها ذرية من الشيخ وقد تظهر فوق الأرض عندما يتحدث الناس عنها ولكنها تظل غير مرئية .

كان الطابق العلوى من أحد المنازل بتلك المدينة يسكنه موظف قبطى يعمل فى مؤسسة تجارية كبرى ، بينما يشغل الطابق الأسفل رجل امرأته لم تنجب أطفالاً . وفى يوم توسل زوج

تلك السيدة ، الذى أحزنه عدم إنجاب الأطفال ، إلى الشيخ «ب» كى يأتى لرؤية زوجته ، أملاً فى أن يصنع لها حجابًا أو يتلو عليها بعض التعاويذ التى تشفيها من عقمها . وبناء على تلك الدعوة وصل الساحر فى ساعة متأخرة .

كان الرجل الذى يشغل الطابق العلوى متعوداً أن يصلى كل ليلة وصباح . وفى الليلة التى وصل فيها الشيخ «ب» كان يرتل بعض مزامير داود بصوت مرتفع . وعند سماع تلك التراتيل صاح الشيخ «ب» : « أوقفوا هذا الرجل عن القراءة لأنه يقاطعنى ! » صعد بعض الذين تجمعوا لمشاهدة الشيخ إلى الرجل يرجونه أن يتوقف عن التلاوة . ومع ذلك لم يعر طلبهم أى اهتمام وقرأ كل المزامير ؛ وكان يرتلها بصوت مرتفع من السهل سماعه فى الغرف التى فى الطابق الأسفل .

وهنا نادى عليه الشيخ «ب» قائلاً : « توقف عن تلاوة تلك المزامير ، فقد أحرقت أحد أبنائى » . وكان الشيخ قد أحضر عدة عفاريت من تحت الأرض ، ومنهم أبناؤه ، لكى يستشيرهم فيما يجب عمله بالنسبة للمرأة العاقر .



(الشكل ١٣٦)

طفل قبطى من جوقة التراتيل

وفى النهاية نام الموظف . ولكن ما إن رقد على فراشه حتى شعر أن أناسًا موجودون فى الغرفة . وفجأة وجد نفسه يرفع من على السرير . فتح عينيه ليرى أربعة عفاريت صغار يرتدون معاطف وسراويل عجيبة ألوانها كثيرة وكانت على رؤوسهم طراطير . حمله اثنان منهم من قدميه وأمسك الآخران برأسه . وعلى الفور رسم على نفسه علامة الصليب وقال « بسم الأب والإبن والروح القدس » . وعند ذكر تلك الكلمات المقدسة ألقت به العفاريت على الأرض واختفت .

وقيل لى إن الشيخ « ب » شعر بالغضب ، لأن الرجل عندما كان يتلو المزامير أوقف اتصاله بالعفاريت . ولكى يعاقبه ، أرسل إليه العفاريت الأربعة لإخافته . ومنذ ذلك اليوم والشيخ « ب » يرفض دخول ذلك المنزل .

وتوضح القصة التالية كيف عاقب عفريت صبيًا شقيًا . ولا بد أن أوضح هنا أن الأقباط اعتادوا أن يجتمعوا رجالاً وفتيان كل مساء فى شهر كياك ، الذى يبدأ فى التاسع أو العاشر من ديسمبر ، لتلاوة صلوات خاصة وآيات من التوراة باللغة القبطية . ويظلون فى الكنيسة حتى طلوع الشمس ، عندما يأتى القس للقداس . وبينما يفعلون ذلك ويتعلم الأولاد الأقباط بعضًا من اللغة القديمة أثناء وجودهم فى مدرسة العريف ، الذى يقود فريق الإنشاد فى الكنيسة .

وفى إحدى تلك المناسبات ، كان الولد الذى تحدثت عنه منذ قليل فى الكنيسة مع عدد من رفاقه يشاركون فى التراتيل . غادر الولد الكنيسة لعدة دقائق وعند عودته رأى حمارًا جميل المنظر يقف فى الأرض الفضاء التى أمام الكنيسة . وعلى الفور امتطى الولد الحمار وهو يضربه فى جانبيه بكعبيه ليحثه على الجرى أسرع وأسرع ويدور فى الأرض الفضاء . وفجأة بدأ الحمار يعلو حتى وصل ارتفاعه ما يقرب من خمسة أمتار . وعلى حين غرة اختفى الحمار وسقط الولد على الأرض وارتطمت إحدى عينيه بحجر وفقدت إبصارها . وبعد ذلك عرف الولد أن الحمار لم يكن سوى عفريت تشكل فى صورة حيوان . وبعد قليل سمعه يقول « لا تأت هنا مرة أخرى . وإذا جئت فسوف أؤذيك ! »

وحتى الآن ، فإن هذا الصبى الذى أصبح رجلاً كبيرًا ، لا يجرؤ على العودة إلى تلك الكنيسة خوفًا من العفريت . وقد حكى هذه القصة بنفسه لمصدرى وأقسم له على صحتها .

وكما أوضحت من قبل ، فإن العفاريت تغادر فى بعض الأحيان موطنها تحت الأرض وتصعد فوقها . لذلك من الخطر أن يدق الإنسان برجليه على الأرض أو يضربها بعصا أو

يرمى شيئًا عليها بقوة . ومثل هذه الأشياء يجب تحاشيها بصورة خاصة فى الليل ؛ حيث يعتقد أن العفاريت تخرج فى ذلك الوقت بأعداد كبيرة . لذلك فإن أي رجل يضطر للسير لمسافة طويلة ليلاً فإنه يكون سعيد الحظ إذا وجد صيادًا يصاحبه فى سيره ؛ إذ يعتقد أن أى عفريت لن يقترب منه . فالعفاريت تخاف من صيادى السمك وشباكهم . وعندما يرون هؤلاء الصيادين يلقون بشباكهم ، يفرون رعبًا . وقد قالت لى امرأة إن العفاريت تخشى الوقوع فى الشباك .

بعد عدة أيام من مغادرتى لقرية معينة فى الصعيد ، كان هناك صبى يعمل لدى العمدة فى المبنى الذى به الماكينات التى ركبها لضخ المياه اللازمة لرى حقوله . كان الوقت ليلاً . ولسبب أو لآخر اضطر الصبى أن يدق بقدمه على الأرض . وبمجرد أن آوى إلى فراشه كى ينام أوقظه عفريت كان يحاول خلع عينيه . صاح الصبى « اتركنى ، سامحنى ! » إلا أن العفريت رفض قائلاً إنه عندما دق بقدمه على الأرض أصاب رأس أحد أطفاله . صرخ الطفل ، ولأنه قبطى ، فقد رسم علامة الصليب على نفسه فاختفى العفريت .

والمعتقد التالى يوضح أن العفاريت يمكنها القيام بأعمال طيبة . فالصبى الذى لم يتم ختانه بعد قد يحمل بعيدًا عن أمه التى ينام بجوارها ليلاً بطريقة غامضة . وتتم إعادته إلى نفس المكان الذى ينام فيه فى نفس الليلة وقد تم ختانه . وتكون العملية أفضل كثيرًا مما لو كان الذى أجراها هو حلاق القرية . بل إن الجرح يكون قد التأم تمامًا . فى مثل هذه الحالة يعتقد أن الصبى له قرين طيب أحضر العفاريت كى تقوم بهذه العملية المؤلمة دون أن يشعر الطفل بألم .

وقبل أن يقيم الناس فى منزل تم بناؤه حديثًا ، أو يحفروا بئرًا للساقية أو يستخدموا ماكينة جديدة للرى أو الطحين ، لابد من ذبح عجل أو خروف ، وإذا كانوا فقراء يذبحون طيرًا، عند عتبة الدار ، أو بالقرب فى الماكينة ، أو داخل البئر قبل الوصول إلى مستوى الماء. ويتم ذلك خوفًا من أن تكون تلك الأماكن مسكونة بالعفاريت التى تضايق أصحابها ، إذا لم يرضوها أولاً بدم أضحية .

وفى عام واحد قتلت ماكينة الرى الخاصة بالعمدة ، التى تحدثت عنها من قبل ، ثلاثة أشخاص ، كانت إحداهم امرأة قتلت قبل فترة طويلة من وصولى (انظر الشكل ١٣٧) . وأثناء زيارتى ، أمسكت الماكينة بطفل فقتلته . كما قتل رجل بنفس الطريقة بعد مغادرتى للقرية . وهذا العمدة لم يذبح ضحية قبل استخدام الماكينة . لذلك ذهب العديد من أهل القرية

إليه وطالبوه بضرورة ذبح عجل على الفور . وقد فعل ذلك بعد مغادرتى بشهر ونشر بعض الدم على الماكينة . ويبدو أن هذا كان أرضى العفاريت ؛ فلم أسمع عن أى حادث منذ تقديم الضحية !

وهناك رجل قبطى فى تلك القرية يزيد عمره على التسعين عاماً كان من قبل خفيراً ، وقد أبلغ صديقاً لى أنه يعرف أن الأرض التى عليها ماكينة العمدة كانت تسكنها العفاريت . فبينما كان يقوم بأعمال الدورية ليلاً على أطراف القرية ، كان يشاهد فى ذلك المكان محراثاً يجره ثوران يسوقهما رجل ، وفى أحيان أخرى كان يشاهد نورجاً يجره ثوران يسوقهما رجل، والجميع من النار . وكان ذلك الخفير عند يقترب منها يرسم علامة الصليب فتختفى العفاريت التى على تلك الصورة فوراً .

وإذا كانت إحدى النساء تخشى من وجود عفاريت فى منزلها ، فإنها تضع قلة بها ماء على أرضية إحدى الغرف وتضع بالقرب منها بعض الخبز والملح ، وتترك كل هذا مكانه طوال الليل . فهذا يحمى البيت بكامله ويمنع أية عفاريت من دخوله .



(الشكل ١٣٧) أم الطفل الذى قتل تنتحب خارج وابور العمدة

ويفترض أن الكابوس والمشى أثناء النوم من فعل العفاريت . وإذا كان أحد الأطفال يعانى من أيهما ، فهذا معناه أن عفريتاً قد دخل جسمه . وربما يحدث هذا بسبب ارتكاب الطفل لخطأ ما . وقيل لى إن هذا قد يكون سببه أن الطفل قام بقطع بعض كيزان الذرة من حقل

جار . وإذا كان هناك طفل قبطى يسير أثناء نومه أو تأتيه الكوابيس ، فإن والديه يستدعيان قسيساً يطلب منهما إحضار سبعة قناديل . بعد ذلك يطلب جرة ماء ثم يصلى سبع صلوات خاصة ، ويقوم أثناء ذلك بحرق البخور فى مبخرة . وبعد انتهائه من إحدى الصلوات يطفىء القنديل . وبعد الصلاة الثانية يطفىء قنديلاً آخر ، وهكذا حتى الانتهاء من الصلوات السبع وإطفاء كل القناديل . بعد ذلك يطلب من والدى الطفل أن يضعا جرة الماء على سطح البيت على أن تبيت هناك ليلة . وفى الصباح التالى يستحم الطفل بالماء . ويعتقد أنه بعد ذلك يكون قد شفى .

وفى حالة المسلمين ، فإنه إذا حدث ذلك لأحد الأطفال ذهب به أهله إلى أحد السحرة ليكتب لهم حجاباً للحماية يعلقه الطفل .

ويعتقد أن كل إنسان له عفريت بالإضافة إلى روحه . وهذا العفريت يغادر جسده عند الوفاة . وفى بعض الحالات قد يسبب هذا العفريت المشاكل لأي إنسان يقترب منه . والحيوانات هى الأخرى لها عفاريت . وهذا المعتقد لفت انتباهى بصورة خاصة مؤخراً . فقد لجأ كلب صغير مصاب إصابة شديدة إلى حمام بيتى . قال لى خادمى إنه متأكد من أنه لن يعيش وأنه لا بد من إخراجه قبل أن يموت ، وإلا فإن عفريته سيظل ساكناً فى البيت . وحيث إن حالته كانت ميئوس منها ، فقد أعطيت خادمى مسدساً وطلبت منه أن يقتل الكلب . وبالفعل قام بذلك ، ولكن بعد أن أخذه إلى مكان بعيد .

وعندما كنت فى مصر عام ١٩٢٥ غرق رجل كان قد جاء للتجارة فى القرية التى كنت أقيم فيها . وقد ذهب إلى ترعة بحر يوسف للوضوء قبل صلاة الفجر ، إلا أن الماء كان أعمق مما كان يظن وكان لايعرف العوم . ولم يكن هناك أحد بالقرب منه فى ذلك الوقت ؛ فقد كان الوقت مبكراً جداً . وعندما لم يعد ، نزل الناس إلى الترعة للبحث عنه فوجدوا ملابسه على الشط . تجمع عدد كبير من الناس ولكن شيئاً لم يحدث حتى بعد الظهر . أبلغ المسئولون بالحادث ، ولكن يبدو أن أمراً أكثر إلحاحاً منعهم من الحضور . وعلى أية حال ، فقد كانوا سيأتون من مسافة بعيدة . نزلت واختلطت بالناس . كانت زوجة الرجل وأمه وابنه الصغير يقفون عند حافة الماء ومعهم أعداد من المواسين لهم . كانت المرأتان تنوحان وتلوحان بأيديهما ، كما هو الحال دائماً عند وفاة إنسان . كانتا تلوحان كذلك بمناديل زرقاء وسوداء . تستخدم فى مثل هذه المناسبات وتصرخان « يا بوى ! يا جملى »[4] ، وكان هناك قارب يقوده ثلاثة رجال

ومعهم خيط ربطت فيه شصوص كتلك التى تستعمل فى صيد السمك ، أملاً فى أن تعلق [ب]
الجثة .

كانوا قد قاموا بتفتيش جزء من الترعة بتلك الطريقة دون جدوى ، حين اقترحت عليهم أن يفتشوا جزءًا آخر فى الاتجاه الذى يسير فيه تيار الماء . واتبعوا نصيحتى وسرعان ما عثروا على الجثة التى وضعت على الشط وأحاط بها جمع كبير على الفور . وبعد فترة تفرق هذا الجمع فرأيت أم الميت وزوجته . كانت إحداهما تجلس عند رأسه والأخرى عند قدميه . تذكرت بقوة منظر إيزيس ونفتيس وهما تنوحان على أوزيريس الميت . بعد هذا الحادث قال لى بعض أهل القرية إن أية امرأة لم تستطع الذهاب بمفردها لملء جرتها من ذلك المكان ، خوفًا من عفريت الرجل الغريق الذى سيظل دائمًا فى الماء . قد يكون عفريتًا طيبًا ، وساعتها لن يؤذى أحدًا . ولكن من يدرى ، فقد يكون شريرًا !

منذ عدة سنوات ذهبت بعض النساء فى قرية مجاورة إلى ترعة الجيزة لملء جرارهن . كان الطقس حارًا وظنت إحداهن أنه سيكون لطيفًا أن تستحم ، فخلعت ملابسها ونزلت الماء وهى ترقص والجرة فوق رأسها . فجأة بدأت الصراخ والعويل ، حيث شعرت أن شيئًا يسحبها إلى تحت الماء . لم يبذل أحد أى جهد لإنقاذها ؛ حيث قيل إن عفريت أحد الغرقى أمسك بشعرها وأخذ يسحبها لأسفل . وكان يعتقد أنه إذا حاول شخص إنقاذها فإنه قد يمسك به هو الآخر . إلى جانب أن العفريت كان يريدها ، ولا بد أن ينالها !

الهوامش :

(١) انظر E.W.Lane. The Manners and Custons of Modern Egyptian (London 1871) Vol. i, pp. 283 ff .

وكذلك ترجمة ألف ليلة وليلة طبعة : (London , 1883), Vol. pp. 26 f (notes to Introduction)

(٢) راجع قصة بالام وحماره .

(٣) المرأة الحائض تعتبر دائمًا غير طاهرة .

(٤) بما أن الجمل من حيوانات الحمل وأحد وسائل المعيشة بين الفلاحين ، فيشبه به عائل الأسرة .

الفصل الخامس عشر

المشايخ المسلمون والقديسون الأقباط

يُعظم الفلاحون المصريون عددًا من الرجال والنساء الذين تنسب إليهم قدرات إعجازية[١] ، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم . ومثل هذا الشخص المقدس يعطى لقب شيخ . والمعنى الحرفى لكلمة شيخ هو الرجل المسن . والرجل الذى يتقدم به العمر ينادى بالشيخ فلان ، كنوع من الاحترام . والكلمة من معانيها أيضًا زعيم القبيلة العربية وكبير القرية ، وهى أخيرًا تعنى الرجل المتعلم ، أى الدارس لعلوم الدين .

وبعض هؤلاء الرجال والنساء المقدسين يعظمون فى كل أنحاء البلاد . وقد أصبحت الطقوس الخاصة بهم جزءًا من الديانة الشعبية العامة . ولكن إلى جانب تلك الشخصيات العظيمة ، هناك العديد من القديسين والمشايخ المحليين الذين غالبًا ما يجتذبون المريدين من مناطق خارج حدود قراهم .

ومهما كان قدر التعظيم الذى قد يلقاه القديس فى حياته ، فإن التكريم الذى يحظى به بعد وفاته يكون أكبر . وجرت العادة بين المسلمين أن يقام على قبر مثل هذا الشخص بناء صغير مطلى بالجير تعلوه قبة . وعادة ما تزين الحوائط الخارجية والداخلية بنقوش وكتابات بينها آيات من القرآن . وجرت العادة فى أحوال كثيرة أن يكون هناك « خادم » (الشكل ١٣٨) ، وأحيانًا عدد من « الخدم » تدفع رواتبهم من ريع الأرض الموقوفة على المقام أو الأموال التى تتجمع من تبرعات[٢] الذين يزورون الضريح . وهذا الرجل ، وربما تكون امرأة ، يعرف بـ « خادم الشيخ » . وهذا المنصب قد يورثه الأب لإبنه . وإلى جانب الأرض التى تحيط بالضريح ، فإن حرم المقام قد يشمل بئرًا يفترض أن ماءها قد خص بقدرات عجيبة .

وفى بعض الأحيان يكون هناك حجر أو كومة من الحجارة أو شجرة أو مجموعة أشجار تشير إلى المثوى الأخير للشيخ الراحل . ولكن فى حالة وجود قبة فوق القبر ، فلا بد أن تكون هناك شجرة أو أشجار مرتبطة به . وعادة لا يبنى الضريح إلا إذا ظهر الشيخ المتوفى لشخص ما وطلب منه إقامة مثل هذا البناء .



(الشكل ١٣٨)

" خادم " الشيخ سيد

ومعظم المشايخ المسلمين من أية مرتبة لهم ضريحان أو أكثر . وهذا لا يعنى أن جثمان الشيخ مدفون بالفعل فى أى من هذه الأماكن . وإن كانت هناك حالات كثيرة الأمر فيه كذلك. فقد يظهر شيخ متوفى لرجل ما فى منامه ، أو حتى فى يقظته ، ويطلب منه أن يبنى له ضريحًا فى مكان معين . وربما يقوده بنفسه إلى ذلك المكان . وقد يحدث أن يفعل أهل القرية التى بها مقام الشيخ ما يشين ، أو قد يغضبوا هذا الرجل المقدس بتقصيرهم فى إبداء الاحترام الواجب له . وفى مثل هذه الحالة ، هناك اعتقاد بأن الشيخ يظهر لرجل فى قرية بعيدة ويطلب منه أن يبنى له ضريحًا آخر . وكثيراً ما يكون الضريح الجديد أكثر شعبية وتزوره أعداد أكبر من تلك التى تزور الضريح القديم . وهكذا فإن الشيخ الذى يكون ضريحه الأصلى فى الوجه البحرى قد يرتبط اسمه بضريح أو أضرحة فى أقصى الجنوب بالصعيد .

وتشكل الشموع ، أو النقود التى تشترى بها ، قربانًا مفضلاً . وهذه الأنوار تظل مضاءة كل ليلة فى بعض أضرحة المشايخ . وفى البعض الآخر قد تضاء ليلة واحدة فى الأسبوع ؛ هى فى العادة ليلة الجمعة . وعمومًا ، فإن هناك عدد من النذور المعلقة على حبل أو حبال داخل

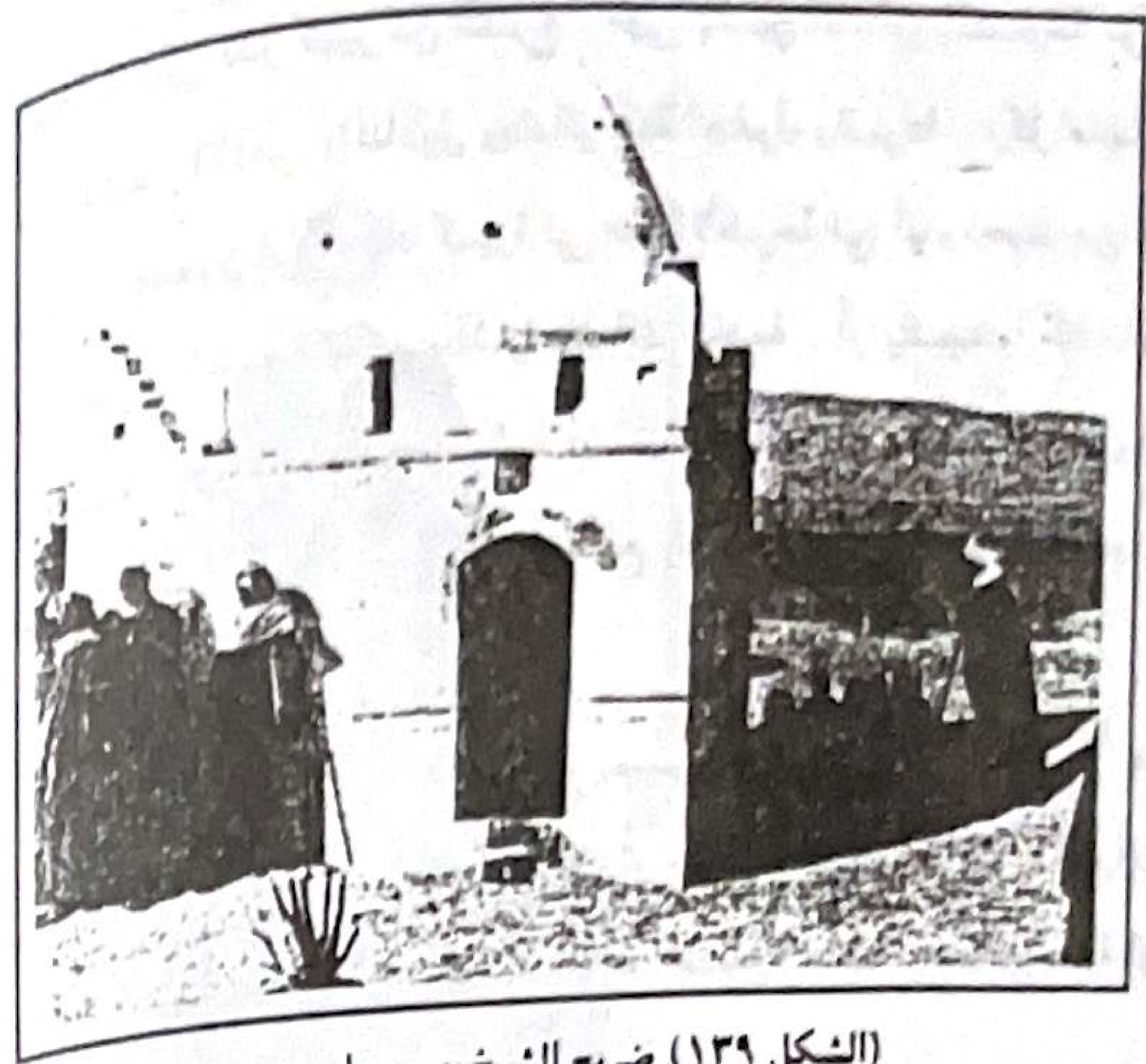
الضريح، والهدايا على قدر كبير من التنوع . فهى تشمل الأساور المصنوعة من الزجاج والخرز وخصلات من الشعر الآدمى والمناديل وبشائر غلة الحقول وغيرها . وكل منها يمثل دعاء قد تحقق . فالناس يتجمعون فى أعداد كبيرة فى هذه الأضرحة فى أيام معينة من الأسبوع ، عادة ما تكون الخميس أو الجمعة ، كى يطلبوا طلبات خاصة ، أو يلتمسوا الشفاء من مرض ما يعتقدون أن الشيخ قادر على علاجه . كما أن المرأة العاقر ، أو الشخص الذى يلبسه عفريت، يأتى أحدهما متوسلاً إلى الشيخ كى يتشفع له . والواقع أن بعض الطقوس المعينة عند الضريح قد تؤدى فى حد ذاتها إلى الشفاء .

ويخلع الزائر حذاءه قبل دخول الضريح ثم يسير من اليسار إلى اليمين[٣] حول التابوت القائم أسفل القبة ثلاث مرات أو خمس مرات أو سبع ، وهو يتلو أثناء ذلك آيات معينة من القرآن . وبعد الانتهاء من الطواف يمسك خادم الشيخ بمكنسة ، مخصصة لهذا الغرض ، ويكنس بها كل آثار الأقدام التى داخل الضريح .

وحتى الحيوانات المريضة يأتى بها أصحابها إلى ضريح الشيخ ويطوفون بها حوله سبع مرات .

وفى إحدى مديريات الصعيد ، وفى الصحراء ، يقوم ضريح ذو قبة للشيخ حسن على (الشكل ١٣٩) . وهو محاط بسور منخفض من الطوب اللبن داخله بعض الأشجار الصغيرة ، إلى جانب قبرين أو ثلاثة قبور مدفون بها أقارب الشيخ المتوفى . وتزين المكان أصص بها صبار ، حيث يعتقد أن هذا النبات يجلب السعادة للمتوفى . والبناء مطلى بالجير وعليه نقوش باللونين الأحمر والأزرق تمثل الحج إلى مكة . والأرض الصحراوية المحيطة بالضريح تنتشر فيها قبور عامة الناس . وتتميز تلك القبور بأكوام من الرمل مغروس بها بعض جريد النخل ؛ إذ يعتقد أن سعف النخيل ، مثله مثل الصبار ، يجلب السعادة للميت الراقد تحته .

وكان الشيخ حسن على فى الثامنة عشرة فقط من عمره عند وفاته إلا أنه كان معروفًا عنه التقى والورع منذ بداية حياته . وقد تلقى تعليمه فى مدرسة صغيرة فى قريته . وما إن تعلم القراءة حتى أخذ يقضى كل وقت فراغه فى دراسة القرآن . وعندما توفى ، دُفن فى قبر عادى بالصحراء بين أموات قريته . وفى أحد الأيام ، وبينما كان والده جالسًا على المصطبة ويده على خده ، ظهر ابنه أمامه وأمسكه من رسغه قائلاً « أنا شديد الغضب » .



(الشكل ١٣٩) ضريح الشيخ حسن على

قال له والده : « ولما أنت غاضب يا بنى ؟ » أجابه الإبن : « لأنك لم تبن لى ضريحًا . وإذا لم تفعل ذلك الآن فسوف أرحل إلى قرية أخرى » . قال الأب : « ابنى حبيبى . غدًا صباحًا سوف أبدأ فى بناء ضريح رائع لك . »

كان الابن يمسك بورقة فى يده فقدمها لأبيه وقال له إن بها التوجيهات الكاملة بخصوص بناء الضريح ، مع التحديد الدقيق للمكان الذى يبنيه فيه وكذلك الموضع الذى توجد به بئر للماء ، لم يكن أحد يعرفها فى ذلك الوقت .

تم بناء الضريح على وجه السرعة واتبع العمال التعليمات التى فى الورقة التى قدمها الابن لأبيه . كما حفرت البئر فى المكان المحدد وكان ماؤها ممتازًا . ويؤكد الأب أنه كان مستيقظًا تمامًا عندما ظهر له ابنه . وعندما سألت الأب عما فعله بالورقة قال لى إن العمال أضاعوها !

ويعلق فى ضريح الشيخ حسن على نموذج قارب ، كما هو الحال فى ضريح أى شيخ ، ويطلق عليه « معدية الشيخ » .

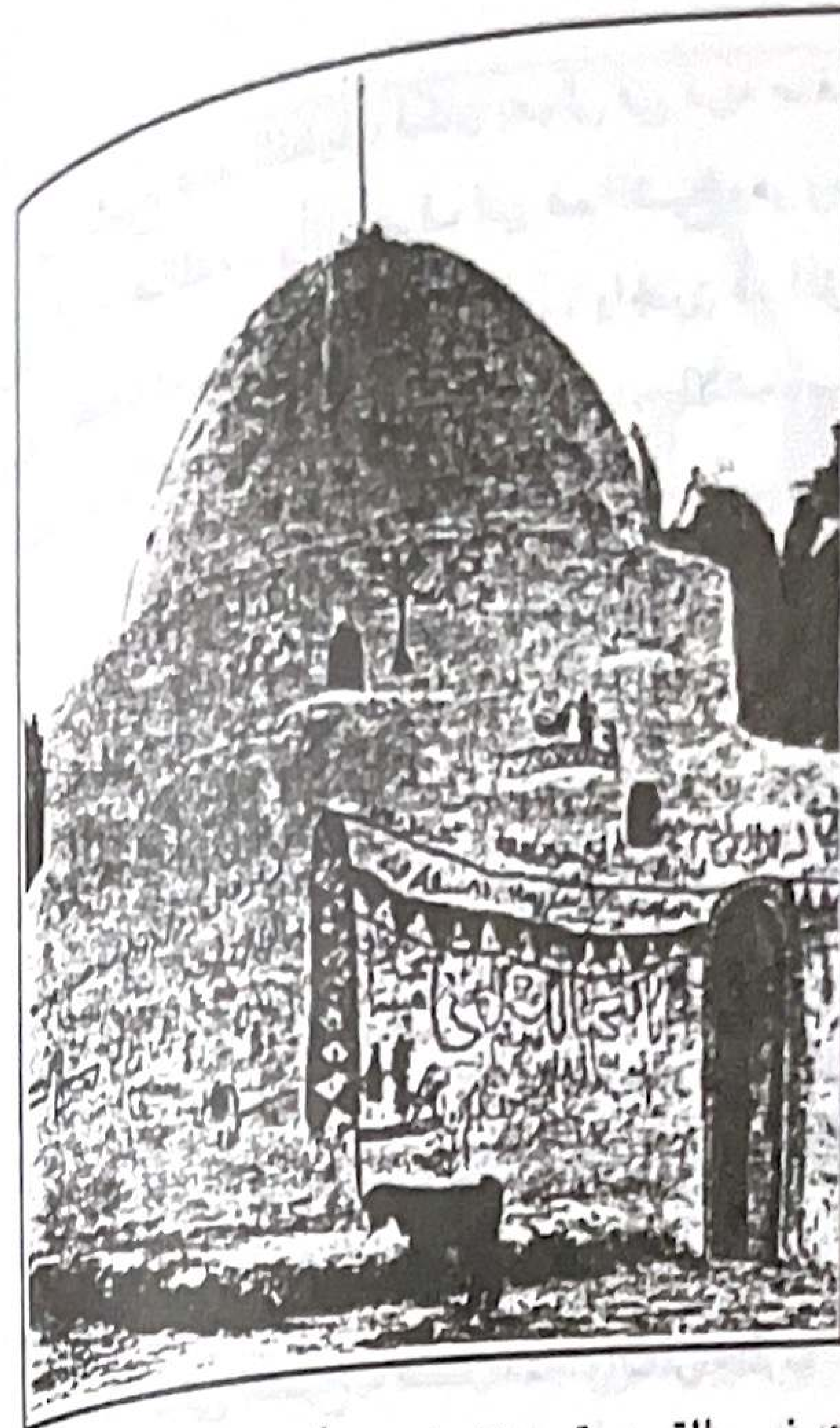
أم هذا الشيخ ، التى كانت شديدة الإخلاص لإبنها ، لم تعش طويلاً بعده . وقد حضرت جنازتها التى سار فيها عدد كبير من الأصدقاء والأقارب . وقد دفنت فى قبر على مقربة من ضريح ابنها الولى .

أما الشيخ عبد اللطيف فكان يعيش فى قرية صغيرة بمصر الوسطى ، حيث مازال يقيم بعض أفراد عائلته . وأنا أعرف ابن عم الشيخ وهو رجل مسن (٤). وكان ينظر إلى الشيخ عبد اللطيف فى حياته على أنه ولىّ . والجنون هو المؤهل المعتاد للحصول على هذه المكانة المرتفعة بين القديسيين المسلمين فى مصر . والأشخاص المصابون بذلك ينظر إليهم على أنهم أحباب الله . وكان الشيخ معتادًا عى دخول بيوت الناس فى الليل بعد إغلاق الأبواب بالأقفال فى الوقت الذى تعد فيه وجبة العشاء . والأبواب المغلقة بالأقفال لا تشكل عائقًا لدخول هذا الرجل المبروك أو خروجه . وعند دخوله يلتهم كل الطعام ، لحمه وخبزه وخضرواته ، مهما كان مقداره . فقد كان يلتهم ذلك كله على الفور . وأية زجاجات يتصادف وجودها قد تدخل ضمن ما يأكله . إذ كان يقضم الزجاج ويبتلعه دون أن تنزل منه قطر دم . وكان هناك شىء واحد يخافه وهو الماء . فإذا رش عليه أحد بضع قطرات من الماء فإنه يفر منه رعبًا وبأسرع ما يمكن لساقيه أن تنطلق . ومصدرى يتذكره جيدًا . وقد حكى لى أنه فى إحدى المرات دخل الشيخ بيته بعد إحكام إغلاق المدخل ، والتهم كل الطعام الذى كان معدًا لوجبة العشاء ، بما فى ذلك الشوربة .

وعندما توفى الشيخ ، حضر مئات الناس جنازته . ولأنه كان رجلاً شديد الطيبة ، فقد جعل حامليه يجرون به إلى قبره (٥). وأقيم فوق هذا القبر الضريح المعتاد بقبته . وهو قريب من ضريح الشيخ مبارك (الشكل ١٤٠) الذى يقام له مولد سنوى(٦) .

وفى أحد الأعوام ، وأثناء هذا المولد ، صعد رجل فوق ضريح الشيخ عبد اللطيف من الخارج دون أن يخلع حذاؤه . وقد عاتبه بعض الواقفين على هذا العمل الذى يدل عى عدم الاحترام ، فرد عليهم : « من هو الشيخ عبد اللطيف ؟ لا أحد . » ورفض النزول أو خلع حذائه. إلا أنه عندما أراد النزول والانضمام إلى المحتفلين بالمولد ، وجد أنه عاجز عن الحركة . وعندما حاول أن يتحرك كانت أطرافه قد تصلبت وشُل جسده كله . وعند روية ما حاق بالرجل البائس ارتفع النداء إلى الشيخ على الفور . جاء الناس بالطبول والدفوف وكان آخرون يغنون ويصفقون مع الموسيقى . وبعد ساعتين أو نحوهما من التوسل استعاد الرجل قدرته على الحركة واستطاع أن يمشى .

وبعد فترة من إبداء الشيخ عبد اللطيف لقدرته ، ظهر لرجل فى قرية تبعد بعض الأميال طالبًا منه بناء ضريح هناك . ذهب أهل تلك القرية إلى قرية الشيخ وهم يشعرون بالانتصار وأبلغوهم بفرح أن شيخهم قد جاء إليهم .



(الشكل ١٤٠)

ضريح الشيخ مبارك
(لاحظ النقوش الخارجية)

ومازال الضريح الأصلى قائمًا ، ولكنه فى حالة مزرية . ولا شك فى أنه سوف يختفى تمامًا بمرور الوقت ، إلا إذا حدث شىء لإحياء التعظيم الذى كان يظهره الناس لهذا الرجل المبروك فى قريته الأصلية . وفى الوقت نفسه ، يقيم أهل القرية التى بنى فيها المثوى الأخير لعبد اللطيف مولداً كل سنة تكريمًا لشيخهم الذى آل إليهم .

وفى حياة الشيخ عبد اللطيف كان يزوره ذات مرة الشيخ سليمان ، الذى كان يقيم فى قرية على بعد عدة أميال . وحيثما ذهب الشيخ سليمان كان يصحبه دائمًا خادمه المخلص . وفى تلك الزيارة تحدث الشيخان معًا بلغة غير معروفة . أثار ذلك فضول خادم الشيخ سليمان الذى سأل سيده بعد الحديث عما كانا يتحدثان عنه . قال له إن عبد اللطيف كان يلومه على المجىء إلى قريتـه وأمره أن يبقى فى منطقته . ولا شك فى أن الغيرة كانت مبعث ذلك الشعور السىء.

بعد عدة أيام لاحظ الخادم فى الصباح الباكر أن أصابع سيده كانت كلها محترقة عند أطرافها . وعلى الفور سأله عما أصابه بذلك . أخبره الشيخ أنه اعتاد الذهاب فى كل ليلة

إلى أضرحة المشايخ فى المنطقة ليضىء لها الشموع ، وأنه أثناء قيامه بهذا العمل الذى يدل على الورع احترقت أصابعه .

توفى الشيخ سليمان ، إلا أن ورعه مازال يذكره الناس . وقد دفن فى قريته . غير أن هناك ستة أضرحة أخرى أقيمت إحياء لذكراه فى أنحاء مختلفة . بل إن أهل قريته يقيمون له مولداً كل عام تكريمًا له .

وفى إحدى مديريات الصعيد ، وبالقرب من التلال الصحراوية ، عاشت الشيخة صلوح . اشتهرت تلك المرأة فى حياتها ببركاتها ، وكان الناس يتوافدون عليها فى أوقات الشدة من كل مكان . كانت بشرتها شديدة السمرة بسبب تعرضها الدائم للشمس . وكان رأسها الذى لم تكن تغطيه يكسوه شعر غزير وطويل كصوف الغنم . وتحت حاجبيها عينان سوداوان لهما نظرة حادة . أما ملابسها فكانت قليلة جداً ، وكانت عبارة عن خرقة من الكتان وما يشبه العباءة . كانت تظل قائمة فى تلك المنطقة الصحراوية المنعزلة طوال النهار وأثناء الليل .

وقيل لى إنها كانت تنام بمفردها « فى الجبل » . وهذه هى التسمية التى يطلقها الناس ، كما أشرت من قبل ، على التلال الصحراوية . لذلك فمن المحتمل أنها كانت تأوى إلى أحد الكهوف الطبيعية أو الصناعية الموجودة بأعداد كبيرة على سفوح التلال .

وذات مرة عندما كان عندها عدد من الرجال والنساء ، الذين جاءوا لاستشارتها ، سألها أحد الرجال عما حدث لجمله غالى الثمن الذى ضاع منه . وفى الحال أخبرته الشيخة بالساعة التى ضاع فيها بالضبط . وقالت له إن أحد أبنائه وسرقه وباعه لرجل فى قرية أخرى فى نفس المديرية . ثم أبلغتـه باسم الرجل الذى اشتراه . كما قالت له إنه إذا ذهب إلى بيت المشترى فسوف يسترد ما ضاع منه .

قيل لى إن تلك المعلومات ثبتت صحتها واستعاد الرجل جمله الذى كان قد فقده .

تقدم رجل بعد ذلك . وعندما أهدى الشيخة مبلغًا صغيراً من المال أخبرته باسمه واسم قريته ، مع أنه لم يكن معروفًا لها . كما أبلغته أن له ثلاثة أبناء وابنة واحدة ، وهى معلومة صحيحة تمامًا . علاوة على ذلك قالت له إنه عند عودته سيجد أن ابنته مريضة . وقد ثبت ذلك أيضًا .

هذه المرأة توفيت منذ عامين أو ثلاثة أعوام وتدافعت الجموع إلى جنازتها ، حيث جاء رجال من كل الطبقات لتكريمها .

وهناك الشيخ صبر المدفون فى قرية صغيرة بمصر الوسطى ، ولايدل على مثواه الأخير سوى شجرة . وهذه الشجرة الكبيرة الحجم التى مضت عليها أعوام طويلة سقطت فى عام ١٩٢٦م ، وقد سألت إن كان سيبنى ضريح الآن فوق القبر ، فقيل لى إن مثل هذا البناء لن يقام حتى يظهر الشيخ لشخص ما ويطلب منه أن يقيم له ضريحاً بقبة .

وقد سبق لى زيارة القرية مرات عديدة قبل الكارثة التى لحقت بالشجرة المقدسة . وقد أسعدنى الحظ كى ألتقط بعض الصور الفوتوغرافية لها . كانت الشجرة تقف عند طرف القرية وكان المريدون الذين يأتون يرجون الشيخ أن يشفع لهم كى يحصلوا على منفعة ما . وكان الذين يتمنون الشفاء من الصداع أو غيره من العلل يدقون مسماراً فى جذع الشجرة ثم يلفون عليه بعضًا من شعرهم . وكان يعتقد أن الشفاء سوف يلى هذا العمل . ولا بد أن تكون المسامير « غشيمة » ، أى لم تستخدم من قبل ، ولا بد أن تكون محلية الصنع . وكانت أية امرأة عاقر تزور الشجرة كى تشفى من عقمها . والشيخ صبر له تقدير كبير وله مولد يقام كل عام وسيأتى ذكره فى الفصل التالى .

وكل هؤلاء المشايخ كانوا فقراء . والتعظيم الذى أبداه الناس لهم يعود إلى الفضائل التى أظهروها ، وإلى المعجزات التى يفترض أنهم قادرون عليها . والواقع أن المرتبة العالية التى يضع فيها الفلاحون قديسيهم المحليين شىء مفيد بالنسبة لهم . فهذا يحدد لهم مستوى معين من السلوك الذى يوفر لهم مثلاً أعلى للحياة . يفوق مجرد جمع المال والنجاح المادى .

والقديسون الأقباط يعطون لقب « مار » ، ويعنى قديس . وكثير من المعتقدات والطقوس التى تربط بهم تشابه تلك المتعلقة بالمشايخ المسلمين .

وأى قديس قبطى يدفن داخل حرم إحدى الكنائس أو أحد الأديرة التى قد توهب له . وأي قديس محبوب قد يتم تكريمه بإطلاق اسمه على العديد من الأديرة والكنائس التى يلقى فيها جميعًا نفس القدر من التعظيم .

وفى بعض الأحيان قد يدعى كل من المسلمين والأقباط أحقيتهم فى أحد القديسين . وفى هذه الحالة غالبًا ما يكون القبر فى مكان مفتوح ؛ ربما فى ظل شجرة أو أشجار وتكون فروعها مغطاة بالنذور التى يقدمها أبناء الديانتين معًا . وتعد الشموع الشكل المفضل للنذور لدى المسلمين والمسيحيين . وعندما يدّعى أبناء الديانتين أحقيتهم فى القديس ، قد تراهم جنبًا إلى جنب يوقدون الشموع له .

ومنذ سنوات بعيدة ، وفى المكان الذى تقوم عليه الكنيسة التى تحمل اسم مار مينا العجايبى فى الأرض الزراعية بصعيد مصر ، كانت هناك قطعة أرض مربعة ينمو بها نبات الحلفا زعم المسلمون أن هذا المكان مدفون به أحد المشايخ . وكان هناك رجل فقير جداً يعيش فى مدينة صغيرة تقع تلك الحقول على أطرافها ويعمل فراشًا فى مصنع السكر بنفس المدنية . وفى إحدى الليالى وبينما هو نائم شعر بأن أحداً يركله بقدمه . أيقظه ذلك طبعًا من نومه، فرأى رجلاً جميل الهيئة يقف بجواره ويرتدى ملابس بيضاء . قال الرجل للفراش الفقير إنه مار مينا العجايبى وإنه يريده أن يبنى كنيسة وأنه سيعين له بنفسه المكان الذى يريد أن تقام عليه . قال القديس للفراش إنه ناداه هو للقيام بهذا العمل بدلاً من أى رجل غنى . فالرجل الغنى سوف يتباهى بأنه بنى الكنيسة بأمواله ، فى حين أن القديس نفسه سوف يمد الرجل الفقير بكل ما يحتاجه لإقامة البناء المقدس .

بعد ذلك أخذ مار مينا الفراش إلى القطعة التى تنبت بها الحلفا وسط الحقول وطلب منه أن يقيس مترين من عند حافة الحلفا نحو الشرق ومترين من حافة الحلفا فى اتجاه الغرب . بعد ذلك يحفر كل المساحة التى بين ذلك بعمق مترين ونصف . فإذا انتهى من ذلك ، سيجد أولاً بئراً عميقة جداً . وإلى الشرق من البئر سيجد كمية من الطوب تكفى لبناء الكنيسة . وإلى الشرق سيجد أكوامًا من الحجر الجيرى ليستخدمه فى البناء . وإذا حفر إلى الشرق من الحجارة بعمق نصف متر سيجد كومة من النقود تكفى لدفع كافة نفقات بناء الكنيسة بأكملها ، بما فى ذلك أجور العمال . وطلب القديس من الفراش أن يبدأ على الفور فى بناء الكنيسة وألا يعصى أوامره وإلا قُتل . وبعد ذلك اختفى مار مينا العجايبى .

بدأ الفراش فى حفر القطعة المحددة ووجد كل شىء أبلغه به القديس ، بما فى ذلك البئر التى اكتشفها أولاً .

ومازالت الكنيسة قائمة فى تلك البقعة ، ولكن الفراش الذى أقامها مات منذ وقت طويل. وقد قام أحد المطارنة الأقباط بتوسعة البناء . ومازالت البئر موجودة داخل حرم الكنيسة .

ومار مينا العجايبى قديس قبطى مشهور جداً . وهو يلقى تعظيمًا ليس فقط من المسيحيين ، بل كذلك من كثير من المسلمين الذين قيل لى إنهم شديدو الإيمان به ويلجأون إليه متوسلين به فى وقت الشدة .

وإجلاديوس العزب قديس له شهرة كبيرة . وهناك كنائس عديدة فى مصر تحمل اسمه . ويرقد جثمانه مع أجسام قديسين أربعة آخرين فى بناء خاص مخصص لهم فى إحدى مدن الصعيد الكبرى . وأجساد هؤلاء الرجال المقدسين الخمسة ماتزال فى حالة جيدة من الحفظ ، مع أنهم جميعًا ماتوا منذ زمن بعيد . ويرقد كل جثمان فى تابوت . وكان إجلاديوس العزب صغيراً جداً عندما مات ، وقيل لى إن العرب قتلوه لأنه كان مسيحيًا . وهو يلبس شريطًا من الذهب حول صدره وقرطًا ذهبيًا فى إحدى أذنيه . ويقام كل عام مولد تكريمه . وعند الاحتفال به يصنع الناس كميات كبيرة من الخبز ويأتون بالماشية التى تذبح عند الكنائس . ويوزع الخبز واللحم على الفقراء ، الذين يتوافدون بأعداد كبيرة فى تلك المناسبات على الكنائس الى تحمل اسمه .

وفى إحدى قرى مديرية أسيوط تقوم كنيسة تحمل اسم مار أجلاديوس العزب . وذات مرة كان رجل يقيم بجوار البناء المقدس يستضيف صديقًا مسلمًا جاء من منطقة أخرى . وبينما كانا يتجاذبا أطراف الحديث ، جاء ذكر المشايخ وقال المسلم إن الأقباط ليس لديهم قديسون بحق وإن كل ما يؤمنون به بخصوص من يسمونهم قديسين كلام فارغ . فرد مضيفه قائلاً : «لأمر ليس كذلك . فإن لدينا قديس ذائع الصيت سميت الكنيسة المجاورة باسمه » . إلا أن ضيفه سخر منه .

وفى الليل ، وبينما كان المسلم ينام فى غرفة بالطابق الأعلى من المنزل ، وكان مضيفه ينام فى الطابق الأرضى ، ظهر أمامه شاب ولمسه لإيقاظه من نومه . بعد ذلك أمسك هذا الضيف برقبة المسلم وسأله كيف يجرؤ على الحديث عن القديسين الأقباط بتلك الطريقة الساخرة التى تكلم بها .

فى تلك الأثناء سمع صاحب البيت ضيفه يصرخ قائلاً « اتركنى ! اتركنى ! أنا غلطان ، أنا غلطان ! » فاندفع إليه ظنًا منه أن اللصوص كانوا يهاجمونه . وعندما وصل إلى المكان الذى كان به ، وجده يبكى ، فسأله عما حدث . وهنا أبلغه المسلم بأمر الضيف غير المنتظر ووصف له هيئته . فعرف المضيف من الوصف أن ذلك الشخص الغامض هو القديس العظيم نفسه . وكان صراخ المسلم المرعوب عاليًا جداً حتى أن كل من فى البيوت المجاورة سمعوه .

وفى صباح اليوم التالى توجه المسلم الذى شعر بذنبه إلى الكنيسة التى تحمل اسم مار إجلاديوس العزب وعلق حذاءه فى رقبته وركع أمام المذبح وتوسل إلى القديس قائلاً : «سامحنى ، سامحنى ، سامحنى ! » وبعد ذلك غادر الكنيسة .

ومنذ زيارة القديس تلك للمسلم ، الذى لا يزال على إسلامه ، وهو يرسل فى كل عام هدية من الشمع الخام كى يصنع منه شموع تستخدم فى القداس الذى يقام بالكنيسة ، إلى جانب هدية من البخور .

ولابد أن أوضح هنا أنها عادة فى كل أنحاء مصر أن أى قبطى أو مسلم يرتكب خطأ فى حق قديس أو شيخ ، فإنه يذهب إلى الكنيسة أو المسجد ويستعير زوجًا من الأحذية كتلك التى يلبسها الفلاحون الفقراء . هذه الأحذية تعلق بحبل حول رقبة المستغفر الذى يجب أن يضعها بتلك الطريقة بينما ، يركع أمام المذبح أو فى محراب القبلة . وبينما هو راكع لا بد أن يردد « سامحنى » سبع مرات أو ثلاث مرات . ويقرر القس أو الإمام عدد المرات . وبعد انتهاء هذا العمل الذى ينم عن التوبة ، يخرج الرجل ويعيد زوج الأحذية إلى صاحبه . ولا بد أن يكون الحذاء دائمًا خاصًا بفلاح فقير جداً يعيش فى ظروف بائسة ؛ وهو ما يشير إلى الحالة الذهنية للرجل التائب فى حضرة القديس أو الشيخ الذى أساء إليه .

وفيما يتعلق بقربان الشمع ، قد يهمكم أن أوضح أن الشموع المستخدمة فى المراسم الدينية فى الكنيسة القبطية يصنعها الكاهن بنفسه أو يقوم بذلك الخادم المسئول عن تنظيف الكنيسة.

الهوامش :

(١) كرامات (المترجم) .

(٢) ربما تقصد النذور (المترجم) .

(٣) يدور الزائر حول الضريح بحيث يكون على يساره (المترجم) .

(٤) وأنا أكتب هذا الكلام وصلتنى رسالة من مصر تخبرنى بموت هذا الرجل . وهو نفس الرجل الذى طلق زوجته ثلاثًا وتحدثت عنه فى الفصل الخامس .

(٥) انظر الفصل السابع .

(٦) انظر الفصل السادس عشر .

الفصل السادس عشر
بعض الاحتفالات السنوية

« مولد النبى » ، أى الاحتفال السنوى بذكرى مولد النبى ، هو بالطبع أهم كل الاحتفالات السنوية التى تقام تكريمًا للقديسين المسلمين . إلا أننى سوف اقتصر هنا على وصف الموالد السنوية التى تقام تكريمًا للقديسين المحليين ، التى حضرتها بنفسى خلال إقامتى التى استمرت ست سنوات فى مصر .

الشيخ مبارك مدفون فى إحدى قرى مصر الوسطى . وقد أقيم على قبره بناء ذو قبة مطلى بالجير . وكما هى العادة ، فإن جداراً أو جدارين من جدران ضريحه الخارجية مزين بمناظر تصور الحج إلى مكة [1]. وهى رسوم بدائية بالدهان الأحمر والأزرق . أما المساحة الباقية فتحمل آيات من القرآن . وحول القبة نوافذ صغيرة ، يمكن تسميتها نوافذ إضاءة ، توضع فى كل منها شمعة مضاءة كل ليلة . وهناك خادمة لهذا الشيخ تحافظ على نظافة الضريح وتتلقى النذور من المريدين وتضىء الشموع كل مساء . ويتساءل المرء كيف يمكنها أن تقوم بكل هذا العمل باقتدار وهى كفيفة تمامًا !



(الشكل ١٤١)

" خادمة " الشيخ مبارك وقد لفت نفسها ببيرق الشيخ فى يوم مولده

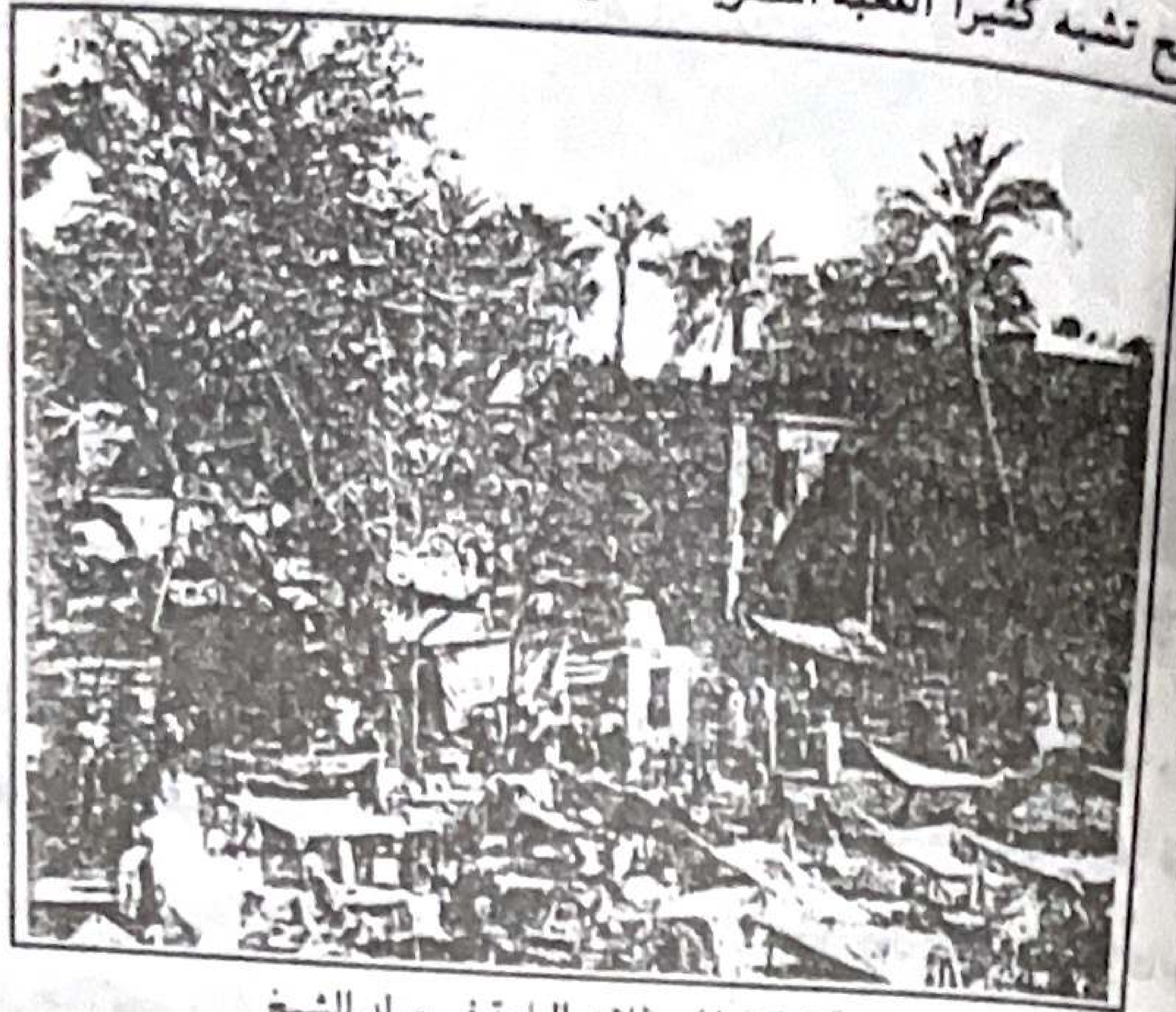
يقام مولد الشيخ مبارك فى أبريل[٢] ويبدأ من بعد الظهر . وفى صباح اليوم نفسه تبدأ احتفالات مشابهة فى بعض القرى المجاورة تكريمًا لمشايخها . وفى حوالى الثانية بعد الظهر تجمعت حشود كبيرة فى المنطقة المحيطة بضريح الشيخ الذى جلس حوله العديد من الناس ، أغلبهم من النساء . وتلقت الخادمة الكفيفة التبرعات من المؤمنين نيابة عن الشيخ ، وكانت تلف نفسها براية الشيخ لبعض الوقت (الشكل ١٤١) . وبعد أن قدم المتبرعون هداياهم، قرأوا الفاتحة بصوت منخفض على عجل . وفى الطريق الذى يمتد بجوار المقابر وفى أرض مزروعة بالنخيل ، كان المحتفلون يتبادلون الأحاديث الودية أو يتمتعون بوسائل التسلية العديدة (الشكل ١٤٢). وقد أقيمت على طول الطريق مظلات وسرادقات كان يمارس فيها الجزارون وباعة الحلوى واللعب وغيرها من البضائع أعمالهم بصورة ممتازة (الشكل ١٤٣) .



(الشكل ١٤٢) مولد الشيخ مبارك : منظر وسط النخيل

والبيض المصبوغ باللون الأحمر الزاهى أو الأصفر من الملامح الخاصة التى تتميز بها كل تلك الموالد . والذين يبيعونه يجتذبون أعدادًا كبيرة من الزبائن . وهذا البيض الملون الذى يباع كذلك فى يوم اثنين عيد الفصح عند الأقباط[٣] يستخدم فى لعبتين تمارسان كالآتى : يشارك فى اللعبة الأولى صبيان أو رجلان يمسك كل منهما بيضة فى يده . يضرب أحدهما بيضة الآخر ببيضته . والذى لا تتشقق بيضته يعتبر الفائز ويأخذ بيضة خصمه المشققة . وفى اللعبة الأخرى ترص عدة بيضات على الأرض فى صف واحد ويجلس عدد من الرجال على مسافة منها . بعد ذلك يقوم كل منهم فى دورهم بدحرجة بيضة ناحية الصف المواجه له . وأول رجل

ينجح فى كسر إحدى البيضات يكسب كل البيض . وهاتان اللعبتان تمارسها أعداد كبيرة من الرجال فى كل الموالد ، ولا تمارسها النساء أو الفتيات أبدًا . والبيض الملون يستخدم فى ألعاب تشبه هاتين اللعبتين كثيرًا فى أجزاء عديدة من أوروبا ، خاصة فى دول البلقان . كما أنه فى بعض مقاطعات إنجلترا الشمالية ، مازال البيض الملون يستخدم فى لعبة تمارس فى اثنين عيد الفصح تشبه كثيرًا اللعبة المصرية الثانية .



(الشكل ١٤٣) مظلات الباعة فى مولد الشيخ

وهناك وسائل جذب أخرى فى مولد الشيخ مبارك . ففى الأرض المزروعة نخلاً ، كان هناك حاو فى مكان وشاعر (راجع الشكل ١٥٢) فى آخر وقد جمعا حولهما عددًا كبيرًا من الناس استحوذا على اهتمامهم . وكان يصاحب الشاعر فى إلقائه امرأة تدق الدف، وأحيانًا رجلان أو ثلاثة رجال كذلك . ويدخل صندوق الدنيا كذلك ضمن وسائل التسلية . والصور التى تعرض تمثل فى العادة القديسين والأبطال والبطلات القوميين المحبوبين . وأخيرًا العربات الصغيرة بدائية الصنع المعلقة فى عجلات وتدور على محور أفقى[٤] يهواها الأطفال (الشكل١٤٤) .

سار شيخ معين من هذه المنطقة فى موكب بين جموع الناس راكبًا حمارًا ويتقدمه ثلاثة رجال يحملون البيارق المزينة بالعديد من النقوش والكتابات وبعض العازفين على الصناجات والطبلة الكبيرة . وهذا الشيخ هو الذى سيقود « الذكر » فيما بعد ، كما سنرى . وتخص إحدى الرايات الشيخ مبارك وبينما الباقى من أضرحة المشايخ فى القرى المجاورة . ومثل هذه

البيارق تحمل فى موكب يسير بمناسبة المولد . والرجال الذين يحملونها يسيرون فى خطوات راقصة وليس سيراً عادياً .



(الشكل ١٤٤) المراجيح والزقازيق وغيرها من أدوات التسلية فى مولد أحد المشايخ

ولا بد أن أشير هنا إلى أن الذكر نوع من الرقص الدينى الذى يؤديه الرجال والفتيان الكبار فقط . ولا تشارك فيه النساء والفتيات أبداً . وسوف أقدم شرحاً مفصلاً للذكر فيما بعد .

ورغم حرارة الجو وملايين الذباب وسحب الغبار ، كان احتفال الشيخ مبارك يجرى والناس فى أفضل حالاتهم وكان سلوك تلك الجموع صحيحاً تماماً . وانتهى الاحتفال فى حوالى الساعة السابعة مساء .

وفى اليوم التالى كان الاحتفال بالمولد السنوى للشيخ صبر فى قريته ، وتقع فى مكان جميل على بحر يوسف . وكما سنرى فى الفصل الخامس عشر ، فإن هذا الشيخ يلقى تعظيماً كبيراً ، ليس فى قريته وحسب ، بل فى قرى تبعد عدة أميال حولها . وقد حضرت مولده مرتين أو ثلاث مرات ، وفى كل مرة كانت تجتمع أعداد كبيرة لتكريمه .

بدأ الاحتفال فى الصباح حوالى الساعة الحادية عشرة . وقد انضم إلىّ بعض الناس وأنا أسير بحمارى فى الحقول فى طريقى إلى القرية . وفى هذه المناسبات تنشط الحركة التجارية وتعرض أكوام من الحلوى ذات الألوان الزاهية للبيع ، إلى جانب اللعب والحلى الرخيصة والتمر وغيره من الأطعمة اللذيذة . ويجلس الباعة تحت مظلات بدائية الصنع يقيمونها فى الحال ويتقون بها أشعة الشمس الحارقة .

عندما وصلت كان هناك « ذكر » كبير فى ظل الشجرة المقدسة . وكان يقوم به عدد من الرجال يشكلون حلقة حول الشيخ الذى كان يقود ذلك الطقس الدينى . كان الرجال يتمايلون بشكل إيقاعى من جانب إلى آخر وهم يهزون رؤوسهم أو يثنون أجسامهم للأمام وللخلف وهم ينطقون باسم الله مرات ومرات . وكان الشيخ الذى يرأس الذكر يضبط الإيقاع عن طريق التصفيق . وبين حين وآخر كان الفقى يتلو آيات من القرآن . كانت تلك المراسم تتم بجدية تامة ووقار شديد . إلا أن بعض المشاركين فى الذكر كان الحماس الدينى يجعلهم يقفزون فى الهواء من حين لآخر ليسقطوا فى آخر الأمر على الأرض من شدة الإعياء .

وعلى مقربة من المكان الذى كان يجرى فيه ذلك العرض الدينى ، كانت هناك العجلة الكبيرة المعتادة بمقاعدها المعلقة . وفى ذلك المكان تجمع الأطفال وكل منهم يصيح ليأخذ دوره فى الركوب ، تماماً كما تراهم يتزاحمون على الخيول الخشبية الدوارة التى توجد فى الأسواق فى انجلترا .

وفى مكان آخر اجتمع عدد كبير من المستمعين عند أحد الشعراء ، وكانوا يستمعون إليه باستمتاع شديد وهو يروى شعره بمصاحبة دقات رقين ودف (راجع الشكل ١٥٢) .

كانت البيارق أكثر وضوحاً فى ذلك الاحتفال ، وقد تمكنت من التقاط صورة جيدة لها ولحامليها وقد اجتمعوا تحت شجرة الشيخ مع بعض العازفين والناس (الشكل ١٤٥).

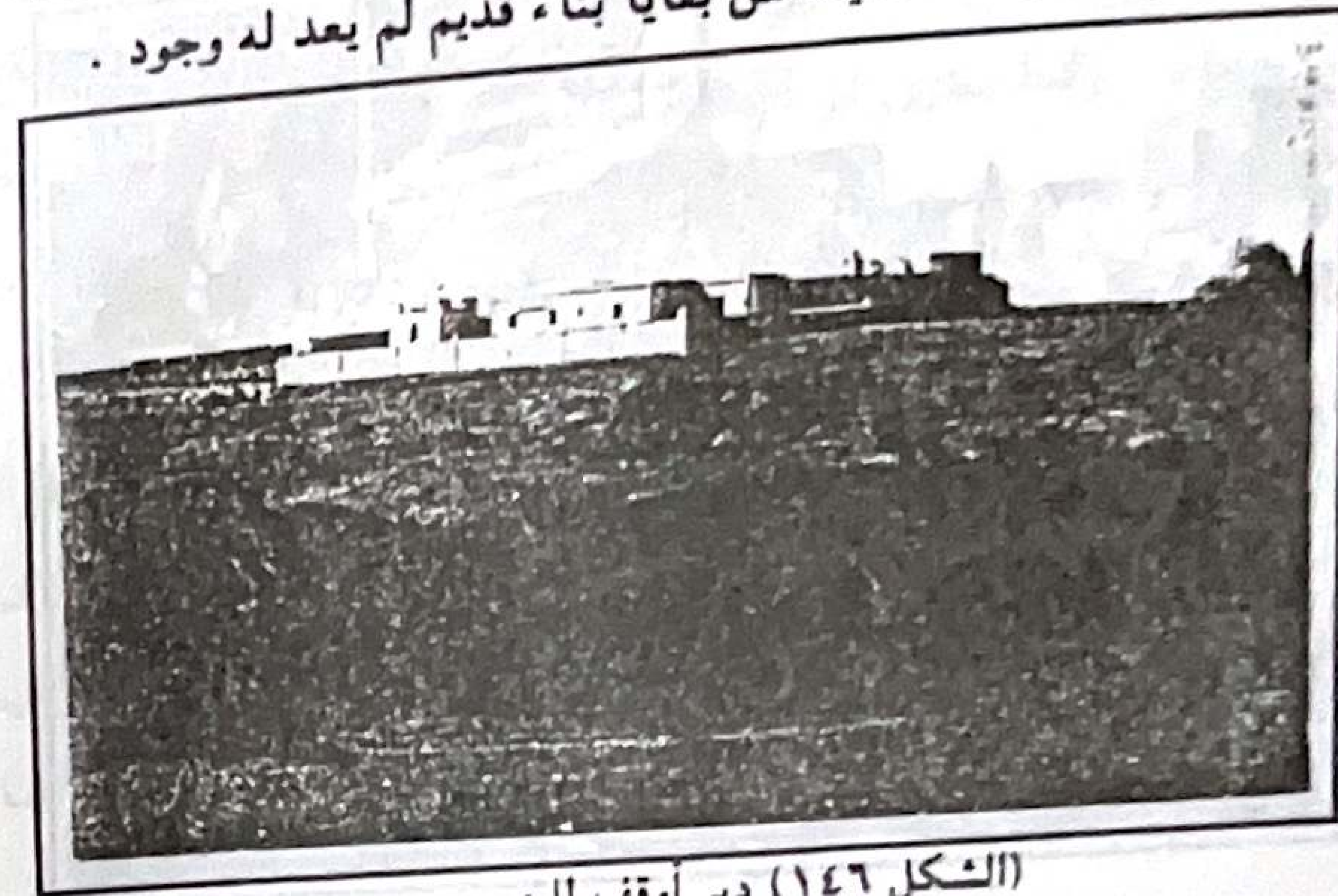


(الشكل ١٤٥) بيارق الشيخ وحاملوها

وهذه الموالد ، إذا أحسن توجيهها ، لا تنتج عنها أية أضرار وتكون واحدة من المباهج القليلة التى يتمتع بها الفلاحون . ومعظم الموالد التى حضرتها كان يسودها النظام . ولكن الأمر يعتمد كثيراً على الضابط المسئول عن المنطقة التى تقام فيها . فإذا كان مهملاً ولم يتأكد من استتباب النظام ومنع العروض غير المقبولة ، فإن الاحتفالات قد تصبح أى شىء خلاف اللهو البرىء .

وهناك تشابه كبير بين الموالد المصرية الحديثة والأسواق الإنجليزية ، خاصة كما كان يتم الاحتفال بها فى العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر . وكانت تلك الأسواق ترتبط كذلك بأحد القديسين وكذلك بالتجار . وأسواقنا الحديثة فقدت مغزاها الدينى ؛ رغم أنها مازالت تحمل فى الغالب أسماء القديسين الذين كانت تقام فى الأصل تكريمًا لهم .

وهناك دير فى مصر الوسطى على حافة الصحراء وعلى مقربة من بحر يوسف . وهو واحد من الأديرة التى تحمل اسم مار جرجس ؛ أو القديس چورج عندنا (الشكل ١٤٦) . والصخرة المرتفعة التى يقوم عليها الدير تطل على الترعة . فى حين تقع جبانتان كبيرتان خارج الأسوار التى تحيط بالدير ، إحداهما للمسيحيين والأخرى للمسلمين . والبناء الحالى يقع فوق موقع قديم وكثير من جدران الكنيسة والمبانى الدينية المحيطة بها شديدة السُمك . ومازال جزء كبير من الأسوار القديمة التى تحيط بالدير فى حالة جيدة وتروى حكايات عن القدرات العجيبة التى تنسب إليها . ولا بد أن هذا الدير كان بمثابة معقل للمسيحيين الذى بنوه عندما نشبت الحروب الدينية بينهم وبين المسلمين . فهذا ما تشير إليه أسواره الضخمة . وقيل لى إن عمودًا أو عمودين مازال قائمين فى الكنيسة الحديثة من بقايا بناء قديم لم يعد له وجود .



(الشكل ١٤٦) دير أوقف لمارى جرجس

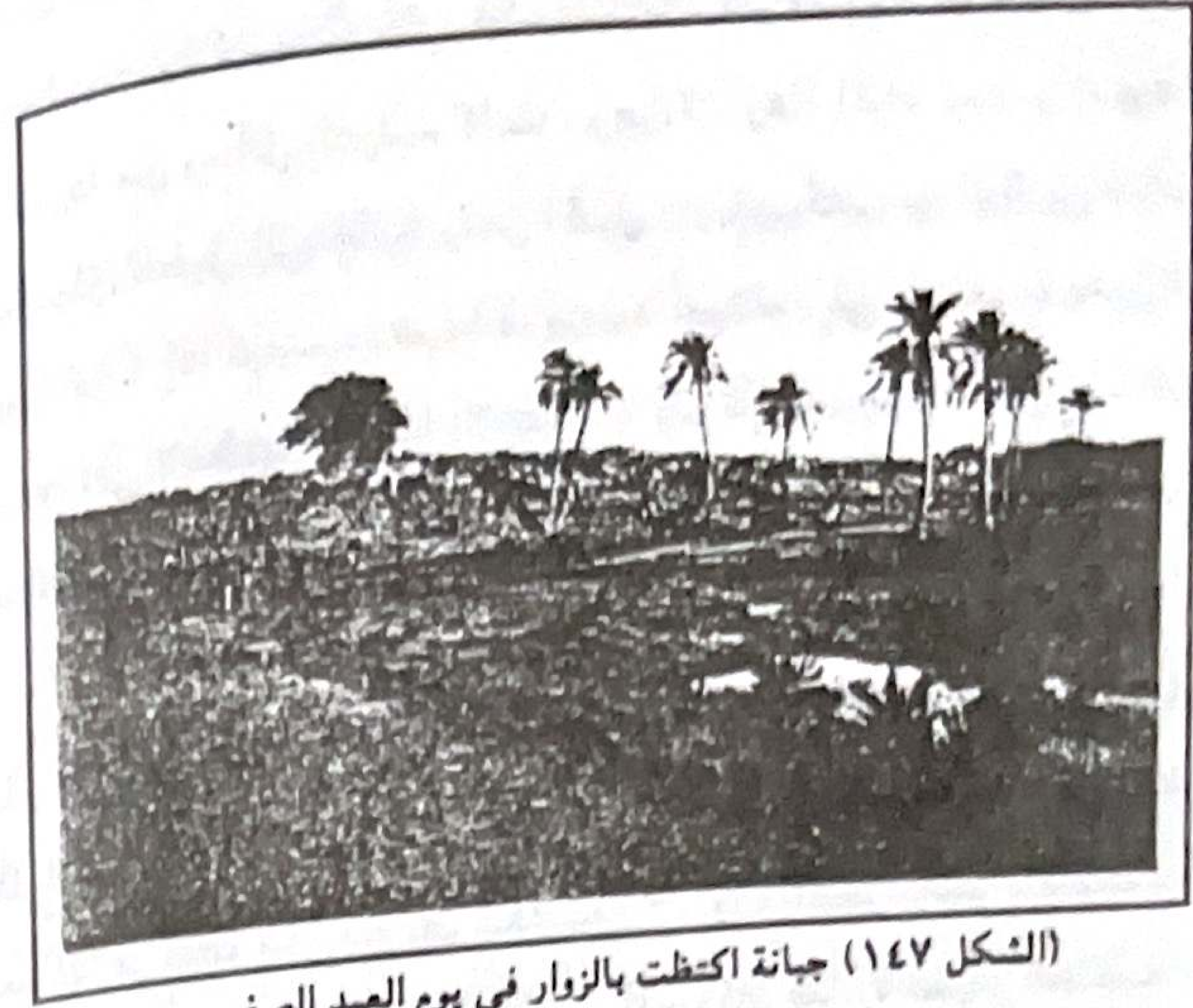
والاحتفال السنوى الذى يقام تكريمًا للقديس چورج يجتذب أعداداً كبيرة من الناس الذين يتوافدون على الدير من مسافات بعيدة . ويلاحظ أن الذين يتجمعون داخل حرم الدير تتساوى أعداد المسلمين فيهم مع أعداد المسيحيين . وفيما عدا الذكر ، فإن مراسم الاحتفال تتشابه مع تلك التى تحدثت عنها فيما يتعلق بالاحتفالات الإسلامية . فالتجارة هى هى . كما أن الموسيقى وغيرها من وسائل الترفيه كانت موجودة . وهذا المولد يستمر أسبوعًا . وفى الأيام الأخيرة يقام سباق للخيل إلى جانب رقص الخيل . ويقيم كثير من الزائرين هناك الأسبوع كله، حيث يؤجرون غرفًا إذا لم يسعدهم الحظ بوجود أصدقاء فى المنطقة يقيمون لديهم . وهناك بعض الأشياء التى لاحظتها فى هذا الاحتفال ، ولم تكن موجودة لحسن الحظ فى معظم موالد المشايخ المسلمين التى حضرتها . ويهيأ لى أن تلك الأشياء يرفضها القدبس چورج الصالح بشدة !

ورمضان هو شهر الصيام عند المسلمين . ويجب على الإنسان المؤمن أن يمتنع عن الطعام من قبل طلوع الشمس إلى ما بعد الغروب . والحرمان الأشد هو أنه فى طقس مصر الحار الجاف يجب ألا تمر نقطة ماء من بين شفتيه [٥] . وأنا أشعر دائمًا بالإعجاب نحو الطريقة الشجاعة المرحة التى يتحمل بها الفلاحون المساكين هذا الاختبار الصعب ، وهم يقومون بأعمالهم بنفس الخفة التى يظهرونها فى جميع الأحوال . إنه اختبار جاد لقوة كل من عليهم أن يعملوا . كما أنه اختبار لهؤلاء المسئولين الذين يحرصون على الصوم مع أن واجبهم يفرض عليهم القيام بجولات للتفتيش أو التحقيق فى الجرائم .

ويبدأ الاحتفال بالعيد الصغير فى اليوم الذى يلى انتهاء شهر رمضان ، وهو يوم تكثر فيه البهجة والفرحة كما أنه يوم أجازة رسمية احتفالاً بانتهاء الصوم . ويزور الأصدقاء بعضهم للتعبير عن أطيب الأمانى . وتحرص كل الطبقات على أن تظهر قدراً خاصًا من كرم الضيافة تكريمًا لهذه المناسبة . ولا ينسى أحد الفقراء فى هذا اليوم البهيج ، حيث يوزع من هم فى ظروف أفضل هدايا من المال والطعام .

وفى هذا اليوم يتذكر الناس موتاهم وتذهب معظم العائلات إلى المقابر فى الصباح الباكر . وتحمل النساء سلالاً على رؤوسهن بها خبز وتمر وغير ذلك من الحلوى التى توزع على الفقراء ترحمًا على موتاهن (الشكل ١٤٧) . ويوضع جريد النخل على القبور . وربما يقطع إلى قطع صغيرة تغرس أمام القبور . ودائمًا يكون « الفقها » موجودين فى هذه المناسبات ،

ويطلب منهم معظم الناس تلاوة القرآن بجوار المقابر ويدفعون أجورهم مما فى سلالهم ، وفى بعض الأحيان يعطونهم نقوداً كذلك . أما بقية اليوم فيذهب فى الاحتفالات التى تستمر لمدة يومين آخرين .



(الشكل ١٤٧) جبانة اكتظت بالزوار فى يوم العيد الصغير

ويأتى « العيد الكبير » (الذى يقام إحياء لتضحية اسحاق)(٦) بعد أربعين يومًا من «العيد الصغير » وهو عطلة رسمية لمدة ثلاثة أو أربعة أيام . ويوزع أصحاب الأراضى كميات من الحبوب كهدايا للفقراء . ويستمر هؤلاء فى التوارد لتلقى عطاياهم طوال أول أيام العيد ، فى الوقت الذى توزع فيه القهوة والحلويات والكعك(٧) على الأصدقاء الذين يأتون للتهنئة بالعيد . وتقام الصلاة بالمساجد التى تمتلىء بالمصلين . وفى اليوم الأول من العيد يقوم كل القادرين بذبح كبش (إحياء لذكرى الكبش الذى افتدى به اسحاق) خارج البيت ثم ينثر بعضًا من دمه على باب البيت (٨) .

وذات مرة كنت فى زيارة لبعض أصدقائى فى إحدى القرى ، فوجدت أنه إلى جانب تلك الأضحية كان هناك كبش أعد للذبح للسبب التالى : كان الابن الوحيد لتلك المرأة مريضًا منذ عامين أو ثلاثة أعوام . وبعد أن يئست من شفائه نذرت إن شفى ابنها أن تذبح كبشًا لأحد المشايخ فى اليوم الأول من العيد الكبير كل عام طوال حياتها (الشكل ١٤٨) . إلا أن دم الحيوان لم ينثر على الباب .



(الشكل ١٤٨) كبش يضحى به فى العيد الكبير وفاء لنذر (الأم التى نذرت النذر تقف بجوار الكبش)

وفى هذا العيد كذلك تقوم أعداد كبيرة من الناس بزيارة المقابر ، حيث يحمل الكثير منهم جريد النخل لوضعه على القبور . كما توزع عطايا من الطعام ترحمًا على الموتى . والواقع أن العادات الجنائزية المتبعة فى هذا العيد تتطابق مع تلك التى ترتبط بالعيد الصغير .

ويتم الاحتفال بأول أيام الخماسين ، وهو فى أبريل ويطلق عليه « شم النسيم » ، بالطريقة الآتية : تعلق فى الصباح الباكر حزمة من البصل ، أو بصلة واحدة ، على باب البيت . وربما يشم أصحاب البيت ، وبخاصة النساء ، البصل قبل تعليقه . وقيل لى إنه فى بعض مناطق الصعيد يعصر البصل أو يضرب بعصا بعد تعليقه ، كى يسقط عصيره عى عتبة البيت . كما قيل لى إن هذه العادة تتبع اعتقاداً من الناس بأنها تجعلهم أقوياء . بل إننى سمعت أنه فى مناطق أخرى من الريف يعلق الناس حزمة من البطل فوق أماكن نومهم فى الليلة التى تسبق الاحتفال . وفى صباح اليوم التالى يأخذ كل فرد حزمة البصل الخاصة به فور استيقاظه من النوم ويشمها ثم يرميها وراء ظهره ويخرج من البيت دون أن ينظر خلفه . وأخبرنى مصدرى أنه يعتقد أن كل الشرور تكون قد ألقيت بعيداً بهذه الطريقة . وأنا شخصياً لم أصادف هذه العادة بنفسى .

وفى هذا اليوم يستيقظ الناس مبكرين ويذهبون إلى الحقول ويقضون اليوم بأكمله فى الهواء الطلق . وفى مديرية الفيوم يستحم الرجال فى بحر يوسف ، حيث يعتقد أن ماءه تكون فيه بركة خاصة فى هذه المناسبة (٩) .

وفى يوم « سبت النور » يضع الناس من الجنسين ومن كل الأعمار فى عيونهم كمية صغيرة من مسحوق مصنوع من مشيمة قطة بعد تجفيفها وطحنها [١٠]. ويعتقد أن هذا يجعل العيون جميلة . وعندما يقول لك إنسان إن لك عينى قط فهذه مجاملة عظيمة (انظر الفصل الثالث عشر) .

وفى احتفال « أحد السعف » القبطى ، جرت العادة أن يجدل سعف النخيل ، دون إزالته من على الجريد ، فى أشكال عديدة أكثرها معقد . وفى بعض الأحيان يتم إدخال رغيف مستدير من خبز القربان فى السعف المجدول . ويؤخذ هذا السعف إلى الكنيسة لحضور القداس الذى يقام بهذه المناسبة . ويبين الشكل (١٤٩) مجموعة من الرجال يمسكون بسعفهم ، الذى ذهبوا به إلى الكنيسة التى تخص أحد الأديرة القبطية فى الصحراء المتاخمة للاهون ، فى مديرية الفيوم . وقد صورتهم فى الدير بعد أداء الصلاة .



(الشكل ١٤٩) سعف النخيل المضفر بأشكال مختلفة وتستخدمه الكنيسة القبطية فى يوم أحد السعف

ويحتفل الأقباط بعيد الغطاس فى الثامن عشر أو التاسع عشر من شهر يناير . وفى اليوم السابق يستحم الرجال فى النيل ، بعد أن يكون ماء مقدس قد صب فى النهر . وفى بعض الأماكن يأتى قس إلى بيت أحد الأقباط حاملاً بعض الماء المقدس إلى جانب صليب فضى صغير . يتلى عدد من الصوات وتكرر عبارة « كيرى إليسون » إحدى وأربعين مرة . ويتم عد ذلك بمسبحة قبطية عدد حباتها إحدى وأربعون . وينثر الماء المقدس على كل الحاضرين . ويعد هذا بديلاً للاستحمام فى النيل .

وفى اليوم التالى ، وهو يوم الغطاس ، يتوجه كل الأقباط إلى المقابر لزيارة أقاربهم المتوفين . وهذه الزيارة تسمى « الطلعة » . وتتشابه كثيرا مع الطقوس التى يتبعها المسلمون فى « الطلعة » الخاصة بهم . وما يلى هو ما شاهدته بنفسى فى هذه المواسم ، وهو نموذج لكل هذه الاحتفالات فى الأجزاء الريفية من مصر .

أول ما يلفت النظر عند الوصول إلى جبانة الأقباط هو مجموعة كبيرة من النساء تؤدين رقصة غريبة بالقرب من المقابر . وهى شديدة الشبه بالرقص الذى يعقب الوفاة ووصفته فى الفصل الخاص بالعادات الجنائزية . وتتكون الرقصة من ضرب الأرض بالقدمين وحركة دائرية وتتكوم النساء على بعضهن طوال الوقت .

كانت الجبانة مزدحمة ولم ينقطع وصول زوارها على الجمال أو الحمير أو على أقدامهم . وكان آخرون أدوا واجبهم نحو الموتى فى طريقهم إلى الانصراف ، ليشقوا طريقهم إلى القرى العديدة فى الأرض الزراعيـة . وطوال الوقت لم ينقطع النواح . وأعتقد أن ذلك كان أشد الأصوات التى سمعتها أسى . وكان الدير يشكل خلفية رائعة للمنظر بكامله . كما أن أسواره كانت ملجأ من حرارة الشمس بالنسبة للخيل والحمير والجمال التى قيدت عندها .

وكانت مجموعات المعزين متفاوتة الحجم . فبعضها كبير يضم عشرين شخصاً تقريباً أو يزيد . وفى بعض الأحيان كانت هناك امرأة تنوح فى حزن منفرد . كما شاهدت امرأة كتلك تتحدث إلى زوجها المتوفى من خلال حفرة صغيرة عند حافة أحد القبور . وكانت هناك مناديل حريرية ملونة أشبه بتلك التى يستخدمها المسلمون فى مراسمهم الجنائزية . وكانت القبور ، خاصة تلك التى ليس لها بناء بارز فوق الأرض ، مغطاة بكليم يسمى « الكسوة »[١١] يصنع عادة من قماش منسوج مقلم ، كذلك الذى يوضع ليجلس عليه الضيف على الأرض أو على المصطبة . وتغطى القبور فى هذه المناسبة فقط . ولا تدخل النساء أى تغيير فى ملبسهن . ولكن فى أغلب الحالات تكون أيديهن وأذرعهن ووجوهن مصبوغة باللون الأزرق ، كدليل على الحزن .

والأبنية التى تقام على المقابر فوق الأرض بها اختلاف بسيط من ناحية الشكل فى تلك الجبانة . فهى مستطيلة ولها أسقف مقبية . وكان كثير منها مطلى بدهان أبيض عليه نقوش بسيطة باللون الأزرق أو الأحمر . وفى بعض الحالات كان اللونان مستخدمين معًا فى النقوش التى على نفس المقبرة . وفى بعض الأحيان كان هناك نص من الإنجيل مكتوب باللغة العربية

بدهان أحمر أو أزرق على أحد جوانب البناء . وكثيراً ما يكون هناك صليب مرسوم أو معفور عند أحد طرفيه .

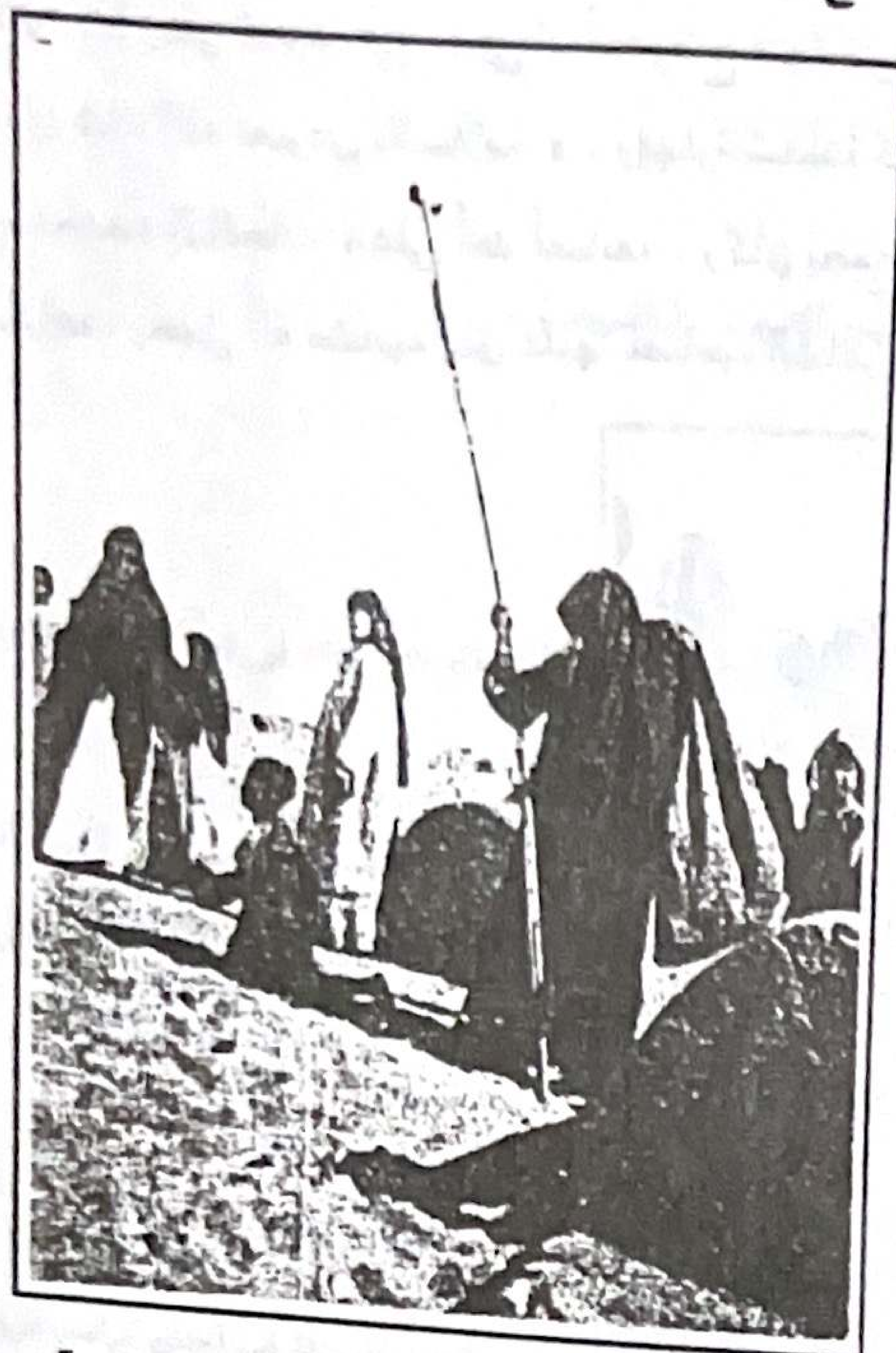


(الشكل ١٥٠)

زوجة تصاحبها نسوة نائحات عند قبر زوجها المتوفى فى يوم عيد الغطاس

وكانت هناك مجموعة من النساء عند أحد القبور وجوههن وأذرعهن مغطاة بصبغة زرقاء وتمسك كل منهن منديلاً حريراً ، إما بنفسجى أو أخضر . وكن يمسحن القبور بالمناديل أو يربتن بها عليها فى رفق بينما ينوحن بأصوات تدعو للأسى : « لِسَّاك صغير ياخوى ! » وكن بذلك يخاطبن الميت . وعند قبر آخر كان هناك جمع كبير من الناس بعضهم يجلس فوق قبر مجاور (الشكل ١٥٠) . وهنا كانت أرملة تنتحب على زوجها المتوفى بهذه الكلمات : « قوم وتعالى ! شوف حزنى وحزن عيالى . شوف إزاى ابنك البكرى(١٢) تاعبنى وإزاى أخوك معذبنى . سيبتنى وحدى مع العيال . مين هايوكلهم ومين هايلبسهم ؟ » . وبعد هذه البداية جاء دور النائحات اللاتى كن يضربن أكفهن ببعضها ويلطمن خدودهن على إيقاع دقات دف يسمى « ندم » . وعندما توقفت النائحات استأنفت الأرملة نواحها وكانت نساء أخريات ترد عليها فيما يشبه الكورس . وكانت الصديقات ، اللاتى تصادف مرورهن من عندها ، يتوقفن

ويبذلن جهدهن فى عزائها . ومن وقت لآخر كان طفلها الصغير الجالس بجوارها يحتضنها . أما القبر فكان مغطى بالكسوة وكان « الندم » ملطخ بالصبغة الزرقاء . وكانت الأرملة تمسك بمنديلين عقدا معًا ، كل منديل فى يد ، تمسح بهما دموعها من على خديها ثم تربت بهما على القبر .



(الشكل ١٥١)

بائعة الحلوى تحمل شعار مهنتها

وفى الوقت نفسه ، وفى مكان آخر من الجبانة ، كان هناك قس يتنقل من قبر إلى آخر ويبخر المعزين والقبور . ومقابل ذلك كان يُقدم له بخور أو كمية من الحبوب . وقيل لى إن الحبوب التى يتم جمعها بهذه الطريقة توزع عادة على الفقراء . وكان السقاءون مشغولين فى عملهم . وفى بعض الأحيان كانوا يقدمون الماء مجانًا ترحمًا على أحد الميتين . وأثناء ذلك كانت إحدى بائعات الحلوى (الشكل ١٥١) تعلن عن بضاعتها(١٣) عن طريق شخليلة من الصفيح ، كتلك التى تباع كلعبة للأطفال ، مثبتة أعلى عصا طويلة ملفوف عليها مادة سكرية سميكة . وعلى مقربة من الجبانة أقيمت سوق كلها حركة ونشاط . وبجانب أنواع المأكولات المختلفة المعروضة للبيع ، كانت هناك الشخاليل وغيرها من اللعب ، إلى جانب أكواب من الصفيح ، يمكن شراؤها للأطفال . وقد علقت على الأكواب قطع صغيرة من

الصفيح على شكل قلب تحدث صوتًا باصطدامها بجوانبها . والأكواب يشتريها الآباء ليقدموها لأطفالهم كتذكار لهذا اليوم . وفى جزء آخر من السوق كان شاعر محترف يسلى عدداً كبيراً من الناس (الشكل١٥٢). وعندما رآنى ، وبعد أن قدمت له مبلغًا صغيرًا من المال، بدأ يتلو قصيدة فى مدحى لم أستوضح منها سوى تلك الكلمات التى أنهاها بها وهى : « إن شاء الله تعودى بالسلامة » . وبمهارة شديدة كان يدير دفًا ، أشبه بـ « الندم » الذى تستخدمه النائحات ، على أحد أصابعه . وكان يجمع فى هذا الدف المال من الواقفين . وكان مساعده يحمل آلة مشابهة يدق عليها لمصاحبة الشاعر فى إلقائه .



(الشكل ١٥٢)

شاعر يلقى الشعر فى احتفال يوم القطاس

وغالبًا ما يوزع فى هذا الاحتفال خبز على هيئة أرغفة مفردة ، وفى بعض الأحيان على هيئة حلقات ، وكذلك تمر وحلويات ، على الفقراء ترحمًا على أحد الموتى .

ويستمر الاحتفال حتى الغروب . وكل الذين يبقون فى الجبانة حتى هذا الوقت يعودون إلى بيوتهم ، بينما تنوح النساء وهن ينصرفن . وغالبًا ما تستمر النساء ، حتى بعد وصولهن إلى بيوتهن ، فى إظهار حزنهن بلطم خدودهن وضرب كفوفهن ببعضها كما كن يفعلن عند المقابر . وفى هذه المناسبات تأتى جاراتهن لمواساتهن . وعندما يهبط الظلام يتوقف النواح . وفى اليوم التالى يمضى العمل كالمعتاد .

الهوامش :

(١) موالد الأولياء تقام دائمًا حسب الشهور العربية . (المترجم) .

(٢) شم النسيم (المترجم) .

(٣) الزقازيق (المترجم) .

(٤) هذا التعبير ليس دقيقًا للتعبير عن الامتناع عن الشرب . فالصائم يضع الماء فى فمه أثناء الوضوء ولكنه لا يبتلعه . (المترجم) .

(٥) العيد الكبير أو عيد الأضحى يقام إحياء لذكرى امتثال سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل لأمر الله حيث هم إبراهيم بذبح إسماعيل ففداه ربه بكبش من السماء . وهذا هو رأى جمهور المفسرين لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح (وبشرناه باسحاق نبيًا من الصالحين) فدل على أن الذبيح هو إسماعيل . (را . صفوة التفاسير – محمد على الصابونى – جزء ٣ – ص ٢٦) . (المترجم) .

(٦) اعتقد أن هناك خلطًا فى هذه الفقرة بين عيد الفطر وعيد الأضحى (المترجم) .

(٧) قارن ذلك بالعادة السامية القديمة الخاص بنثر الدم على دعامتى الباب المتمثلة فى إحدى مراسم عيد الفصح عند اليهود .

(٨) راجع الفصل الأول .

(٩) راجع E.W. Lane المرجع السابق Vol, ii, p. 223 .

(١٠) نفس التسمية تستخدم للغطاء الخاصة بالتابوت الذى فى ضريح أحد المشايخ .

(١١) ربما ابنه من زواج سابق .

(١٢) قيل لى إن الذى يبيع الحلوى بهذه الطريقة هو فى العادة رجل . لذلك فإنه من النادر أن تقوم امرأة بذلك .

الفصل السابع عشر
راوى القرية وحكاياته

الفلاحون المصريون المحدثون مغرمون بالقصص ، بنفس القدر الذى كان عليه أسلافهم فى زمن هيرودوت . وبما أن قليلاً من الكبار هم الذين يعرفون القراءة والكتابة ، فإنهم مضطرون إلى الاعتماد بصورة كبيرة فى هذا النوع من التسلية على ما يحكيه رواة القصص فى الأماكن العامة . ومعظم القرى بها راو واحد على الأقل . وهو فى العادة لديه عمل آخر يقوم به أثناء النهار . وفى المساء ، اعتاد أهل القرية من الذكور على التجمع فى بيوت بعضهم أو فى أحد المقاهى ، حيث يرحب بالراوى فى تلك التجمعات . وهو يروى حكاياته مقابل مبالغ صغيرة جداً من المال يقدمها له الحاضرون . وربما يحتاج الراوى إلى سنوات لجمع حكاياته ، وقد يرثها من آبائه وأجداده . والفلاح راو ممتاز وعلى قدر كبير من الخيال ويتمتع بمهارات درامية ويخلو تمامًا من الخجل .

وهناك راويان من بين أصدقائى القرويين جمعت منهما عدداً كبيراً من الحكايات التى دونتها . روى بعض الحكايات لى وأنا فى معسكر أخى بالصحراء فى السنة الأولى التى زرت فيها مصر . وكنت أحدد موعداً للراوى يزورنى فيه . وعندما يحين الموعد ، كنت أراه آتيًا ومعه ناظر المدرسة ، الذى كان يصحبه لمساعدتى فى ترجمة القصص ، على حماريهما عبر الأرض الصحراوية . وعند وصولهما نبدأ بإحضار القهوة . وبعد شربها يجلس الراوى على الأرض ويشد رداءه حول نفسه . وبعد تفكير لعدة دقائق ، يبدأ إحدى حكاياته .

أحد صديقىّ الراويين إنسان مرح وكان يعمل صباغًا ، وهو ما تدل عليه حالة يديه الملطختين بلون أزرق داكن كلون ملابسه القطنية . وعندما كان صبيًا صغيراً ، تعلم الحرفة فى إحدى المصابغ وكان يستمع للقصص التى كانت تروى لزملائه العمال أثناء قيامهم بالعمل . وبما أنه كان يتمتع بذاكرة قوية ، فقد اختزن فيها كل تلك الحكايات التى يقصها الآن على أهل قريته فى المساء . وهو يروى حكاياته كذلك لزبائنه ، الذين ينتظرون حتى ينتهى من صبغ القماش الذى أحضروه له . وبذلك تمضى ساعات الانتظار الطويلة بصورة لطيفة .

وفى المرة الأولى التى جاءنى فيها كان يشعر بشىء من الخجل . ولكنه بعد أن أدرك ما لدى من اهتمام ، انطلق يروى حكاياته دون تردد . وفى بعض الأحيان كان يستشير الناظر فيما يظن أنه يتفق مع ذوقى ، حيث كان يقدم له ملخصًا لقصتين أو ثلاث قصص . وبعد اختيار القصة المناسبة كان يبدأ فى روايتها على الفور . وكانت تروى عدة قصص فى الجلسة الواحدة . وفى بعض الأحيان كنت استمر فى كتابتها لمدة ثلاث أو أربع ساعات دون توقف . وغالبًا ما كان خدمنا يقفون بالقرب منا يستمعون باهتمام شديد إلى سير أحداث القصص .

وفى العالم التالى استعنت برجل آخر كان يعمل سقا (الشكل ١٥٣) . وكنت وقتها أقيم فى خيام بالقرب من إحدى قرى الصعيد النائية ، إلا أن العمدة متفضلاً وضع غرفة استقبالة تحت تصرفى . وكان أهل القرية من الأثرياء يأتون من حين لآخر ويجلسون على مسافة منى فى حين كان البسطاء يقفون عند الباب أو يجلسون القرفصاء على عتبته . وكانوا جميعًا يستمعون بنفس القدر من الإعجاب . ومن حين لآخر كانوا يبدون استحسانهم .

كنت متأكدة من أن تلك الحكايات لم تكتب قط ، وإنما تناقلها الناس شفاهة . وقد يهم قرائى أن يطلعوا على القصص التالية التى انتقيتها من عدد كبير موجود لدى .



(الشكل ١٥٣)

الراوى الذى يمتهن السقاية

شغل الحريم أفضل من شغل الرجال
أو كيد النساء غلب كيد الرجال

كان فيه قاضى وكانت مراته دايمًا تقول له إنه كان دايمًا بيحكم لصالح الرجال وعمره ما حكم لصالح الحريم . قام القاضى رد على إتهامها وقال : « يا مرتى العزيزة ، أظن إن النسا أقل من الرجال ، وهما دايمًا بيحتاجوا لمساعدتنا » .

ولما القاضى ما اهتمش باللى قالته مراته زعلت منه وقالت لنفسها : « لازم ألاقى طريقة أعلم بيها جوزى الأدب » .

وفى يوم من الأيام قالت له يشترى لحم وبطيخة للعشا . وبعد ما جهزت الأكل جه واحد صاحبهم فحطت له اللحم يتعشى بيه وطبخت شوية عدس لجوزها ، بدل اللحم اللى حطته لصاحبهم . بعد كده خرجت قلب البطيخة وحطت مكانه ميّه فى القشرة اللى كانت سليمة . وكمان جابت شوية سمك وحطته فى الميه اللى جوه قشرة البطيخة .

ولما جه جوزها يتعشى زى كل يوم جابت له العدس . استغرب لما شاف العدس وقال لها : « إيه الحكاية ؟ أنا اشتريت لحم مش عدس » . قالت له : « ده كل اللى اشتريته ولازم تاكله» . قام كله .

وبعد ما كل العدس جابت سكين وراحت مقطعة البطيخة وقعدت تضحك . قال لها جوزها: « إيه حكايتك ؟ » قالت له : « تعالى ياجوزى يا حبيبى شوف السمك اللى فى البطيخة دى» .

الراجل كان مستغرب لما شاف الحاجة الغريبة دى وخرج م البيت وراح للناس اللى كانوا قاعدين بره وقال لهم : « أنا اشتريت بطيخه جواها سمك . أنا عازمكم على أكلة سمك بكرة» .

وتانى يوم بعت للناس اللى وعدهم بالسمك علشان بيجوا يتعشوا معاه . ولما وصل الضيوف قال لمراته : « هاتى السمك ! » راحت جايه مرته وقالت : « يا جوزى هو السمك بيعيش فى البطيخ ؟ إيه حكايتك ؟ اشهدوا يا ناس إن القاضى اتجنن ! » قام الناس خدوه للموريستان وجابوا قاضى غيره .

وفى الموريستان لما كانوا يسألوا الراجل الغلبان كل يوم عن أيام الأسبوع كان بيقولها صح ولما كانوا بيسألوه : « السمك بيعيش فين ؟ » كان بيقول : « السمك بيعيش فى البطيخ » .

وفى يوم من الأيام راحت مرات القاضى تزوره . قالت له : « لما يسألوك السمك بيعيش فين قول لهم فى الميه فى البرك فى البحر فى البحيرة » . قاموا خرجوه من المورستان ولما وصل بيته جوه الناس يباركوا له .

وفى ليلة من الليالى مراته قالت له : « أنا أقدر أرجعك قاضى تانى وأجنن القاضى الجديد » . قالت له يروح السوق ويشترى شوية لبن . قام راح اشترى . وبعدين قال له : « إحنا ها نعزم القاضى الجديد علشان ياكل معانا وها أقولك حاجة لازم تعملها . لما أعلق قربة مليانه لبن على رقبتك ها أحلبك وأنت تقلد صوت الجاموسة » . قام جوزها قال لها : «كويس. أنا ها أعمل كده » .

الست عزمت القاضى الجديد ولما وصل قعدت تضحك وتقول : « أنا ها أحلب جوزى بس مكسوفه أحلبه قدامك ! » قام القاضى قال لها : « همه الاجواز بيتحلبوا ؟ » قامت هى ردت عليه وقالت : « أيوه ، وبيدوا لبن حلو وهاتشوف بنفسك . »

نادت الست على جوزها وابتدت تحلبه م القربة التى كان مخبيها تحت هدومه استغرب القاضى الجديد لما شاف الكلام ده بيحصل ، خصوصاً لما كل العشا اللى عملته م اللبن . وبعد ما كل سألها : « إزاى الجوز بيتحلب ؟ » قالت له : « إذا كنت عاوز تتحلب تروح للشارع اللى يودى على السوق وبعدين تخلع هدومك وتاكل حشيش . ولما حد يكلمك ما تردش وتقلد صوت الجاموسة . بعد كده هاتحلب لبن كويس » .

الراجل عمل زى ما قالت له . وهو فى الحالة دى عدى عليه أهل البلد وشافوا اللى كان بيعمله وسألوه : « إيه الحكاية يا قاضينا ؟ » ماردش عليهم وعمل زى الجاموسة . ساعتها قالوا إن القاضى اتجنن وخدوه ع المورستان وجابوا القاضى القديم اللى رجعت له وظيفته .

خفى حنين

كان فيه اسكافى اسمه حنين . وفى يوم جاله واحد عربى يشترى خف ولكنهم ما اتفقوش ع السعر واتخانقوا وزعل حنين وقال إنه لازم ياخد حقه م العربى .

ولما عرف حنين إن العربى هايمشى فى الجبل قام خد خف ومشى في الطريق اللى عرف إن العربي هايمشى فيه . ولما وصل رمى فردة ع الأرض ومشى شوية ورمى الفردة التانية بعيد عنها . وبعد كده استخبى على شجرة بالقرب من الفردة التانية .

قام لما العربى مر على الفردة الأولانية قال لنفسه انها زى مراكيب حنين وسابها ع الأرض . وما خدهاش . وفضل ما شى فى طريقه لحد ما لقى الفردة التانية بعيد عن الأولانية . ساعتها قال لنفسه : « أسيب الجمل هنا وأرجع أجيب الفردة الأولانية » .

ولما رجع وساب جمله نزل حنين من ع الشجرة ومشى بالجمل على بيته . ولما رجع العربى للحتة اللى ساب فيها جمله لقى إنه راح قام واخد الخفين ورجع بيته . ولما وصل قالت له عيلته : « جبت إيه ؟ » قال : « أنا رجعت بخفى حنين بدال الجمل » .

والمثل اللى بيقول : « رجعت بخفى حنين » بيتقال لما أى واحد يرجع ومعاه حاجة صغيرة بدل الحاجة الكبيرة .

شاه إيران وبنته

شاه إيران مرته جابت له بنت جميلة زى القمر وماتت . وبعد سنين طويلة قال الشاه لوزيره: « أنا عايز أتجوز تانى . أنا عندى اسورتين دهب والصبية اللى تيجى الأساور على قد ايدها هاتكون مراتى » .

قام الوزير بعت لست عجوزة وطلب منها تدور على بنت تكون الأساور على مقاسها . دورت العجوزة على البنت . لكنها ما لقتش غير بنت واحدة بس الأساور على مقاسها ، وهى بنت الشاه . قامت قالت كده للشاه وقام هو بعت لبنته وسألها إن كانت ترضى تتجوزه فقالت له : « أيوه يابوى . ممكن أتجوزك ، إن قدرت تدفع مهرى » . الشاه سألها مهرها كام . قالت له البنت : « عاوزاك تعمل لى بقرة دهب كبيرة » .

بعتوا للصياغ جم ورسمت بنت الشاه بقرة بطنها فاضيه . وبعد ما خلص الصياغ البقرة طلبت منهم يعملوا قفل فى بطنها . قام الصياغ نفذوا طلبها . بعد ثلاث أيام خدت البنت ميه وعيش ودخلت بطن البقرة وقفلت على نفسها جواها ، لأنها كانت خجلانة من حكاية جوازها من أبوها .

ولما بعت لها الشاه علشان تروح له ويتجوزها دوروا عليها فى كل حته مالقوهاش . ولما الشاه مالقهاش انتظر ثلاث شهور . وبعدين وزيره قال له : « إيه فايدة البقرة الدهب اللى أمرت نعملها ؟ احنا لازم نبيعها » . قاموا عرضوها للبيع واشتراها ملك الهند وخدها بيته . وفى نص الليل والناس نايمين خرجت البنت من بطن البقرة تدور على الأكل والميه ، عشان

العيش والميه اللى كانت خدتهم خلصوا . وهى بتدور ع الأكل شافها الملك واستعجب ، لأنها كانت أجمل بنت بشوفوها . قام مسكها وسألها : « انتى مين ؟ انتى انسيه ولا جنية ؟ » ردت عليه البنت وقالت له : « أنا إنسية . أنا بنت ملك إيران » . وحكت له على كل اللى حصل لها .

قام ملك الهند قال لها : « أنها هاتجوزك بدال بنت عمى . ولكن أنا هاسافر بلد تانية ليه شغل فيها . وطول ما أنا غايب خليكى جوه بطن البقرة ، أحسن واحدة من بنات عمى تعرف حكايتك وتموتك . وأنا ها أقول لأمى تجيب لك الأكل كل طقة وتحطه قدام البقرة . ولما تمشى تخرجى وتاكلى اللى يعجبك » .

وقبل ما يمشى الملك جاب أمه تشوف البقرة وقال لها : « عاملى البقرة كويس زى ما بتعاملينى » . قامت أمه قالت له : « هى البقرة هاتاكل ؟؟ » قال لها : « أيوه هاتاكل ولازم تحطى قدامها الأكل فى كل طقة وتخرجى من الأوضه بسرعة وتقفلى الباب وراكى ، بعدين البقرة تاخد برد وتموت » . وبعد كده راح لحال سبيله .

لما جه الضهر ، أم الملك طبخت لحم وخدته مع قلة ميه وحطته قدام البقرة وسابت الأوضه بسرعة وقفلت الباب . بعد شويه خرجت البنت م البقرة وكلت كويس . وبعد نص ساعة رجعت أم الملك ولقت إن الأكل إتاكل والميه اتشربت قامت قالت : « لازم أصدق ابنى لأن البقرة كلت الأكل اللى حطيته قدامها » .

بنات عم الملك التلاته شافوا إن الملك مش عايز يتجوز واحده منهم فقالوا : « لازم لقى حاجة جوه البقرة الدهب واحنا لازم نعرف إيه هى » . تانى يوم راحت أصغر بنت لأم الملك وطلبت منها إنها تديها البقرة علشان إخواتها يشوفوها . أم الملك مارضيتش . واليوم اللى بعده راحت أكبر بنت لأم الملك وطلبت منها البقرة . المرة دى أم الملك ما قالتش لأ لأنها قالت فى بالها : « حاجة تكسف إنى ما وافقش مرتين » . وقالت للبنت وهى بتديها البقرة : «لازم تديها أكل كل طقة » . البنت قالت لها : « طيب » وراحت بالبقرة على بيتها .

فى نص الليل راحوا بالبقرة مكان مخصوص وولعوا نار تحت بطنها علشان يسيحوا الدهب . ولما حست البنت وهى جوه البقرة بالسخونه خرجت . قام مسكوها التلات بنات وراحوا ضاربينها وهم بيقولوا : « أيوه ، انتى اللى هاتتجوزى ، مش كده ؟ إحنا هانموتك ؟ » وقاموا عاملين صندوق وحطوها فيه وقفلوه بقفل ورموه ف البحر .

ولما طلع النهار رجعوا البقرة لبيت الملك . بعد كده طبخت أم الملك الأكل وحطيته قدامها . ولما رجعت عشان تشوف اللى حصل لقت إن البقرة ما كلتش زى العادة . قامت قعدت تعيط من خوفها من ابنها الملك .

تانى يوم رجع الملك وسأل أمه عن حالة البقرة الدهب . قال له أمه : « أنا عملت اللى قدرت عليه معاها » . ولما جه وقت العشا حطوا الأكل قدام البقرة ووقف الملك جنبها علشان يشوف البنت لكنها ما خرجتش .

الملك أمر الخدم انهم يغلوا حلة ميه كبيره وبعت لأمه عشان تيجى له وقال لها : « أنا هحطك فى الميه المغلية دى إن ما قلتيليش على اللى حصل للبقرة بتاعتى » . قامت قالت له على اللى حصل .

بعد كده صمم الملك إنه يموت بنت عمه اللى خدت البقرة من بيته . قام ف الأول اتجوزها وتانى يوم ضربها وطلب منها تقول له ع اللى عملته فى البقرة بتاعته . ولما قالت له على اللى حصل ، راح واخد سيف ومطير رقبتها وقطع جتتها حتت وبعدين حط لحمها فى قفه ورماها فى بيت أهلها وعلق راسها على بابهم .

نرجع مرجوعنا لبنت شاه إيران . واحد صياد راح ف الفجر للحته اللى اترمى فيها الصندوق ف البحر ورمى سنارته . ولما لقى أنه مش قادر يسحب الخيط خلع هدومه وغطس ف البحر ولقى صندوق كبير قام طلعه م الميه وروح بيه . ولما فتحه لقى فيه بنت زى القمر . البنت سألت الصياد عن شغلته قال لها : « أنا صياد غلبان وماليش شغلانه غير صيد السمك » . قامت قال له انها هاتنسج له تياب زينة يقدر يبيعها ويعيش منها .

وف يوم عملت قماش زين عليه كل اللى حصل لها وقالت له يروح يبيعه لملك الهند . ولما الملك شاف القماش وقرأ الكتابة اللى عليه فرح وقال للصياد : « إذا جبت لى اللى عملت القماش ده هاأديلك مكافأة كبيرة » . ورجع الصياد للبنت وقال لها ع اللى حصل له . البنت فرحت وقالت له : « كويس لازم تاخدنى معاك » . قام الصياد خدها لملك الهند وأول ما شافها الملك فضل يبوسها ويعيط . وادى الصياد مبلغ كبير زى ما وعده .

أمر الملك إن الاحتفالات تستمر أربعين يوم . وف آخرها اتجوز الأميرة الإيرانية .

حكاية الطواب

كان فيه واحدة مرات طواب . وف يوم م الأيام دعت ربنا وقالت : « يارب يارينا تديني ولد زى الجمل ! » استجاب ربنا لدعوتها وإداها ولد زى الجمل . كان عند ملك المدينة سبع بنات راحوا كلهم يتفرجوا على الولد اللى زى الجمل .

بعد ما مشيوا قال الولد لأمه : « أنا عاوز أتجوز أصغر واحدة ف بنات الملك » . قامت أمه قالت له : « يا بنى أنت جمل . ازاى تتجوز بنت ملك ؟ » قام قال لها : « وماله . أنا ها أديكى صينية دهب وفناجيل دهب تاخديهم وتروحى بيت الملك وتديهم لمرته . إذا حد الحراس اتكلم معاكى اديله قرشين . لكن إياكى تتكلمى مع حد » .

خدت الأم الصينية والفناجيل الدهب ودخلت قصر الملك وحطتهم قدام مرته ومشيت من غير ولا كلمه .

تانى يوم الجمل ادى لأمه ترابيزه زينه عليها صحون دهب وقال لها : « روحى قصر الملك وحطى دول قدام مرته من غير ما تتكلمى » .

ولما جه الملك وشاف الحاجات الزينة دى قال لمرته : « إذا جت الولية دى تانى اسأليها عايزه إيه » .

قوم لما جت الولية تالت يوم قالت لها مرت الملك : « طلبك إيه ؟ » قالت لها : « أنا طالبة ايد بنتك الصغيرة لابنى الجمل » .

ولما جه الملك وسمع الكلام ده استغرب وطلب وزيره وقال له : « ازاى أجوز بنتى لجمل ؟ إحنا لازم نفكر شويه فى الحكاية دى » .

بعد كده قال الوزير للملك : « متهيأ لى إن الجمل راجل غنى ومبسوط لأنه بيبعت حاجات غاليه جلالتك ما عندكش زيها . متهيأ لى إنه غنى واصل وإنك لازم توافق . لكن فى الأول لازم تطلب مهر كبير لبنتك . إذا وافق كان بها ونديها له . لكن إذا رفض يبقى أحسن لك إنك ترفض طلبه » .

ولما جت الأم القصر تانى قالوا لها إن الملك وافق على طلبها . لكن حيث إن الحرب ابتدت بين الملك وبلد تانيه وإنه محتاج لفلوس وسلاح ، فمطلوب من ابنها يجيب ميت جمل محملة مدافع وبنادق مهر لبنته .

راحت الأم لابنها وقالت له : « يا بنى الملك طلب منى كذا وكذا وانت مش هاتقدر على طلبه لأننا غلبانين واصل . أبوك حتة طواب وإحنا عايشين فى خص . إزاى تجيب الحاجات دى؟ » .

لكن الجمل قال : « ما تخافيش يامّه . خليك هنا على ما أرجع » . وبعدين خرج وجاب حبل وعلقه على باب الخص وقال لأمه تمسك طرف الحبل فى إيدها وتروح قصر الملك . قامت أمه ماسكة الحبل وماشية .

ولما مشيت مشى وراها جمال كثيره ، أكتر من ميتين جمل محمله مدافع وبنادق . ولما وصلت قصر الملك اديتهم للوزير . قام الوزير قايل للملك : « أم الجمل جابت أكثر من ميتين جمل . ومتهيأ لى إن إحنا لازم نديها بنتك علشان يتجوزها ابنها » .

قام الملك خد بنصيحته وبعت رسالة للجمل قال له فيها إنه مستعد يجوزه بنته الصغيرة . وعمل الجمل إعلان بإنه هايتجوز بنت الملك وعزم أصحابه عالعشا . وبعد ما اتعشوا راحوا قصر الملك ورجعوا بالعروسة لبيت الجمل .

حط الجمل سيف بينه وبين عروسته وقال لها : « ها أوريلك سر » . وقام خلع جلده ويا سبحان الله . كان أمير جميل واصل شعره زى سلاسل الدهب .

ولما طلع النهار عملت أم العروسة شوية بكسويت لبنتها وكمان جهزت صحن مكرونه وقالت يمكن الجمل ياكله بدل التبن . ولما راحت لبنتها علشان تديها الحاجات دى سألتها عن الجمل . قالت لها بنتها : « دا جمل يا أمى مش بنى آدم » . وماقالتلهاش حاجه عن اللى شافته بالليل .

وقبل ما يخرج الجمل جاب لمرته صينية دهب عليها صحون دهب مليانه أكل زين وقال لها تحط فطور لأمها تاخده معاها لقصر الملك . ولما شاف الملك الحاجات الغاليه استغرب وقال لوزيره : « لازم الجمل ده راجل غنى واصل . دايما بيهدينا حاجات غاليه ما عندناش زيها » .

وف يوم السبوع خد الملك ومرته شوية هدايا علشان يودوها لبنتهم . ولما وصلوا لقوا إن الخص اتحرق وما شافوش حد . ولكن الجمل كان خد مرته وأمه وأبوه وراح مكان بعيد اتبنى فيه ، بعد ما دعا ربنا ، قصر جميل طوبة من دهب وطوبة من فضة وحواليه زهور طلعت فى الحال . وكان بيحرس القصر عساكر كتير . وبعد كده الجمل خلع جلده وبقى أمير المنطقه .

بعد شويه لبس الملك ووزيره لبس عرب وقعدوا يلفوا يدوروا على بنت الملك . وف يوم م الأيام كانوا ماشيين جنب القصر فشافهم الأمير اللى أمر واحد من عساكره إنه يجيب الراجلين الأغراب دول اللى قال إنهم حراميه وحطوهم ف السجن .

بعد تلات أيام جابوا الراجلين للأمير وسألهم : « أنتو رايحين فين ؟ » قام الملك ووزيره قالوا له : « إحنا لينا بنت جوزناها لجمل وعمالين ندور عليها » . راح الأمير قايل لهم : «ازاى جمل يتجوز بنت » . رد عليه الملك وقال له : « أنا اديته بنتى » .

وهما بيتكلموا طلت بنت الملك من الشباك وشافها أبوها وعرفها لكنه ما قدرش يتكلم لأنه واقف قدام الأمير .

وبعدين قام الأمير قال للملك : « أنا الجمل اللى خد بنتك ولكنى أمير وربنا خلانى زى ما انت شايفنى » . فرح الملك وأصبح الأمير ملك بداله .

الملك والراوى

كان فيه ملك عند راوى . وكان الراوى عنده ابن وبنتين . مات الراوى بعد تلات سنين من ولادة أصغر عياله وقبل ما يموت قال لابنه : « يا بنى إذا جه راجل فقير وطلب إيد واحده من إخواتك إديها له ، إذا كان شريف وأمين . وإذا جالك راجل غنى وطلب إيد واحدة منهم وماكنش راجل شريف ما توافقش على طلبه » .

وف يوم من الأيام جه واحد عربى ، وكان راجل شريف وطلب من الولد إيد واحده من اخواته . قال الولد : « هأفكر فى الموضوع وأرد عليك بعد يومين » .

وف اليومين سأل ولاد قبيلته عنه قالوا له إن العربى راجل طيب لكنه ما عندوش بيت وعايش فى خيمه . قام الولد رايح للراجل وقال له : « أنا هاأديلك واحده من اخواتى لكن ف الأول خد ألف جنيه وابنى بيت كويس هنا » . وبعد ما اتبنى البيت إدى العربى فلوس يشترى بيها عفش وكمان شوية جمال .

وبعد تلات أيام عملوا الفرح وعمل العريس عزومه كبيره للعرب بالجمال اللى دبحها .

بعد كده جه راجل غنى وطلب من الولد إيد اخته التانيه . قال له الولد برضه : « ها أرد عليك بعد يومين » . وبعد السؤال عرف إن الراجل كان غنى واصل ولكنه مش شريف .

الولد قال فى باله : « برضه هاديله أختى وأشوف إيه اللى هايحصل » . وقام مجوز البنت للراجل الغنى وخالف كلام أبوه .

وبعد جمعه كتب الولد جواب للملك اللى كان أبوه الراوى بتاعه وطلب منه إنه يشتغل فى القصر . ولما قرا الملك الجواب قال : خلوا الولد ييجى هنا لأنه ابن الراوى بتاعى » .

بعد شويه رجع الولد بيته وقال لأمه : « يا أمى قبل أبوى ما يموت قال لى ما تعملش خير للبنى أدمين واعمل الخير للكلاب . وكمان قاللى أصاحب الكلاب وما أصاحبش البنى آدمين. »

الملك كان عنده كلب متوحش وكان الولد متعود يديله فطيره كل يوم الصبح . وكان عند الملك برضه غزاله صغيره كان بيحبها . وف يوم من الأيام طلب الولد من حارس الغزاله إنه يقبل ياخد منه فلوس ويدى له الغزاله . قام خد الولد الغزاله وحطها فى مكان مخصوص وجاب لها حارس يرعاها . وتانى يوم سأل الملك عن الغزاله اللى اختفت . وكان فيه راجل فقير عايش بالقرب م البيت اللى كان الولد حاطط فيه الغزاله فقام رايح للملك وقال له إن الغزاله موجوده فى بيت واحد دفع له الولد فلوس علشان يرعاها .

بعت الملك للحارس وقال له : « أنا ها أقطع رقبتك إذا ما قلتليش مين الراجل اللى سرق الغزالة » . الراجل خاف وقال وهو بيشاور على ابن راوى الملك : « الولد اللى قاعد جنبك جابها لى فى يوم م الأيام وطلب منى أرعاها » . قام الملك قال للولد : « ليه اتصرفت معايا بالطريقه دى ؟ أبوك كان راجل مخلص . أنا ها أخلى كلبى المتوحش ياكلك » .

بعد كده جابوا الكلب علشان ياكل الولد . ولما جه الكلب قام قعد يشب ع الولد ويلحس إيديه ويلعب معاه وكان فرحان إنه معاه . ولما الملك شاف الكلام ده استغرب وقال : « انت عملت إيه ف الكلب ؟ » قال قال له الولد : « أنا ما عملتش حاجة واصل لكن أبوى قاللى أكون دايمًا كويس مع الكلاب » . قام الملك مسامحه .

وبعد جمعة حب الولد يجرب الكلام اللى قالهوله أبوه . فقام سرق الغزالة مرة تانيه وحطها فى بيت فى البلد وجاب راجل وطلب منه يرعاها . غضب الملك لما عرف إن الغزاله اختفت تانى وبعد تلات أيام جه راجل وقال : « طال عمرك يا ملك ! أنا عارف الراجل اللى خد الغزاله . هو الولد اللى قاعد جنبك » .

بعد كده الملك قال للولد : « أنا لازم أقطع رقبتك بعد جمعة » . لكن الولد استسمح الملك فى أنه يرجع بيته علشان يشوف أمه وإخواته . وسمح له الملك إنه يروح .

ولما رجع الولد بيته خد شوية هدايا وراح لبيت أخته اللى جوزها للعربى وحكى لها هى وجوزها عن كل اللى حصل له . قام العربى بكى بحرقه وقال : « أنا ها أطلب م الملك يقطع رقبتى أنا بدالك » . لكن الولد قال : « لأ . أنا ما أوافقش على حاجة زى كده » . وسابه ومشى .

وتانى يوم راح الولد لبيت أخته التانيه اللى جوزها للراجل الغنى وحكى لها هى وجوزها اللى حصل له . قام جوزها قال : « انت بطال وأبوك بطال وأمك بطالة . ليه سرقت غزالة الملك ؟ أنت تستاهل اللى يجرى لك » .

بعد كده سابه الولد ورجع لبيت أمه . وبعد تلات أيام رجع لقصر الملك زى ما وعده وراح وراه نسيبه الغنى ونسيبه العربى . ولما وصلوا القصر قال العربى للملك : « طال عمرك يا ملك ! اقطع رقبتى بدال رقبة الولد » . لكن الراجل الغنى ما قالش حاجه .

بعد كده قال الولد للملك : « طال عمرك يا ملك ! أنا ها أقول لك تلات حاجات قبل ما تقطع رقبتى » . وإداله الملك الإذن .

اتكلم الولد وقال : « أبوى قال لى تلات نصايح وأنا كنت عايز أجربهم . أول نصيحة اعمل الخير للكلاب وما تعملهوش للبنى آدمين ، والتانيه ادى اخواتك لرجالة فقرا بس شرفا ، والتالتة ما تديش اخواتك لرجاله أغنيا ومش شرفا . فأنا كنت بأدى فطيرة كل يوم الصبح لكلبك الشرس وسرقت الغزاله . بعد كده رميتنى للكلب علشان ياكلنى لكن كلبك افتكر الإحسان اللى شافه منى وما أذانيش وقعد يلحس إيدى ويعلب معايا . وجربت التانيه لما اديت واحده من إخواتى للراجل الفقير الشريف ده ، اللى جه دلوقتى وعاوز يضحى بنفسه علشانى . أما التالته فجربتها لما اديت أختى للراجل الغنى اللى مش شريف ده واللى قعد يلومنى وما ردليش جميل واحد . علشان كده أنا بين ايديك واعمل فى اللى انت عايزه » .

قام الملك قال للولد : « انت ذكى واصل » وعفا عنه وإداله وظيفه كبيرة فى قصره .

القط والفار

فى يوم من الأيام كان فيه فار جعان واصل . وهو عمال بيدور على حاجة ياكلها قابله قط. قام استخبى ورا عمود فقال له القط : « يا فار تعالى نروح ناخد بالنا من الفراخ » . قام الفار رد عليه وقال له : « أبوى قال لى ما تصدقش عدوك وما تمشيش معاه » . بعد كده قال القط للفار : « دا أنا حاج وف إيدى سبحه طويله وعاهدت ربنا إنى ما أذيش فار وبأصلى طول النهار » .

قام الفار رايح لأمه وقال لها ع اللى قاله القط . أمه قالت : « يا بنى ما تمشيش مع عدوك زى أبوك ما قال لك » . فقام الفار قايل لها : « يا أمى دا حاج ومعاه سبحه طويله حاططها حوالين رقبته بيسبح بيها » . فقالت له : « أنت حر ، روح » .

راح الفار للقط وقال له : « وهو كذلك ، أنا ها أروح معاك » . وبعد تلات أيام جاع القط وموت الفار وكله .

الحكايه دى بتقول : ما تصدقش عدوك ولاتمشيش معاه .

الفصل الثامن عشر
أشباه من مصر القديمة

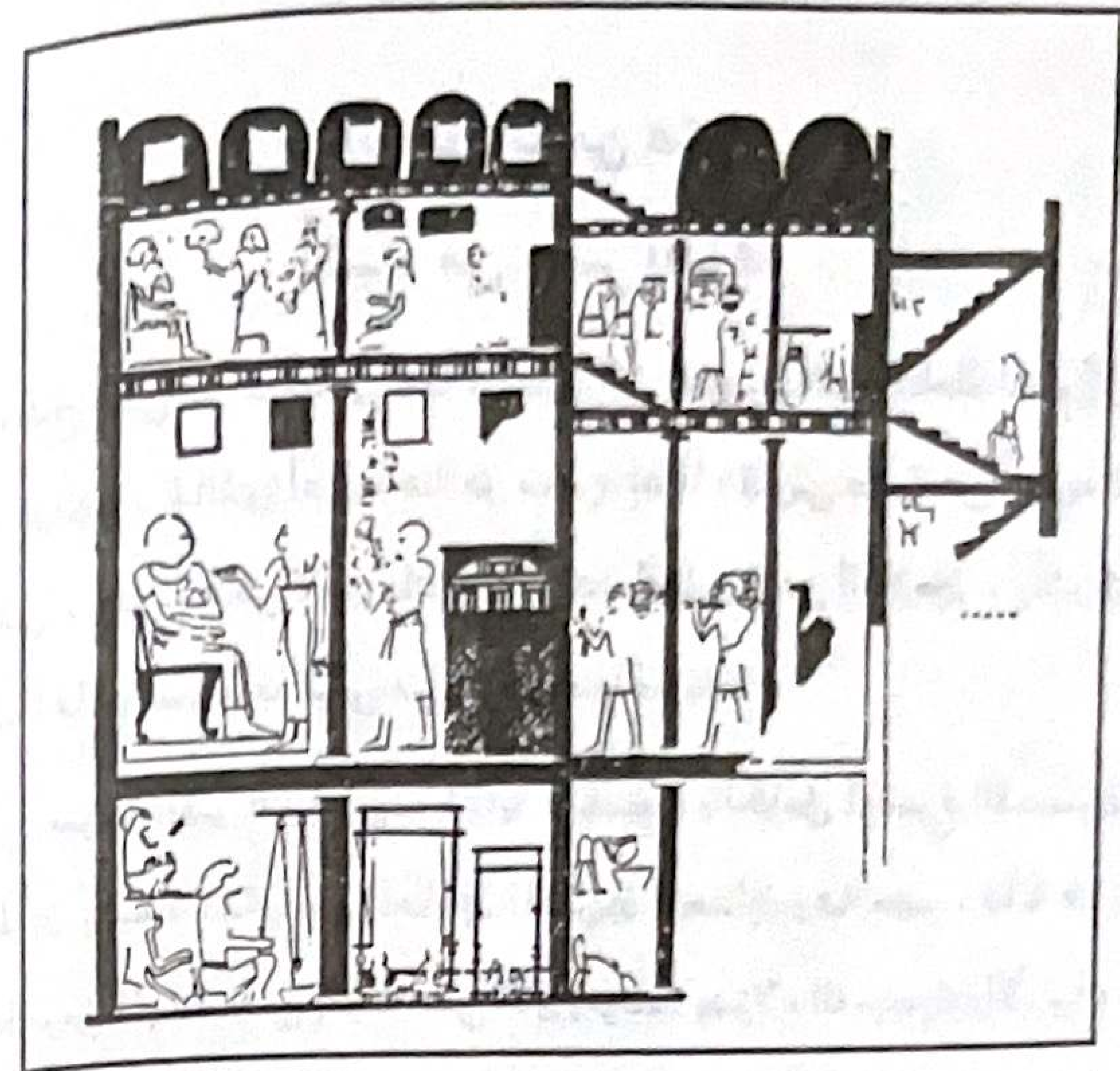
أحب أن أوضح أننى لم أهدف فى هذا الفصل إلى تقديم قائمة كاملة تضم كل الأشباه القديمة التى أعرفها . فالذى أعنيه هنا هو مجرد إعطاء قارئى فكرة عن أهمية هذا الفرع بعينه من بحثى . وفى كلامى الذى يلتزم بالقواعد العلمية عن الفلاحين ، وأشرت إليه فى المقدمة ، سوف أعالج مسألة ما تبقى من الماضى معالجة تامة .

وحيث إننى سوف أنشر عما قريب كتابًا أخصصه بالكامل لموضوع القديسين الأقباط والمشايخ المسلمين يتبعه كتاب عن المعالجين المصريين المحدثين وعلاجهم ، فأنا هنا لا أتطرق للعديد من الطقوس المهمة التى بقيت حتى الآن وترتبط بهؤلاء القديسين والأولياء ، ولكنى سوف أتناول التشابه بين الحديث والقديم من الوصفات السحرية الطبية .

من المؤكد أن المدينة والقرية فى مصر القديمة كانتا على نفس الصورة التى عليها المدينة والقرية فى الصعيد الآن [١] . وكما هو الحال الآن ، فإن أفضل أنواع المنازل هو ذلك الذى يحتوى على طابق علوى أو أكثر [٢] . ولا شك فى أنه كان فى الغالب مطليًا بالجير الأبيض أو الملون[٣] وبه درج قد يكون (كما هو الحال الآن فى كثير من البيوت) من الطوب ويؤدى من طابق إلى آخر حتى السطح ، حيث كانت تقام نفس الصوامع الطينية التى نشاهدها الآن (الشكل ١٥٤) .

وكما هو الحال فى أي منزل حديث كان يوجد على سطح البيت القديم ملقفان[٤] وهما فتحتا تهوية يتم من خلالهما دخول الرياح الشمالية والجنوبية عندما تشتد حرارة الطقس .

وكانت الطبقات الدنيا تعيش فى مساكن متهالكة أشبه بتلك التى تعيش فيها فى الوقت الحاضر ، كما تدل على ذلك النماذج الطينية لتلك المنازل التى تعود إلى العصر الإهناسى (٢٤٤٥ - ٢١٦٠ق.م) [٥] . وقد اكتشفت مؤخرًا منازل تشبه تمامًا منازل الفلاحين الميسورين من غير الأثرياء فى العمارنة [٦] .



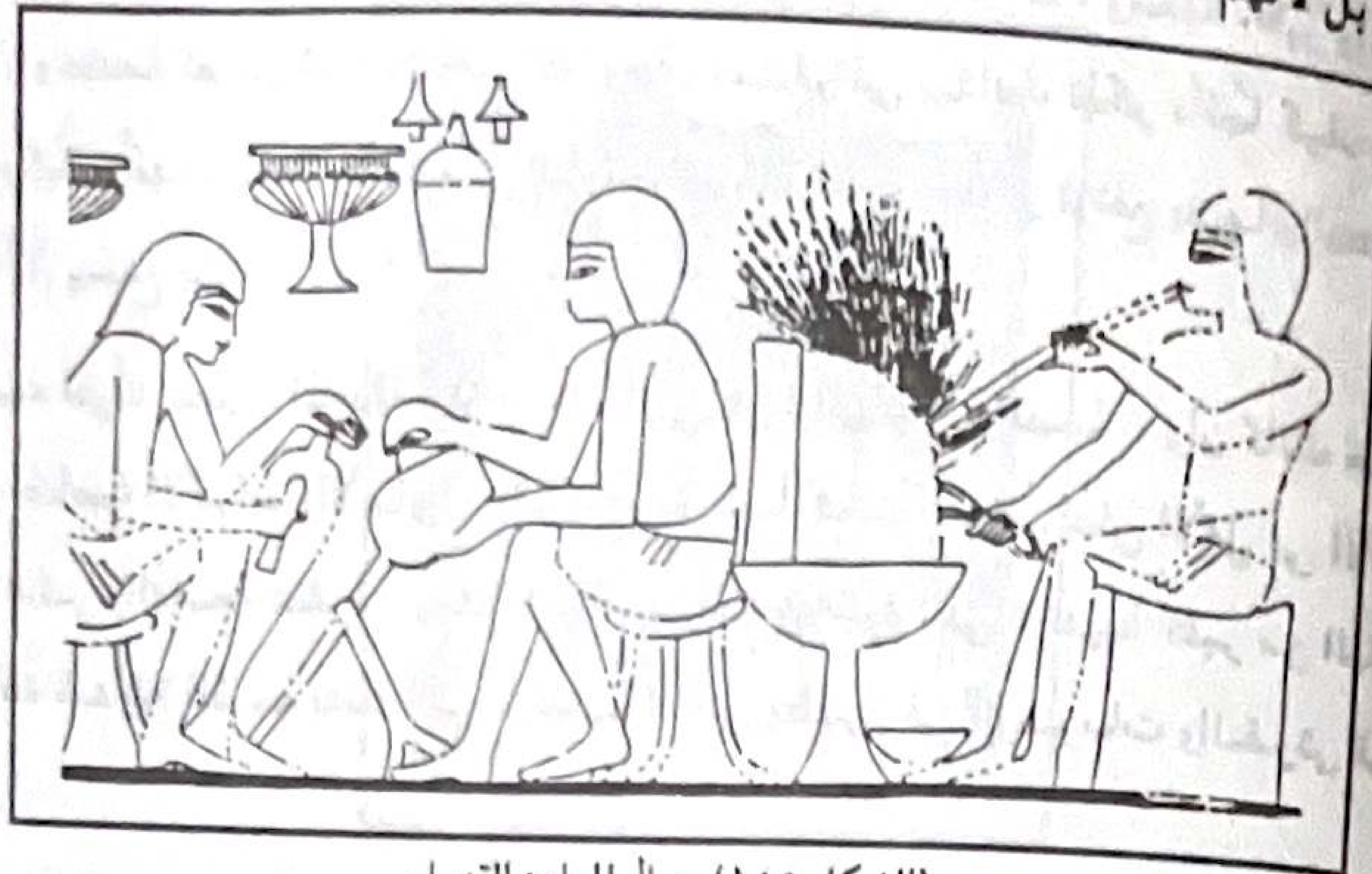
(الشكل ١٥٤) منزل مصرى قديم من طابقين
(A. M. Blackman, *Luxor and its Temples*, p. 3 .)

أما المدخل ذو الأعمدة ، وهو أحد ملامح النموذج الجيد للمنزل الحديث (انظر الشكل ١٣٤) ، وخاصة المنزل الريفى أو المنزل الذى تحيط به حديقة ، فهو كذلك مما تميزت به المنازل القديمة ، كما تدل على ذلك الرسومات العديدة التى تعود إلى عصور مختلفة (٧).

وربما لم تكن المصطبة الموجودة خارج البيت أقل انتشاراً فى المدينة أو القرية المصرية القديمة عما هى عليه الآن(٨) . ولا شك كذلك فى أن الصناع القدماء كانوا يعملون فى دكاكين مفتوحة كما يفعل خلفهم الآن . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هناك دعامة ، تشبه إلى حد ما تلك التى يسند عليها النحّاس الحديث آنيته كى يشكلها ، تظهر فى العديد من رسومات الدولة الحديثة عن عمال المعادن وهم يقومون بأعمالهم (٩)(الشكل ١٥٥) .

وقد تحدثت عن روح المصريين المحدثين المرحة . وكما قال لى أخى ، فإن هذه كانت من الصفات التى يتميز بها قدماء المصريين ، وهو ما لا يدل عليه أدبهم (١٠) وحده ، وإنما يتضح كذلك فى الرسوم والنقوش البارزة التى تزين مقابر الأشراف وتصور الاحتفالات والرياضة(١١) وأوقات الفراغ والحياة اليومية بصورة عامة . وقد بذل المصريون ذلك الجهد وأنفقوا تلك

الأموال على بناء بيوت الأبدية وتزيينها ، ليس لأنهم كانوا يفكرون فى الموت دائمًا بشكل مرضى ، بل لأنهم كانوا يكرهون الموت ويعشقون الحياة وكل ما تمثله (١٢).



(الشكل ١٥٥) عمال المعادن القدماء
(Nina de Garis D Avies, *The Tomb of Two Sculptors at Thebes*, P1. XI)

وقد أشرت فى الفصل الثانى إلى أن المرأة تلجأ إلى شقيقها عندما ينشأ خلاف بينها وبين زوجها . والواضح أن هذه عادة متأصلة . ذلك أنه فى شكاوى الفلاح الفصيح ، وهو عمل أدبى يرجع إلى العصر الأهناسى (٢٤٤٥ - ٢١٦٠ق.م) يصف الفلاح ناظر الخاصة رينسى ، الذى يوجه إليه كل التماساته ، مداهنًا بأنه « أخ للمنبوذة » (١٣).

ومن الواضح أن خيانة الزوجة كانت عقوبتها الموت عند الأقدمين(١٤) كما هو الحال فى مصر الحديثة . وخلال العام أو العامين الماضيين سمعت عن فتاة فقدت عفتها فقتلها أبوها وأقاربها حرقًا ، وهو عمل قد يشبه حرق زوجة أو با أون ار كبير القراء فى إحدى قصص «الملك خوفو والسحرة » (١٥).

كما أن حب الولد لأمه ، الذى تحدثت عنه فى الفصل الثانى ، كان موجوداً فى العائلات القديمة بنفس القوة التى هو عليها الآن . والنصيحة التالية من الحكيم آنى لابنه ، فيما يتعلق بأمه ، تتشابه تشابهًا كبيراً مع ما قاله لى صديقى عن أمه فى الفصل الثانى :

« ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك واحملها كما حملتك . لقد كنت حملاً ثقيلاً عليها ولم تتركك لى قط . وعندما ولدت بعد شهور حملك حملتك مرة أخرى على عنقها وظل ثدياها فى

فمك ثلاث سنوات . لم تشمئز من برازك . كلا لم تشمئز ولم تقل : ماذا أفعل ؟ لقد بعثت بك إلى المدرسة بعد أن تعلمت الكتابة . وكانت كل يوم تقف هناك ، ومعها الخبز والجعة من بيتها . وعندما تصير شابًا وتتخذ لك زوجة وتستقر فى بيتك ، تذكر دائمًا كيف أن أمك ولدتك وكيف أنها ربتك ورعتك بكل الطرق . عساها ألا تؤذيك أو ترتفع يديها بالدعاء للإله وعساه ألا يسمع بكاها . » (١٦)

وتشبه المرأة المصرية المحدثة جدتها كثيراً فى حبها للزينة الشخصية ، وإن كانت حلى هذه الأيام ، خاصة الأقراط والأساور ، أقل حجمًا عما كانت عليه ، على الأقل فى الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشرة . والقلادات المصنوعة من الخرز التى ترتديها كثير من الفلاحات المحدثات شديدة الشبه بتلك التى ترتديها اللاتى يظهرن فى الرسومات والنقوش فى كل العصور .

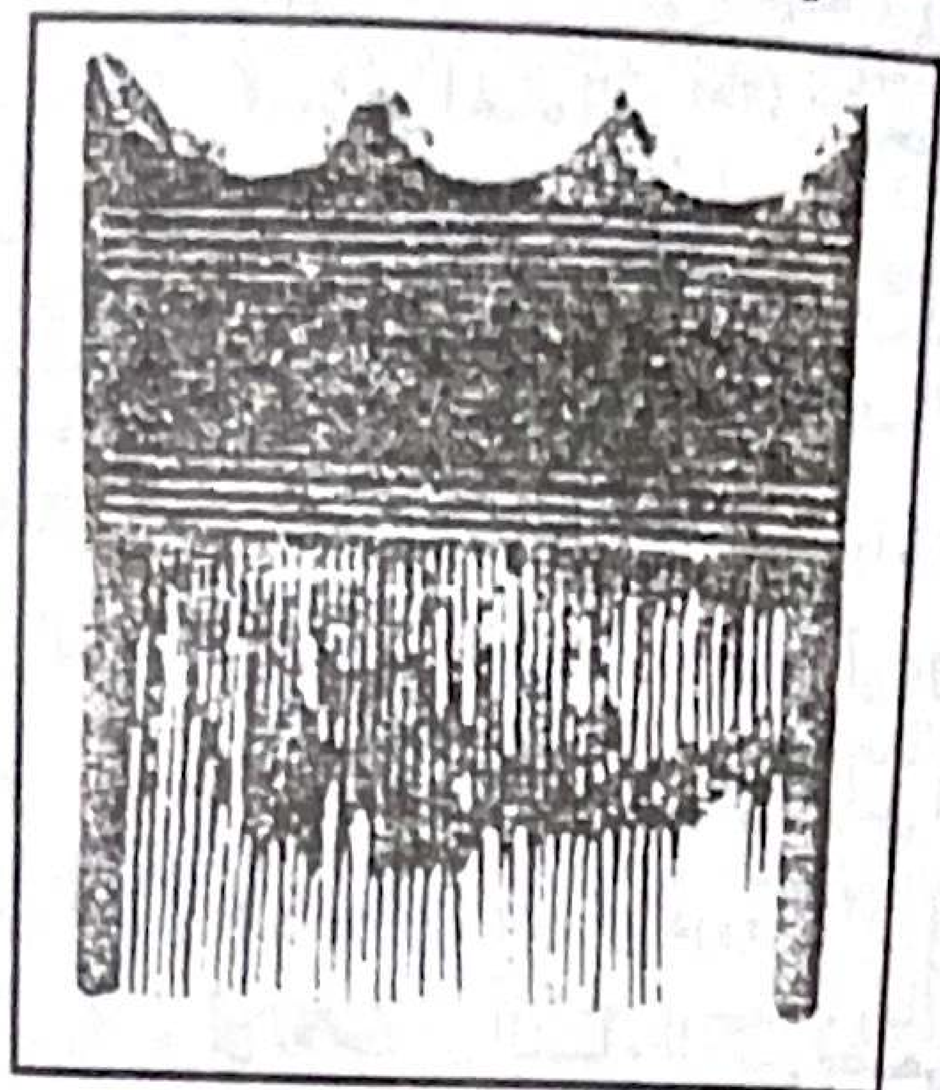
وربما كان الوشم يمارس فى عصر ما قبل الأسرات (١٧) . والذى يدل على أن هذه الطريقة فى الزينة الشخصية كانت شائعة فى الدولة الوسطى (٢١٦٠ - ١٧٨٨ق.م) تمثال من الخزف الأزرق يمثل فتاة يعود إلى الفترة من الأسرة الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة وكذلك مومياوان لفتاتين من الأسرة الحادية عشرة . وتحمل كل من المومياوين والتمثال رسومات بالوشم على الجسم والأطراف (١٨).

وكان من الشائع أن تضع المرأة المصرية القديمة خصلات من الشعر المستعار أو باروكات كاملة على رأسها (١٩) . والضفائر الطويلة التى تضعها الفلاحة المحدثة كان لها مثيل فى العصور القديمة بكل تأكيد (٢٠). فقد وجد البروفيسور بترى ضفيرة طويلة من الشعر وباروكة شعر مستعار فى إحدى المقابر الملكية من الأسرة الأولى بأبيدوس (٢١).

إلا أنه لا تتوافر لدينا أدلة على أن الضفائر كانت تؤدى نفس الأغراض النفعية التى تقوم بها هذه الأيام (انظر الفصل الثالث) ؛ ولابد أن نلاحظ أن الأمشاط الخشبية (الفلايات) المستخدمة حاليًا فى تمشيط الشعر (الشكل ٢٦) شديدة الشبه بالأمشاط القديمة (الشكل ١٥٦) .

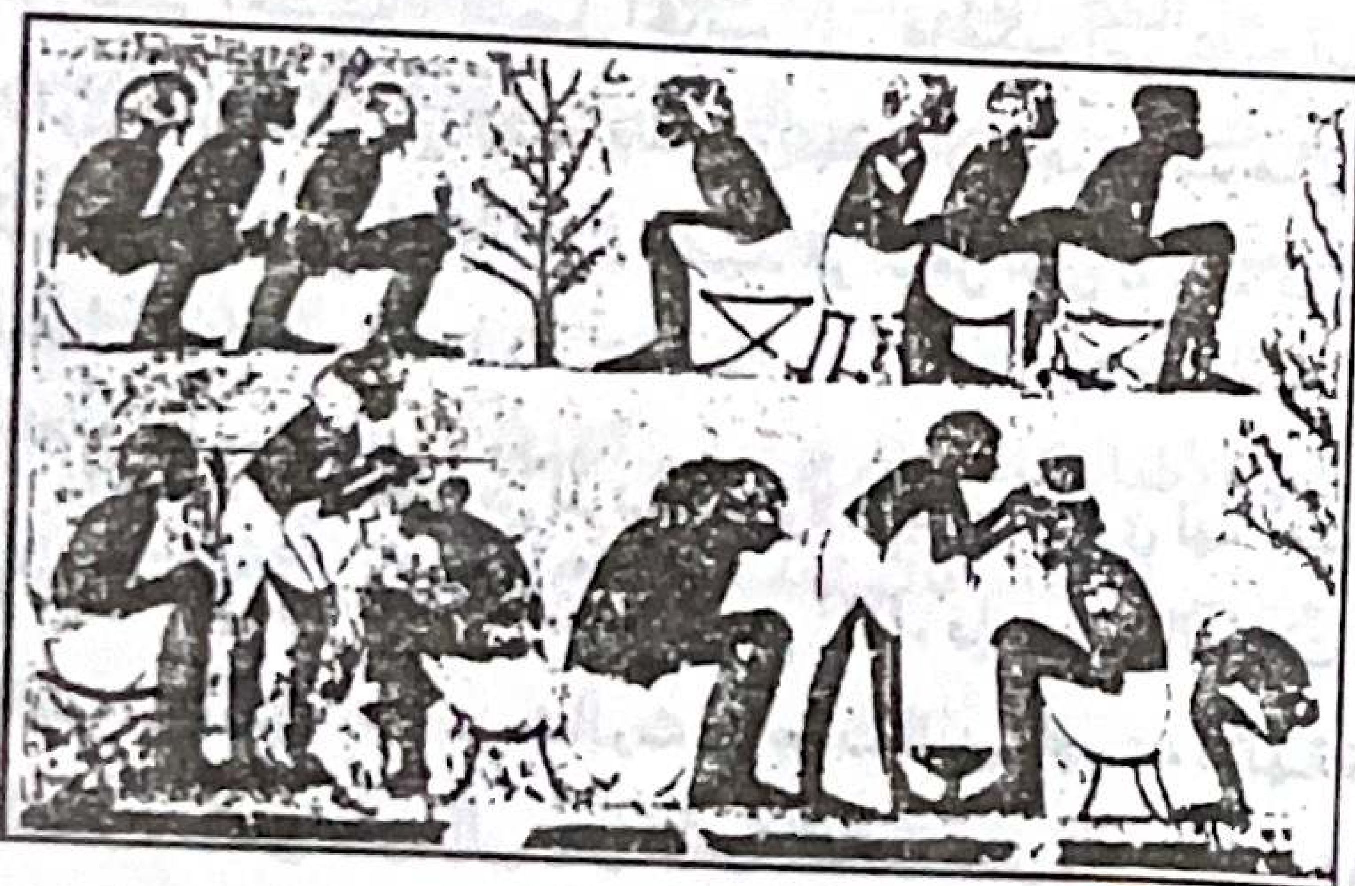
وكان وضع الكحل فى العين يمارس فى العصور القديمة بنفس القدر الذى يمارس به الآن ، ويشترك فى ذلك كلا الجنسين . وفى أوراق البردى التى تحمل رسومًا ساخرة تعود إلى أواخر الدولة الحديثة ، والموجودة حاليًا فى متحف تورينو ، رسم كاريكاتيرى لامرأة تنظر إلى مرآة

يد و « تزين وجهها » (٢٢) . وتدل الإشارات الدائمة إلى العطور فى النصوص الدينية والأدبية القديمة (٢٣) على أن حب المحدثين للعطور (الفصل الثالث) ليس ذوقًا اكتسب حديثًا .



(الشكل ١٥٦) مشط قديم
(A. Erman and H. Ranke , *Aegypten und aegyptisches Lebe im Altertum*, P1. 19,1)

كما أن عادة تقصير الرجال لشعرهم أو حلقهم لرؤوسهم بالموسى (الفصل الثالث) شديدة القدم . وقد ظهرت رسوم تمثل حلاقين يحلقون رؤوس رجال أو يقصرون شعورهم على جدران مقبرتين من الدولة الوسطى (٢٤) ومقبرة من الدولة الحديثة(٢٥) . وفى الرسم الذى يعود إلى الدولة الحديثة (شكل ١٥٧) يبدو واضحًا أن الحلاقين يقومون بعملهم فى الهواء الطلق ، كما هو الحال فى أغلب الأحيان فى الوقت الحالى . وتتحدث « توجيهات دواوف » الشهيرة عن الحلاق الذى يظل يحلق « حتى وقت متأخر من الليل ...حيث يتنقل من شارع إلى آخر باحثًا عمن يحلق له » (٢٦).



(الشكل ١٥٧) حلاقون مصريون قدماء أثناء العمل
(W.Wreszinski, *Atlas zur altaegyptischen Kulturgeschichte*, pl. 44)

ومن المؤكد أن عادة إزالة شعر الجسم (الفصل الثالث) هى الأخرى قديمة . وصحيح أن هيرودوت[٢٧] تحدث عنها فقط فى إطار حديثه عن الكهنة ، إلا أن هناك دليلاً على أن الجنسين كانا يمارسان هذه العادة ، كما هو الحال الآن [٢٨] . ويخبرنا هيرودوت[٢٩] أن «المصريين ، حال حدوث وفاة ، يطلقون شعر الرأس والوجه ، مع أنهم كانوا يحلقونه حتى ذلك الوقت » . وهذه العادة لا تزال تتبع ، كما هو واضح فيما ذكرته فى الفصل الثالث .

وقد تكون قطعتان من الملابس قديمتين جداً ، وهما طرحة المرأة والجلابية . وهناك إشارة إلى الطرحة فى نقش لرمسيس الثالث فى مدينة هابو [٣٠] ، ويبدو أن الفلاحين المصريين كانوا يرتدون لباسًا شديد الشبه بالجلابية ، إلا أنه بلا أكمام ، فى أوائل العصر البطلمى ، كما يتضح من النحت البارز على جدران مقبرة بيتوزيريس فى دروه [٣١] . إلا أن الجلابية قد تعود إلى الأسرة السادسة [٣٢] . ولا بد أن نلاحظ أن النساء اللاتى يضعن على رؤوسهن طرحة كتلك التى تضعها الفلاحة المحدثة فى أجزاء كثيرة من مصر يتكرر ظهورهن فى تلك الرسومات التى فى مقبرة بيتوزيريس التى شيدت على النمط اليونانى [٣٣] .

ولابد أن يذكر هنا أن الأزرق كان هو لون الحداد فى مصر القديمة [٣٤] . وأن الأزرق القاتم وكذلك الأسود مازالا لون الحداد فى مصر الحديثة (كما أشرت فى فصول سابقة) .

لم أشر فى الفصول السابقة إلى عادة الاغتسال قبل الأكل وبعده وقبل الصلاة الخاصة والعامة . وهذه عادة قديمة جداً ، وكثيراً ماجاء ذكرها فى النصوص الأدبية والدينية المصرية القديمة [٣٥] .

ومن الواضح أنه كان ضروريًا أن تكون للمرء عائلة كبيرة فى مصر القديمة ، كما هو الحال فى مصر الحديثة (الفصل الخامس) . فالحكيم آنى ينصح ابنه قائلاً « اتخذ زوجة عندما تكون شابًا عسى أن تهبك ولداً . وينبغى أن تنجبه وأنت ماتزال صغيراً وينبغى أن تعيش لتراه وقد أصبح رجلاً (؟) . سعيد هو الرجل الذى له قوم كثيرون ، وهو محترم بما له من أطفال . » [٣٦]

والعديد من الطقوس المرتبطة بالولادة يمكن أن نرى لها أصولاً قديمة . وبغض النظر عن الإشارة التى وردت فى العهد القديم [٣٧] ، فإن وجود القابلات المحترفات فى مصر القديمة يظهر فى الجزء الخاص بشالوث رد جدت الذى أنجبته الآلهة فى حكايات « الملك خوفو والسحر» التى تعود إلى زمن الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ق.م) [٣٨] . وفى أقدم

العصور كانت المرأة المصرية تلد وهى جالسة على الأرض وتحت كل قدم من قدميها طوبة[٣٩] . ومن هاتين الطوبتين نشأ بناء يشبه كرسى الولادة الحديث ولكنه كان من الطوب ، وهو ما يفترضه البروفيسور شبيلبرج . وكان هناك كرسى للولادة من هذا النوع يستعمل فى الدولة القديمة (٢٩٠٠ - ٢٤٧٥ ق.م) [٤٠] . وقد يكون من المهم أن نعرف التاريخ الذى حل فيه كرسى الولادة الخشبى محل البناء الذى كان من الطوب . ربما يكون ذلك قد حدث فى عصر مبكر جداً وأن « الطوبة » التى تعنى كرسى الولادة فى أحد نصوص الأسرة التاسعة عشرة ، قد تكون كلمة مهجورة .

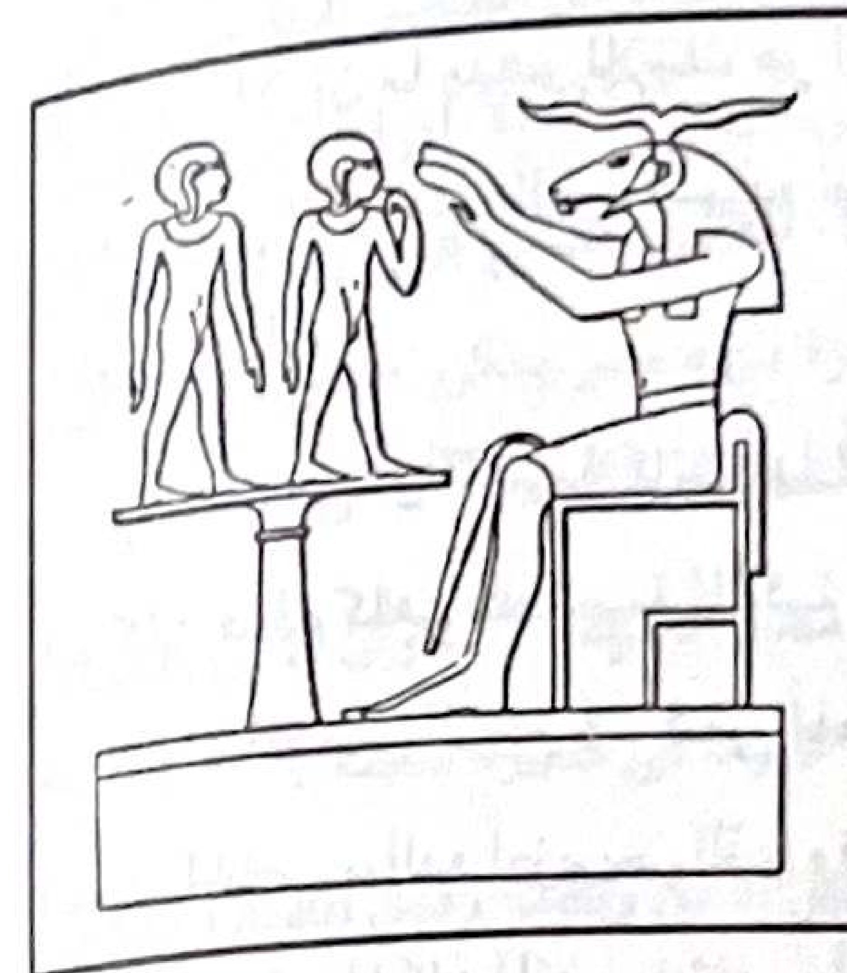
وكانت القابلة فى العصور القديمة تقطع الحبل السرى [٤١] ، كما تفعل الآن (الفصل الرابع) . إلا أن ما يدعو للأسف هو أن عادة تغسيل الطفل فور ولادته[٤٢] لم تعد موجودة . فهذا يؤجل الآن حتى اليوم السابع للولادة . وحتى فى ذلك اليوم يكون تغسيله جزئيًا فقط (الفصل الرابع) .

ولا شك فى أن المشيمة كانت لها أهمية (انظر الفصل الرابع) فى العصور القديمة . ويبدو أنه كان هناك كاهن للمشيمة الملكية [٤٣] . ويبدو كذلك أن الحبل السرى كان يحتفظ به كما هو الآن (الفصل الرابع) . ففى أسطورة حورس ، نجد أن الإله خرج للحصول على الحبل السرى الخاص بوالده أوزيريس الذى وقع فى يد ست ، قاتل أوزيزيس ، وكيف أنه استعاده من ست ودفنه فى المكان المقدس الخاص بأوزيريس فى إهناسيا [٤٤] .

ويجب ملاحظة أن الغربال كان له دور فى المراسم المرتبطة بالولادة قديمًا ، كارتباطه بها الآن (الفصل الرابع) . ففى معبد حتشبسوت بالدير البحرى ، يظهر أنوبيس وهو يدحرج غربالاً فى منظر يمثل الآلهة وهى تحدد أجل الطفل الملكى المولود حديثًا [٤٥] . وربما أمكننا مقارنة تحديد أجل الطفل الملكى بمراسم التسمية الحديثة فى اليوم السابع لولادة الطفل (الفصل الرابع) . إلا أنه ربما كانت تسمية الطفل فى مصر القديمة تتم عند الولادة [٤٦] . وفى حالة عائلات الأمراء ، يبدو أن الاسم كان يُسجل كذلك [٤٧] . من ناحية أخرى تجدر الإشارة هنا إلى أن الاحتفالات المرتبطة بمولد أحد الأطفال كانت تقام فى مصر القديمة ، وبالتأكيد فى الدولة الوسطى ، بعد أربعة عشرة يومًا من الولادة . فالأم تعد غير طاهرة إلى أن تطهر نفسها فى اليوم الرابع عشر [٤٨] .

وقد ذكرت فى مواضع سابقة من الكتاب أن عقيدة تناسخ الأرواح موجود بين الفلاحين . ويبدو كذلك أنها كانت سائدة بين قدماء المصريين ، ربما فى أواخر الدولة الحديثة كما يبدو فى بعض أحداث « حكاية الأخوين » (٤٩).

وما جاء فى الفصل الرابع عن القرين والقرينة يعيد إلى الأذهان الاعتقاد المصرى القديم الخاص بالكا . والفكرة الحديثة هى أن القرين يولد فى نفس الوقت الذى يولد فيه نظيره الآدمى . وهذا يعيد إلى الأذهان النقوش المحفورة على جدران معبدى الأقصر والدير البحرى(٥٠) التى تصور الإله خنوم وهو يشكل الطفل الملكى والكا الخاصة به (شكل ١٥٨) وولادتهما التى تتم فى ذات اللحظة .



(الشكل ١٥٨) خنوم يشكل الطفل الملكى والكا الخاصة به

(Gayet, *Le temple de Louxor*, p1. LXIII)

وفى مصر الحديثة يتم إرضاع الطفل لمدة عامين (الفصل الرابع) . وفى مصر القديمة ، وطبقًا للجزء الذى جاء فى هذا الفصل من « حكمة آنى » فإن فطامه ما كان ليتم قبل بلوغه الثالثة .

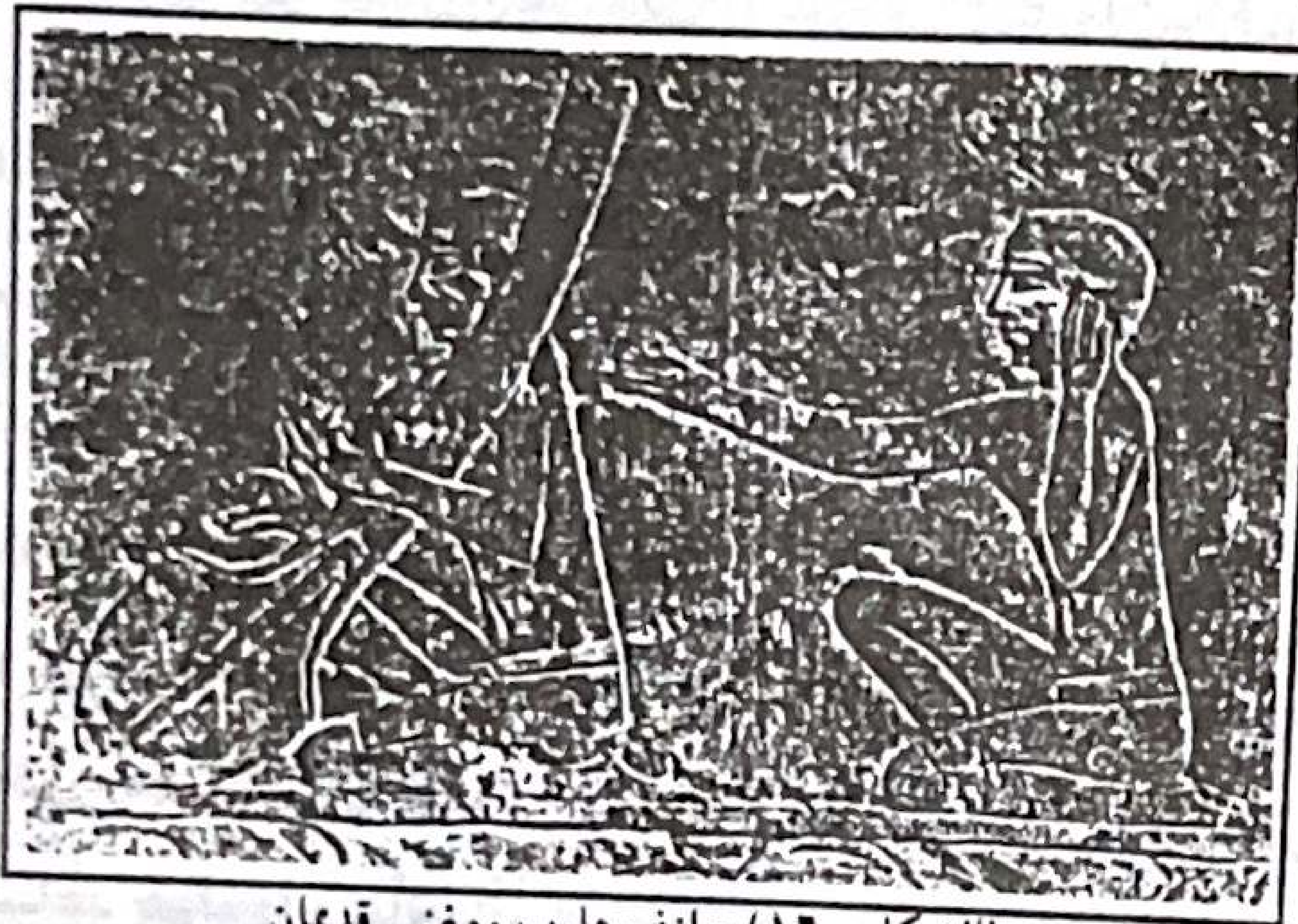
وفى وصف ذبح الضحية أثناء الاحتفال بمولد أحد الأطفال ، كما جاء فى الفصل الرابع ، قلت إن الحيوان وضع على ظهره على الأرض ثم ذُبح . كما قلت إن كمية من الدم وضعت فى سلطانية . وكانت الأضاحى تذبح بالطريقة ذاتها فى الاحتفالات المصرية القديمة . فعلى جدران كل المقابر تقريبًا ، تصور الأضاحى وهى ممدة على ظهورها والجزار يذبحها . وفى بعض الأحيان يظهر فى الصورة مساعد يمسك وعاء كبيرًا(٥١) من الواضح أنه يتلقى فيه الدم (شكل ١٥٩). فهل كانت عادة تلطيخ الباب بالدم موجودة فى مصر فى زمن الدولة القديمة ؟ من الواضح أن الدم كان مطلوبًا لغرض ما يتصل بالمراسم ، وإلا فما هى الحاجة إلى الوعاء ؟ .



(الشكل ١٥٩) رجل يمسك بإناء عند ذبح أضحية

(A. M. Blackman, *The Rock Tombs of Meir* , Part I , p1.XI)

ويبدو أن وضع إحدى اليدين على جانب الوجه أثناء الغناء أو التلاوة مع مد اليد الأخرى (الفصل الرابع) عادة قديمة جداً (شكل ١٦٠) وكذلك إلقاء الإنسان لملابسه كتعبير عن الإعجاب والفرح (الفصل الرابع) . وفى أحد « متون الأهرام »(٥٢) التى تعود إلى حوالى ٢٦٠٠ ق.م. نقرأ كيف أن الملك المتوفى ، قد وصل إلى الرحاب السماوية لإله الشمس ، و«وجد الآلهة تنتظره وهى ملفوفة فى أرديتها وفى أقدامها نعالها البيضاء . فما كان منهم إلا ألقوا بنعالهم على الأرض ونضوا ثيابهم عنهم وقالوا " لم تفرح قلوبنا حتى جئت " .



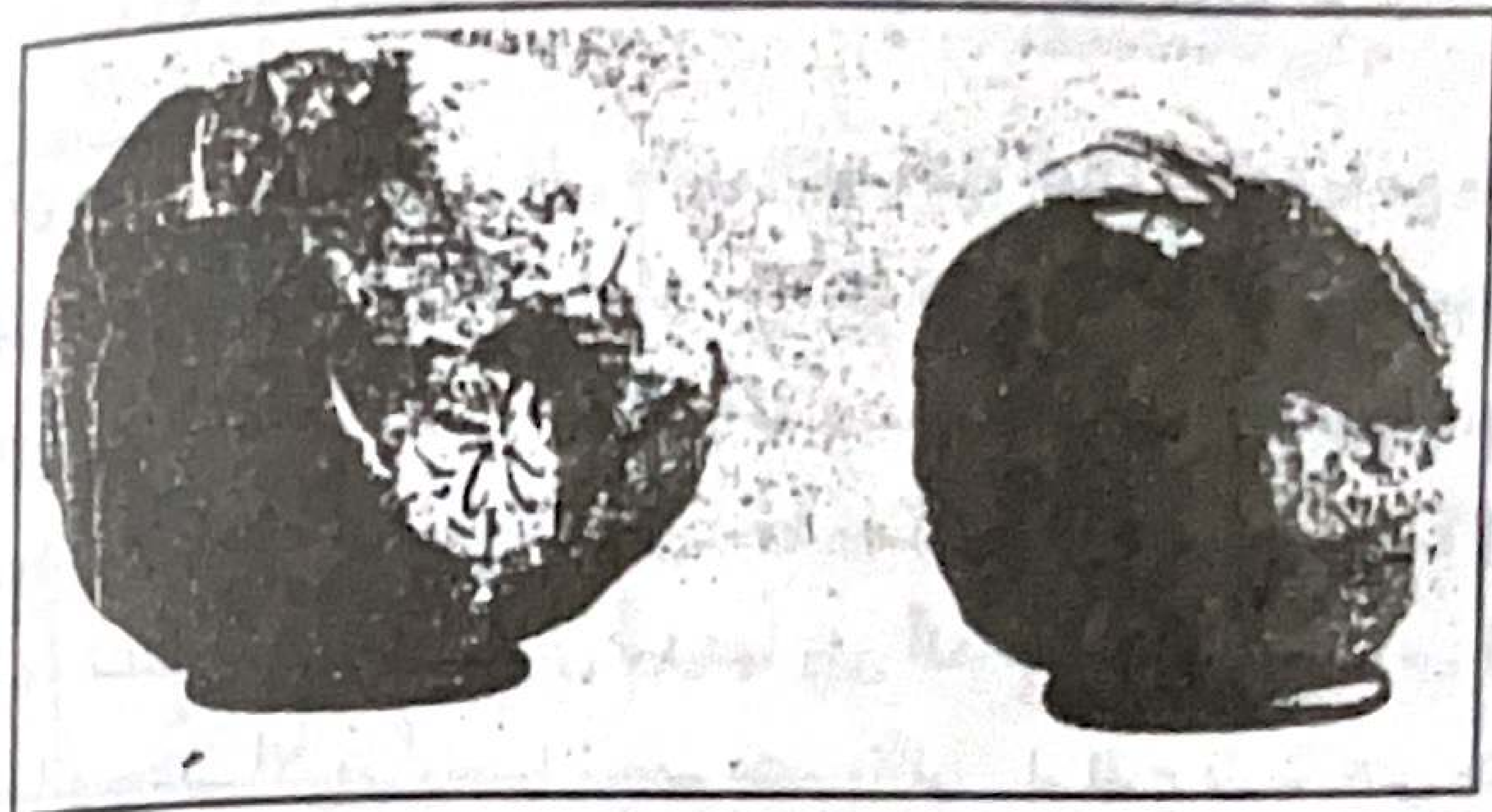
(الشكل ١٦٠) عازف هارب ومغنى قديمان

(A. M. Blackman, *The Rock Tombs of Meir*, Part II, P1. III)

ومن المؤكد كذلك أن عادة حلاقة رأس الطفل فيما عدا بعض الخصلات ، فى حالة النذر، بحيث تنذر هذه الخصلات لواحد أو أكثر من الأولياء أو القديسين ، وما يتبع ذلك من مراسم حلاقة تلك الخصلات بعد أن تصل إلى قدر معين من الطول (الفصل الرابع) ، قديمة جداً .

وقد وجدت كرات من الطين بها شعر أطفال صغار ، كتلك التى جاء ذكرها فى الفصل الرابع ، فى العمارنة (الشكل ١٦١) وفى مقبرة باللاهون تعود إلى الأسرة العشرين [٥٣] . ويبدو أن هيرودوت[٥٤] يشير إلى هذه العادة أو عادة شديدة الشبه بها عندما يقول :

« يتم نذر كل سكان المدن إلى القائمين [على الحيوانات المقدسة] بالطريقة التالية : فبعد أن ينذروا النذر للإله الذى يخصه الحيوان ، يحلقون رؤوس الأطفال بالكامل أو يحلقون نصفها أو ثلثها ثم يزنون الشعر بالفضة ويعطون القائم على رعاية الحيوان وزن الشعر فضة . ومقابل ذلك يقطع بعض السمك ويقدم طعامًا للحيوانات . تلك هى الطريقة المعتادة لإطعامها » .



(الشكل ١٦١) كرتان فخاريتان قديمتان من العمارنة ، إحداهما محطمة ويبدو داخلها شعر الطفل

ويبدو أن الختان (الفصل الرابع) كان يمارس على نطاق واسع فى العصور القديمة (كما هو الحال فى مصر الحديثة) حتى عصر الإمبراطور أدريان ، حيث اقتصر الأمر على المرشحين لأن يصبحوا كهنة [٥٥] . ويصور نحت بارز فى مقبرة بسقارة[٥٦] من الدولة القديمة عملية ختان صبيين يقوم بها ، فى هذه الحالة ، كاهن جنائزى (حم - كا ، « خادم كا ») . وكنت قد قلت إنه عندما يوشك الحلاق على قطع القلفة يمسك الصبى ويطلب منه ألا يخاف . والنحت السابق ذكره يصور أحد القائمين بالعملية وهو يقول : « امسكه ولا تدعه يتحرك [؟] » وهو ما يرد عليه المساعد بقوله : « سأنفذ أمرك . »

وأشرت كذلك إلى السن المبكرة التى يتم فيها تزويج البنات من طبقة الفلاحين فى أغلب الأحيان . والمعروف أنه فى زمن الرومان كان الفتيان فى الخامسة عشرة يتزوجون فتيات فى الثانية عشرة والثالثة عشرة[٥٧] .

والأعمال الخاصة بالمحبة وبتفريق الزوج عن زوجته كانت تستخدم فى مصر القديمة . وهناك أمثلة منها محفوظة فى أوراق البردى السحرية فى العصر الرومانى [٥٨] .

ولدينا عدد من عقود الزواج المصرية القديمة . وأقدم اثنين منهما يعود تاريخهما إلى عصر تاكليوت الأول أو الثانى من الأسرة الثانية والعشرين (٨٩٥ - ٨٧٤ أو ٨٦٠ - ٨٣٤ ق.م)[٥٩] ، وسائر العقود أغلبها من عصور بطلمية [٦٠] . ويعود تاريخ عقد زواج فى حالة جيدة إلى عهد آخر فرعون وطنى ، وهو نختنبو ، ونشره الدكتور يونكر[٦١] منذ عدة سنوات . وحيث إنه مكتمل ولم تظهر له ترجمة إنجليزية بعد ، اعتقد أن ما يلى يهم قرائى :

« سنة ١٥ ، الشهر الثانى من موسم الفيضان ، للفرعون نختنبو (عسى أن يحيا وينعم بالخير والسعادة !) : يقول مسح[٦٢] ادفو من جدار نختنبو[٦٣] ، أوسيران ابن ايسخونز وأمه تنتمحت، للسيدة تاوباستى ابنة ايسخونز ابن تامونيس (أمه) : لقد اتخذتك زوجة وأعطيتك ٥/١٠ دبن من الفضة وهو ما يساوى ٢ ١/٢ ستاتر أى ٥/١٠ دبن من الفضة ، هدية لك كزوجة . وإذا هجرتك كزوجة (أى طلقتك) وكرهتك واتخذت زوجة أخرى ، أعطيك ساعتها ٥/١٠ دبن من الفضة وهو ما يساوى ٢ ١/٢ ستاتر أى ٥/١٠ دبن من الفضة . وبخلاف الـ ٥/١٠ دبن من الفضة المذكورة أعلاه والتى أعطيتها لك كهدية ، يصبح المجموع ١ دبن من الفضة ، وهو ما يساوى ٥ ستاتر ، أى ١ دبن من الفضة .

وأعطيك ١/٣ من كل المتاع وكل الممتلكات التى سوف أكتسبها ، أنا وأنت معًا .

والأطفال الذين سوف تلدينهم لى هم أصحاب كل المتاع وكل الممتلكات التى بحوزتى والتى سوف أحصل عليها .

وفيما يلى قائمة بالممتلكات التى جئت بها إلى البيت :

- ١ هرق ، منسوج ، طوله ٢ ذراع وعرضه ٣ ١/٢ ذراع ، قيمته ٣/١٠ دبن من الفضة.
- ١ حمدت ، منسوج ، طوله ٢ ذراع وعرضه ٣ ١/٢ ذراع ، قيمته (٢ ١/٢)/١٠ دبن من الفضة .
- ١ انشن من القماش الناعم طوله ٥ ١/٢ ذراع وقيمته (٢ ١/٢)/١٠ دبن من الفضة .
- ثوب حريمى قيمته ١/١٠ دبن من الفضة .
- رداء مسح حريمى ، قيمته ١/١٠ دبن من الفضة .

- صندوق هرق ، وهو وعاء من البرونز ، قيمته ٢/١٠ دبن من الفضة .

- خاتم من الفضة ، قيمته ١/١٠ دبن من الفضة .

قيمة أمتعتك المعدنية وأمتعتك المنسوجة التى أحضرتيها معك إلى بيتى تصل قيمتها المالية ١ ٤/١٠ دبن من الفضة ، وهو ما يساوى ٧ ستاتر ، أى ١ ٤/١٠ دبن من الفضة .

ومادمت داخل البيت فهى معك داخله . وإذا أصبحت خارج البيت كانت معك خارجه[٦٤]. ولكن إذا رحلت وهجرتنى أنا زوجك سوف أعطيك (٢ ١/٢)/١٠ دبن من الفضة، وهو ما يساوى ١ ١/٤ ستاتر ، أى (٢ ١/٢)/١٠ دبن من الفضة ، من ذلك الـ ٥/١٠ دبن من الفضة المذكورة أعلاه التى أعطيتك إياها كهدية الزوجة .

كتبه هارما خوروس ابن ايسخونز »

وقد تلت ذلك قائمة بأسماء الشهود .

وقلت فى الفصل الخامس إن العروس تؤخذ عادة إلى بيت زوجها فى المساء . وكان هذا كذلك هو المعتاد فى مصر القديمة عندما كتبت « حكاية خعمواس الأولى » . ففى الجزء الخاص بزواج أهورى[٦٥] نقرأ ما قاله الفرعون لكبير خدمه : « ليأخذوا أهورى إلى بيت نفركا بتاح الليلة ولتحمل معها كل الأشياء الجميلة » . ونعلم أيضًا أن الفرعون أرسل هدية من الذهب والفضة لتأخذها أهورى معها وأن « كل أهل بيت الفرعون جاءوا إلى (والكلام لأهورى) ، وقد أخذ نفركا بتاح بمرح معى وتولى ضيافة أهل بيت الفرعون » . ويوضح هذا أن ما يحدث الآن من نقل أثاث العروس من بيت أبيها إلى بيت زوجها من خلال مراسم معينة كان يحدث كذلك فى الأزمنة القديمة (الفصل الرابع) . كما نرى أن العريس القديم ، مثله فى ذلك مثل الجديد ، كان يتولى ضيافة أصدقائه فى ليلة زواجه (الفصل الرابع) .

وورد فى الفصل الرابع أن الطرف الذى يرغب فى الطلاق يدفع مبلغًا من المال للطرف الآخر . ويتضح من عقد الزواج الذى وردت ترجمته قبل قليل ، ومن تلك العقود التى نشرها البروفيسور جريفيث[٦٦] ، أن ذلك كان هو الشائع فى مصر فى العصر الفرعونى وفى العصر البطلمى . وهناك صكوك طلاق مازالت باقية حتى الآن يعود أقدمها إلى عهد دارا ، وقد ترجم البروفيسور جريفيث بعضها ونشره[٦٧].

وجدير بالملاحظة ، فيما يتعلق بالعادة الحديثة (الفصل السادس) الخاصة بوضع الأم قطعة صغيرة من جلد الثعلب على رأس آخر من ولدت من أبنائها الأحياء كى ، تضمن إنجابها مرة أخرى ، أن العلامة (مس) ، المستخدمة فى كتابة الفعل « مسى » (تلد) واشتقاقاته ، تتكون من ثلاث قطع من جلد الثعلب ربطت معًا[٦٨] . وهذا يدل على أنه كان هناك ارتباط ما بين الثعالب والخصوبة فى مصر القديمة .

والماء المستخدم فى غسل المتوفى المسلم يؤتى به إما من المسجد أو من بئر مقدس أو بركة ترتبط بشيخ ما (الفصل السابع) . وفى العصور القديمة كانت الصيغة التى تتلى عند غسل الجثمان تقول إن الماء خرج من فيلة ، وكذلك كان خروج أوزيريس ، أو إنه استخرج من بركة مقدسة ترتبط بعبادة الشمس أو إنه تدفق من إله الشمس أو رحم إله السماء الذى خرج منه الإله[٦٩].

واحتمال قيام أحد « الفقها » بتغسيل الجثة (الفصل السابع) يدل على أن هذه العملية لا يزال لها مغزى دينى ، وإن كان غامضًا بعض الشىء .

والحزن الذى لا حدود له بالمرة ، وتبديه النساء عند حدوث وفاة (الفصل السابع) لا يزال مصورًا تصويرًا رائعًا فى نقش بارز فى إحدى مقابر الدولة القديمة فى سقارة[٧٠] . وتصور الأرملة وقد انهارت فى إغماءة عند سماعها بموت زوجها المفاجىء . وبعد أن تعود إلى وعيها ويوقفونها على قدميها ، تسير وهى تترنح مستندة على اثنتين من صديقاتها . وحالات الحزن المختلفة التى تظهر على النساء المحيطات بالأرملة تنطبق على المعزيات المحدثات . ولا بد أن نلاحظ كذلك أن إحدى الحاضرات تمسك بعقد الأرملة ، الذى خلع عنها عند تلقى نبأ وفاة الزوج (انظر الفصل الثالث) . وهناك دليل آخر على أن الفلاحات المصريات المحدثات يعبرن عن حزنهن قبل الجنازة وأثناءها بنفس الحركات والسلوك الذى كانت تتبعه جداتهن . وهذا الدليل نجده فى عدد من الرسومات والحفر البارز[٧١] . حيث ينكشن الشعور ، ويشققن الجيوب، ويكشفن الصدور ويجمعن الطين ويضعنه على رؤوسهن وصدورهن وأذرعهن ويلوحن بأذرعهن بعنف ، ويضربن الرؤوس والصدور . والمثال الرائع لذلك هو الصورة الفوتوغرافية (شكل ١٦٢) وهى لرسم فى مقبرة رع مس فى طيبة .

وحال الأم النائحة فى الفصل السابع وفى الفصل الرابع عشر تتطابق مع الأم النائحة فى إحدى الرسومات فى مقبرة أمنمحات بطيبة[٧٢].



(الشكل ١٦٢) نسوة نائحات

(W . Wreszinski, *Atlas Zur altea-gyptischen Kulturgeschichte*, P1.8)

كما أن عادة طلاء اليدين والذراعين والوجه بالصبغة الزرقاء (الفصل السابع والفصل السادس عشر) قد تكون قديمة كذلك ، لكون الأزرق هو لون الحداد القديم (الفصل الثامن عشر) . ولكن حسب علم أخى ، لم يظهر الفنان القديم ذلك فى لوحات النائحات .

وفيما يلى وصف هيرودوت(٧٣) لطواف قريبات الميت وصديقاتهن بالمدينة أو القرية فور حدوث الوفاة (الفصل السابع) : إذا توفى أحد أفراد أية أسرة مهما كان وضعه ، فإن كل إناث هذه الأسرة يلطخن وجوهن ورؤوسهن بالطين . وبعد ذلك يتركن الجثمان فى البيت ويطفن بالمدينة وهن يلطمن وجوههن وقد شققن جيوبهن وكشفن صدورهن . وتصاحبهن فى ذلك كل قريباتهن من النساء .

والرقص الذى تقوم به النائحات قبل الدفن وبعده ، وجاء وصفه فى الفصل السابع والفصل السادس عشر ، له ما يماثله فى رسم بارز بإحدى مقابر الدولة الحديثة بسقارة . وهو موجود حاليًا بمتحف القاهرة (شكل ١٦٣) . وكما هو الحال فى الرقص الجنائزى الذى وصفته فى الفصل السابع ، ترقص النساء على إيقاع الدفوف . وربما جازت مقارنة حالة وحركات الأخت النائحة التى تقدمت نحوى وقد مدت ذراعيها وهى تتمايل يمينًا ويسارًا (الفصل السابع) بتلك الراقصات (كاهنات حتحور الموسيقيات) اللاتى يظهرن وهن يؤدين طقوس جنازة سنت فى الرسوم الموجودة بمقبرة هذه السيدة فى طيبة (٧٤).

والواضح أن إلقاء نظرة على الجثمان المسجى على الفراش من جانب الضيوف والأقارب عادة قديمة . ففى نقش بارز فى العمارنة(٧٥) يظهر الملك إخناتون وزوجته نفرتيتى وهما يلقيان نظرة وداع على جثمان إحدى بناتهما المسجى على الفراش . وعلى مقربة منهما تقف النائحات، كما وصفتهن وهن يتصرفن فى ظروف مشابهة فى الفصل السابع .



(الشكل ١٦٣) رقصة جنائزية تؤديها النائحات

(W . Wreszinskiop . Cit., P1. 419)

وكان الجريد يحمل فى مواكب الجنازات القديمة ، كما يتضح فى صورة الموكب الجنائزى لأحد كهنة الأسرة التاسعة عشرة اسمه كينيبو فى مقبرته بالشيخ عبد القرنة (٧٦). وعادة ذبح حيوان عند المقبرة بمناسبة الجنازة (الفصل السابع) قديمة جداً وجاءت إشارة إليها فى « قصة سنوهى » : « يتم الذبح عند باب واجهة مقبرتك » (٧٧). والمرء يتساءل إن كانوا ينثرون الدم على الباب الوهمى أم لا ؟

والعبارة التى جاءت فى الفصل السابع (٧٨)، وتقول إنه بعد العودة من الجنازة « جلس الرجال خارج البيت حيث انضم إليهم أصدقاؤهم » يمكن مقارنتها بنص فى خطاب كتبه أحد المسئولين فى الدولة الحديثة المتأخرة إلى زوجته المتوفاه : « لقد ظللت أنوح عليك نواحًا كثيراً مع عائلتى أمام مسكنى » (٧٩).

والبناء المستطيل من الطوب الذى يعلو المقابر الحديثة بسقفه المقبى والفتحة التى تشبه الباب عند أحد طرفيه (الفصل السابع) يشبه كثيراً مثيله فى مقابر الطبقة الوسطى العادية

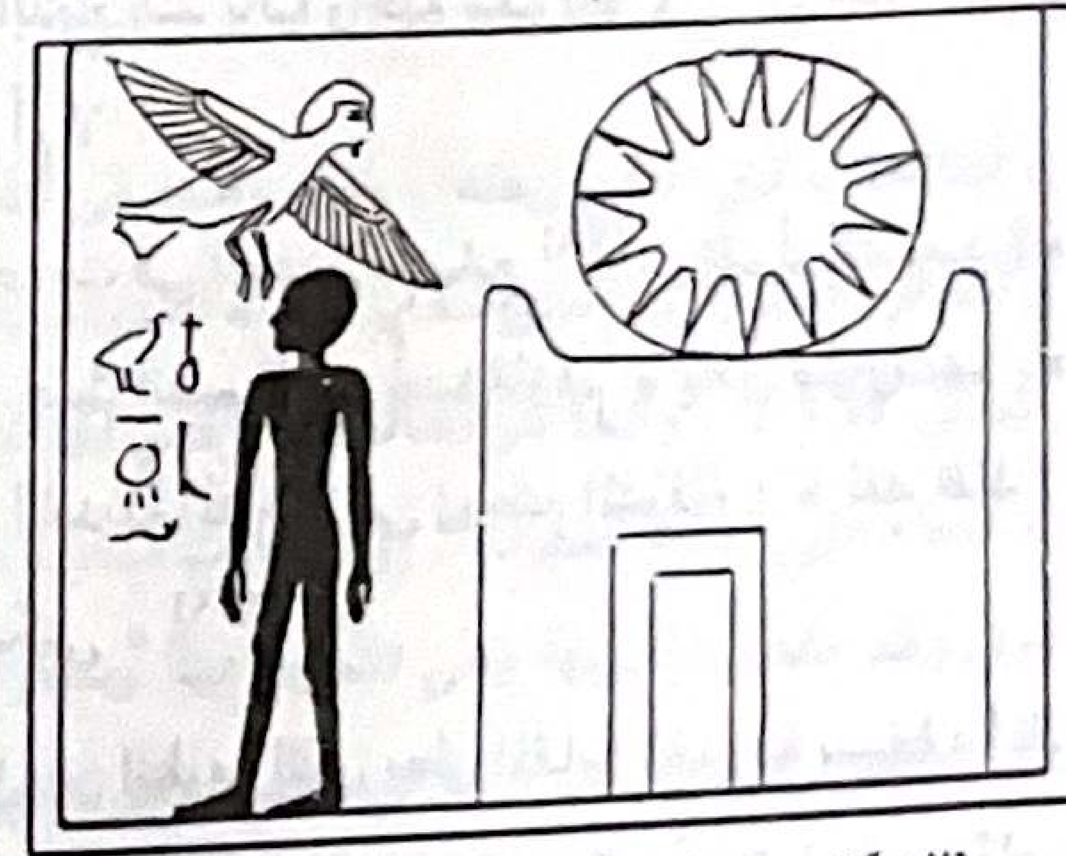
في كل العصور (انظر على سبيل المثال الشكل ١٦٤) (٨٠) . كما نجد أمثلة قديمة بغرفة الدفن الكبرى بسقفها المقبى كما جاء وصفها في الفصل السابع (٨١) .



(الشكل ١٦٤) بنية فوقية أعلى مقبرة من الدولة الوسطى

(D. Randall-MacIver and C. L. Woolley, *Buhen*, P1. 8I)

وكانت فكرة كون ظل الإنسان كيان منفصل (الفصل السابع) سائدة كذلك في مصر القديمة . ويصور رسم في نسخة تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة من « كتاب الموتى » ظل رجل والبا (الروح أو التجلي) الخاصة به (٨٢) أمام باب مقبرته(٨٣) (شكل ١٦٥) .



(الشكل ١٦٥) الظل والبا خارج باب المقبرة

(E. Naville, *Das Aegyptische Todtenbuch der XVIII bis XX Dynastie*, vol. i. P1. CIV)

ولا شك في أن الزيارة الأسبوعية للمقابر ، أو الطلعة ، التي جاء وصفها في الفصل السابع ، والممارسات التي تتم في هذا المكان في العيد الصغير والعيد الكبير وفي يوم الغطاس القبطي لها أصول قديمة . فقد جرت العادة منذ أقدم العصور على تكريم ذكرى الموتى في أوقات معينة ، من خلال إقامة الطقوس الجنائزية داخل المقبرة أو بجوارها . وتتكون هذه الطقوس في المقام الأول من تقديم العديد من المأكولات والمشروبات للمتوفى . وكان لذلك مغزاه الغامض في قديم الزمان . إلا أنه على امتداد التاريخ المصري كانت تسيطر فكرة ضرورة تزويد الموتى بقدر كاف من الطعام . والاسم الذي أطلق على تلك الطقوس القديمة هو «برت» ومعناها « الطلوع » . وكلمة « طلعة » تعني ذات المعنى . ويقال كذلك « طلوع الشمس » . وهذا أيضًا من معاني كلمة « برت » في اللغة المصرية القديمة . والفعل المصري القديم « برى » والفعل العربي « طلع » هما المستخدمان في جملة « طلعت الشمس » .

وفي المصرية القديمة كانت كلمة « برت » (طلع) ، بمعنى « الصعود » أو « الطلوع » أو « السير » إلى مدينة الموتى ، تظهر دائمًا في عبارة « برت - را - حرو » ومعناها « الطلوع عند سماع الصوت » ، حيث كان الصوت ، وهو في الأصل صوت الملك الحي حورس (٨٤) ، الذي يحمل قرابين إلى الجبانة ، يأمر حاملي القرابين بالتقدم نحو مقبرة جده المتوفى (أوزيريس) . وكان « الصوت » فيما بعد هو صوت الكاهن الجنائزي الذي حل محل الملك ، حورس ، في جنازات الرعية ، أو الذي قام بدور نائب الملك في المقابر الملكية .

وفي مقبرة متن الذي عاش في نهاية الأسرة الثالثة نجد الصيغة التالية :

« الرحمة يهبها أنوبيس الذي تخضع له مدينة الموتى ، طلوع عند سماع الصوت تقوم به كل قراه [أي قرى المتوفى التي تشكل أوقافه الجنائزية] في عيد الواج ... واليوم الأول من الشهر ، اليوم الأول من منتصف الشهر ، واليوم الأول من كل أسبوع (٨٥) .

ويظهر تحت هذا النص مباشرة رسم يرتبط به بشدة لأربعة نساء تحمل كل منهن سلة خبز على رأسها وتمسك بإناء به ماء في يدها اليمنى (٨٦) . ومثل هذه النقوش التي تصور رجالاً أو نساء متجهين إلى المقابر وهم يحملون المؤن شائعة جداً في المقابر ، خاصة تلك التي تعود إلى الدولتين القديمة والوسطى . والشيء شديد الوضوح في هذه المناظر هو السلال التي تحتوي على مواد غذائية ؛ وهي عادة ما تكون محمولة على رؤوس النساء ، كما هو الحال في «الطلعة» الحديثة ، وبنفس الشكل الذي عليه السلال المستخدمة هذه الأيام . وهناك نص شبيه بهذا الذي أوردته ، وربما يعود إلى الأسرة السادسة ، وهو كما يلي : « طلوع عند سماع

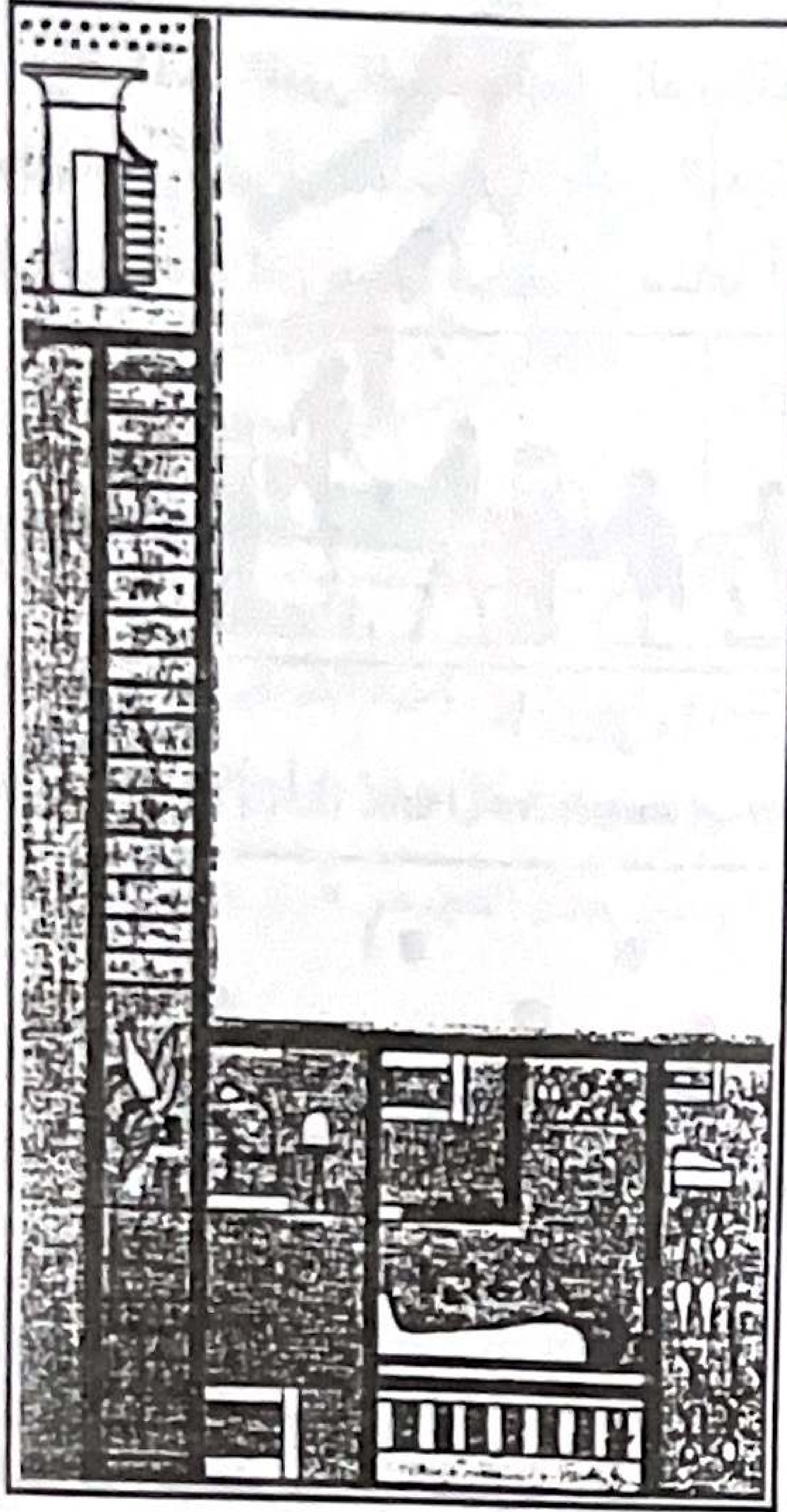
الصوت من أجله فى مقبرته فى الاحتفال الشهرى ونصف الشهرى وفى أوائل المواسم وأوائل الشهور وأوائل الأسابيع »(٨٧). وفى العصور اللاحقة ، يبدو أن ذلك القربان الأسبوعى تقلص فى الغالب إلى مجرد صب الماء مع تلاوة بعض الصيغ ، وهى عادة لا تزال قائمة فى النوبة السفلى وأجزاء من الصعيد (٨٨). وبالنسبة للمراسم الأسبوعية التى تتبع عند المقابر ، لا بد من توضيح أنه من المفترض أن إيزيس تؤديها فى «المكان المقدس» على جزيرة بجة المدفون فيها أوزيريس. ولا شك فى أنها تفعل ذلك بصفتها زوجة تزور قبر زوجها الميت (٨٩).

وتأتى أحيانًا كلمة « برت » بمعناها الجنائزى دون أن يتبعها « را - حرو » . وهنا قد تكون مصحوبة عامة بالصفة (عظيم) ، أى « الطلوع العظيم » أو بالمفهوم الحديث «الطلعة الكبيرة » (٩٠). مثال ذلك رجل يدعو أن يكون اليوم الذى يغادر فيه الدنيا فيه « طلعة كبيرة لأبناء مدينتى »(٩١) والتعبير نفسه مستخدم فى مرسوم كانوب حيث يستخدم للإشارة إلى الاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة بيرنيكى المعظم (٩٢). وفى النسخة اليونانية للمخطوطة المذكورة تحولت « برت عات » إلى μεγαλεθοδ(الحزن العظيم) إشارة إلى أن هؤلاء اللاتى يشاركن فى هذا « الطلوع العظيم » ينتحبن عند المقابر ، وربما عند ذهابهن وإيابهن ، كما هى العادة فى الوقت الحالى .

وفى ضوء الدليل الذى حصلنا عليه من الأسماء التى أطلقت على تلك الطقوس فى الماضى والحاضر ، إضافة إلى التشابهات الكثيرة فى الطقوس الجنائزية لدى المصريين القدماء والمحدثين ، وكذلك الحقيقة التى تقول إن « الطلوع » فى الحالتين كان للصحراء ، فإن لدينا ما يبرر الافتراض بأن المراسم الحديثة ترجع إلى أصول تسبق الإسلام والمسيحية وأنها طقوس باقية منذ أقدم عصور التاريخ المصرى . ويزداد يقيننا بذلك عندما نقرأ ما كتبه البروفيسور بريستد أو الدكتور ريزنر من وصف حى لمشاهداتهما فى الجبانة بأسيوط أثناء الاحتفال السنوى فى زمن الدولة الوسطى (٩٣). وفى الاحتفالات الحديثة ، تمامًا كما كان يحدث فى الاحتفالات القديمة ، يأتى الناس بكميات من أرغفة الخبز إلى القبر ، ويحرق البخور (انظر الفصل السادس عشر) وتذبح الأضاحى (الفصل السادس عشر) . وكان حرق البخور أهم ملامح المراسم الجنائزية القديمة وأبرزها ، وكان يفترض أن الموتى يبتهجون بشمه(٩٤) ومن ثم يستفيدون منه (٩٥).

والمفهوم الحديث الذى يقول إن الروح تزور الجسد فى يوم الطلعة (الفصل السابع) له مرادف ممتاز فى « كتاب الموتى » يصور الروح (با) فى شكل طائر يهبط البئر إلى غرفة

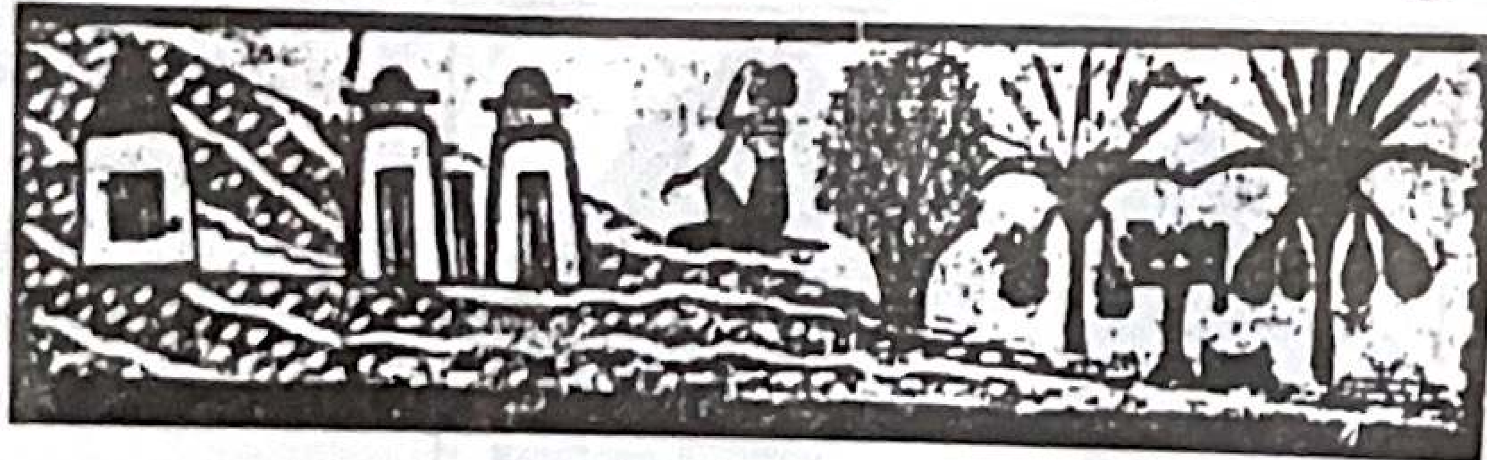
الدفن كى يتحد مع المومياء الراقدة فيها (شكل ١٦٦) . وفكرة إقامة الموتى فى مقابرهم وكذلك فى مملكة أوزيريس أو فى الجنة مع إله الشمس ، موجودة فى النصوص الدينية المصرية فى كل العصور (٩٦).



(الشكل ١٦٦) الروح تهبط بئر الدفن

(G. Maspero, *The Dawn of Civilization*, (London, . 1894 P. 198)

ويمكن مقارنة رسم قديم (شكل ١٦٧) يصور أرملة تنتحب على زوجها فى إحدى الزيارات التى تقوم بها أسبوعيًا ، أو أقل من ذلك ، إلى قبره بإحدى الصور الفوتوغرافية التى التقطتها لأرملة محدثة فى موقف مشابه .



(الشكل ١٦٧)
زوجة تنوح على
زوجها المتوفى
(W. Wreszinski, op. cit. P1. 417)

وهناك تشابه كبير بين ما رويته فى الفصل الثامن عن المعركتين اللتين وقعتا بين قريتين وما رواه يوفينال فى « الهجائية الخامسة عشرة » الشهيرة عن المعركة بين أهل أومبوس

ودندرة . وتلك المعركة وواحدة من المعركتين اللتين شاهدتهما وقعتا أثناء احتفال دينى محلى. بل إنها بدأت هى والحكاية الثانية التى رويتها أنا بقذف الحجارة .

وإذا كانت القدور المستخدمة فى القرية المصرية الحديثة تختلف إختلافًا كبيرًا من ناحية شكلها عن تلك المستخدمة فى العصور القديمة ، فإن صانع الفخار الحديث قد يستعمل نفس الأساليب التى كان يتبعها أسلافه فى صناعة أوانيه (الشكلان ١٦٨ و ١٦٩) .



(الشكل ١٦٨) صانعو فخار قدامى

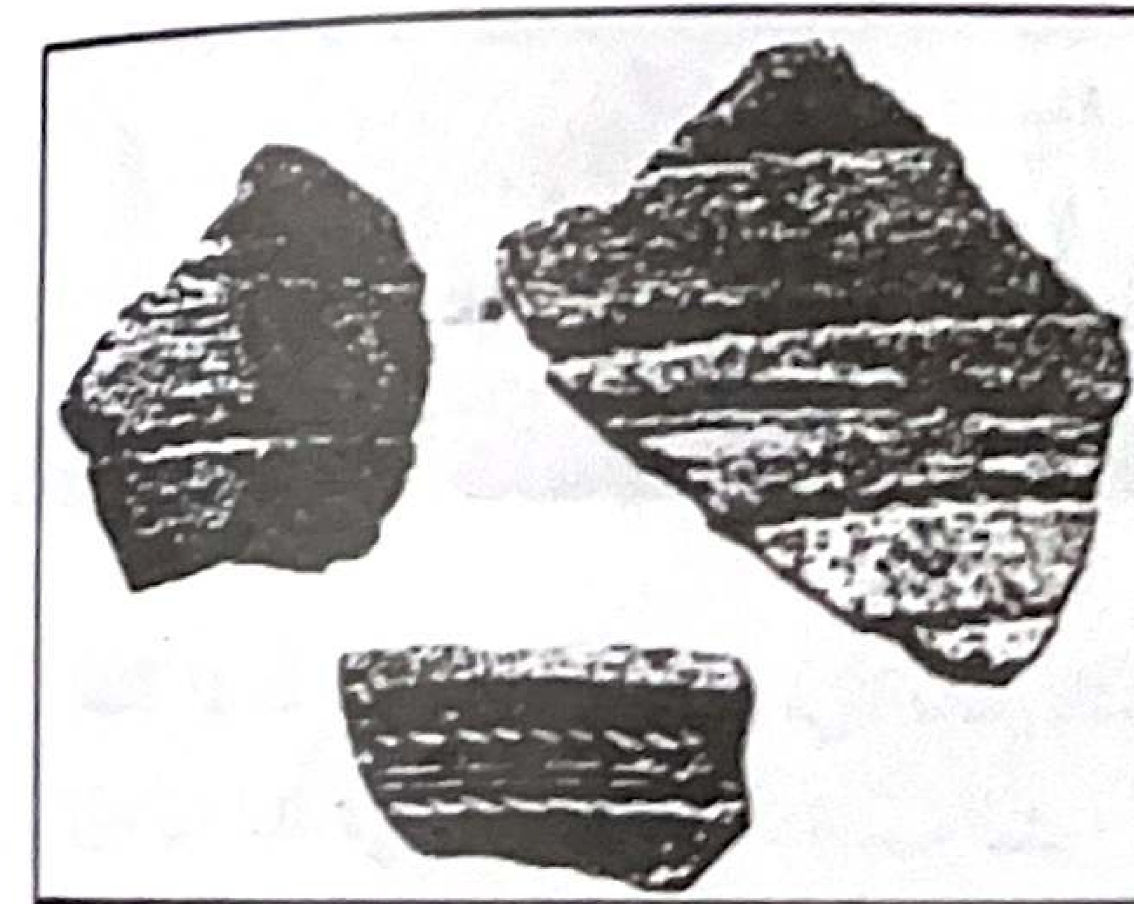
(F. Cailliaud , *Recherches sur les art et les métiers* (Paris, 1831), Pl. 16)[٩٧]



(الشكل ١٦٩)صانعو فخار قدامى

(F. Cailliaud , *ibid*)

وكما يتضح فى الصورة التى يظهر فيها شقف من الأسرة الثامنة عشرة (شكل ١٧٠) ، وكنت قد التقطته من تل العمارنة ، استخدم النظير القديم لصانع الفخار الحديث حبلاً لتقوية الأوانى الكبيرة قبل حرقها (الفصل التاسع) كان يفصل كذلك الإناء الذى انتهى من صنعه للتو عن كتلة الطين التى تحته باستعمال قطعة خيط (شكل ١٧١)[٩٧] .



(الشكل ١٧٠) شقف قديمة وحديثة تبين علامات الحبال ، السفلى قديمة والعلويتان حديثتان

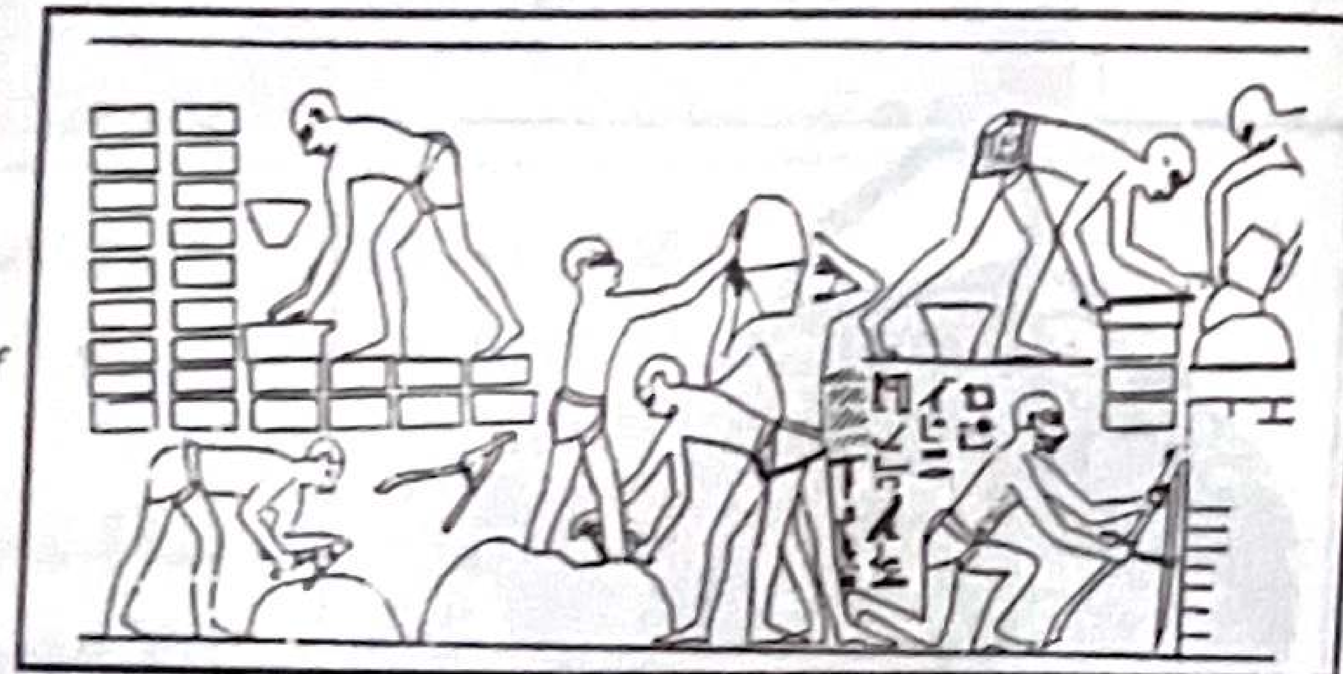
(F. Cailliaud . *ibid*)



(الشكل ١٧١) فصل الآنية التى صنعت للتو عن الصلصال التى أسفلها

(F. Ll. Griffith , *Beni Hasan*, Part IV, Pl.XX)

وتشبه القمائن القديمة مثيلاتها الحديثة تشابهًا شديداً من ناحية الشكل . وهى كما هو واضح بلا سقف . فيوضح رسم بإحدى مقابر بنى حسن (شكل ١٦٨) أن اللهب يخرج من أعلى . ويبين هذا الشكل كذلك (شكل ١٧٢) رجلين يعدان الطين عن طريق عجنه بأقدامهما (راجع الفصل التاسع).

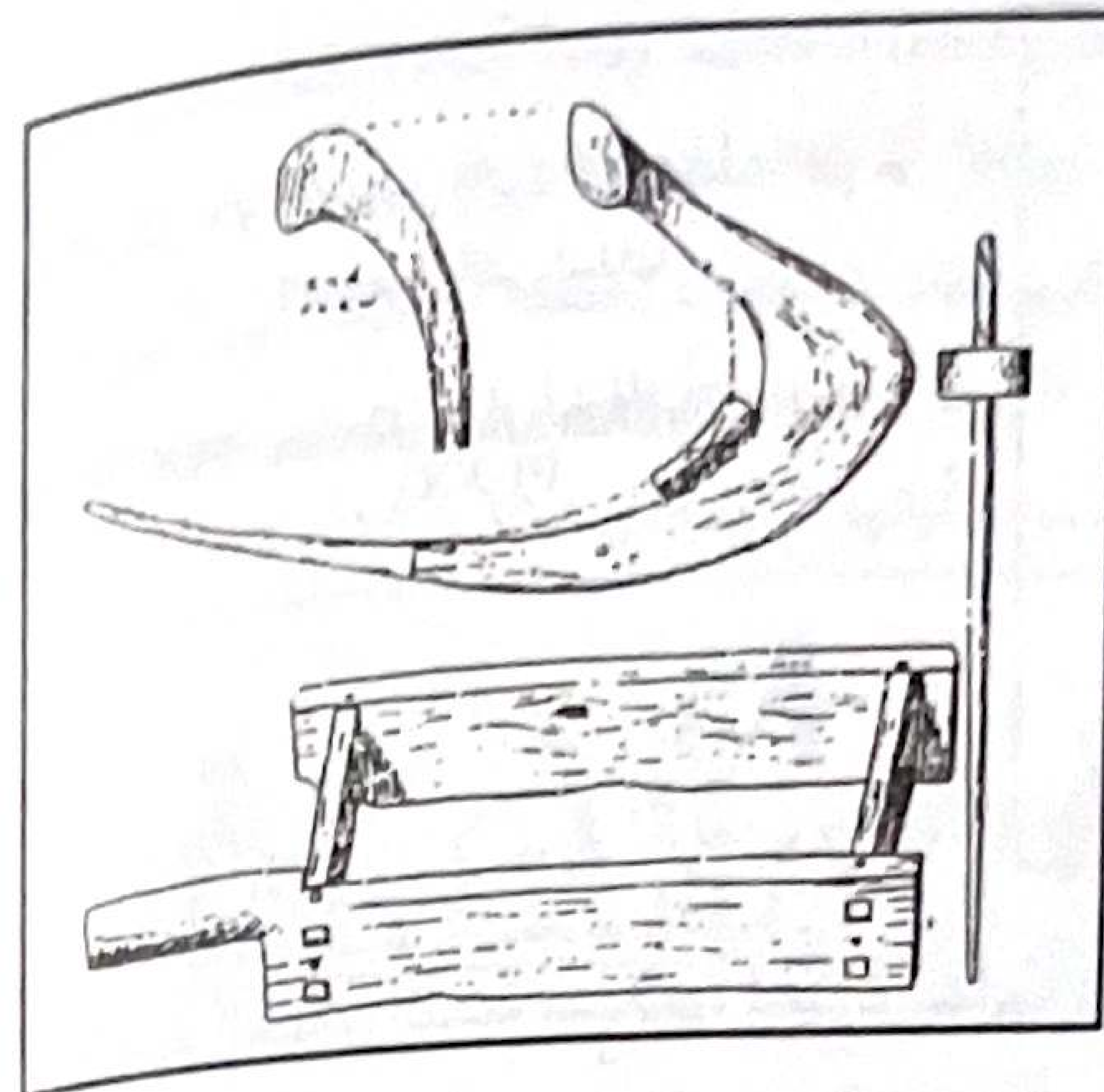


(الشكل ١٧٢)
صانعو طوب قدامى

(P.E. Newberry , *The Life of Rekhmara* (London, 1900), Pl. XXI)

وقد سبقت الإشارة إلى تشابه الصوامع الطينية القديمة والحديثة . وطبيعى أن صوامع مرتفعة تقف على الأرض ، كتلك التى شاهدتها فى الكاب (راجع الفصل التاسع) ، كانت شائعة الاستعمال فى مصر القديمة[٩٨] .

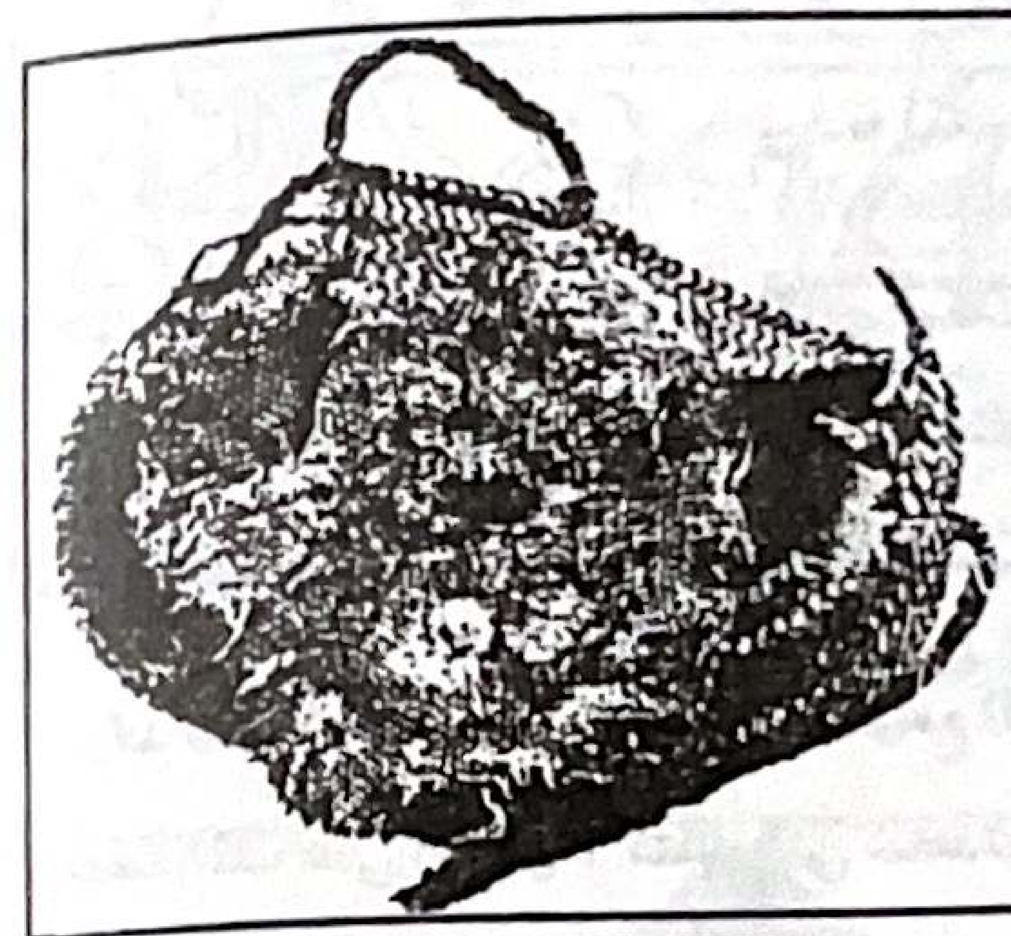
وهناك تطابق بين الوسائل القديمة والحديثة لصنع الطوب (الفصل التاسع) كما يدل على ذلك الشكل . والقالب الخشبى المستخدم فى صنع الطوب الذى يعود إلى الأسرة الثانية عشرة وعثر عليه البروفيسور بترى فى اللاهون (شكل ١٧٣) يتطابق مع القالب المستخدم الآن (انظر الشكل ٨١)[٩٩] .



(الشكل ١٧٣)
منجل ومغزل وقالب لصنع الطوب
من الأسرة الثانية عشرة

(W. M. F. Petrie , *Kahun, Gurab, and Hawara*, P1. IX)

وكان روث الماشية ، الذى يشيع استعماله فى مصر حاليًا كوقود ، يستخدم للغرض نفسه قديمًا ، وبالتحديد فى الأسرة الثامنة عشرة (١٠٠). ويحتمل أن هيرودوت يشير إلى الطريقة التى يتم بها تشكيل روث البقر على هيئة أقراص ليصبح وقوداً عندما قال (١٠١): «يلتقطون الروث بأيديهم» .



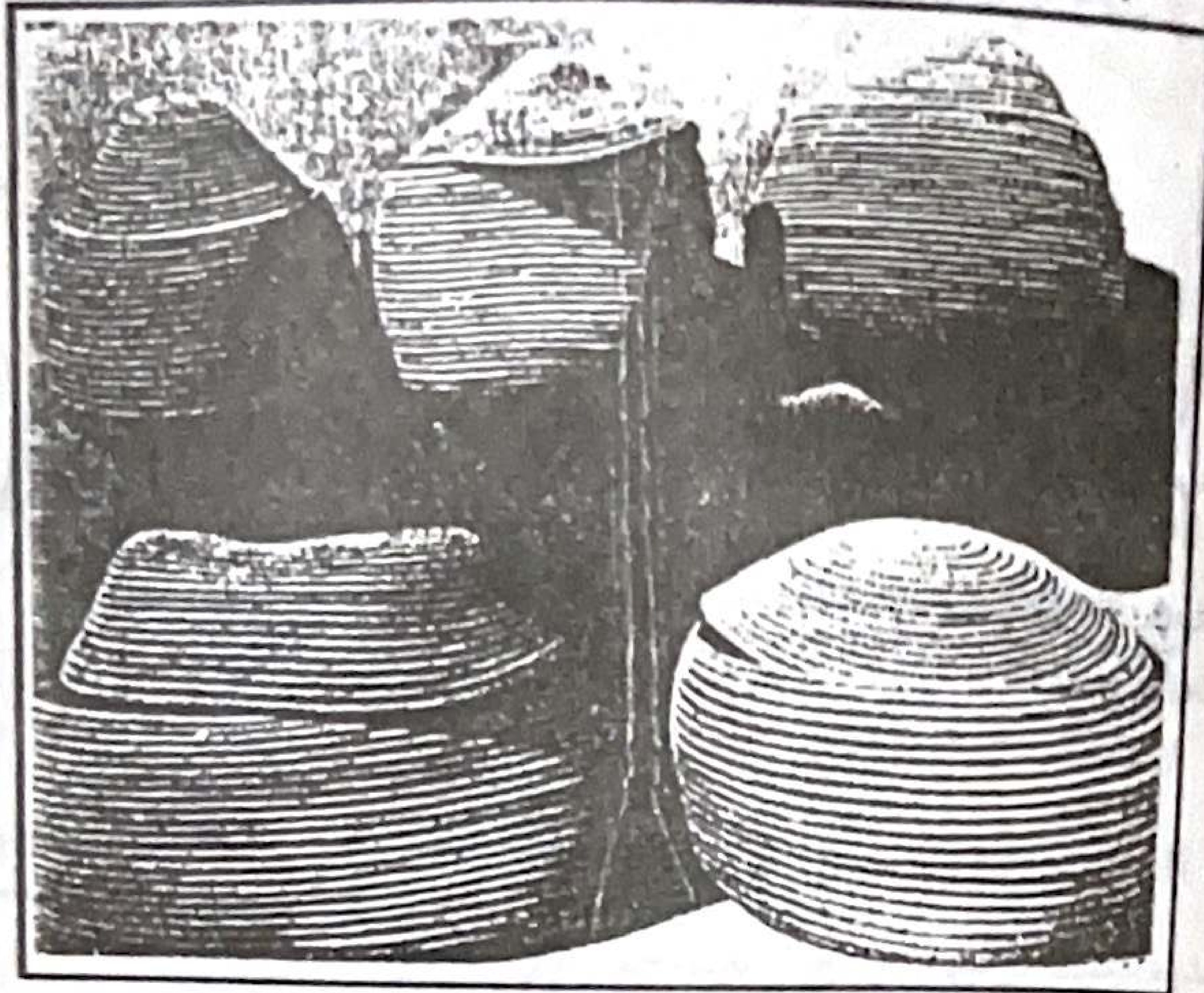
(الشكل ١٧٤)

مقطف قديم

(T. E. Peet and C. L. Woolly , *The City of Akhenaten*, Part I, P1.XXI)

وكانت هناك سلال بنفس شكل المقطف وطريقة صنعه تصنع قديمًا ؛ كما يتضح من الصورة الفوتوغرافية لإحدى السلال التى عثر عليها فى العمارنة (شكل ١٧٤) وتعود إلى الأسرة الثامنة عشرة . وهذه السلال نجدها دائمًا فى النحت البارز والرسومات التى تعود إلى الأسرة الثالثة وما بعدها . وغالبًا ما تكون محمولة على رؤوس النساء ، كما هو الحال الآن (١٠٢). وتظهر فى الشكل (١٧٥) سلال تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة ، وهى تتشابه تشابهًا كبيراً

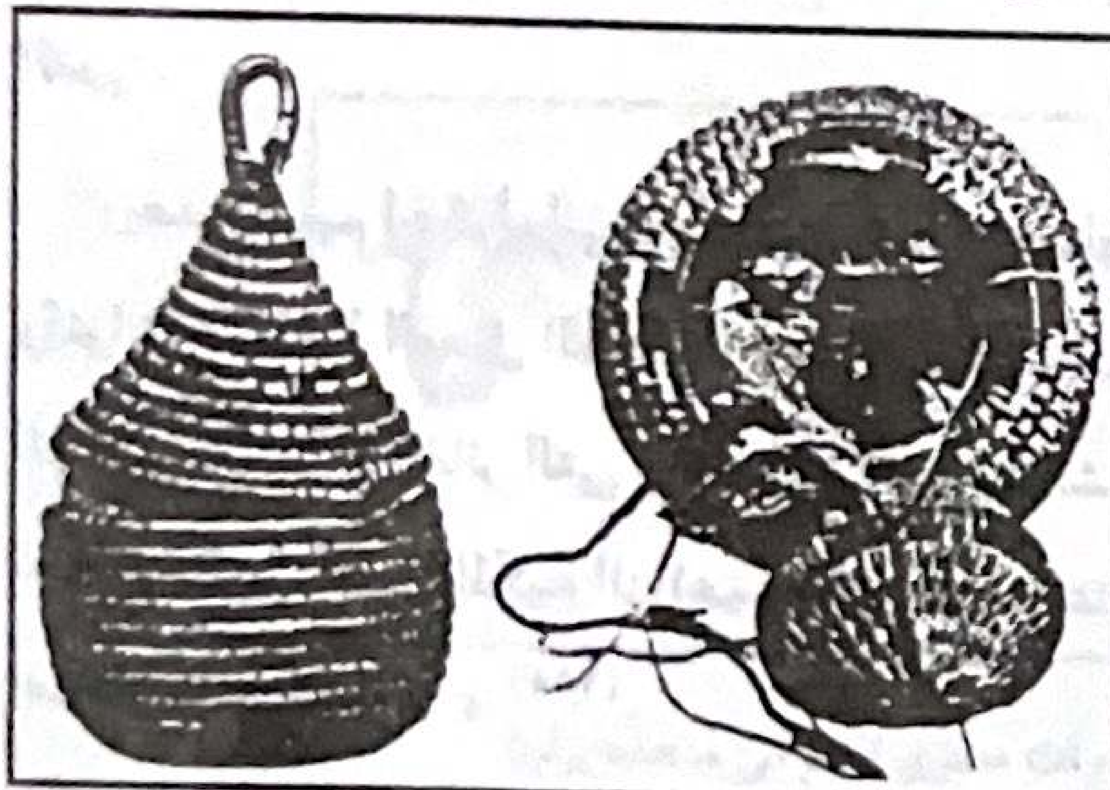
من حيث شكلها وطريقة صنعها مع السلال التى تصنع الآن (الفصل التاسع) . فهى مصنوعة من سعف النخيل مع أساس من الجريد المشقوق إلى قطع رفيعة وتأخذ شكلاً حلزونياً فى بنائها باستخدام طريقة الخياطة (١٠٣). وقد عُثر فى العمارنة على صينية من السعف(١٠٤). وعندما وضعت سلتان إحداهما قديمة والأخرى حديثة معًا (شكل ١٧٦) بدتا متطابقتين تمامًا.



(الشكل ١٧٥) سلال من الأسرة الثامنة عشرة

(W. M. F. Petrie , *Sedment*, Part II, LV)

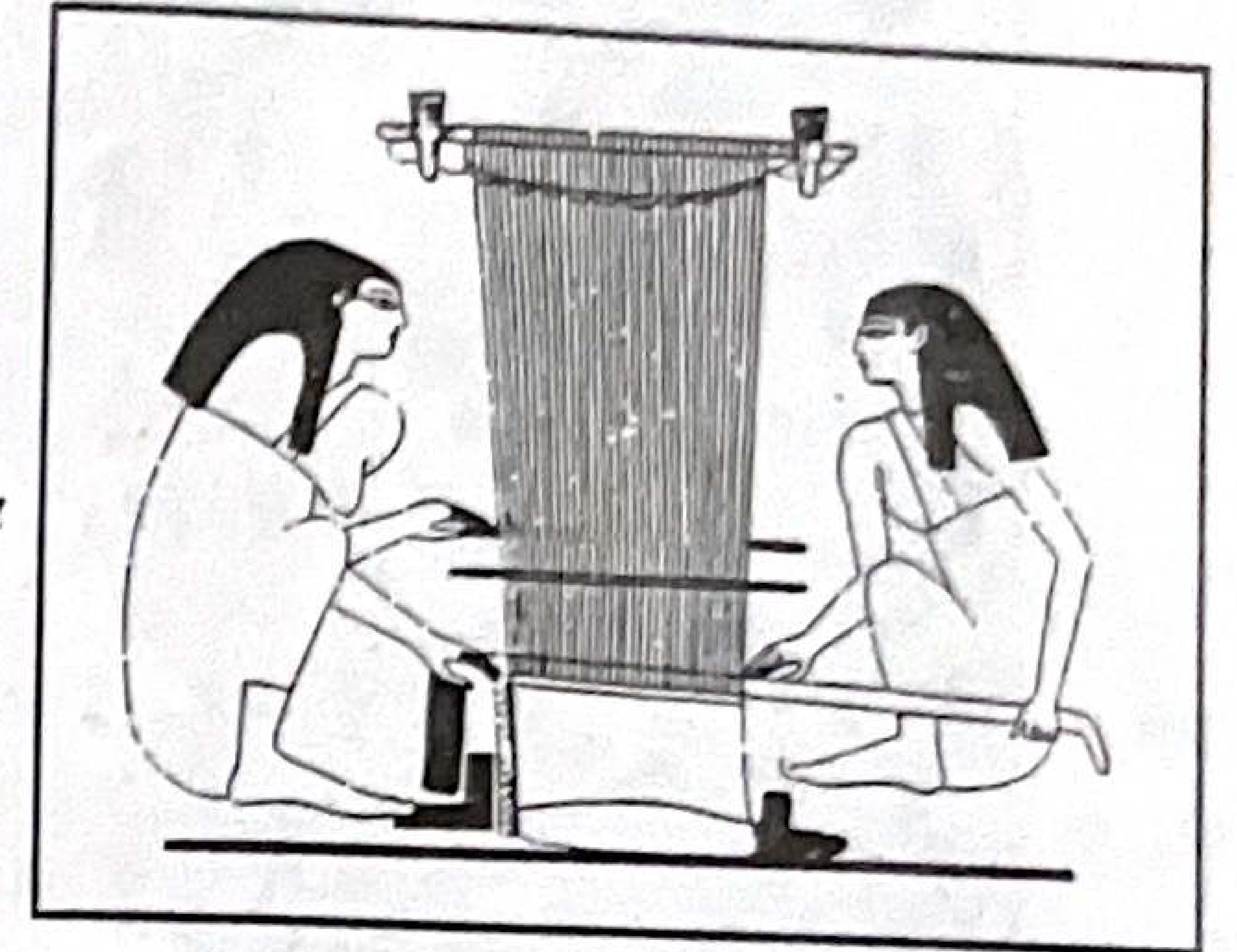
واستخدم القفص (الفصل التاسع) قديمًا مثلما استخدم حديثًا . وكثيراً ما يظهر فى الرسومات والنحت البارز (١٠٥). وربما يكون أحد الأَسِرَّة المصنوعة كالأقفاص ، وشبه السرير الذى وصفته فى الفصل التاسع ، مرسومًا فى مقبرة حسى التى تعود للأسرة الثالثة (١٠٦).



(الشكل ١٧٦)
سلة قديمة (على اليسار)
وأخرى حديثة (على اليمين) .
القديمة من
(H.E. Winlock, *Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, New York*, Part II (December, 1922), p.35, Fig.24)

وعُثر على حبل مصنوع من ليف النخيل كالذى يستخدم حالياً (انظر الفصل التاسع) فى مقابر من كل العصور (١٠٧).

كما نجد الأنوال التى تشبه تلك التى تستخدمها المرأة العربية الحديثة مرسومة على لوحات الأسرة الثانية عشرة فى بنى حسن وغيرها(١٠٨) (الشكل ١٧٧) . ولا نكاد نميز بين المغازل القديمة والحديثة (شكل ١٧٣) (١٠٩).



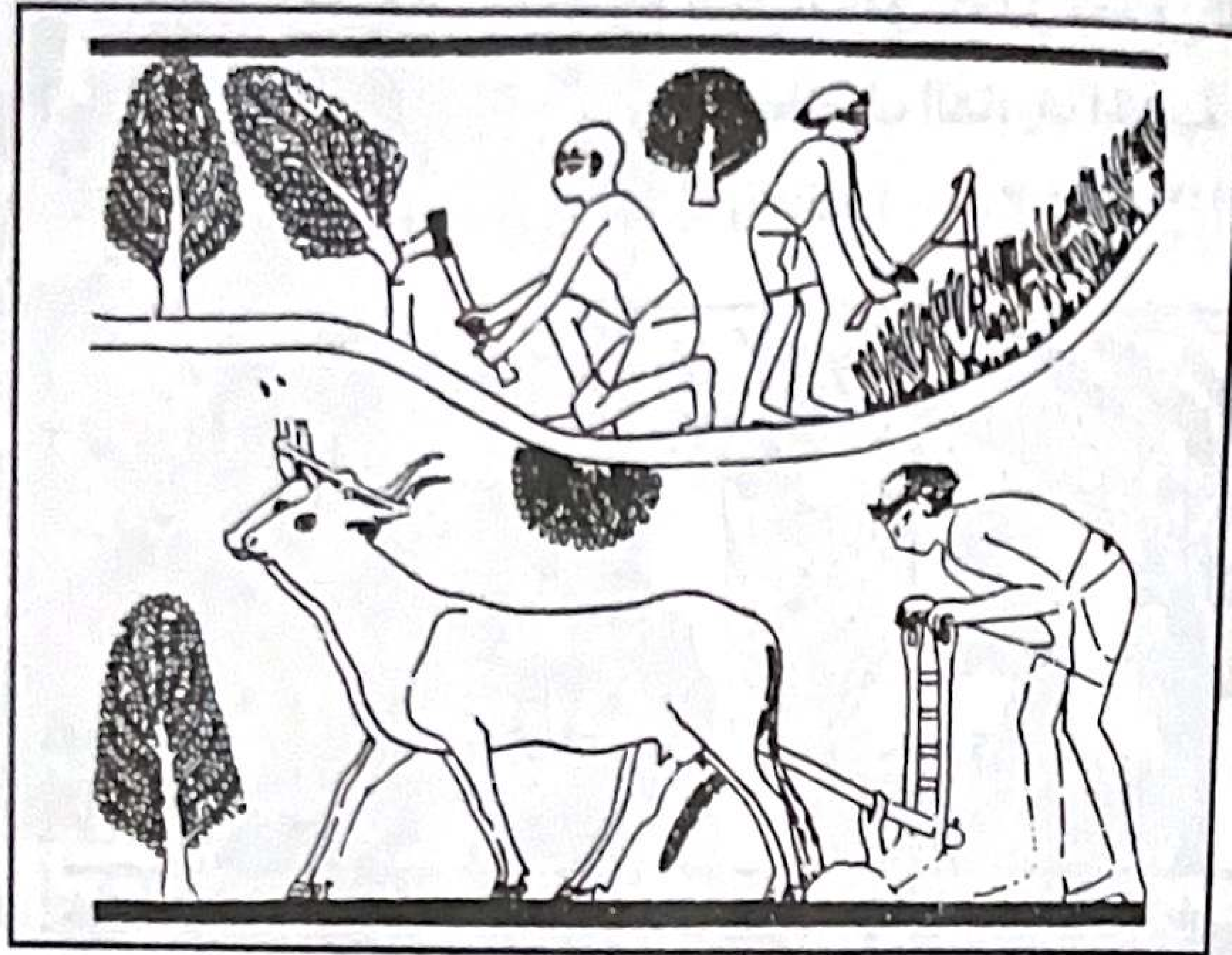
(الشكل ١٧٧)
امرأتان تنسجان على نول أفقى

(F. Cailliaud, *Recherches sur les art el les métiers* P1. 17A)

وتحدثت فى الفصل التاسع عن ترك أرغفة الخبز فى الشمس كى تختمر قبل خبزها . ويبدو أن هذا كان يحدث كذلك فى مصر القديمة (١١٠).

ومن المؤكد أن السوق التى تقام فى العراء (الفصل التاسع) كانت من الملامح المميزة للحياة المصرية القديمة ، بنفس القدر الذى تميز به الحياة فى مصر الحديثة (١١١). ولفت نظر هيرودوت(١١٢) الدور الذى كانت تقوم به البائعات فى الأسواق . ويبدو أنه بالغ فى وصف هذا الدور .

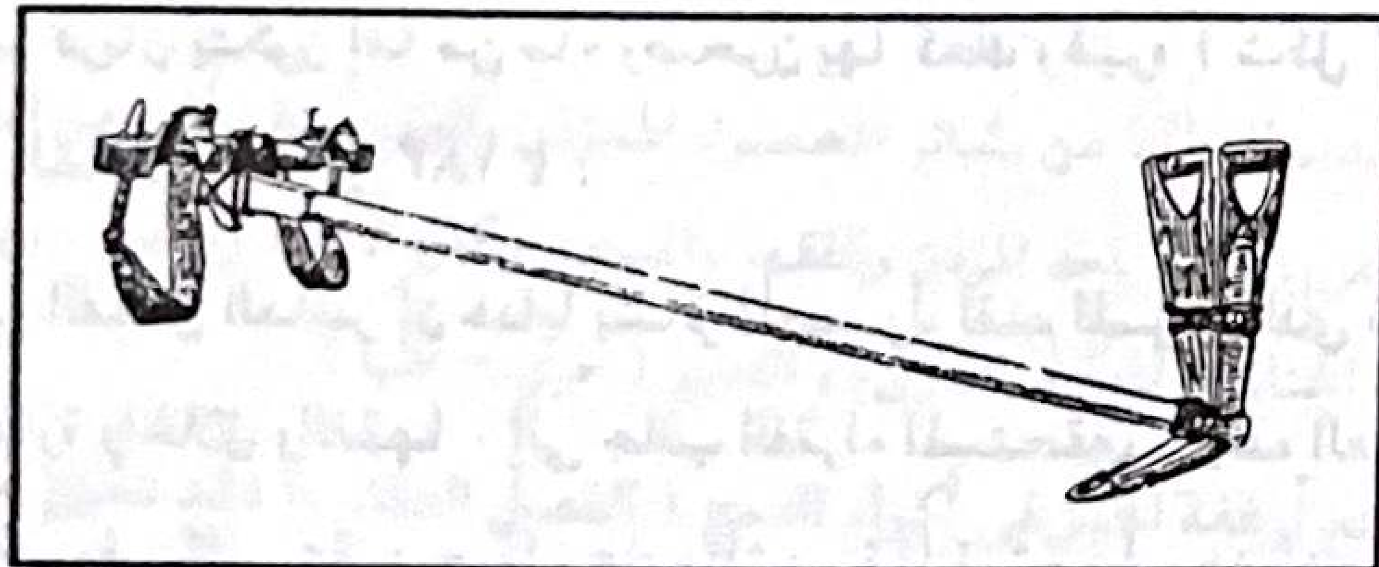
ويعد تقسيم الحقول إلى مربعات صغيرة تفصلها عن بعضها خطوط مرتفعة من التراب وقنوات ضيقة (الفصل العاشر) أحد الممارسات القديمة ؛ كما تدل على ذلك الرسوم والنحت البارز (١١٣) والحفائر التى قامت بها الجمعية الشرقية الألمانية فى العمارنة(١١٤). ونقل الحجارة التى تحدد الملكية الزراعية الذى تحدثت عنه (فى الفصل العاشر) تدينه « تعاليم أمنحتب ابن كانخت » (١١٥).



(الشكل ١٧٨) محراث قديم

(Norman de Garis Davies, *The Tomb of Nakht at Thebes*, P1. XVIII)

ويكاد المحراث الحديث يتطابق مع مثيله القديم (انظر الشكل ٩٧) . وإذا أردت رؤية محراث قديم أعيد تركيبه من أجزاء بقيت حتى الآن ، (انظر الشكل ١٧٨)(١١٦) . ويعتقد الدكتور بوركهارت أن المحراث القديم ، مثله مثل الحديث ، كان مزوداً بسلاح معدنى . وبناء عليه فإن السلاح الخشبى فى الشكل (١٧٩) يظهر وقد كسى بالمعدن . وأبلغ الدكتور ب . ب . جرينفل أخى أن نصل « الطورية » (الفأس الصغيرة) اتخذت شكلها الحالى وصنعت من الحديد فى العصر الرومانى . فقد وجد تلك النصال فى الركام الذى يعود إلى العصر الرومانى .



(الشكل ١٧٦) محراث مصرى قديم فى متحف برلين

(L. Borchardt, Priestergräber... *vom Totentempel des Ne-user-rê*, P. 116)

والشادوف الحديث (راجع الفصل العاشر) له مثيله الذى يتطابق معه فى الرسومات التى تعود إلى الدولة الحديثة (شكل ١٨٠) . ووجدت خطاطيف الشادوف الخشبية التى تُعلق بها الدلاء الجلدية فى مقابر تعود إلى الأسرتين الثانية والثالثة (٣٠٠٠ ق.م) (١١٧) .

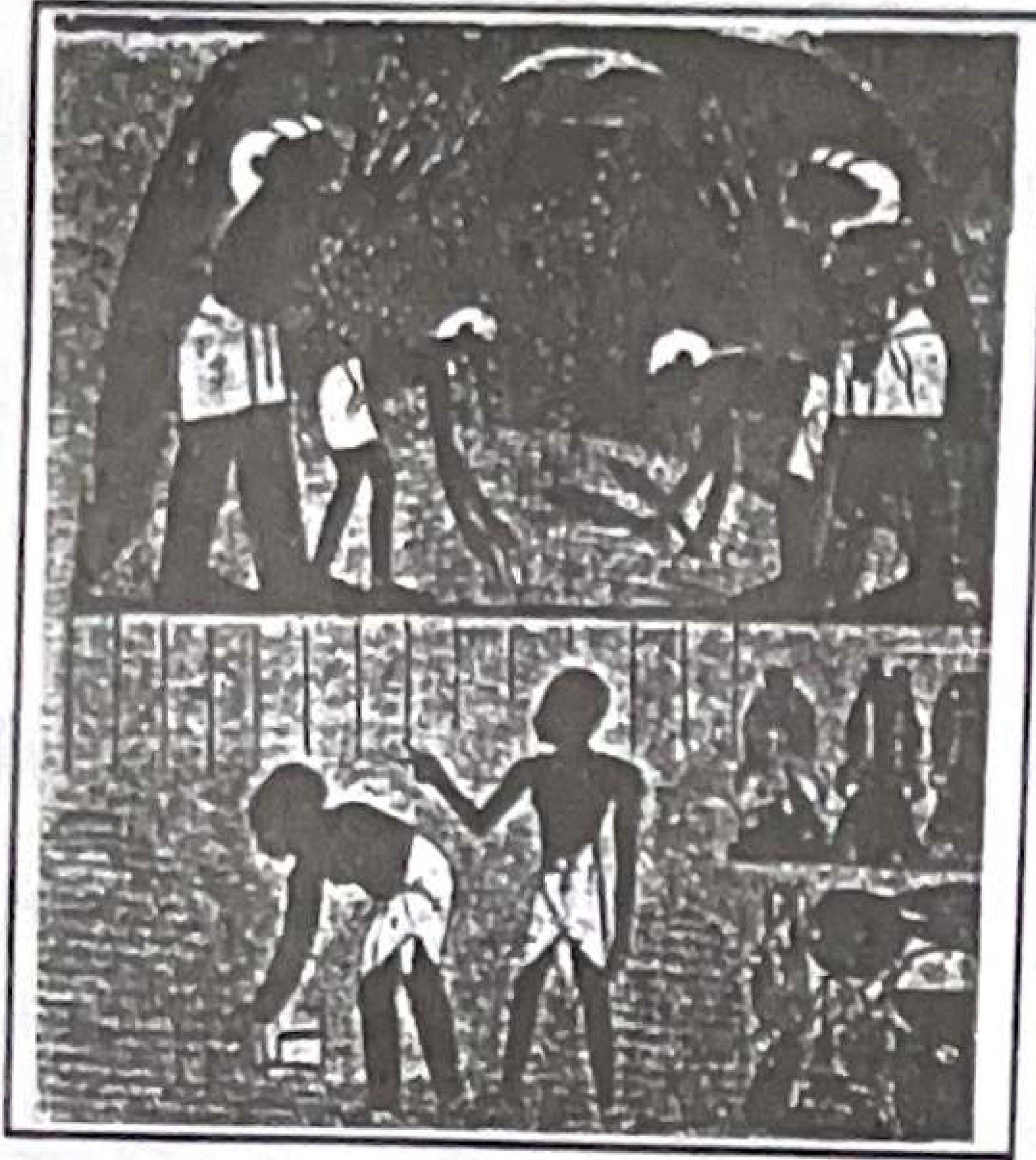


(الشكل ١٨٠) شادوف قديم

(A. Erman and H. Ranke, *op. cit.*, Pl.35, Fig. I)

وما تسمى حاليًا بـ « عروسة القمح » مرسومة على جدران العديد من مقابر طيبة التى تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة (١١٨). وربما تعود العروسة إلى الدولة القديمة ، حيث كان لها شكل مختلف (١١٩). وقلت فى الفصل العاشر إنه « فى بعض مناطق مصر توضع عروسة القمح بشكل مؤقت على أكوام الحبوب ، بعد الانتهاء من تذرية الغلة كتعويذة لضمان محصول جيد فى السنة التالية » . وطبقًا للعديد من الرسوم القديمة للتذرية ، كان هذا الشىء يوضع على أرض التذرية فى الوقت الذى يقوم فيه العمال بعملهم (شكل ١٨١) وكان يوضع قبلها قربان يتكون إما من ماء وصحون بها كعك وغيره (شكل ١٨٢) أو سلطانية ماء فقط (الشكلان ١٨١ و ١٨٣) .

وقلت فى الفصل العاشر إن هدايا بشائر المحصول تقدم للمؤذن الذى فى مسجد القرية وعازف الزمارة والحلاق والفقها ، إلى جانب الفقراء المستحقين . وهذه العادة لها مثيل فى مصر القديمة . وفى ثانى عقود جيفا يحاب الشهيرة المنقوشة على جدران مقبرته فى أسيوط نجد هذا النص :



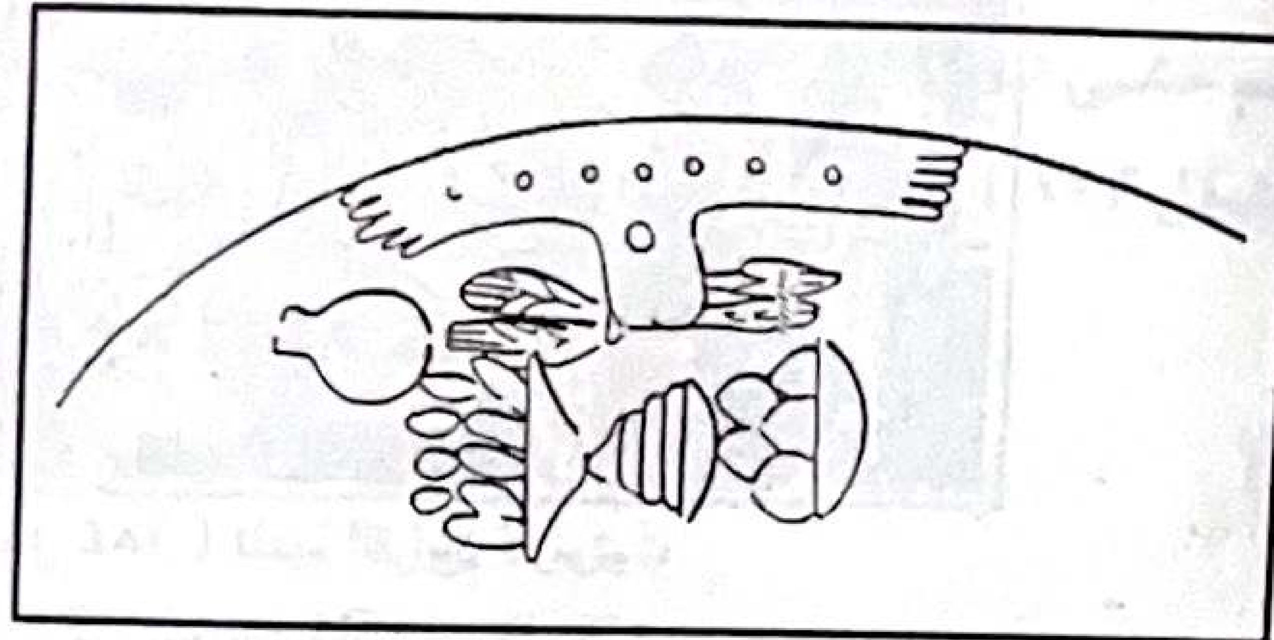
(الشكل ١٨١)

أعلى : " عروسة القمح " على حافة أرض التذرية

أسفل : أغذية بجوار أرض الدراس

(W. Wreszinki, *op. cit.*, Pl. 177)

« ذلك الذى أعطاه (جيفا يحاب) لهم (كهنة معبد بواووت بأسيوط) فى المقابل (أى مقابل الخبز المقدم لتمثاله) كان ما مقداره حقات واحد من الشعير الشمالى عن كل حقل من الوقف (بر – ضت) من بشائر محصول ضيعة حاكم الإقليم . تمامًا مثل (أو بنفس المقدار) الذى يعطيه كل مواطن فى أسيوط من بشائر المحصول ؛ ذلك أنه كان أول من يجعل كل فلاح من فلاحيه يعطيه لهذا المعبد من بشائر حقله » (١٢٠).



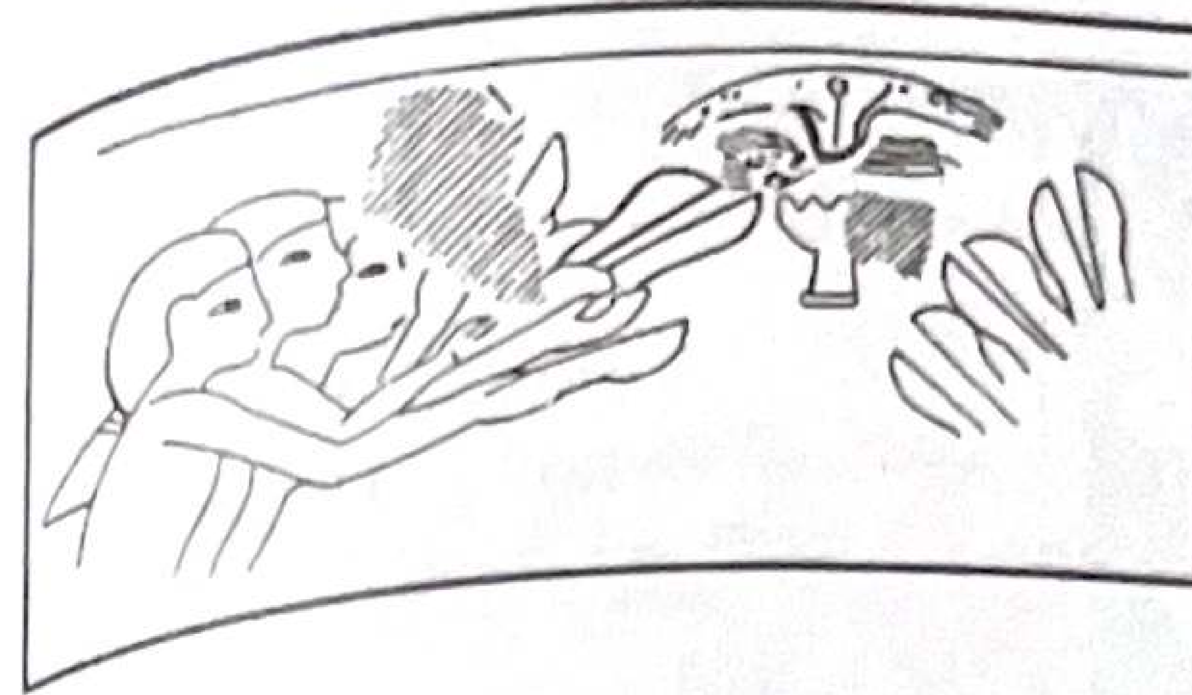
(الشكل ١٨٢)

" عروسة قمح " قديمة

(Norman de Garis Davies, *The Tomb of Nakht at Thebes*, P. 63)

وربما يكون تقديم العطايا من بشائر المحصول للمؤذن والفقها مما تبقى من العادة المشار إليها فى هذا النص ؛ حيث يأخذ المؤذن والفقها والمسجد مكان الكهنة والمعبد . ويقابل الفقيه من ناحية وظائفه الجنائزية تمامًا « القارىء» القديم (خرى – حب) .

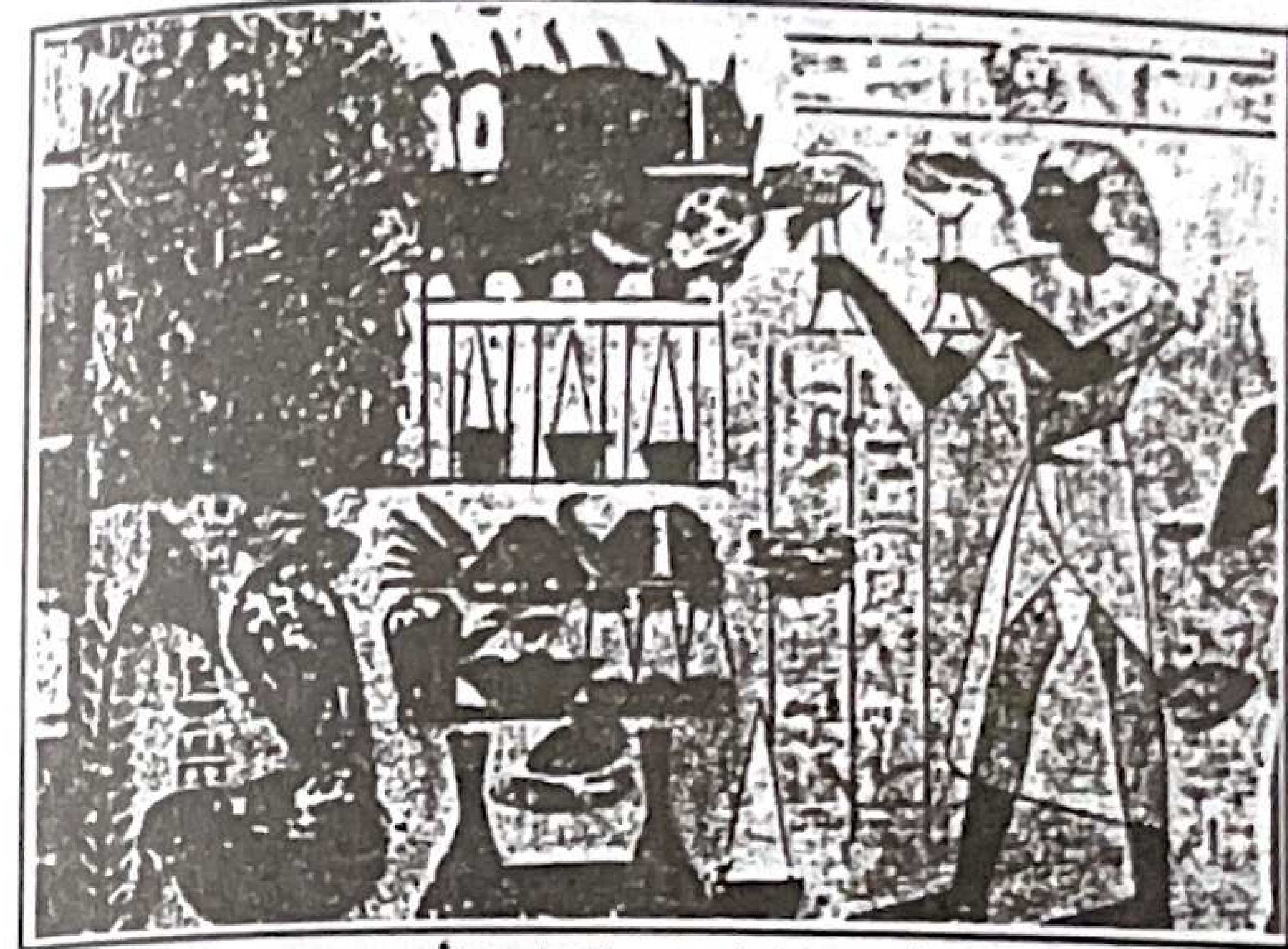
أما عادة وضع أرغفة الخبز فى أكوام القمح (الفصل العاشر) فقد تكون امتداداً لتلك القرابين التى كانت تقدم فى الأصل لعروسة القمح التى جاء ذكرها . وربما تكون هذه العادة ، وكذلك عادة إحضار الطعام إلى أرض الدراس ثم وضع ما تبقى بعد توزيعه على الأصدقاء فى



(الشكل ١٨٣)
" عروسة قمح " قديمة

(Norman de Garis Davies, *ibid*)

أكوام الذرة لإرضاء العفاريت (الفصل العاشر) ، وهو ما تبقى من تقديم القرابين لإلهة الحصاد إرنوتيت . وهذه القرابين المقدمة لرنوتت نجدها مصورة على جدران مقابر الدولة الحديثة. وهكذا يظهر جسر كارع سنب وهو يقدم قرابين من الطعام لتلك الإلهة « فى اليوم الذى يكال فيه الشعير فى السابع والعشرين من برمودة » (الشكل ١٨٤) [١٢١].



(الشكل ١٨٤) تقديم القرابين لأرنوتيت

(W. Wreszinki, *op. cit.*, P1. 143)

وفى مقبرتى خع ام حات[١٢٢] ونخت (الشكل ١٨١) تظهر أنواع مختلفة من الطعام موضوعة على مقربة من أرض الدراس ، فيما يبدو أنه قربان لإلهة الحصاد . ويذكرنا هذا بالعادة التى لا تزال تتبع فيما يتعلق بدراس القمح (الفصل العاشر) .

ودفع أجر الحصادين والمعداوى عيناً (الشكل ١٨٠) (الفصل العاشر) مثله كثير فى السجلات المصرية القديمة [١٢٣]. ويلاحظ فيما يتعلق بذلك أن مدلولات الكلمة المصرية القديمة

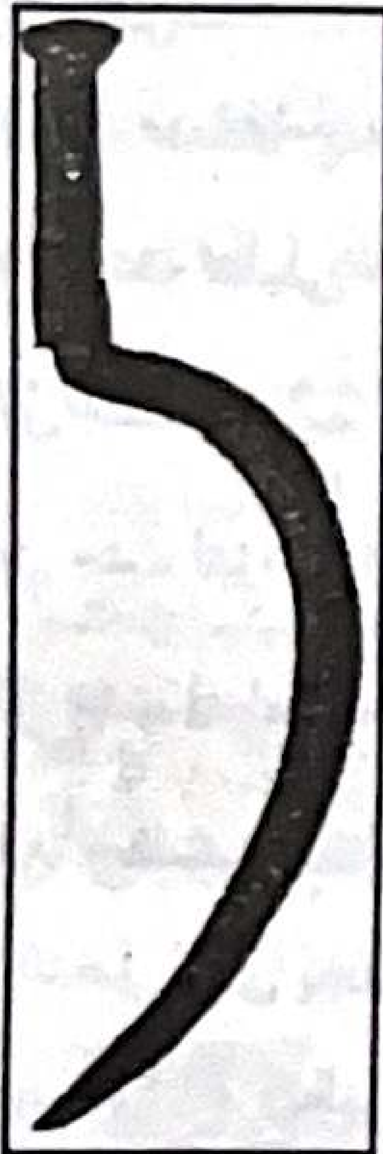
« همت » ، أى الأتعاب التى تدفع للمعداوى ، هى تلك التى تسبق بانتظام كلمات تدل على المواد الغذائية ، مثل رغيف بيضاوى من الخبز فوق ثلاثة خطوط للجمع ، أو رغيف مخروطى وجرة جعة فوق رغيف مستدير [١٢٤].



(الشكل ١٨٥) مذراة قديمة

(W. Wreszinki, *op. cit.*, P1. 234)

والشوكة الخشبية (المذراة) المستخدمة الآن على أرض الدراس وفى التذرية تشبه تماماً تلك الشوكة القديمة (شكل ١٨٥) . كما أن منجلاً من الحديد يشبه كثيراً المنجل الحديث كان يستخدم فى العصر الرومانى (شكل ١٨٦) . وفى زمن سابق لذلك كان المنجل يتكون من جسم خشبى شديد الشبه بعظمة الفك الأسفل للثور ، غرست فيه أسنان من الحجر الصوان (الشكل ١٧٣) [١٢٥].



(الشكل ١٨٦) منجل حديد من العصر الرومانى

(*A Guide to the Third and Fourth Egyptian Rooms in the British Museum* (London, 1904), P. 41)

ومن الضرورى قراءة الفصل الرابع عشر من كتاب هـ . رانكه Aegypten und aegyptische Leben in Altertum [١٢٦] الذى يتناول المعارف الطبية ، لكى نرى مدى التشابه بين الوصفات الحديثة والقديمة وطرق العلاج السحر طبية . كما نجد أن التعليقات التى تأتى فى الذيل مثل « مجرب وصحيح » (الفصل الثانى عشر) لها ما يماثلها فى الكتاب الشهير بردية إيبرس Papyrus Ebers [١٢٧] . وكما هو الحال فى العصر الحديث ، كان « الأطباء » يكتبون تعاويذ تأمر المرض بالانصراف [١٢٨] . كما كان كل من الكبار والأطفال يعالجون من المرض ، أو يحتمون منه ومن غضب الأرواح الشريرة ، بتعاويذ مكتوبة وبغيرها من التمائم التى تعلق حول الرقبة [١٢٩] . ومجموعة التعاويذ التى تستخدمها الأمهات لحماية أطفالهن وعلاجهم المشار إليها فى كتاب Zaupersprüche für Mutter und Kind (تعويذ سحرية للأم والطفل) قد تعود إلى عصر الهكسوس (١٧٨٨ - ١٥٨٠ق.م) . وهى محفوظة فى متحف برلين . والغرض من أحد التعاويذ فى هذه المجموعة القديمة [١٣٠] هو حماية الطفل من روح أنثى (وطبقًا لما يقوله البروفيسور إيرمان ، قد تكون امرأة ميتة) كانت تحاول أن تأخذه من أمه . وربما كان بمقدورنا مقارنة هذه الفكرة بمثيلتها الحديثة التى تقول إن مرض الطفل يرجع إلى أن قرينة الأم لديها رغبة فى سحبه منها (الفصل الرابع) . وهذا هو نص التعويذة :

« اخرجى ، أنت يا من تأتين فى الظلام ، يا من تدخلين خلسة (؟) بأنفك فى قفاك ووجه مقلوب ، يا من تفشلين فيما جئت من أجله. »

« هل جئت لتقبلى هذا الطفل ؟ أنا لن أدعك تقبليه . »

« هل جئت لتقتليه ؟ لن أدعك تقتليه. »

« هل جئت لتؤذيه ؟ لن أدعك تؤذيه . »

« هل جئت لتخطفيه ؟ لن أدعك تخطفيه منى . »

« لقد حصنته ضدك بأعشاب الفاى التى تجعل ..... (؟) ، وبالبصل الذى يؤذيك ، وبعسل النحل الذى يجده الإنسان حلواً والميت مراً ، وبـ .... (؟) ، وبسمك أبدو ، وبعظمة فك الـ .... (؟) ، وبظهر سمك الفرخ . »

ويمكن مقارنة ما رويته عن المتخصصات فى العيون (الفصل الثانى عشر) بما قاله هيرودوت عن موضوع الطب المصرى [١٣١] : « يعالج كل طبيب داء واحداً لا أكثر . كل الأماكن بها أعداد كبيرة من الأطباء . بعض الأطباء متخصصون فى العيون وآخرون فى الرأس .... » .

ولم تكن مهنتا الساحر والطبيب أقل تقاربًا فى الماضى عما هما عليه الآن فى مصر الحديثة، كما يتضح من خلال مقالة الدكتور أ.هـ . جاردنر بعنوان " Professional Magicians in Ancient Egypt " [١٣٢] ونلاحظ كذلك أن اللقبين «سونو» (الطبيب) و «ساو» (رجل التمائم) - أى صانع أو بائع التمائم - يحملهما نفس الشخص أكثر من مرة [١٣٣].

وتؤكد النصوص السحرية المصرية القديمة [١٣٤] على ضرورة أن يكون الساحر نظيفًا (الفصل الحادى عشر) .

والمعتقد الحديث بأن أى شخص يمكن أن يلبسه عفريت (الفصل الرابع عشر) أو شيخ (الفصل الحادى عشر) له ما يماثله قديمًا فى حكاية « ابنة أمير بختان والعفريت » [١٣٥]. والوليمة التى يقيمها من يسترضون الشيخ الذى يلبسهم (الفصل الحادى عشر) لها كذلك ما يماثلها فى القصة نفسها ؛ حيث يروى [١٣٦] أن الروح عندما توافق على الخروج من الأميرة تطالب بإعداد وليمة احتفالاً به وبأمير بختان ، وهو ما تم تنفيذه .

والطقوس السحرية التى جاءت فى الفصل الحادى عشر بدأت بكنس الأرض ونشر الماء [١٣٧] . وفى مصر القديمة كان الكاهن يكنس أرضية قدس الأقداس بقطعة من القماش، قبل البدء فى خطوات إعداد المعبد للطقوس الدينية [١٣٨] . ويظهر الملك (الكاهن الأعظم بلا منازع) فى نحت بارز فى معبد الدر [١٣٩] . وهو ممسك بإبريق وبقطعة من القماش تستعمل فى كنس الأرضية . كذلك هناك احتمال كبير بأن الكاهن كان فى الغالب ينشر الماء على الأرضية إلى جانب كنسها . ومن المؤكد أن العادة جرت على نشر الماء بينما تكنس أرضية البيت ، كما تدل على ذلك لوحة عثر عليها البروفيسور بترى بالعمارنة [١٤٠] . وبالنسبة لإشعال النار وحرق ريش الهدهد (الفصل الحادى عشر) ، لا بد من الإشارة إلى أن السحرة القدامى كانوا يحرقون كذلك مواد غريبة عديدة وهم يتلون تعاويذهم [١٤١].

وتحدثت فى الفصلين الحادى عشر والرابع عشر عن البخور الذى يحرق وعن الماء الذى ينشر فى الوقت نفسه (الفصل الرابع عشر) أثناء تلاوة الساحر للتعاويذ . وكما عرفنا من النسخ

التى وصلتنا من النصوص الجنائزية المصرية القديمة ومن النحت البارز والرسومات التى تصور أداءها ، فإن البخور كان يحرق وكان الماء ينشر على فترات محددة أثناء تلاوة القارىء للنصوص المرتبطة بالخطوات المختلفة التى تتكون منها الطقوس [١٤٢].

وفى الصفحة ١٧٨ ومابعدها أصف كيف جاء أحد السحرة بامرأة من قرية بعيدة إلى الغرفة التى تلى فيها التعويذة التى تستدعيها . ونقرأ بالمثل فى « حكاية خعمواس الثانية » أن ساحراً حبشياً أحضر الفرعون المصرى من مصر إلى الحبشة وأعاده مرة أخرى إلى مصر ، خلال ست ساعات ، وأن ساحراً مصرياً انتقم بإحضار نائب ملك الحبشة إلى مصر وأعاده إلى الحبشة خلال الفترة ذاتها[١٤٣] .

وكانت الأشكال الشمعية ، كالتى ذكرت فى الفصل الحادى عشر ، تستخدم كذلك لأغراض شريرة فى مصر القديمة [١٤٤].

ومن الواضح أن الاعتقاد فى العين الشريرة كان موجوداً فى مصر القديمة ، إلا أن الإشارة إليها فى الأعمال المكتوبة نادرة جداً ، كما يقول الدكتور أ.هـ. جاردنر [١٤٥]. إلا أن مكتبة معبد حورس بإدفو كان بها كتاب يحتوى على « تعاويذ لطرد العين الشريرة » . وفى ترنيمة مشهورة إلى تحوت ترجع إلى الدولة الحديثة ترد هذه الكلمات : « أيا تحوت ، لو كنت لى بطلاً لما خفت العين » [١٤٦].

أما العبارة الى جاءت فى الفصل الثالث عشر وتقول إن قرون الغنم وغيرها من الحيوانات تُعلق فوق الأبواب كتعويذة لطرد العين الشريرة ، فيمكن مقارنتها بالعبارة التى جاءت فى « متون الأهرام » وتصف كيف أن الباب المؤدى إلى حرم الهرم الملكى كان مزيناً ، وكانت عليه عينان شريرتان لكى لا يجيىء أوزيريس مجيئه الشرير » [١٤٧].

وفى الفصل السابع عشر تحدثت عن ذبح أضحية عند عتبة البيت الجديد وعند تركيب ماكينة جديدة أو ساقية جديدة . ويمكن مقارنة ذلك بذبح الأضاحى - عجل أو أوزة - ضمن مراسم وضع أساسات أحد المعابد المصرية القديمة [١٤٨].

والإحجام عن إنقاذ شخص يغرق كما جاء فى الفصل الرابع عشر قد يكون مما تبقى من معتقد قديم بأن إغراق إنسان فيه « رضا رع » ؛ وبذلك يسمو الإنسان عن طبيعته البشرية . وهو المعتقد الذى أشار إليه هيرودوت بطريقة غامضة [١٤٩]. وكتب البروفيسور جريفيث مقالة

حول هذا الموضوع منذ عدة سنوات فى Zeitschrift Für aegyptische Sprache[١٥٠] . كما عالجها أخى الدكتور أ.م.بلاكمان بشىء من الاستفاضة فى كتابه Temple of Dendûr[١٥١]. وربما يكون من الضرورى أن أشير فى هذا السياق إلى أنه طبقاً لأكثر من رواية ، لقى أوزيريس نفسه حتفه غرقاً[١٥٢] . ويمكن مقارنة روح الماء التى سحبت الأمير الذى قدّر عليه الموت[١٥٣] بالعفريت الذى يفترض الفلاحون المحدثون أنه يسحب أى إنسان يغرق .

ولا بد أن أشير إلى أنه من الواضح أن البصل كانت له فضائله قديماً ، كما هو الحال فى العصور الحديثة (الفصل السادس عشر) . فالأشخاص الذين كانوا يشاركون فى الموكب الذى يدور حول أسوار منف ، فى الاحتفال السنوى لسوكر إله المدينة الجنائزى ، كانوا يعلقون البصل حول أعناقهم [١٥٤]. كما كان الناس يربطون البصل حول أعناقهم فى الليلة التى تسبق هذا الاحتفال [١٥٥].

ومن المؤكد أن حب الاستماع إلى القصص لم يكن أقل قوة لدى المصريين القدماء عما هو لدى أحفادهم . كما يتضح من عدد الحكايات الشعبية التى وصلتنا من كل العصور . ووجود هذه الحكايات يشير كذلك إلى أنه كان هناك رواة حكايات محترفون فى العصور القديمة ، كما هو الحال الآن (الفصل السابع عشر) [١٥٦]. ولا بد من ملاحظة أن قصة « شاه إيران وابنته » (الفصل السابع عشر) تحمل بعض التشابه مع حكاية رواها هيرودوت[١٥٧] عن منكاورع وابنته والتمثال الذهبى للبقرة . وإذا كان هناك أى ارتباط بين القصتين ، فإن تلك التى رويت لهيرودوت قد تكون حكاية شعبية محلية أصيلة ، وليست مجرد تفسير ترجمان للآثار ، كما يقول البروفيسور شبيجلبرج [١٥٨]. إلا إذا كانت الحكاية الحديثة تعديلاً لحكاية هيرودوت ووصلت إلى الجماهير عن طريق المصريين الهيلينين فى العصور اليونانية الرومانية .

الهوامش

(١) انظر : A.M. Blackman, Luxor and its Temples (London, 1923) p. 4; T.E. Peet and C.L. Woolley, The City Akhenaten, Part I (London, 1923), p. 54 and not I.

(٢) A. Wiedermann, Des Alte Agypten (Heidelberg, 1920), p. 168; a. Erman and H. Ranke, Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum (Tübingen, 1923), pp. 190 ff; W. Wreszinsk, Arlas zur altaegyptischen Kulturgeschichet (Leipzig, 1923), p. 60a.

(٣) Nina de Caris Davies, The Tombs of Two Officials of Tuthmosis the Fourth (London, 1923), p I. XXXIV, p. 30 .

(٤) A.Erman and H. Ranke, op. cit., pp. 205 f.; A Wiedemann, op. cit., p. 168; N. de Garis Davies, Op. Cit., p. 30 .

(٥) H.Schaefer and W. Andrae, Die Kunst des alten Orients (Berlin, 1925), p. 267; W. Wresinski, Op. Cit., pls. 48b, 2.

أما الدراسات الحديثة فتضع الإهناسي فيما بين ٢٠١٦ - ٢٠٤٠ ق.م. انظر مثلاً :

W.C. Hayes in Cambridge Ancient History, 3red., Cambridge 1970, pp. 173ff.

(٦) T.E. Peet & C.L. Woolley, Op.Cit., pp. 55ff.; W. Wreszinski, Op. Cit., pls. 48b,4.

(٧) انظر : J.Capart, L'art égyptien, Vol.i, " L'architecture" (Brussels, 1922), Pl. 110; A.Erman and H.Ranke, Op.Cit., p. 207; H.E. Winlock, " The Egyptian Expedition, 1918-1920", Part II of The Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, New York December; 1920, pp. 24f .

(٨) انظر : A.M. Blackman, Op.Cit., p. 4.

(٩) E.G.W. Wreszinski, Op.Cit., pls. 36, 39a, 228, 241, 242, 317.

(١٠) انظر : A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, Translated by A.M. Blackman (London 1927), espwcially pp. 36ff., 133, 242ff., 251ff.; W.Spiegelberg, The Credibility Herodoutus' Account of Egypt, Translated by A.M. Blackman (Oxford, 1927), p. 29 .

(١١) انظر : A.H. Gardiner, Journal of Egyptian Archaeology, Vol. ix, pp. 9, 12 and note 4, 15 and note 9; A. Erman, Op. Cit., pp. 119, 122, 125 .

(١٢) لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع انظر : A.H. Gardiner, " Life and Death (Egyptian)", فـي Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. VIII, pp. 19ff.

(١٣) A. Arman , Op,Cit., p. 119

(١٤) المرجع السابق pp. 38, 161 and note 3 .

(١٥) المرجع السابق p. 38 . انظر ، هامش (٥) .

(١٦) المرجع السابق p. 239 . وانظر كذلك : A.M.Blackman, Luxor and its Temples, pp. 25f

(١٧) J. Capart, Primitive Art in Egypt (London 1905), pp. 23, 30

(١٨) H.E. Winlock, " The Egyptian Expedition, 1922-1923", Part II Of The Bulletin of the Metropolitan Museueum of Art , New York, DEcember, 1923, pp. 22, 26, 28 .

(١٩) A. Erman, Op. Cit., pp. 153, 248; G. Elliot Smith and Warren R. Dawson, Egyptian Mummies (London 1924), p. 117, Fig. 33 .

(٢٠) A.Erman and H. ranke, Op.Cit., p. 243.

(٢١) W.M.F. Petrie, Abydos, Part I (London 1902) Pls. IV, Fig. 7.

(٢٢) A..Erman and H.Ranke, Op.Cit., p. 258.

(٢٣) E.g.A.Erman, Op.Cit., pp. 28.33,61, 133, 209, 244,247, 249,252.

(٢٤) انظر : L.Klebs, Die Reliefs und Malereien des mittleren Reiches (Heidelberg,1922) p.41 وكذلك A.Erman, Op.Cit., p. 28

(٢٥) A.Erman and H.Ranke, Op. Cit., pls. 20, Fig. I; W. Wreszinski, Op.Cit.,pls. 44.

(٢٦) A.Erman, Op.Cit., p. 69.

(٢٧) ii, 37

(٢٨) انظر : A.M.Blackman, " Purification (Egypitan)", in Hasting, Op. Cit., vol. x, pp. 477,481; Journal of Egyptian archaeology, Vol.x,p. 200

(٢٩) ii, 36.

(٣٠) J.H. Breastaed, Ancient Records, vol. iii (Chicago, 1906).§ 47.

(٣١) M.G.Lefebvre, Tombeau de petosiris, Vol. iii (Cairo, 1924), pls. XLL-XV.

(٣٢) انظر : M.W.F. Petrie, Deshasheh (London, 1898), pp. 31f

(٣٣) M.G.Lefebvre, Op.Cit., pls. XIX,XX,XLXVI.

(٣٤) A.H. Gardiner, Zeitschrift Für agyptishc Sprache, Vol. XIVII, pp. 162f.

(٣٥) A.M. Blackman, " Purification (Egyptian)" in Hastings, Op. Cit., Vol. X, pp. 477, 480f. Luxor and its Temples, p. 7, Journal of Egyptian Archaeology, Vol, V, pp. 153, 154 and note 5 .

(٣٦) A.Erman, Op. Cit., p. 235.

(٣٧) سفر الخروج .

(٣٨) A.Erman, Op. Cit., pp. 44ff.

(٣٩) W.Spiegelberg, Aegypologisches Randglossar zum Alten Testament (Strassburg, 1904), pp. 19ff .

(٤٠) كما يظهر من مدلول الكلمة فى K.Sethe, Die altägyptischen Pyramidentexte, § 1180 الدولة القديمة حوالى ٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م. انظر : Hayes, Loc. Cit. .

(٤١) A. Erman, Op. Cit., p. 45.

(٤٢) A.Erman المرجع السابق .

(٤٣) A.M. Blackman, Journal of Egyptian Archaeology, Vol. iii, pp. 243ff.

(٤٤) Ibid., p. 204.

(٤٥) A.M. Blackman, Luxor and its Temples, pp. 168ff.

(٤٦) A. Erman, Op.Cit., p. 45.

(٤٧) F.L1. Griffith, Stories of the High Priest of Aemphis (Oxford,1900), p. 19.

(٤٨) A.Erman, Op. Cit., p. 46.

(٤٩) A.Erman, ibid., pp. 158ff; Herodotus, ii, 123; W. Spiegelberg, The Credibility of Herdotus' Acount of Egypt , p. 32 .

(٥٠) A.M. Blackman, Luxor and its Temples, p. 165.

(٥١) A.M.Blackman, The Rock Tombs of Meir, Part I (London, 1914), Plx. XI; Part IV (London, 1924), P. 27; P. Montet, Les Scénes de la vie Privée dans les tombeaux égyptiens d l'ancientempire (Strassburg, 1925), p. 165 .

(٥٢) K. Sethe, Die altägyptischen Pymaidentexte, Spruch 518.

(٥٣) W.S. Blackman, Man, Vol. XXV, pp. 65ff.

(٥٤) ii, 65.

(٥٥) انظر : Herodotus, ii, 36f., 104; G.Elliot Smith and Warner R.Dawson, Egyptian Mummies, p. 93; A.M.Blackman, " Priest, Priesthood (Egyptian)" in Hasting, Op. Cit., Vol. X, pp. 299f .

(٥٦) J. Capart, Une Rue de tombeaux, Plx, LXVI.

(٥٧) A.Erman and H. Ranke, Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum, p. 180.

(٥٨) F.Lexa, La Magie dans l'Egypte Antique (Paris, 1925), Vol. ii, pp. 139ff.

(٥٩) G. Möller, Zwei ägyptische Eheverträge aus vorsaïtische Zeit (Berlin, 1918).

(٦٠) انظر : F.L1. Griffith, Catalogue of the Demotic Papyri is the John Rylands Library (Manchester, 1909), Vol. iii, pp. 114ff., 139ff.

(٦١) H.Junker, papyrus Lonsdorfer (Vienna, 1921).

(٦٢) لقب غير معروف .

(٦٣) إما حصن بناه نكتانيبوس أو حى من المدينة أنشأه هو .

(٦٤) انظر : F.L1. Griffith, op. cit. 114, note 8

(٦٥) يعنى هذا أن الزوجة لها مطلق الحق فى ملكية ما أحضرته معها .

(٦٦) F.L1. Griffith, Stories of the High Priests (Oxford, 1900), p. 18.

(٦٧) انظر الهامش رقم ٦ .

(٦٨) Catalogue of the Demotic Papayri in the John Rylands Library Vol. iii, p. 117.

(٦٩) A.M.Blackman, Man, Vol. ix, pp. 9 f.; L. Borchardt, Zeitschrift Für ägyptische Sprache, Vol. xliv, pp. 75f.; A.Erman, Zeitschrift fur ägyptische sprache, Vol. xiv, p. 92 .

(٧٠) انظر : A.M. Blackman, Recueil de travaux relatifs à la philologie et l'archéologie égyptiennes, Vol. xl, pp. 57-66, 86-91; Journal of Egyptian Archaeology, Vol. v, pp. 117 ff., 157ff.

(٧١) J. Capart. Une rue de tombeaux, Pls. LXXX f.

(٧٢) انظر : W. Spiegelberg, The credibility of Herodotus' Account of Egypt, Fig. 5 on p. 33; W. Wreszinski, Atlas zur altaegyptischen Kulturgeshichte, pls. 120, 166, 1677, 209, 210; Norman de Garis Davies, The Tomb of Two Sculptors at thebes (New York, 1925), p;s. XIX ff. (Pl. XXI shows a Woman placing mud or dust on her head); Nina de Garis Davies and A. H. Gardiner. The Tomb of Amenenhët (London, 1915), Pl.XXIV; G. Roeder, Die Denkmäler des Pelizaeus Museums zu Hildesheim (Berlin, 1921), pp. 111 f.

(٧٣) Nina de Garis Davies and A.H. Gardiner, Ibid., bottom register, left.

(٧٤) ii, 85.

(٧٥) Norman de Caris Davies, The Tomb of Antefoker (London, 1920), Pl. XXIII .

(٧٦) A.Erman and H. Ranke, Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum, p. 365, Fig. 164 .

(٧٧) J.G. Wilkinson, The Ancient Egyptians (London, 1878), vol. iii, Pl. LXIX.

(٧٨) A.Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, p. 24; A.M.Blackman, Journal of Egyptian Archaeology Vol. X, p. 199

(٧٩) انظر كذلك : pp. 121 f .

(٨٠) A.M. Blackman, Luxor and its Temples, p. 25.

(٨١) E,G,, W.M.F. Petrie. Tarkhan (London, 1914) Part II, Pl.XV; D. Randall-MacIver and C.L. Woolley, Buhen (Philadelphia, 1911), Pls. 77-82

(٨٢) D. Randall-Manclver and C.L. Woolley, op. cit., Pl. 84; H. Schaefer and W. Andrae, Die Kunst des alten Orients, p. 266, Fig. 2.

(٨٣) A.H. Gardiner, Proccedings of the Society of Biblical Archaology, vol. xxxvii, p.258 .

(٨٤) E. Naville, Das aegyptische Todtenbuch der XVIII bis XX Dynastie, vol. i (Berlin, 1886), Pl. CIV; S. Birch, Transactions of the Society of Biblical Archaology, vol. viii; pp. 386ff.

(٨٥) Nina de Garis Davies and A.H. Gradiner, The Tomb of Amenembet, p. 85.

(٨٦) A.M. Blackman, Journal of Egyptian archaeology, vol. iii, p. 32.

(٨٧) C.R. Lepsius, Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien (Berlin, 1849-58), vol. ii, Pl.5.

(٨٨) A.M. Blackman , loc. cit.

(٨٩) المرجع السابق .

(٩٠) المرجع السابق ، الهامش رقم ٤ والصفحات التالية

(٩١) تستعمل بدون الصفة (عات) عند الإشارة إلى موكب الأبواديت فى الأسرار الأوزيرية . انظر : H. Schäffer, die Mysterien des Osiris in Abydos (Leipzig 1904), p. 21

(٩٢) H.Schäfer المرجع نفسه P.25

(٩٣) المرجع السابق .

(٩٤) J.H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt (London, 1912). p. 259 ff.; G.A. Reisner, Journal of Egyptian Archaeology, vol. v, p. 92.

يقول الدكتور رينزر فى حديثه عن جرار الجعه وأرغفة الخبز واللحم المحمر المقدمة لتمثال جيفايحاب فى احتفال العام الجديد العظيم : « كل هذه القرابين وزعت على الفقراء، أو الكتبة عندما جاءوا لتلاوة صيغة القرابين أمام التمثال . وفى العصر الحديث يقرأ المقرىء أو يتلو سورة من القرآن ويكررها مرات ومرات حسب ما يتلقاه » .

(٩٥) انظر : A.M. Blackman, Rock Tombs of Meir (London, 1924), Part IV, p. 22

(٩٦) A.M. Blackman, Zeitschrift für ägyptische Sprache, vol. 1, pp. 69 ff.

(٩٧) انظر : ; A. Erman, Handbook of Egyptian Religion (London, 1907), pp. 106 ff.; See, too, F.L1. Griffith, Stories of the High Priests, pp. 15, 38 .

(٩٨) انظر أيضاً : P.E. Newberry, Beni Hasan, Part II, Pl. 7.

(٩٩) W. Wreszinski, Atlas zur altaegyptischen Kulturgeschichte, Pls. 60a, 63; A. Wiedemann, Das alte Agypten, p. 173, Fig. 31; Erman and Rank, op. cit., p. 520 .

(١٠٠) W.Wreszinski, Bericht über die Photograph . Expedition (Halle a . S., 1927), Pl. 13, B.

(١٠١) See, T.E. Peet and C.L. Woolley, The City of Akhenaten, Part I, p. 64.

(١٠٢) ii, 36.

(١٠٣) راجع ص ٢٨٢ والشكلين ١٤ و ٣٨ .

(١٠٤) انظر : W.M.F. Petrie, Tarkhan, Part I, Pl. X, 1.

(١٠٥) T.E. Peet and C.L. Woolley, Op. Cit., Pl. XXII, 3.

(١٠٦) P.E. Newberry, El-Bersheh (London, 1893), Part I, Pl. XXII.

(١٠٧) W.E. Quibell, Excavations at Saqqara, 1911-12: The Tomb of Hesy (Cairo, 1913), P. 29 and Pl. XIX .

(١٠٨) W.M.F. Petrie, Deshasheh (London, 1898), p. 33 and Pl. XXXIV.

(١٠٩) L.Klebs, Reliefs und Malereien des Mittleren Reichs, pp. 126 ff.; See also H.E.Winlock, " Heddle-Jacks of Looms" in Ancient Egypt (1922), pp. 71ff .

(١١٠) L.Klebs, Op.Cit., p. 126.

(١١١) T.E. Peet and C.L. Woolley, The City of Akhenaten, Part I, p. 64.

(١١٢) A.Erman and H.Ranke, op. cit., pp. 508 f.

(١١٣) e.g., P.E. Newberry, El-Bersheh, Part I , Pl. XXXVI.

(١١٤) Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft zu Berlin, vol. I, p. 17 ، للاطلاع على صورة فوتوغرافية لقطة أرض مقسمة بهذه الطريقة ، انظر : G.Steindorff, Die Blütezeit des Pharaonenreichs (Leipzig, 1926), Fig.54 .

(١١٥) F.Ll. Griffith, Journal of Egyptian Archaeology, vol. xii, p. 204 .

(١١٦) A.Erman and H. Ranke, op. Cit., Pl. 35; A. Erman, Life in Ancient Egypt, Translated by H.M. Tirard (London, 1894), p. 426; J.G. Wilkinson, The Ancient Egyptians vol. i, p. 281; L.Borchardt, Priestergräber... vom Totentempel des Ne-uuser-re (Leip 210,1902), pp. 165 ff .

(١١٧) W.M.F. Petrie, Tarkhan, Part I, Pl. X, 6.

(١١٨) W.S. Blackman, Journal of Egyptian Archaeology, vol. viii, pp. 235 ff. and Pls. XXVI-XXIX.

(١١٩) J. Capart, La mise à mort du dieu en Égypte (Paris, 1927).

(١٢٠) G.A. Reisner, Journal of Egyptians, Archaeology, vol. v, p. 83; J.H. Breasted, and H. Ranke, op. cit., p. 520 .

(١٢١) انظر كذلك : J.G. Wilkinson, The Ancient Egyptians, vol , i, pp. 348, 385; A. Erman and H. Rank, op. Cit., p. 520.

(١٢٢) W.Wreszinski, Atlas zur altaegyptischen Kulturgeschichte, Pls. 189,194.

(١٢٣) A. Erman and H.Ranke, op. Cit., p. 591; T.E. Peet, Annlas of Archaology and Anthropology, vol. vii, p. 82 .

(١٢٤) انظر : A.H. Gradiner, Egyptian Grammar (Oxford, 1927), pp. 515 f .

(١٢٥) W.M.F. Petrie, Kahun, Gurob, and Hawara (London, 1890), p. 29; Illahun, Kahun, and Gurob (London, 1891), pp. 53ff.

(١٢٦) PP. 409ff.; a. Erman, Life in Ancient Egypt, pp. 357 ff.

(١٢٧) المصدر نفسه P.359 . A. Erman

(١٢٨) راجع المصدر نفسه P.356 .

(١٢٩) A.Erman and H.Ranke المصدر نفسه P.408; A.Erman, zaubersprümutter und kind (Berlin, 1901), pp. 30, 32, 35, etc., and The Literature of the Ancient Egyptians, p. 218 and note 6 .

(١٣٠) ١٦٥٠ - ١٥٧٠ ق.م انظر : Hayes, Loc. Cit

(١٣١) A.Erman, Zaubersprüche für Mutter und KInd, pp. 11f.

(١٣٢) ii, 84.

(١٣٣) Proccedings of the Society of Biblical Archaeology, vol. xxxix (1917), pp. 31ff.

(١٣٤) المرجع السابق p. 33 .

(١٣٥) A.M. Blackman, " Purification (Egyptian)", in Hastings, op. cit., vol. x, p. 482.

(١٣٦) G.Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt (London, 1915), pp. 172ff.; J.H. Breasted, Ancient Records, vol. iii,pp. 188ff.

(١٣٧) J.H. Breasted, op. cit., § 444.

(١٣٨) راجع : A.M. Blackman, " Purification (Egyptian)", in Hastings, op. cit., vol. x, p. 482 .

(١٣٩) A.M. Blackman, " Worship (Egyptian)", in Hastings, op. cit., vol. xii, p. 778.

(١٤٠) A.M.Blackman, The Temple of Derr (Cairo, 1913), Pl. LXIV, left.

(١٤١) W.M.F. Petrie, Tell Amarna (LOndon, 1804), Pl. V.

(١٤٢) F.Ll. Griffith and H. Thompson, The Demotic Magical Papyrus of London and Leiden (London, 1904), pp. 37 ff.

(١٤٣) انظر : A.M.Blackman, The Rock Tombs of Meir, Part I, Pl.X; Part II, Pl. X, p. 20; Part III, Pls. XXI ff., pp. 29 ff .

F.Ll. Griffith, Stories of the High Priests, pp. 55 ff.

A.Erman and H. Ranke, op. cit., p. 407; See also G.H. Breasted, Ancient (١٤٤)
Records, vol. iv, p. 209, ^^ 454 f.; A History of Egypt (London, 1906), p. 498. (١٤٥)

Proceeding of The Society of Biblical Archaeology, vol. xxxviii, p. 128; A. Er- (١٤٦)
man, The Literature of the Ancient Egyptians, p. 306 .

J.H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, p. 26; K. (١٤٧)
sethe, Die altägyptischen Pyramidentexte, ^^ 1266 f.

W.von Bissing and H. Kees, Das Re-Heiligtum des Konigs Ne-woser-re, vol. ii(١٤٨)
(Leipzig, 1923), Pl. I, Fig. 2 .

ii, 90.

(١٤٩)

Vol. xlvi, pp. 132 ff (١٥٠)

Cairo, 1911, pp. 82f (١٥١)

A.Erman, " Ein Denkmal mempgitischer Theologie" , in Sitzungsberichte der (١٥٢)
Königl. Preussischen Akademie der Wissenschaften, vol. xliii, 1911, pp. 926 ff.; J.H.
Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, pp. 25, 41 .

T.E. Peel, Journal of Egypt Archaology, vol. xi, pp. 228 f.

(١٥٣)

S. Sharpe, Egyptin Inscrptions from The Britisth Musem and Other Sources (١٥٤)
(London , 1837-55), Part II, p. 78.

H. Brugsch, Hieroglyphisch-Demotisches Wöterbuch (Leipzig, 1867-80), p. (١٥٥)
295; Thesaurus Inscriptionum AEgyptiacarum (Leibzig, 1883-91), p. 1144; J.Duemichen,
Altaegyptishe Kalenderinschriften (Leipzig, 1866(, Pl. XXVI.

A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, p. xxix; W. Spieglberg, The (١٥٦)
Credibility of Herrodotus' Account of Egypt, pp. 30 f.

i, 130 f.

(١٥٧)

The Credibilitiy of Herodotus' account of Egypt, p. 15(١٥٨)



وينيفرد بلاكمان

الناس فى صعيد مصر

ترجمة : أحمد محمود





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES